

المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

جامعة القاهرة

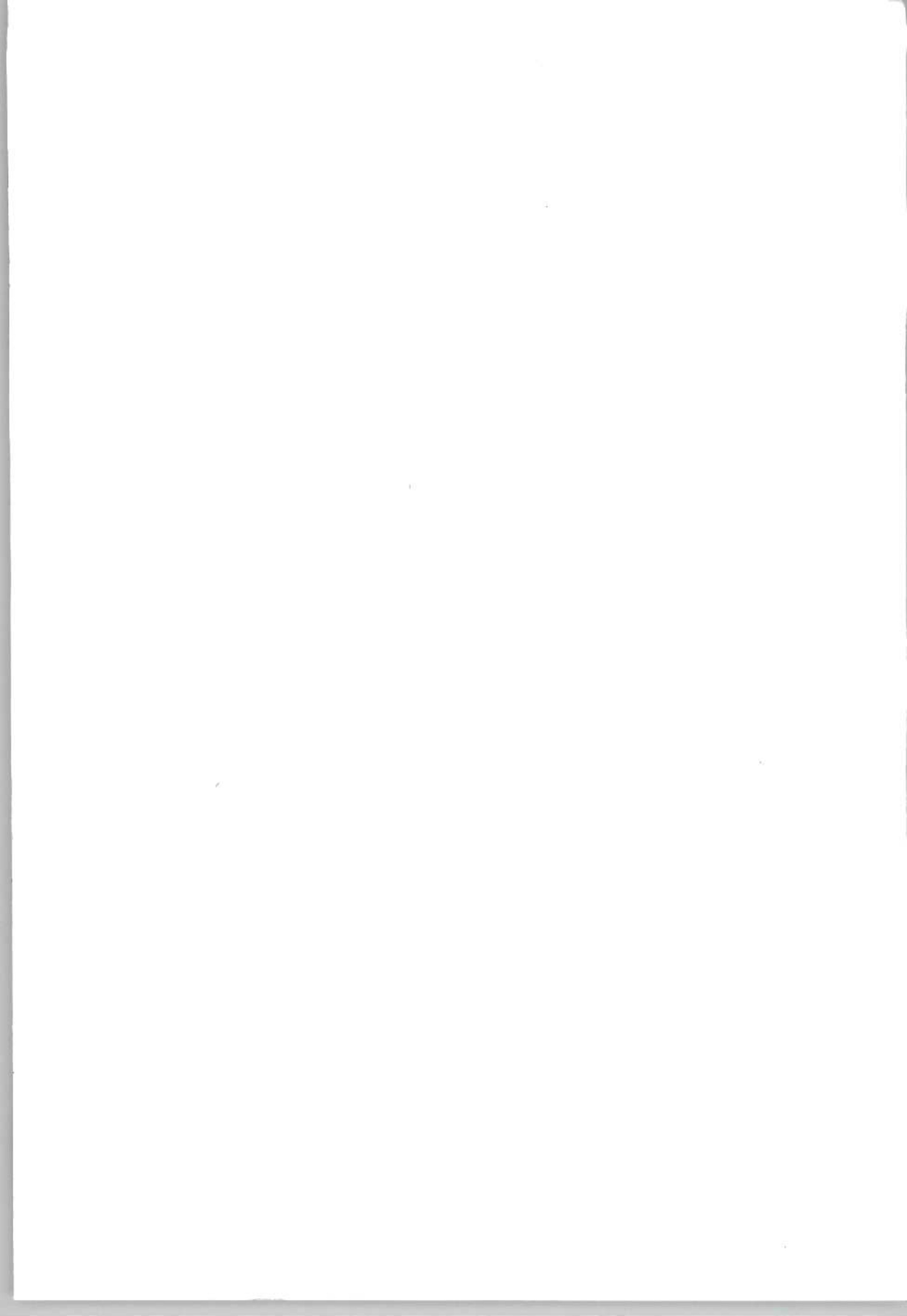
(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)



يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الواحد والأربعون يوليو ٢٠١٢






المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الواحد والأربعون

يوليو ٢٠١٢

هيئة التحرير

المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم أ.د. محمد عفيفى رئيس التحرير على العنوان التالى : (قسم التاريخ) كلية الآداب – جامعة القاهرة – بريد الأورمان – الجيزة.

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof. Mohamed Afify, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

قواعد النشر

- ترحب مجلة المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش فى نهاية البحث.
- المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أياً كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر في المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

المراسلات : **ترسل البحوث والمقالات باسم أ.د. محمد عفيفى رئيس التحرير على العنوان التالى :** (قسم التاريخ) **كلية الآداب – جامعة القاهرة – بريد الأورمان – الجيزة.**

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof. Mohamed Afify, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

محتويات العدد

بحوث فى التاريخ الإسلامى

بحوث فى التاريخ الحديث

بحوث متنوعة

عروض الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

يسعدنى أن أقدم للقارئ العربى الكريم هذا العدد الجديد من مجلة "المؤرخ المصرى"، هذه الدورية العلمية المحكمة التى لعبت دوراً هاماً فى إثراء حركة البحث التاريخى فى عالمنا العربى طيلة الربع قرن الماضى.

والمرء الآن فى خضم لحظة عصيبة تمر بها أمتنا العربية خطوة نحو الديمقراطية والمستقبل، نرى أنه لا عودة للوراء وأن حركة التاريخ هى حركة للإمام، إذ علمنا التاريخ دائما أن البقاء لمن يعمل للأوطان، وليس لجماعة أو عشيرة.

وفقنا الله جميعاً لخدمة البحث العلمى ورقى وطننا العربى الكبير.

والله ولى التوفيق

رئيس تحرير المؤرخ

ورئيس قسم التاريخ

أ.د. محمد عفيفى



القابلة في مصر في العصرين البطلمي والروماني[1]

د. كمال صلاح عبد الرحمن أحمد
مدرس التاريخ اليوناني الروماني
كلية الآداب جامعة أسيوط

ترتكز الدراسة علي مهنة القابلة في مصر في العصرين اليوناني والروماني حتى ٣٢٦ م ([٢])، ورغم قلة المصادر التي تتحدث عن القابلات في مصر- حيث لم يرد المصطلح بشكل مباشر في البردي إلا ثلاث مرات فقط - نحاول أن نلقي الضوء على تلك المهنة، في ضوء ما توفر لدينا من وثائق ،وما توفر من رسومات ونقوش علي جدران المعابد، خاصة في الفترة البطلمية ،وأن نتعرف علي أنواع القابلات و مؤهلاتها الشخصية، ومهامها، وأن نتعرف كذلك علي أجرتها في ضوء بعض عقود الزواج، بالإضافة إلي أماكن الولادة .

التمهيد (أنواع القابلات):

تعد مهنة القابلة من أقدم المهن في تاريخ البشرية، والقابلة اسم استخدم للدلالة علي من قام بتوليد المرأة ورعايتها صحياً، وقد ورد بعدة مصطلحات([٣])، ما يخصنا في مصر مصطلحين فقط : المصطلح الأول :μαία ويعني القابلة ، قد ورد ذكره في المصادر الأدبية([٤]) وفي البردي ([٥]).

المصطلح الثاني :ἡ ἰατρίνη ويعني الطبيبة التي تقوم بالتوليد، وقد ورد المصطلح في المصادر الأدبية([٦]) كما ورد المصطلح مرة واحدة في البردي في الوثيقة :P.Oxy.XII.1586(III AD)

المؤهلات الشخصية للقابلة

هناك بعض الخصائص المطلوبة في "القابلة " الجيدة، كما وصفها الطبيب سورانوس[٧] (٩٨-١٣٨م) ، يجب أن تكون متعلمة، وذكية، تمتلك ذاكرة جيدة ،محبة للعمل، محترمة ، وغير فاقدة – بشكل عام – لأي حاسة من الحواس (أي البصر والشم والسمع)، ذي أطراف سليمة وقوية،و يجب أن يكن ذي أصابع نحيلة طويلة وقصيرة الأظافر، وأن تكون القابلة عطوفة (و ليست بالضرورة أن تكون قد حملت من قبل)، وأن تبقي يدها ناعمة لراحة كل من الأم والطفل[٨] .

مكان الولادة :

في العصر البطلمي سمح لنساء الطبقات العليا بالولادة في بيت الولادة(ماميسي Mammisi) والمخصص داخل المعابد حيث تزين جدرانه بصور بيس الرب الراعي للنساء الحوامل، و حتحور رب الشفاء [٩]، وقد دللت دعوات ولائم الولادة المقامة في المعابد علي مكان الولادة ايضا[١٠]، ومنها الوثيقة [١١]التي تعود للقرن الثاني أو الثالث الميلادي في أوكسيرينخوس، وهي عبارة عن دعوة لحضور وليمة، مرسلة من قبل نيكيفوروس في ضريح سارباس (مكان الولادة) في الثالث والعشرين، الساعة التاسعة (س س١-٤):
ε)ρωτα=? σε Νικηφο/ροφ δειπνη=σαι ει)φ κλι/νηνl του= κυ
، ρι/ου Σαρα/πιδοφ ε)ν τω=? λοξι/ω? τη=? 23 α)φэ ω(/ραφ 9
فيما سمح للأخريات بالولادة في منزل القابلة أو منزلهن[١٢].

مهام القابلة

التوليد

من أساسيات واجبات القابلات في العصور القديمة المساعدة في عملية الولادة، وقد تلجأ القابلة في كثير من الأحيان لاستدعاء المساعدة من الطبيب عندما يتوقع ولادة أكثر صعوبة[١٣]، كما تحضر القابلة في كثير من الحالات اثنين أو

ثلاثة مساعدات أثناء الولادة([١٤])، بالإضافة إلي الدعم المقدم من الأهل والأصدقاء ، ويدلل علي ذلك بردية BGU.I.261 ترجع للعام ١٠٥ م ، من أرسينوي نجد فيها ثيرموثاس و فاليريا تؤجلان الرحلة حتي تضع هيريوس مولودها LL.3-5 γιγνω/σκειν σε θε/λω ε)γω.∴ και∴ Ου)αλερι/α, ε)α.∴ν (Ηροι φ∴.?τε/κη، كما ورد هذا الدعم في خطاب من أرشيف أبوللونيوس الاستراتيجوس، حيث كتبت الخادمة تيوس لسيدها أنها تصلي للآلهة نيابة عنه أن ترزقه بمولود ذكر([١٥])، وتعلن عن رغبتها في الانتقال من هيرموبوليس إلي هبيتاكوميا كي تبقي إلي جوار زوجته حتي تضع مولودها([١٦])، وفي خطاب SB.V.7572 من سيدة حامل إلي أمها، يرجع للقرن الثاني الميلادي ،من فيلادلفيا ،تذكر فيه ثيرموثاس الحامل في الشهر السابع LL.8-9 ..και∴ ε(πτα/μηνον η(μι=ν α)/ρτι أنها تحتاج خادمتها روديني التي كانت قد أرسلتها في عمل يدوي خارج المنزل: LL:18-20 : (Ροδι/νη. βε/βληκα αυ)τη.∴ν ει)φ τη.∴ν τε/ξν[η]ν: αυ)= ξρη/ ?ζω αυ)τη=φ, α)λλα∴ η(δε/ω ε)/ξω ، ولم يتضح في النص إلي أي مدي تبعد عن أهلها، ولكن من الخطاب نعرف أن والدها قد زارها وسقط مريضا، أما زوجها التي تعبر له عن مشاعرها، كان في فيلادلفيا مع أمه .

وقد لا تستطيع الأم حضور ولادة ابنتها لبعدها عن مكان إقامتها ،ولكن يظل الاهتمام بالأمر كبير ،ويتضح من خطاب SB.XVI.12606 يرجع للقرن الثالث الميلادي ،من أوكسيرنخوس من زوليوس إلي أمه ثيودورا ،حيث أخبرها بأن أخته مريضة بوسواس الخوف ،وأنه يتوقع أن تضع مولودها اليوم ،عن سبعة أشهر من الحمل ،وأنها إذا وضعت بنجاح فانه سوف يوافيها بالأخبار: LL.5-9 δε∴ η(α)δελφη∴.? δεινω=φ α)σθενει= και∴ ε)λπι/ζω ο(/τι τ ε/χεται ση/μερον ε(πταμηνι?α?ι=ον. ε)α.∴ν ου)=ν ε)πэ α)γα .θω=? α)?π?α?λλαγη=? δηλω/σω [φ]οι το∴ συνβεβηκ?ο/?φ

كما تحضر القابلات كرسي([١٧]) إلى المكان الذي سيتم فيه الولادة ،وعلى قاعدة هذا الكرسي حفرة على شكل هلال ،من خلاها سيتم ولادة الطفل ، كما كان

كرسي الولادة به سنادات للذراع يمكن للأم الإمساك بها أثناء الـولادة ، أو بـدون سنادات،وتجلس القابلة في مواجهة الأم، تشجعها وتدعمها أثناء الولادة، وربما تقدم تعليمات خاصة بالتنفس،كما كانت القابلة تضع إناءاً من الماء الساخن أسف كرسي الوضع ،بحيث يسهل البخار الصاعد منه عملية الوضع([١٨])، بينما قد تكون وظيفة المساعدات الدفع لأسفل بالضغط على الجزء العلوي من بطـن الأم([١٩])، وأخيـرا، تستقبل القابلة الرضيع، وتضعه في قطعة من القماش، وتقطـع الحبـل الـسري، وتطهر الطفل، ويرش الطفل بـ"مسحوق الملح لامتصاص رواسب الولادة([٢٠])، ثم تشطف، ويرش ويشطف ثانية، وبعد ذلك تمسح القابلات جميع المخاط الخارج من الأنف والفم والأذنين، أو فتحة الشرج، وحث سورانوس القابلات على وضع زيت الزيتون في عيني الطفل لتطهيرها من أي مخلفات الولادة، ووضـع قطعـة مـن الصوف المنقوع في زيت الزيتون على الحبل السري([٢١])، بعد الولادة تقوم القابلة بالإعلان الأول حول ما إذا كان الرضيع يتمتع بصحة جيدة، وتـتفحص الرضـيع بحثا عن التشوهات الخلقية، وفي نهاية المطاف تقرر القابلات فرص الرضيع فـي البقاء على قيد الحياة، وهل مـن المـرجح تعرضـه لأي تـشوهات أو أمـراض شديدة([٢٢]).

كتابة التقارير الطبية

حيث لدينا وثيقة P.Oxy.LI.3620 مؤرخة في ٣٢٦م ،وهي عبـارة عـن شكوى([٢٣]) تقدم بها أوريليوس ثونيس من البهنسا إلي νυκτοστρατήγοις رئيس العسس الليلي، أشار فيه إلي تعرض زوجته للضرب والسرقة علي يد امرأة وأمتها، ويطلب من موظفي الشرطة إرسال قابلة كي تفحص حالتها وتكتب تقريرا بـذلك، حتي يكون معه دليل موثق إذا ما رغب في رفع دعـوي أمـام محكمـة الـوالي تيبريوس فلافيوس لايتوس:

LL.17-24

–ἀξι[ῶν μαῖαν ἐπιστα

λεῖσαν ὑφ... ὑμῶν ἀπαντῆσαι καὶ σημειώσασθαι τὴν

<διάθεσιν αὐτῆς καὶ ἐνγράφως προσφωνῆσαι την <καὶ

τῆς προσφωνήσεως γεγενημένης καὶ γνωσθέντος

–τοῦ ἀτοπήματος ἐγ'γύας αὐτὰς παρασχέσθαι ἵν εἰ συμβαί

η τι τῇ συμβίῳ μου ἡ δέουσα ἐκδικία γένηται παρὰ

τῷ ἀχράντῳ δικαστηρίῳ τοῦ κυρίου μου διασημοτάτου

.ἐπάρχου τῆς Αἰγύπτου Τιβερίου Φλαυΐου Λαίτου

وما يلفت انتباهنا في الوثيقة أن زوج المعتدي عليها طلب ([٢٤]) القابلة لفحص حالتها الصحية وكتابة التقرير الطبي ، ولم يطلب ἡ ἰατρίνη([٢٥]) ، والتي جاء ذكرها في الوثيقة P.Oxy.XII.1586,l.12والمؤرخة في ٢٧٠-٢٧٥ م ، وهي عبارة عن خطاب شذري من هاربوكراتيون إلي أخته ، يطلب منها أن تعطي القابلة ἡ ἰατρίνη عنوانه ، بما يشير لنا أن القابلة μαι=α متدربة بالدرجة التي تسمح لها بكتابة تقرير طبي عن الحالة الصحية للمعتدي عليها ، أو علي أقل تقدير هناك نوعين من القابلات نوع متعلمة ومتدربة كتلك التي ورد بالوثيقة ، وأخري تمارس المهنة بالخبرة (لا يشترط أن تكون متعلمة) ، وأخيرا الطبية المتخصصة في شئون النساء والتوليد أو ما يطلق عليها ἡ ἰατρίνη ،

فحص وملاحظة الحوامل

ونستدل علي ذلك من خلال الوثيقة P.Gen.II.103 وهي عبارة عن التماس يرجع للعام ١٤٧م ،تقدمت به أرملة تدعي بترونيلا وهي مواطنة رومانية ،من الفيوم ،إلي اليورديكس ،تطلب فيه تعين وصي علي ابنها الذي سوف تضعه من زوجها المتوفي هيرينوس فالينس ،وقد ذهب إلي القابلة بناءا علي توصية اليورديكس، و قد تم فحصها من قبل القابلة التي أكدت بالفعل أنها في فترة الحمل، ولما كانت بترونيلا غير قادرة علي الوضع في بيت القابلة (بناءا علي طلب القابلة)،فقد وعدتها القابلة بأن تضعها تحت الملاحظة حتي تضع مولودها .

Col.II,LL.2-8

.πρὸς ἥ[ν] ἐκέλευσάς με γενέσθαι

διεπέμψατό σοι καταμεμαθηχέναι

με σὺν μαίαι καὶ ἐγνωκέναι κατὰ γαστρὸς

–ἔχουσαν, μὴ δύνασθαι δὲ παρ□ αὐτῇ ἀπο

–κυ]ῆσαί με, ὑπεσχῆσθαι δὲ αὐτὴν ἐπο]

–πτεῦσαί μ<ε> εἰ συνέχω ἕως ἅπαντα τὰ κατ ἐ

μὲ πεπλη[ρ]ῶσθαι, καὶ μηδὲν παρ□ ἐμὴν

.αἰτίαν γεγονέναι, ἵν ὦ εὐεργετημένη

أجرة القابلة

لحسن الحظ فقد اشتملت القوانين وعقود الزواج علي بند يسمح لنا بالاطلاع علي مصاريف ونفقات الولادة ،حيث جاء في الوثيقة P.Fay.22 التي ترجع للقرن الأول الميلادي ،ولكن بها نسخة(مشهوة) من قوانين كان قد أصدرها أحد الملوك البطالمة تتعلق بالزواج والطلاق جاءت علي وجه هذه البردية ،فقد نصت علي أنه في حالة الطلاق وجب علي الزوج إرجاع المهر للزوجة، و في حال فشله في إرجاع المهر تعرض لعقوبات ،كما نصت علي أنه في حالة الطلاق وكانت الزوجة حاملا ،فإنه ملزم بالنفقة الكاملة لها ولطفلها (٢٦).

LL.21-29

[–?.ὁ ἀνὴρ ἀποπέμπηι περιμεν[-ca

[–κατὰ τὰ γενάμενα τρεφέτ[ω -ca.?- τὴν γυ

[–?.ναῖκα τὰ ἐπειτήδεια παρέχω[ν -ca

[--τῇ μητρὶ παρέχειν ἀναλισκέτω [-ca.?- τὸ παι

[–?.δίον ἐπειδὰν γένηται ἅπερ τι[-ca

[–?.ταιδιω \παρέχειν/ τὰ ἐ[πι]τήδια τῇ μητρὶ . [-ca

[–?.δως ἐὰν τὸ παιδίον κυμήσητα[ι -ca

[–?.ὅτε ἐὰν βούληται, τῇ δὲ γυναι[κὶ -ca

كما استمر هذا الشرط في العصر الروماني ،حيث نجد في الوثيقة(٢٧) BGU.IV.1104 والمؤرخة في العام الثامن ق م ،عقد جاء فيه أن سيدة تدعي دوانوسرايوس ،مواطنة سكندرية ،توفي عنها زوجها وتركها حاملا ،وتعترف فيه بأنها تسلمت كافة مستحقاتها المالية(المهر) ،وأنها لن تقوم لا هي ولا من ينوب عنها رفع أي دعوى قضائية تتعلق بالمهر أو بزواجها أو أي شئ أخر بصفة عامة ،مكتوب أو غير مكتوب من الآن فصاعداً .

وعلي الرغم من كون دوانوساريوس حامل فإنها تقر بأنها لن ترفع دعوي قضائية للمطالبة بمصاريف الولادة ،مقابل أن تحتفظ بحقها في التخلص من الوليد(٢٨) βρε/φοφ (٢٩)كي تهيئ نفسها للارتباط برجل أخر إن رغبت:

LL.21-25

,ἐπεὶ δὲ καὶ ἔνκυος καθέστηκεν ἡ Διονυσάριον

μὴ ἐπελεύσεσθαι αὐτὴν μηδὲ περὶ λ[οχ]είων διὰ τοῦ ὑπὲρ

–τούτων εὐπειθῆ γεγονέναι καὶ ἐξεῖναι αὐτῇ μης. . . . . . ἐαυ

[τῆς τὸ βρέφος ἐκτίθεσθαι καὶ συναρμόζεσ[θαι ἄλλῳ

,ἀνδρί

كما نجد في وثيقة أخري P.Mich.inv.92 ترجع للفترة ما بين عامي ٧٣و ٧٤ م ،وهي عبارة عن عقد زواج غير مكتوب (٣٠)جاء علي هيئة إيصال

بقرض قيمته ٣٠٠دراخمة فضية (الدوطة) ،بين الزوج وهو فارسي من طبقة السلالة و الزوجة وهي مصرية ومعها الوصي عليها، حيث نص علي أن الإيصال (المهر) مستحق للدفع في خلال ثلاثة أيام من طلب الزوجة ، كما نص أيضاً علي أنه في حالة الانفصال وكانت الزوجة حامل ، فإنه ملزم بدفع ١٠٠دراخمة فضية مصاريف الولادة بالإضافة إلي أصل رأس المال سالف الذكر .

وتكرر نفس الشرط في عقد زواج ([31])من أوكسيرنخوس P.Oxy.X.1273،يرجع للعام ٢٠٦م ،ونص علي أنه في حالة الانفصال وكانت الزوجة حاملا وجب عليه دفع ٤٠ دراخمة كمصاريف للولادة :

LL.38-39

ἐὰ]ν [δὲ] καὶ ἐπὶ τῆς ἀπαλλαγῆς ἔγκυος ῇ ἡ γαμουμένη,]
δότω αὐτῇ
ὁ γαμῶν εἰς λόγον δαπάνης λοχείας δραχμὰς τεσσαράκοντα

ولا شك أن هذا المبالغ (١٠٠دراخمة في القرن الأول الميلادي، و٤٠ دراخمة في بداية القرن الثالث الميلادي)تشمل رعاية الأم صحياً و مصاريف الولادة (التي تدخل فيها أجرة القابلة)،وعليه لا يمكن تحديد أجرة القابلة علي وجه الدقة لاعتبارات عدة ،منها الوضع الاجتماعي للزوج ، ونوع المولود ذكراً كان أم أنثي ،فهناك خطاب من زوج يدعي هيلاريون يقيم في الإسكندرية لزوجته الحامل "أليس"(مقيمة في أوكسيرينخوس)، يطالبها فيه بالاعتناء بنفسها وجنينها ،ويخبرها: أن عليها أن تحتفظ بالمولد حال كونه ذكراً وأن تتخلص منه حال كونه أنثي([32]):

ἐὰν πολλὰ πολλῶν τέκῃς ἐὰν ῆν ἄρσενον ἄφες, ἐὰν ῆν θήλεα ἔκβαλε.

ولا أعتقد أنه إزاء ظاهرة التخلص من الأطفال(سواء لرغبة المرأة في الزواج أو كون الطفل أنثي حسبما ورد في البحث سابقا ،أو للأوضاع الاقتصادية أو أنه من سفاح) سوف تحصل القابلة أجر مرضي.

النتائج

١- كانت القابلات في مصر متدربات للدرجة التي تسمح لهن بكتابة تقارير طبية

٢- نصت عقود الزواج علي تحمل الزوج مصاريف ونفقات الولادة

٣- سمح للسيدات بالولادة في المعابد أو منازلهن أو منازل القابلات حيث تتــوفر أدواتها

٤- ذكرت القابلة بمصطلحين μαι=α و ἡ ἰατρίνη

٥- لم نستطع معرفة ما إذا كانت تلك المهنة تمارسها حرائر أم إماء أو كلاهما

الهوامش :

(١) قدم عدد من الأعمال عن القابلة في مصر القديمة وبلاد اليونان والرومان منها : S.M. Ashoush & A.M. Fahmy: Motherhood and Childbirth in Pharaonic Egypt,(Ain Shams Journal of Obstetrics and Gynecology) ASJOG 3(2006);Pinch.G., Childbirth and female figurines at Deir el-Medina and el-'Amarna. Orientalia

(2) 52)1983(pp. 405–14;Roth, A. M. and Roehrig. C. H .,Magical bricks and the bricks of birth. JEA 88(2002),pp. 121–39;Robins. G.,Women and children in peril: pregnancy, birth, and infant mortality in ancient Egypt. 5.4 (1994–5),pp. 24–35;Nancy Demand.,Birth, Death, and Motherhood in Classical Greece, JHU Press, 1994; Walker, Charlotte., Mythology and Midwifery: The Midwife in Ancient Greece, Midwifery Matters;95 (2002), p.5;Valerie French.,midwives and maternity care in the roman world,(Helios, New Series 13(2), 1986, pp. 69-84;Donald Todman.,Childbirth in ancient Rome: From traditional folklore to obstetrics,Australian and New Zealand Journal of Obstetrics and Gynaecology,V.47:2 (2007), pp. 82–85

(٣) العام ٣٢٦م هو تاريخ أخر بردية نشرت حتي الأن ذكر فيها مصطلح القابلة بشكل مباشر.

(٤) ومنها

، υ(φαιρε/τρια μαι=α، ∀ι)ατρι/νη، ι)ατρο/–μαια–η

، μαιευ/ομαι ، μαιευ/τρια

(5) Aeschylus, Libation Bearers (ed. Herbert Weir Smyth, Ph.D.) card 42;Apollodorus, Library and Epitome (ed. Sir James George Frazer) book 3, chapter 10, section 1;section 2;Aristophanes, Ecclesiazusae (ed. F.W. Hall and W.M. Geldart) line 915;Euripides, Hippolytus (ed. David Kovacs) line 313;243.,Euripides, Alcestis (ed. David Kovacs) line 394;Flavius Josephus, Antiquitates Judaicae (ed. B. Niese) book 2, section 206;Homeric Hymns (ed. Hugh G. Evelyn-White) card 32;147;174;531;Homer, Odyssey book 2, card 309;361: book 17, card 462:book 19, card 1;455;499:book 20, card 91:book 23, card 1;49;129:Iliad book 4, card 350;Plato, Cratylus, Theaetetus, Sophist, Statesman Theaet., page 149;150;151;Polybius, Histories book 3, chapter 22, section 12

(6) P.Gen.II.103,Col.II.L.3(AD.147); P.Oxy.LI 3620(263AD)

(7) Flavius Josephus, Josephi vita (ed. B. Niese) section 185

(٨) هو طبيب يوناني ولد في اليونان وتعلم الطب في الإسكندرية ومارسه في روما

(9) Soranus,Gyn.1.2.4(Translated with : Tempkin O.: *In Soranus' Gynecology*. Baltimore: The John Hopkins Press, 1956; Shelia Cosinsky, "Cross Cultural Perspectives on Midwifery," in Medical Anthropology, eds. S. Grollig and H. Haley (The Hauge: Mouton, 1976),pp.231-32

(10) S.M. Ashoush & A.M. Fahmy: Motherhood and Childbirth in Pharaonic Egypt,(Ain Shams Journal of Obstetrics and Gynecology) ASJOG 3(2006),p.58; David A.R, The Pyramid Builders of Ancient Egypt: A Modern Investigation of Pharaoh's Workforce Routledge, 1996,p.125

(11) P.Oxy.I.110= Chr.Wilck. 99;P.Oxy.VI. 926=W.Chr. 486=C.Pap. Hengstl 24;1214;1485;2147;14. 1755;36. 2791;2792;52. 3693;62 .4339;P.Fouad 1. 76;O.Medin. Madi 31;P.Coll.Youtie.1.52;P.Fay. 132=W.Chr. 485;P.Köln 1 57=SB X 10496;P.Oslo. 3. 157;523;P.Yale 1 .85;SB .14 .11944;16 .12511;12596;18 .13875;20. 14503

(12) P.Coll.Youtie.I.51

(13) P.Gen.II.103,Col.2,LL.2-4; Jane Rowlandson., Women and Society in Greek and Roman Egypt: A Sourcebook. Cambridge: Cambridge University Press, 1998,p.224 .

(14) Galen, Nat. Fac. 3.3.151;Temkin, Op Cit., p xxxvii; R. Van Teijlingen,George W. Lowis,Peter McCaffery.,Midwifery and the medicalization of childbirth: comparative perspectives(New York: Nova Science Publishers),p.61

(15) Strouhal E ;Life of the Ancient Egyptians,University of Oklahoma Press 1992,p.17

(16) P.Giss.77,LL.6-9: λείαν δέ σ̣[ο\ι/] ε□̣[χ]αρι[στήσω παρ□ π]□̣σ̣ι το[□ς] θ̣εο□ς, □[τι σύ] μ[ε □νδέδυκας] {με}. γένοιτο δ□ [□]μέ σε □π̣□ [□γ]α[θ□ {σε} προσκυ]ν̣[□σα]ι □̣χουσ̣[α □ρ]σένιον

(17) Ibid. LL.9-15:

]κ]α□ [διο- ca. - πα]ρ̣ακλ[η]θ̣είσας [υπ] ρ̣ι[α δι□ Χ. . . . . . πρ□ς] □̣μο□ν̣ι̣ν. δόξαν □̣τι [□γώ ε□]μ[ι □χ]όμ[ενά σου] κα□ ε□̣ [τι] μέλ̣λει[ς μ]οι [δο□ναι προσ . . . .]λ̣[υ]η π̣αρ̣ο̣[ψι]διν η[. . . .]χ̣εια[γα- ca.12 -ους] □̣ν̣τ□ □̣μ̣ο̣□̣ κα□ π̣[έμψον μοι □ □]χ[ε]ις.

; R.S. Bagnall and R. Cribiore: Women's Letters from Ancient Egypt 300BC-AD 800, University of Michigan 2006,p.76

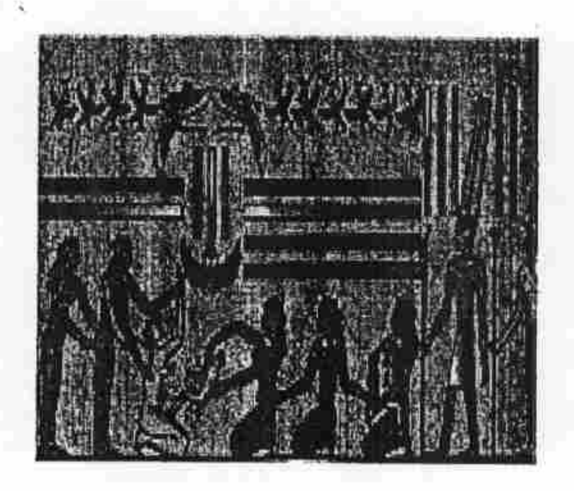
(١٨) الكتاب المقدس :سفر الخروج(١٦:١);Soranus, Gyn. 2.2.2;
W. E. CRUM, 'Bricks as Birth-stool' in JEA 28 (1942),p.69
(19) E Feucht .,"Birth" In D. B. Redford (ed.), The Oxford Encyclopaedia of Ancient Egypt.vol I,the American University in Cairo Press 2001,p.192
(20) Soranus, Gyn.1.1.3-4
(٢١) الكتاب المقدس :سفر حزقيال (٤:١٦);Soranus, Gyn. 2.2;
E. Brunner-Traut, s.v. Hebamme,in the Helck–Otto Lexicon der Ägyptologie (Vol. II, Wiesbaden)1977.1074
(22) E. Brunner-Traut, s.v. Hebamme,p.1075
(23) Soranus, Gyn. 2.2.2.
(24) Lin Foxhall, J. B. Salmon.,When men were men: masculinity, power and identity in classical antiquity,Routledge,1998 p.164; Roger S. Bagnall .,Egypt in Late Antiquity 1996,p.164
(٢٥) ثمة وثيقة متشابهة P.Mich.V.288 لكن زوج المعتدي عليها(التي تعرضت للسقط بسبب الهجوم عليها) طلب أن يقدم المعتدي للمثول أما الوالي لينال عقابه
(٢٦) يعرفها البعض علي أنها طبيبة متخصصة في أمراض النساء والتوليد: Francois P. Retief, Louise Cilliers .,The Healing Hand: The Role of Women in Ancient Medicine, Acta Theologica Supplementum 7 (2005),p.183
(27) P.Fay.22,LL.21-29=M.Chr.291(Theadelphia)
(28) Judith Evans Grubbs .,Women and the law in the Roman Empire: a sourcebook on marriage,Divorce and Widowhood,Routledge2002,p.310; Jane Rowlandson,op cit.,p.372
(29) Ranon Katzoff,David M. Schaps,..,Law in the Documents of the Judaean Desert,Brill Academic Publishers 2005,p.97
(٣٠) المصطلح يعني في الوثيقة التخلص من الطفل حديث الولادة ، فيما يعني في مواضع أخري سقط الجنين (في رحم أمه في مراحل نموه المتخلفة من النطفة – مضغة – علقة) وقد ورد في ٩ وثائق هي:
BGU.IV.1104(8BC);P.Mich.V.228(AD.47);VI.423(AD.197);P.Fay.Tebt. 20(AD.121-122);P.Oxy.VII.1069(AD.201-300);W.Chr.483.(AD.276-300);P.Bodl.I.169(AD.308);P.Cairo.Goodsp.15(AD.362);P.Lond.V.17 12 (AD.569)
(31) P.V.Minnen ,Re-evaluation a Dowry in a Michigan Marriage Loan, BASP 29(1992)pp.172-174;T.Gagos,L.Koenen &B.E.Mcnellen .,A First century archive from Oxyrhynchos or Oxyrhynchite Loan

Contracts and Egyptian Marriage, in Life in a Multi Cultural Society Chicago 1992,pp.181-205

(32) Judith Evans Grubbs., op cit,p.122,

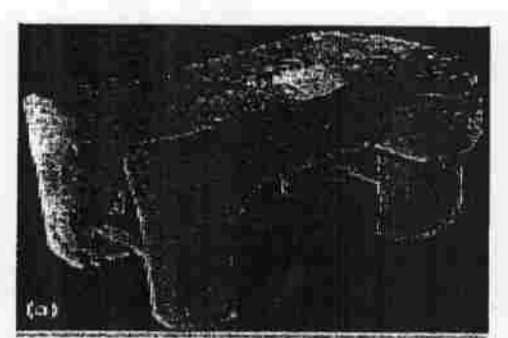
(33) P.Oxy.IV.744(1BC),LL. 8-10; James Hope Moulton, George Milligan.,The vocabulary of the Greek Testament: illustrated from the papyri and other non-literary sources, Eerdmans1949,p.32; Roger S. Bagnall, A. Arthur Schiller, William Vernon Harris.,Studies in Roman law in memory of A. Arthur Schiller,1986,p.162; Henry G. Meecham, Diognetus.,The Epistle to Diognetus the Greek Text with Introduction Translation and Notes(1949) ,p.110.

الملاحق



شكل(١) مشهد ولادة كيلوبترا السابعة لابنها

قيصرون حوالي٤٦ق م



شكل (٢) كرسي ولادة خشبي (المتحف المصري)

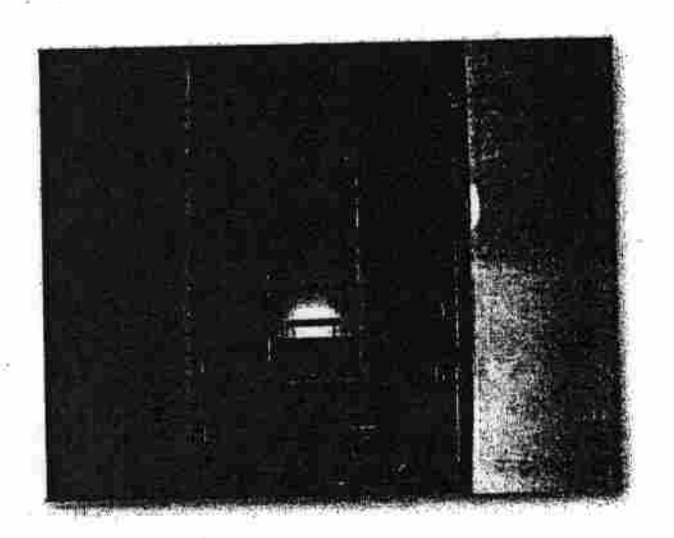
الولادة(من قرية قرنه بالصعيد)الأسرة ١٨حوالي



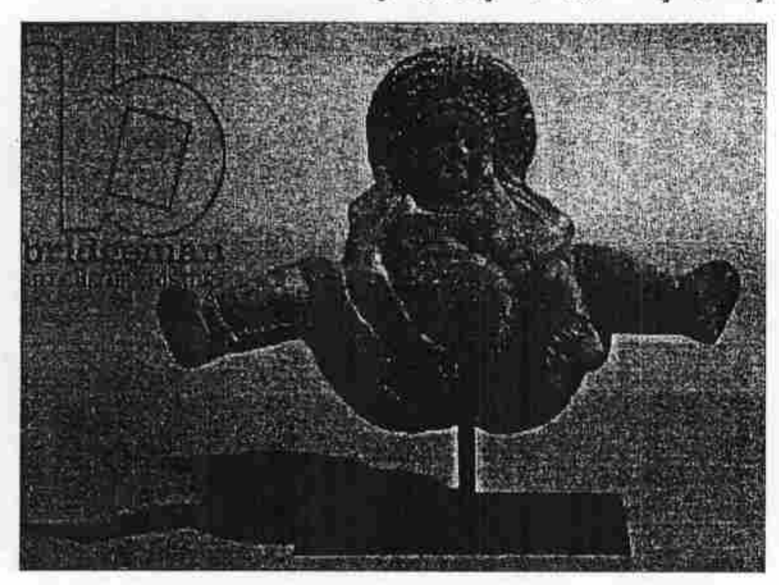
شكل (٣) امرأة تلد علي كرسي ولادة منخفض

في الممر الخارجي

لمعبد سوبك وحورس في كوم امبو (القرن الثالث ق م)



شكل ٤ بيت الولادة في معبد ايزيس في فيلة



شكل ٥ تمثال صغير لامرأة في وضع الولادة من العصر البطلمي

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

John F. Oates and William H. Willis., Checklist of Editions of Greek, Latin, Demotic, and Coptic Papyri, Ostraca and Tablets http://library.duke.edu/rubenstein/scriptorium/papyrus/texts/clist.html

- الكتاب المقدس

ثانياً: المراجع:

Ashoush S.M & A.M. Fahmy: Motherhood and Childbirth in Pharaonic Egypt,(Ain Shams Journal of Obstetrics and Gynecology) ASJOG 3(2006)

Bagnall R S .,Egypt in Late Antiquity, Princeton University Press,1996

R.S. Bagnall and R. Cribiore: Women's Letters from Ancient Egypt

300BC-AD 800, University of Michigan 2006

Bagnall R S, A. Arthur Schiller, William Vernon Harris., Studies in Roman law in memory of A. Arthur Schiller,1986

Cosinsky S, "Cross Cultural Perspectives on Midwifery," in Medical Anthropology, eds. S. Grollig and H. Haley (The Hauge: Mouton, 1976)

Crum W.E , 'Bricks as Birth-stool' in JEA 28 (1942)

David A.R, The Pyramid Builders of Ancient Egypt: A Modern Investigation of Pharaoh's Workforce Routledge, 1996,p.125

Feucht E .,"Birth" In D. B. Redford (ed.), The Oxford Encyclopaedia of Ancient Egypt.vol I,the American University in Cairo Press 2001

Gagos T,L.Koenen &B.E.Mcnellen .,A First century archive from Oxyrhynchos or Oxyrhynchite Loan Contracts and

Egyptian Marriage, in Life in a Multi Cultural Society Chicago 1992.

Grubbs J.E .,Women and the law in the Roman Empire: a sourcebook on marriage, Divorce and Widowhood , Routledge 2002

Helck–Otto Lexicon der Ägyptologie (Vol. II, Wiesbaden)1977

Meecham H.G, Diognetus.,The Epistle to Diognetus the Greek Text with Introduction Translation and Notes(1949).

Katzoff .R; David M. Schaps .,Law in the Documents of the Judaean Desert (Supplements to the Journal for the Study of Judaism(

Minnen P.V,Re-evaluation a Dowry in a Michigan Marriage Loan, BASP 29(1992),pp.172-174

Moulton J H, George Milligan .,The vocabulary of the Greek Testament: illustrated from the papyri and other non-literary sources, Eerdmans1949

Retief F.P, Louise Cilliers .,The Healing Hand: The Role of Women in Ancient Medicine, Acta Theologica Supplementum 7 (2005)

Rowlandson J., Women and Society in Greek and Roman Egypt: A Sourcebook. Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

Salmon.,When men were men: masculinity, power and identity in classical antiquity,Routledge,1998

Strouhal E; Life of the Ancient Egyptians, University of Oklahoma Press 1992

Teijlingen R.V,George W. Lowis,Peter McCaffery.,Midwifery and the medicalization of childbirth: comparative perspectives (New York: Nova Science Publishers)

Tempkin O., In Soranus' Gynecology. Baltimore: The John Hopkins Press, 1956.

(الفارماكون) في مصر زمن البطالمة والرومان

دكتور/ كمال صلاح عبد الرحمن
مدرس التاريخ اليوناني الروماني
كلية الآداب جامعة أسيوط

يركز البحث علي دراسة (الفارماكون) φαρμα/κων ، الذي ورد في عدد كبير من الوثائق البردية، ومعرفة استخداماته، واسعاره والضرائب التي فرضت عليه؛ والقائمين علي صناعته وتجارته في مصر إبّان الفترة البطلمية والرومانية .

الوثائق التي ورد فيها مصطلح الفارماكون:

P.Tebt.1.43=M.Chr.46(Tebtynis.118.BC);1.117.(Tebtynis.99.BC);BGU.XVI.2619=P.Grenf.2.77 (Herakleopolite. 21.B.C-AD.5); O.Petr.244 (Myos Hormos. AD.3);O.Petr.225.(Koptos.AD.19);O.Petr.257 (Myos Hormos. cAD.37-41); O.Petr. 283(Myos Hormos.cAD.41-50);O.Petr. 275 (Myos Hormos. AD.48); P.Bad. 2.17(AD. I); P.Lond.2.356=pg 252(AD.I); P.Ryl.4.574 (AD.I); PSI.1.64 (Oxyrhynchus. AD.I) ;P.Harr.1.89 (AD.116);P.Oxy. 3.472=M. Chr.235 (Oxyrhynchus.AD. 130); O.Claud. II.222 (Mons Claudianus. AD.138-61);P.Haun.2.17(Arsinoite?.AD. II); P. Princ.3.132 (AD.II);P.Oslo 2.54(AD.II/III); P.Oxy. 14.1727 (Oxyrhynchus. AD.II/III); Stud. Pal.XXII. 56 (Soknopaiou Nesos.AD.II/III); P.Flor.II.222 (Theadelphia. AD.256);W.Chr.498(Oasis Major.date:AD.III);P.Cair.Zen. IV.59789=P.Flor.III.350(Philadelphia.AD. III);P.Oxy.Descr. 1= P.Oxy. 1.159 (Oxyrhynchus.AD. III);SB 6.9605(AD.IV); BGU 1.21(Arsinoite. AD.340); SB.XX.14425.(AD.443)

استخدامات الفارماكون

كعلاج دوائي:

- للأنسان

لدينا وثيقة([1]) ترجع للعام ٢٥٨ق م ،عبارة عن خطاب من زينون إلي أورايوس يطلب منه أن يحصل بعض المستحقات علي يهودي ،ثم أرسل رسالة إلي زينون يخبره أن الكسندروس مريضاً α)/ρρωστοφ (كان منوطا بتحصيل تلك المبالغ) و أخذ جرعة من الدواء:ω)/ν ε)κ∴ φαρμακει/αφ L.5, كي يستطيع أن يذهب لليهودي غير أنه لم يستطع فأرسل غيره ولكن اليهودي لم يعبأ .

لدينا وثيقة ([2]) ترجع للفترة من ١٣٨-١٦١م ،عبارة عن خطاب شذرى، من أخ لأخية ،يطلب فيه أن يرسل له علي وجه السرعة دواء للحلق (للزور)LL.4-5:
πέμ[ψον αὐτῷ φ]άρμακον ἐπὶ κι<ν>δυ[νεὐει διὰ] τῶν παρισθμίων.

وهو خطاب مرسل من منطقة مونس كلاوديانوس وهو محجر روماني في الجنوب في الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر وقنا ،وهو ما يفسر طلبه ذلك الدواء .

لدينا وثيقة ([3]) ترجع لأواخر القرن الثاني أو الثالث الميلادي ،عبارة عن خطاب من هوريون إلي والده ،يبلغه فيه أنه أرسل خطاب فيه مبلغ ٩٠٨ دراخمة مع مستأجر ،"ويطلب فيه(الخطاب) أن يرسل له دواء صدر τὴν φαρμακοθήκην و أن يسأل الطبيب عن دواء مر و أخر حلو" :
LL.5-9 : πέμψον μοι τὴν φαρμακοθήκην αἰτήσας π[αρ]ὰ τοῦ ἰατροῦ φάρμακον δακνηρὸν καὶ ἕτερον ἡδύτερον.

- للحيوان

فلقد تبين من احدى الوثائق البردية([4]) التي ترجع للقرن الثالث الميلادي ،

في قرية ثيادلفيا بالفيوم ،وهي عبارة عن خطاب مرسل من هوريون إلى صديقه هورينينوس، حيث يخبره فيه بأن مادة الفارماكون το.∴ φα/ρμακον التي حصل عليها عبر قائد حماره "هاكيس"، من أجل علاج عجله ταυ=ροφ قد آتت بثمارها وتم شفاءه L.14
και.∴ ο(ταυ=ροφ θεραπευθη

في التحنيط:

لدينا خطاب (٥) يعود للقرن الأول ق م ،٢٥ ق م – ١ ق م ، وربما يعود لعهد كليوباترا السابعة ،وهو عبارة عن خطاب عن دفع ضريبة فارماكون (مخدرات) ،جاء فيه : من إسخيريون إلي بيتوسيريس و والده (من نقابة دفن الموتي) تحياتي عليك دفع ٤٠ دراخمة فضية كضريبة فارماكون عن سرابيوم :

LL.1-6 Ἰσχυρίων Πετọσίρει καὶ τοῖς συννεκροτάφοις χαίρειν. διαγεγράφατε τὸν φόρον τοῦ φαρμάκου τοῦ Σαραπείου [ἀρ]γυρίọυ [-?.δραχμ[ὰς] τεσ[σα]ράκοντ[α] [-ca.?-] . ν[-ca

ويقصد بالفارماكون هنا مواد تستخدم في عملية التحنيط لارتباطها هنا بنقابة دفن الموتي τοῖς συννεκροτάφοις

ولدينا وثيقة أخري (٦) من هيراقليوبوليس (إهناسيا) ،ترجع للفترة ما بين ٢١ق م – ٥م،عبارة عن خطاب، جاء فيه:" (التحية من) إراسيستراتوس إلى أثينودوروس– كان وزيراً للمالية وتاجراً – (٧) .... لعمل (ذلك) بشكل جيد ...... من أمون ..... ويتحتم عليك أن ترسل ما يلزم من ضرورات تعرف أنها أمور مستحبة وأن تتذكر أيضاً ما يتعلق بزيت بزر الفجل، حيث يتحتم أن أوضح أنه لم تكن هناك أى جدوى من إعداد ... ذلك الفارماكون الخاص بى إلا إذا توليت مهمة أن ترسل لى من أى جهة نوعية جيدة وغير مغشوشة وصالحة للاستخدام، (أتمنى أن) تهتم بصحتك حتى تكون فى حالة جيدة."

LL.1-11: Ἐρασίστρατος Ἀθηνọ[δώρωι . . . . .] εὖ πράσσ<ε>ιν [-

ca.?-]
Ἄμμωνος τοῦ παρὰ ...[.......] ενου ὥς σε ἀναγκαῖον ἔγνων ἀσπάσασθαί σε καὶ ὑπομνῆσαι περὶ τοῦ ῥαφανίνου· νῦν γάρ μοι χρὴ ἀπράκτεως ημ. τακονα συντιθέντι τὸ δί αὐτοῦ φάρμακον ὅθεν εἰ μὴ σοι φόρ[ι]μον [πέμψεις μοι ἄδολον ἵνα ᾖ χρήσιμον· τ αλλ α δ ἐπιμέλου ὑγιείας σου ἵνα σε καὶ εὐτυχοῦντα ἔχωμεν(?)]

وتكشف لنا البردية أن الراسل يريد أن يحصل علي نوعية جيدة من الفارماكون (مادة تحنيط)(٨)، بما يشير إلي وجود حالات غش في تركيب هذه المادة.

ولدينا وثيقة أخري (٩) ترجع للقرن الثاني أو الثالث ،عبارة عن كشف حساب لمصاريف دفن(١٠) في سكنوبايونيسوس بالفيوم تكلفت إجمالياً ١٣٦ دراخمة، وقد ذكر فيها الفارماكون وزيت الأرز(١١) ، وكتان وكلها أدوات تستخدم في تحنيط جثث الموتي .

لدينا وثيقة (١٢) ترجع للعام ١١٦ م ، عبارة عن أمر دفع إلي بنكي ، جاء فيها : أدفع لحساب "حورس و كو......." عن الفارماكون وزيت الأرز معاً مبلغ ٣٠٠ دراخمة و ٤ أبولات ،إجمالي ٣٠٠ دراخمة و ٤ أبولات :

LL.4-7

δια/γραφε δια∴ (/Ωρου και∴ μετο/ξων φαρμα/κ(ων) και∴ κεδρι/αφ σ υνη/?(θωφ) (δραξμα∴φ) τριακοσι/αφ, τε/σσαραφ (ο)βολου/φ) (γι/νετ αι) (δραξμαι∴)) τριακοσι/αφ, τε/σσαραφ (ο)βολοι∴) δραξ(μα∴φ) τρ ιακοσι/αφ, τε/σσαραφ ο)βολου/φ.

وفي وثيقة أخري (١٣) ترجع للفترة من ٢٦٧-٢٧٤ م ،من واحة سيوه ،عبارة عن خطاب مرسل من ميلاس إلي سرابيون وسلفيانوس ، يخبرهما بوفاة فيبيون أخيهما ،حيث كان مقيماً معه أثناء مرضه حتي وفاته ،ويطالبهما بأخذ جثة شقيقهما ،و أن يدفعا ما عليه من مصاريف ،ومنها ٦٠ دراخمة من العملة القديمة مقابل الفارماكون (دواء): L.17

τιμ(η=φ) φαρμα/κου παλ(αιαι.·.) (δραξμαι.·.) 60

ولدينا وثيقة ([١٤]) ترجع للقرن الثالث الميلادي ،عبارة عن خطاب بخصوص مومياء([١٥]) ،يطلب فيه الراسل ٨٠ دراخمة من أجل كفن لجثة أحد الأقارب ،"كما يطلب فيه إرسال عينة من الفارماكون": LL.12-13 τ□ □πιστολ□ δείγματα φαρμάκφν " ،وكذلك بزور العصفر من أجل صبغ الكتان .

استخدامه كسُم :

ورد مصطلح فارماكون علي أنه سُم ، حيث جاء ذلك في وثيقة([١٦]) ترجع للعام ١١٧ ق م ،عبارة عن شكوى تقدم بها منخيس كاتب قرية كيركيوسيرس،تقسيم بوليمون اقليم الفيوم ،وأخيه ، للملك بطليموس الثامن، يقول فيها نمي إلي علمي أن أسكلبياديس أحد وكلاء أمينياس إبستاتيس الإقليم المجاور قادماً للقرية،وكالعادة ذهبنا للقاءه مع كلا من عمدة القرية ،وبعض شيوخ المزارعين، وديميتريوس (قائم بأعمال إبستاتيس أحد القري المجاورة) وشخصيات أخري ، وقمنا بتحيته فألقي القبض علينا، وكذلك علي ديميتريوس ,و أحد المزارعين ماريس بن بيتوس، زاعماً أن ثمة بلاغ قدم ضدنا ،و ضد مارون بن ديودورس وبيتوسوخوس بن .... ، وهيرمون بن .....،الكل مقيم بالقرية المجاورة، من قبل هاروتيس بن هارسيسيس وهو من سكان مدينة التمساح، "مفادها أنه تناول العشاء معهم في حانة معينة بالقرية وتم تسميمه ":

LL.18–19 συνδεδειπνη[κο/]των αυ)τω=ι ε)/ν τινι καπηλει/ωι6 ε ,)ν τη=ι κω/μηι και.·. ε)πανη/?ρηται αυ)το.·.φ φαρμα/κωι

كمـــا ورد مـــصطلح فارمـــاكون علـــي أنـــه سُـــم وعبـــر عنـــه ب πεφαρμακευ=σθαι، حيث جاء ذلك في وثيقة (١٧) ترجع للعام ١٣١ م ،وهـــي عبارة عن دافع أحد المحامين عن إمرأة تدعي هيرمويني ضد اتهامهـــا بتـــسميم سرابيون جاء فيه(١٨):

"و لأنه كان في منزله ،حيث خرج يقول أنه تعرض للتـــسميم ، وعنـــدما أقترب من منزل هرميوني ،لم يخبر أحد بأنه لاحظ أي شئ أو يشك في أي شخص ،ولكنه خرج من منزله ،حيث خرج ابنه وريث المستقبل قـــائلاً بأنـــه(أي والـــده) تعرض للتسميم ،(المحامي) وأنه في الواقع توجد أسباب لأن يقدم له السم ،حيث أن هناك آخرين يفضلون موته عن بقائه علي قيد الحياة".

LL.1-7

και.·. γα.·.ρ α)πο.·. τη=φ ε)κει/νου οι)κι/αφ ε)χεληλυ/θει πεφαρμακευ
=σθαι λε/[γω]ν και.·. α)π[ο.·.] με.·.ν τη=φ (Ερμιο/νηφ οι)κι/αφ ε)χιω.·.
ν ου)/τэ ε)/φη προ/φ τινα αι)σθε/σθαι ου)δενο.·.φ ου)δэ ο(/λωφ υ(πο/ν
οιαν ου)δεμι/αν ε)/σξεν, α)πο.·. δε.·. τη=φ ε(αυτου= τε και.·. του= κλη
ρονομει=ν με/λλοντοφ υι(ου= προη=λθε πεφαρμακευ=σθαι λε/γων. ει)
=ξεν με.·.ν ου)=ν αι)τι/αφ του= και.·. αυ)το.·.φ ε([αυ]τω=? προσενεγκ
ει=ν φα/ρμακον α(.·.φ και.·. α)/λλοι πολλοι.·. το.·.ν θα/νατον του= ζη
=ν προκρι/ναντεφ

في السحر (سحر بالمحبة) :

كذلك استخدم الفارماكون في السحر ،ففي وثيقة (١٩) ترجـــع للقـــرن الأول الميلادي، عبارة عن عقد زواج فريد من نوعه من أوكـــسيرنخوس، تقـــسم فيـــه الزوجة "ألا تضع (الزوجها) فارماكون في طاعمه أو شرابه " :

LL.20-21

μηδε.·. ποι[η/]σειν ει)/φ σε φα/ρμακα φι/λτρα μηδε.·. κακοποια.·. μη/τ
ε ε)ν ποτοι=φ μη/τε ε)ν βρωτοι=φ,

استخدم الفارماكون هنا مقترناً بمصطلح φι/λτρα (٢٠) بمعني سحر الحب، وهي عادة سحرية (تهدف أن يصبح الزوج تحت طوع الزوجة أو العكس رغما عن الإرداة) ،كما تلجأ لها النساء حين يكون موقفهن ووضعهن حرجاً مع أزواجهن (٢١)، وقد استخدم مرة واحده فقط ،وله عدة دلالات منها أن المراة كانت أكثر ارتباطا بالسحر أكثر من الرجل، وأن هذا الرجل ربما تعرض في زواج سابق لمثل هذا النوع من السحر، أو أن هذا النوع من الممارسات (سحر الحب) ذاع صيته في أوكسيرنخوس في تلك الفترة .

- كصبغة أو لون

نتبين ذلك من وثيقة (٢٢) ترجع للفترة ما بين ٢٢٦ – ٢٧٥ ق م، من فيلادلفيا بالفيوم، وهي عبارة عن كشف حساب مالي ذكر فيها جير أحمر وفارماكون (مادة صبغية) (٢٣) بسعر ٢٧ دراخمة و خمسة ابولات :

LL.13-14
καὶἄλλαςεἰςψιμίθιονκαὶμίλτονκαὶτὰτάλλαφάρμακαδραχμὰςκζ
πεντώβολον

استخدامات اخري

وفي وثيقة(٢٤) من القرن الأول الميلادي عبارة عن خطاب يتعلق بشراء مخدرات(فارماكون) جاء فيه :"من بروكليوس إلي صديقي العزيز بيكيوسيس تحياتي،بيع(أرسل) علي مسئوليتك الخاصة نوع جيد من(المخدرات) الفارماكون التي يحتاجها صديقي سوتاس ،لذلك ربما يبحر إليك(الفيوم) ليحضرهم لي إلي الإسكندرية، وإذا فعلت ذلك، وأعطيته نوع ردئ منه لن يلقي ترحيب بالاسكندرية، فأنت مضطر أن تبقي معي هنا ،لتتحمل المصاريف، تحياتي لأسرتك جميعاً،الوداع،مرسل إلي بيكيوس".

LL.1-10

Προκλη/ιοφ Πεκυ/σει τω=ι φιλτα/τωι ξαι/ρειν καλω=φ ποιη/σειφ ι)δι/ ωι κινδυ/νω? το∴ καλο∴ν πωλη/σαφ ε)χ ω(=ν ε)α/ν σοι ει)/πη? φαρμ

α/κων ε)/ξειν ξρει/αν Σω/ταφ ο(φι/λοφ μου ω(/στε ε)μοι.∴ κατενεγκει =ν αυ)το.∴ν ει)φ)Αλεχα/νδρειαν. ε)α.∴ν γα.∴ρ α)/λλωφ ποιη/ση?φ ω(/ στε σαπρο.∴ν αυ)τω=? δου=ν?αι το.∴ μη.∴ ξωρου=ν ε)ν τη=?)Αλεχαν δρει/α? γι/γνωσκε σεαυτο.∴ν ε(/χοντα προ.∴φ ε)με.∴ περι.∴ τω=ν δαπ ανω=ν. α)/σπασαι του.∴φ σου.∴φ πα/νταφ. ε)/ρρωσο Πεκυ/ει α)πο/δο φ

ربما يكون الفارماكون هنا ليس له علاقة بالدواء أو مواد التحنيط سالفة الذكر ، وربما يكون له علاقة بالمخدرات (مثل الحشيش والأفيون) ،حيث استخدم الراسل في البداية مصطلح κι/νδυνοφ علي مسئوليتك الشخصية ،وهو يحمل في طياته مفهوم المغامرة و الخطورة ،وفي اخر الخطاب نجده يجزره من محاولة التدليس ببيعه بضاعة فاسدة ،مستخدماً مصطلح: σαπρο/φ ،وهو عكس مصطلح نوع جيد :καλο/φ المستخدم في البداية ،لأنه لن يلقي قبول في الإسكندرية ،كما أنه سوف يبحر إلي الفيوم خصيصا للحصول علي تلك المادة ،بما يشير إلي أهمية تلك الماده وتوفرها في الفيوم عن الاسكندرية .

الضرائب علي الفارماكون:

أولاً:ضرائب علي فارماكون التحنيط

هناك ثلاثة إيصالات([25]) ترجع لأواخر عهد البطالمة (عهد كليوباترا) ، كتبت بنفس الخط ،وهي عبارة عن ايصالات دفع ضريبة لمنتجات تستخدم في التحنيط الفارماكون و زيت الأرز φα/ρμακον και.∴ κεδρι/α ()دفعت لمتعهد الدفن هاريندوتوس وابناءه ، سجلت ١٦٠٠ دراخمة (ربما نحاسية).

ولدينا ايصال دفع ضريبة عن فاماكون التحنيط وزيت الأرز ([26])تعود لأواخر عهد البطالمة وأوائل عصر الرومان ([27])،من دافعي الضريبة بليومريس و كوللوثيس إلي هاريندوتوس بن هارباباسيس وأبناءه جامعي ضريبة الفارماكون وزيت الأرز في اقليم كينوبولس

οι(ε)χειληφο/τεφ το.∴ τε/λ(οφ) του= φαρμα/κου και.∴ κεδρι/αφ του= Κυνοπολι/του τη=φ،أن متعهدو الدفن دفعوا الضريبة

كاملة عن الفارماكون وزيت الأرز عن العام 21 ،ولسوء الحظ فالمبلغ المدفوع غير مذكور .

سجل لنا خطاب يعود للقرن الأول ق م ،٢٥٠ ق م – ١ ق م [٢٨] دفع ٤٠ دراخمة فضية كضريبة علي فارماكون (مواد تحنيط) عن سرابيوم :

LL.3-5

το∴ν φο/ρον του= φαρμα/κου του= Σαρα?π?ει/ου [α)ρ]γ?υρι/ο?υ? δ?ρ

.[?αξμ[α∴φ] τεφ[σα]ρα/κοντ?[α

ثانياً:ضرائب علي فارماكون الدواء

لدينا تقرير شذرى [٢٩] لمشرفي جمع ضرائب ،يعود للقرن الثاني الميلادي ، يتضمن مبالغ مالية دفعت كضريبة عن صوف سوري ، ورعاة ، و فارماكون (دواء مصري):

.φαρμα/κου Αι)γυ/πτου L.11

أشخاص لهم إرتباط بتجارة وتركيب الفارماكون:

لدينا ثلاثة إيصالات تجارية لمادة الفارماكون، جاء في الأولي [٣٠] بتاريخ ١٩ م، من قفط (بقنا) ، عبارة عن إيصال استلام تجاري في موس هورموس (القصير القديم بالبحر الأحمر) جاء فيه : "من أولوس جابينيوس أجاثوبوس إلى نيكانور بن بانيس، لقد تسلمت منك على الفارماكون الذى أعطيته لبيكويفيس بيتيسيس بواسطة خدمة نقل البضائع عن طريق الجمال ،من حساب أولوس جابينيوس، العام الخامس من عهد تيبيريوس قيصر سيباستوس شهر مسرى."

LL.1-5:

Αυ)=λο?φ? Γαβει/νιοφ)Αγαθο/πουφ Νικα/νο(ρι) Πανη=τοφ κα
μη(λοτρο/φω?). ε)/ξω παρα∴ σου= α(/ σοι ε)πε/θη?κ?ε? Πεκοι=φιφ Πε
τη/σεωφ ει)φ το∴ν λο/γον Αυ)/λου Γαβε?[ι(νι/ου)] Ε?υ)?δαμι/ωνοφ φ
α?ρ?μ?α/?κου ....φ? . (ε)/τουφ) Τιβερι/ου Και/σαρο(φ) Σεβαφ(του=) Μ
εσορη

وجاء في الثانية ([31]) من العام ٤٨م : " التحية من كولومادوس تيبيريـــوس كلاوديوس كاستور وكذلك الاسكندر كلاوديوس ديميتريوس نيكانور. لقـــد تـــسلمنا منك ما يقدر بـــ (اثنين لتر).... من الفارماكون عبر موس هورموس الذى أعطيته لـــ ... بانيسكوس من حساب تيبيريوس كلاوديوس أجاثوكليس وكذلك ثيودوروس. .... العام الخامس من حكم تيبريوس كلاوديوس قيـــصر المبجـــل جرمـــانيكوس الامبراطور شهر باخون ..."

LL.1-10

Κο/<μω>δο?φ Τιβερι/ου Κλαυδ?ι/?ο?υ? Κα/φ?το?(ροφ) κ?αι.∴)Αλε/χ ανδερ Κλαυδι/ου Δημητ?ρι/ου Πεταρποξρα/τη? Νικα/νορο?φ? ξ?(αι/ ρειν). π?αρ?ε?λα/βομεν παρα.∴ σου=? ε)πι.∴? Μυο.∴?φ? (/Ο?ρ?μ?(ου) ει)φ το.∴ν δυ/ο Τιβερι/ων Κλαυδι/ω?ν)Αγαθ?(οκλε/ουφ) [και.∴] Θ?ε? οδω/ρου λο/γον α(.∴ ε)?πε/?θηκε/? φ?ο?ι Α?.. [.χ 5] Πανι/σκου φαρμα/ κου μετρη(τα.∴φ) [.χ 7] ε)/?τ?ουφ ο)γδο/ου Τιβερι/ου [Κλαυδι/ου Και/ σαρο]φ Σεβαστου= Γ?ε?ρ?μ?ανικ?ο?υ=? [Αυ)τοκρα/τορο]φ? Παξω.∴(ν) τρεισκαιδεκα/τηι

و الثالثة ([32]) ترجع للفترة ما بين (٤١-٥٠ م)،جاء فيه: "التحية من .... إلى نيكانور بانيس ..... لقد تسلمت -عبر موس هورموس-.... أربعـــة ... مـــن النبيذ ... واثنين (لتر) من الفارماكون.... إجمالي اثنين لتر مـــن الفارمـــاكون ، علاوة على ... وكذلك ..... شعير ..... و... أردب قمح .... من حـــساب ....، العام السادس من تيبريوس كلاوديوس قيصر المبجل جرمانيكوس الامبراطور...."

LL.1-9: ...[?]

ρ.μ... Νικ?α/?νορι Πανη/ουφ [ξ(αι/ρειν). ..]... πα?ρα.∴ σου= ε)πι.∴ Μυ ο.∴φ (/Ορμου ει)φ το.∴ν [?]..ε. λο/γο(ν) ο)/χουφ? μ.κ.. τε/?σσα?ρα [?] . φ?α?ρ?μ?α/?κου μετρη?τ?α.∴?φ? δυ/ο (γι/νονται) φαρ(μα/κου) μ?ε?(τ ρηται.∴) 2 και.∴ [?]..ρ?αφ...... και.∴ στυ/ππου ..ξ( ) ...... [?]..ιφ .... κ ?α?ι.∴? οι)/νου Πτολ(εμαικα.∴) [?] [?]... π?υ?ρο?υ=? α)?ρ?τα/βαφ? ε (.∴χ (γι/νονται) (α)ρτα/βαι) 6 (ε)/τουφ) [. Τιβερι/ου] Κ?λ?α?υ?δι/?ο?υ

[? Και/σαροφ? Σεβαφ?τ?ο?υ=? Γ?[ερμανικου=] Αυ)τοκρα/τ?[οροφ

الإيصالات الثلاثة سالفة الذكر هي عبارة عن إيصالات استلام لمواد تجارية بينها الفارماكون محل البحث ،بين شركة تجارية مكونة من مجموعة من الرومان، في موس هورموس (القصير القديم علي البحر الأحمر) و في قفط ،وميناء بيرنيكي،البوابة الشرقية لتجارة البحر الأحمر، وتعمل في مجال استيراد وتصدير بعض السلع، ما بين مصر والهند (٣٣)، وفي الايصال الأول ورد مصطلح καμηλοτρο/φοφ وهو يعني خدمة نقل البضائع بواسطة الجمال ،ويشير البعض أن الفارماكون هنا سوف يتم تصديره للخارج(للشرق) (٣٤)،وعلي كل حال فقد عرفنا من تلك الايصالات التي تعود للعصر الروماني بأن الإدارة الرومانية قد سمحت بالاتجار في الفارماكون، ولم يظهر هذا خلال عصر البطالمة .

وأخيراً لدينا وثيقة (٣٥)ترجع للقرن الثالث الميلادي (٢٥١-٣٠٠)، عبارة عن أمر دفع (قصير) : من أوريليوس ثيون إلي خيريمون ادفع لأمر باوسيانوس مبلغ ٢٠٠٠ دراخمة من أجل المادة الصمغية، ارجاع الدواء :

π(αρὰ) Αὐρηλ(ίου) Θέωνος

.Χαιρεμμων
δὸς Παυσανίᾳ εἰς
λόγον πίσσης
ἀποδόσεως φαρμάκ(ων
δραχ(μὰς) δισχειλίας

والمعروف أن ثيون و خيرمون لهما أنشطة اقتصادية متعددة (٣٦)، ومن ضمنها إدارة بساتين فاكهة في منطقة ثوليثيس في آعالي أوكسيرنخوس ، وكانت تستخدم بساتين الفاكهة في زراعة الكروم وتعليب النبيذ مستخدمين في ذلك عمالة محلية(٣٧)، وكان الصمغ الوارد بالنص πίσσης (٣٨) يستخدم في صناعة جرار النبيذ ، أما عن ذكر الفارماكون هنا فكانت محل دهشة الناشر إلا أنه يعتقد أنه بالاضافة إلي أنشطة أوريليوس ثيون سالفة الذكر ،أنه متخصص في تركيب

الأدوية[٣٩].

اسعار الفارماكون:

الوثيقة	تاريخها	مكانها	سعر الفارماكون	ملاحظات
P.Oxy.XIV.1727	ق ٢أو٣ م	أوكسيرنخوس	٢ دراخمة و أوبل	مواد للتحنيط
P.Oslo.II.54	" "	؟	٩٠٨ دراخمة	لشراء أدوية للصدر
P.Harr.I.89	١١٦م	؟	٣٠٠دراخمة و٤ أوبلات	فارماكون و زيت خشب الأرز(للتحنيط)
Sel.Pap.I.157= W.Chr.498 =P.Grenf.II.77	٢٦٧-٢٧٤م ،	الواحة الكبري سيوه	٦٠ دراخمة	فارماكون(دواء لعلاج مريض)
P.Tebt.I.117	٩٩ ق .م	تبتونس بالفيوم	٢٠ دراخمة	نبيذ و فارماكون (تحنيط)
SP.XXII.56	ق٢أوق٣ م	سكنوبايو نيسوس بالفيوم	٤دراخمة	للفارماكون والكتان(تحنيط)
P.Cair.Zen.59789	٢٢٦-٢٧٥ ق م	فيلادلفيا بالفيوم	٢٧دراخمة و٥أوبلات	فارماكون (مادة صبغية) و جير أحمر

وفي نهاية البحث نقول ما هو الفارماكون ؟ هو مصطلح فوق التحديد نظراً

لتعدد استخداماته وعليه تبقي هناك مشكلة في الترجمة لهـذا المـصطلح لأن بـه تناقض فهو يعني دواء ويعني علي النقيض مادة سامة ، ومادة تحنـيط ،وأصـباغ ومواد تستخدم في السحر، ومواد مخدرة ، وتستخرج هذه المادة مـن الأعـشاب المنزرعة في مصر ومنتجات الطعام.

النتائج:

- فرضت ضرائب علي الفارماكون المستخدم في التحنيط.
- وجدت حالات غش لفارماكون التحنيط.
- فرضت ضرائب علي فارماكون (الدواء)
- عرفنا من البحث دواء الصدرτὴν φαρμακοθήκην وهو علي نـوعيين ، أحـدهما مـر و أخـر حلـو" : φάρμακoν δακνηρὸν καὶ ἕτερον ἡδύτερον
- سمحت الإدارة الرومانية بتصدير الفارماكون ولم يظهـر هـذا خـلال عـصر البطالمة
- استخدم الفارماكون كعلاج للإنسان والحيوان، واستخدم كسم ، وصبغة لونيـة ، وكسحر للمحبة .
- عرفنا من البحث اشخاص لهم ارتباط برتكيب تلك المادة والاتجار فيها.

الهوامش:

(1) P.Cair.Zen.I.59018
(2) O.Claud.II.222
(3) P.Oslo.II.54
(4) P.Flor.II.222
(5) P.Ryl.IV.574
(6) BGU.VXI.2619
(7) R S Bagnall ,Cribiore., Women's letters from ancient Egypt,300BC-AD800, University of Michigan Press, 2006, pp. 123-125
(8) Henry George Liddell, Robert Scott, A Greek-English Lexicon s.v φα/ρμακον
(9) SP.XXII.56,LL.11-13
(10) R S Bagnall., The Oxford handbook of Papyrology, Oxford University prss,2009,p.372; Dominic Montserrat.,The Representation of Young Males in 'Fayum Portraits' JAE 79(1993)pp.215-225
(11) A.Lucas,"Cedar"-tree products employed in mummification, JEA 17(1931),pp.13-21
(12) P.Harr.I.89
(13) Sel.Pap.I.157=W.Chr.498=P.Grenf.II.77
(14) P.Haun.II.17
(15) Jane Rowlandson, Roger S. Bagnall.,Women and society in Greek and Roman Egypt: a sourcebook,Cambridge University Press 1998 ,pp.344-45
(16) P.Tebt.I.43=M.Chr.46=LL.43-44:C.Ord.Ptol.56
(17) P.Oxy.III.472; Malcolm Heath.,'Practical advocacy in Roman Egypt', in M.J. Edwards and C. Reid (ed.), Oratory in Action (Manchester: Manchester University Press,2004),pp.62-82
(18) P.Oxy.III ,p.152; Coroï, Jean.,Procès de Sarapion et de Dionysia au temps d'Hadrien (P.Oxy., III 472 et 486) .Roma,1939,p.612-645
(19) PSI.I.64
(٢٠) هذا المصطلح ورد مرة واحده فقط في البردي ،بينما ورد ثلاث مرات عند المؤرخين القدامي علي النحو:
Euripides, *Heracles* (ed. Gilbert Murray) line 1407; Flavius Josephus, *De bello Judaico libri vii* (ed. B. Niese) book 1, section 583; Apollodorus, *Library and Epitome* (ed. Sir James George Frazer) book 2, chapter 7, section 7
(21) Jane Rowlandson .,Women and society in Greek and Roman Egypt : a sourcebook .Cambridge University Press, 1998,p.323
(22) P.Cair.Zen.IV.59789
(23) Henry George Liddell, Robert Scott, A Greek-English Lexicon s.v φα/ρμακον
(24) P.Lond.II.356

(25) Willy Clarysse, A bilingual archive from the Cynopolite nome ,proceedings of the 24th International Congress of Papyrology Helsinki,1-7 August,2004,pp.165-69

(26) 1 – SB.XX.14426

(٢٧) تاريخ البردية ٩-٣٥ م طبقا ل علية حنفي : Hanafi A ,in :L.Criscuolo-G.Geraci,Egitto e Storia Antica dall ellenismo all eta arab.Bilancia di un confronto,Bolongna 1989,pp.421-429، فيما يري كلارسي أنها تعود لعصر كليوبــاترا : Willy Clarysse, A bilingual archive from the Cynopolite nome.p.188

(28) P.Ryl.iv.574
(29) P.Princ.III.132
(30) O.Petr.225
(31) O.Petr.275
(32) O.Petr.283
(33) Steven E. Sidebotham ., Roman Economic policy in the Rrythra Thalassa ,30 BC-AD.217,Leiden E J Brill ,1986,pp.82ff;Getzel M Cohen ., The Hellenistic Settlements in Syrian The Red Sea Basin ,and North Africa ,University of California 2006,p.317
(34) Alexander Fuks .,Social conflict in ancient Greece .Brill 1984,p.213
(35) P.Oxy.I.159= SB.XXII.15349 =P.Oxy.Descr.I.1
(36) P.Oxy.XLI.2985-6;SB.XIV.12107
(37) Montserrat .,Varia Descripta Oxyrhynchita BASP 31(1994)p.18 f
(38) Philip Mayerson ., Pitch (π□σσα) for Egyptian Winejars an Imported Commodity ZPE 147(2004)pp.201-204
(39) Montserrat .,Varia Descripta Oxyrhynchita,p.18

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر الأدبية:

Apollodorus, *Library and Epitome* (ed. Sir James George Frazer) book 2, chapter 7, section 7
Flavius Josephus, *De bello Judaico libri vii* (ed. B. Niese) book 1, section 583
Euripides, *Heracles* (ed. Gilbert Murray) line 1407

ثانيا البردي :

Joshua D. Sosin, Roger S. Bagnall,James Cowey, Mark Depauw,Terry G. Wilfong, and Klaas A. Worp, John F. Oates , William H. Willis .,Checklist of Editions of Greek, Latin, Demotic, And Coptic Papyri, Ostraca And Tablets

ثالثا المراجع :

- Alexander Fuks .,Social conflict in ancient Greece .Brill 1984.
- A.Lucas,"Cedar"-tree products employed in mummification, JEA 17(1931),pp.13-21
- Bagnall R S ., The Oxford handbook of Papyrology, Oxford University prss,2009.
- Bagnall R S . ,Cribiore., Women's letters from ancient Egypt,300BC-AD800, University of Michigan Press, 2006.
- Coroï, Jean .,Procès de Sarapion et de Dionysia au temps d'Hadrien (P.Oxy., III 472 et 486) .Roma,1939,p.612-645
- Getzel M Cohen ., The Hellenistic Settlements in Syrian The Red Sea Basin ,and North Africa ,University of California 2006
- Hanafi A ,in :L.Criscuolo-G.Geraci,Egitto e Storia Antica dall ellenismo all eta arab.Bilancia di un confronto,Bolongna 1989
- Henry George Liddell, Robert Scott, A Greek-English Lexicon
- Malcolm Heath.,'Practical advocacy in Roman Egypt', in M.J. Edwards and C. Reid (ed.), Oratory in Action (Manchester: Manchester University Press,2004),pp.62-82
- Montserrat D .,The Representation of Young Males in 'Fayum Portraits' JAE 79(1993)pp.215-225
  - ....,Varia Descripta Oxyrhynchita BASP 31(1994)pp.11-80

- Philip Mayerson ., Pitch (π□σσα) for Egyptian Winejars an Imported Commodity ZPE 147(2004)pp.201-204
- Rowlandson Jane ., Roger S. Bagnall.,Women and society in Greek and Roman Egypt: a sourcebook,Cambridge University Press 1998 .
- Steven E. Sidebotham ., Roman Economic policy in the Rrythra Thalassa ,30 BC-AD.217,Leiden E J Brill ,1986
- Willy Clarysse, A bilingual archive from the Cynopolite nome ,proceedings of the 24th International Congress of Papyrology Helsinki,1-7 August,2004,pp.165-69

الفساد واستغلال النفوذ في البلاط الروماني
(دراسة عن عصر الإمبراطور كلاوديوس ٤١ - ٥٤ م)

د/ أمل أحمد حامد عبد العزيز
مدرس التاريخ اليوناني - الروماني
كلية الآداب - جامعة المنصورة

- شكل المعتقون وزوجتا الإمبراطور كلاوديوس Claudius ٤١-٥٤ م الحاشية المحيطة به، وهيئته الاستشارية وأهل الثقة والحظوة لديه، ولم يتخذ قراراً دون الرجوع إليهم والأخذ برأيهم. وقد اتفقت المصادر القديمة في رسم صورة الإمبراطور كلاوديوس، على أنه كان تابعاً مطيعاً وخادماً أميناً لرغبات معتقيه وزوجتيه. وبالرغم من مبالغة تلك المصادر - إلى حد ما - في التقليل من شأن الإمبراطور أمام ازدياد نفوذ حاشيته، إلا أن ما تم رصده من تجاوزات ومفاسد للمعتقين وزوجتا الإمبراطور يؤكد صحة هذا الادعاء ويشير إلى سلبية الإمبراطور أمامهم، وعلى سوء استغلال أولئك لنفوذهم وأثره السلبي على إدارة الدولة.

- وهذه الدراسة هي محاولة للإجابة عن بعض التساؤلات حول مدى فساد حاشية الإمبراطور وأثر ذلك عليه وعلى الدولة؟ وما الأسباب التي أدت إلى هذا الفساد واستغلال النفوذ؟ ثم ما أشكال ومظاهر ذلك الفساد؟ وما نتائج انتشار هذا الفساد على أجهزة الدولة المختلفة؟.

بداية العوامل التي ساعدت على فساد حاشية الإمبراطور، ويأتي في مقدمتها:

١- وصول الإمبراطور إلى العرش بطريقة غير شرعية.

فوفقاً للمصادر(١) وصل الإمبراطور كلاوديوس إلى العرش بالصدفة، في الوقت الذي لم يسع إليه، وإنما كان صنيعة كتائب الحرس البريتوري Cohortes Praetoriae – الحرس الخاص بالأباطرة – وكان من المتوقع نتيجة لذلك أن يكون لقادة الحرس الدور الأكبر في إدارة شئون الدولة، إلا أن ذلك لم يحدث، ولجأ الإمبراطور إلى الاستعانة بأهل الثقة والمقربين منه وفي مقدمتهم معتقيه وزوجتيه.

٢- ويمكن اعتبار بعض العيوب الجسدية والشخصية في الإمبراطور عاملاً ثانياً أدى إلى الاعتماد على الغير في ممارسة مهامه الإمبراطورية. ومن تلك العيوب كما ذكرت المصادر(٢) "أنه كان يعاني من التلعثم واهتزاز الرأس، فإنه كان يرتعش رأسه بشدة، عندما يبذل أي جهد مهما كان صغيراً ". "Praeterea Linguae Titubantia Caputque Cum Semper Tum in quantulocumque actu vel Maxime Tremulum" (Suet. Claud. XXX) وأضاف سويتونيوس(٣) بأن ضعف كلاوديوس قد أدى إلى وجود صفات سيئة في شخصيته، استغلها المحيطون به، وهي أنه كان جباناً متردداً وضعيف الثقة بالنفس ومن السهل انقياده للآخرين، كما أن كلاوديوس كان كثير الشكوك والارتياب في كل من يقترب منه، لذلك عندما كان يقيم مأدبة طعام، فإنه كان يأمر بتفتيش المدعوين إليها رجالاً كانوا أم نساءً خوفاً من أن يحمل أحدهم سلاحاً، كما كان يحرص على ضرورة وجود الجنود أثناء المأدبة(٤).

وعلاوة على ما سبق كان من العيوب الخطيرة في الإمبراطور إدمانه للخمر، وشدة النهم للطعام "ويقال أنه كان من الصعب أن يترك غرفة الطعام إلا إذا اتخم وثمل" "Nec Temere Umquam Triclinio abscessit nisi distentus ac Madens" Suet. Claud., XXX III [1]. وقد ترك نهمه للطعام والشراب أثراً في أنه كان ينام أثناء تأدية مهامه. فمثلاً عند انعقاد جلسات المحكمة

الإمبراطورية، كان يغلبه النعاس ولا يستيقظ من نومه إلا عندما يرفع المحامون أصواتهم. كما كان كلاوديوس مفرطاً في حبه للنساء مما فتح الباب أمام خضوعه لزوجاته ورضوخه لرغباتهن[٥].

٣- وقد ساعد على الفساد واستغلال النفوذ بين حاشية الإمبراطور: انفرادهم بإدارة الدواوين في البلاط الإمبراطوري ولما كان معظم هؤلاء من أصول آسيوية وإغريقية، فقد أثارت أصولهم وسلطتهم استياء الأرستقراطية الرومانية، بسبب المكانة البارزة التي وصلوا إليها. وفي الوقت ذاته فإن وظائف أولئك المعتقين كانت تدر عليهم الثروات الضخمة. وقد بلغت ثروات بعضهم – مثل بالاس Pallas وناركيسوس Narcisus – حداً غدا مضرب الأمثال[٦]. كما شكل المعتقون جوهر المجلس الاستشاري Consilium Principes باعتبارهم مستشاري الإمبراطور الأساسيين[٧]. وقد نشأ هذا الدور من خلال استخدام المعتقين في إدارة الشئون الداخلية للأسرة الإمبراطورية. نظراً لأن أبناء الطبقة الأرستقراطية كانوا يأنفون من العمل في البيت الإمبراطوري، واعتبروا ذلك من وجهة نظرهم مرادفاً للعبودية، لهذا فإن إدارة الوظائف الإمبراطورية اعتمدت على المعتقين بديلاً عنهم[٨].

- ومن تلك الوظائف التي اقتصرت إدارتها على المعتقين وشغلها أبرزهم، وظلوا في إدارتها طوال حياتهم، كانت إدارة الدواوين الإمبراطورية، مثل ديوان المراسلات ab epistuli، الذي تولى إدارته ناركيسوس Narcisus ، وديوان المالية a rationibus، وكان بالاس Pallas هو المسئول عن إدارته[٩]. وديوان الشكاوى والإلتماسات Petitions & Libelli (ab studiis)، وكان المعتق بوليبيوس Polybius مستشار الإمبراطور الأدبي، هو من يدير شئون هذا الديوان "ac super hos polybium ab studiis, qui saepe inter duos consules ambulabat; sed ante omnis Narcissum ab epistulis et pallantem arationibus" Suet., Claud. XXVIII، وظل

بوليبيوس مسئولاً عنه حتى وفاته في عام ٤٧م، وشغل المنصب من بعده المعتق كاليستوس Callistus، الذي ظل في منصبه حتى وفاة الإمبراطور كلاوديوس[١٠].

- وهكذا فإن تحكم المعتقين واستئثارهم بوظائف معينة وحساسة في الإدارة الإمبراطورية قد ساعدهم على توطيد نفوذهم وسيطرتهم في البلاط فمن خلال وظائفهم تمكنوا من الاضطلاع على كافة أسرار الدولة وشئونها مما ترتب عليه قيامهم بدور رئيسي وبارز في إدارة شئون الدولة. وكان أكثرهم تأثيراً ناركيسوس المسئول عن ديوان المراسلات والمنوط به كتابة الأوامر والخطابات والرسائل والأوراق العامة والخاصة. وكانت كل رسالة تفتح وتفحص وتصنف بناءً على أوامره، وكذلك الإطلاع على تقارير حكام الولايات وخطاباتهم ومراسلات المفوضين وبذلك كان بإمكانه أن يحجب ما لا يريد من رسائل وتقارير، ويبرز ما يريده فقط. ويلي ناركيسوس في الأهمية بالاس وهو السكرتير المالي والمسئول عن الخزانة الإمبراطورية Fiscus، وقد لعب دوراً في تركيز السلطة المالية في أيدي الإمبراطور وتوسيع مصادر دخل الخزانة الخاصة للإمبراطور على حساب الخزانة العامة Aerarium مما أثار استياء الأرستقراطية الرومانية خاصة وأن ثروات أعضائها كانت المصدر الرئيسي لدخل تلك الخزانة، وقد اكتسب بسبب ذلك سمعة سيئة[١١].

- وكان من بين مهام منصب بوليبيوس تلقى الشكاوى والالتماسات، وقراءتها وكتابة الردود عليها subscripitio وإعدادها للتوقيع الإمبراطوري، كما كان عليه أن يستمع إلى العديد من الأشخاص الذين جاءوا لعرض شكاواهم بأنفسهم مما وفر الفرصة أمامه لإعطاء الأولوية والاهتمام بما يناسب مصلحته ومصلحة المعتقين الذين ينتمي إليهم ويضيف سينيكا[١٢] بأنه كان على بوليبيوس أن يستمع إلى آلاف لا تحصى من الرجال، وأن يجيب عن عدد لا يحصى من

الالتماسات:

"Audieuda sunt tot hominum milia, tot disponendi libelli" Ad Poly b., VI.

٤- وقد ساعد أيضاً على فساد حاشية الإمبراطور، التدخل المؤثر لزوجتا الإمبراطور في شئون الدولة. والمقصود هنا بزوجتا الإمبراطور: الإمبراطورة ميسالينا Messalina في الفترة الأولى من حكمه حتى عام ٤٨م، والإمبراطورة أجربيينا Aggripina في الفترة الثانية حتى وفاته عام ٥٤م. فقد تمتعتا بإمتيازات كثيرة وأُغدقت عليهن الألقاب الشرفية، ومن ثم كان لهن تأثيراً كبيراً على سياسة الإمبراطور، وإن اختلف هدف إحداهن عن الأخرى. ففي الوقت الذي سعت فيه ميسالينا إلى استغلال مكانتها ونفوذها من أجل إشباع رغباتها ونزواتها الجسدية، فإن أجربيينا قد سعت لتحقيق هدف رئيسي واحد وهو جلوس ابنها نيرون Nero على العرش بعد كلاوديوس.

- وقد مارست زوجتا الإمبراطور سلطة كبيرة ونفوذاً. فقد ذكر ديوكاسيوس[١٣] أن سلطة أجربيينا قد بلغت حداً كادت فيه سلطتها تعادل سلطة الإمبراطور، حتى أنها كانت ترافقه في جولاته عبر أنحاء المدينة، وعندما اندلع حريق هائل في روما، اصطحبت كلاوديوس وهو يقدم المساعدات للمواطنين.

- هكذا وقع الإمبراطور بين نارين، فمن ناحية معتقيه ومن ناحية أخرى زوجتيه وقد ازدادت ضغوطهم عليه لتنفيذ ما يريدون، خاصة وأنه في معظم الأحيان، تعاون الفريقان معاً إذا جمعتهما المصلحة المشتركة، أما إذا تضاربت تلك المصالح وانقلب أحدهما على الآخر، فإن ذلك بالضرورة كان يؤدي إلى قضاء أحدهما على الآخر. ولفترة من الوقت تحالف المعتقون مع ميسالينا للتأثير على الإمبراطور، ولم يفعلوا شيئاً إلا بالاتفاق معها[١٤]. ولكن عندما تآمرت ضد المعتق بوليبيوس وتسببت في موته، فقد أدى هذا التصرف إلى فقدان ثقة

المعتقين في ميسالينا وشعروا بأنهم مهددون ومعرضون للخطر بسبب نزواتها، ومن ثم فإنها فقدت رضاءهم وعزموا على التخلص منها. وجاءتهم الفرصة، عندما تآمرت ضد الإمبراطور فاستغلها ناركيسوس وأسرع بالقضاء عليها دون إعطائها أي فرصة للدفاع عن نفسها خوفاً من تأثيرها على الإمبراطور وجعله يغير موقفه(١٥).

- ونجحت أجربيينا في ضم بعض المعتقين إلى جانبها ومحاربة البعض الآخر. وشكلت مع كاليستوس وبالاس فريقاً مناوئاً لناركيسوس – الذي كان مخلصاً للإمبراطور – كان الهدف من التعاون بين أجربيينا وبالاس، هو جعل نيرون في المقدمة من أجل العرش وبمساعدة بالاس نجحوا في إقناع الإمبراطور بتبني ابنها في عام ٥٠م. وأصبح بالاس أهم معتق في البلاط الإمبراطوري بفضل حظوته لدى أجربيينا حتى تمكن من تحقيق المزيد من المكاسب له ولأسرته(١٦). كانت تلك هى الأسباب التي هيأت الأجواء الملائمة للفساد واستغلال النفوذ بين أفراد الحاشية المحيطة بالإمبراطور.

- ولقد اتخذ فساد حاشية الإمبراطور عدة أشكال منها:

١- اضطهاد الطبقة الأرستقراطية: فقد اتضح من خلال هذه الدراسة أن السبب وراء هذا الاضطهاد: إما الطمع في ممتلكات البعض منهم، أو الخوف من منافسة البعض الآخر، أو الانتقام. وبما أنه لم توجد تهم حقيقية توجه إليهم، فقد لجأ المعتقون وزوجتا الإمبراطور إلى اضطهادهم عن طريق تلفيق التهم للمستهدف منهم، واستعانوا في ذلك بالوشاة والمخبرين السريين Delatores، والذين كانوا أشخاصاً من كافة فئات المجتمع الروماني وإن كان أغلبهم من العبيد والمعتقين(١٧). كما كان من بين الوشاة بعض الشخصيات البارزة من أبناء الطبقة الأرستقراطية نفسها مثل القنصل فيتلليوس Vitellius والذي فعل كل ما كانت تريده ميسالينا ومن بعدها أجربيينا(١٨).

وكان عدد ضحايا الإضطهادات والاغتيالات الإمبراطورية كبيراً، فكما ذكر سينيكا[١٩]. أن كلاوديوس قد قتل أكثر من خمسة وثلاثون سناتوراً، ومائتين وإحدى وعشرون فارساً رومانياً. وقد اتفق معه سويتونيوس[٢٠] حول عدد ضحايا الإضطهادات الإمبراطورية من بين شيوخ السناتو، إلا أنه ذكر عدداً أكبر من ذلك العدد الذي ذكره سينيكا فيما يتعلق بعدد الضحايا من طبقة الفرسان، فقد أشار إلى مقتل أكثر من ثلاثمائة فارس على يد الإمبراطور بتحريض من زوجتيه ومعتقيه.

"In quinque et triginta senatores trecentosque amplius equites R. tanta facilitate animadvertit" Suet., Claud., XXIX².

وقد بدأت سلسلة القتل بجايوس أبيوس سيلانوس Gaius Appius Silanus – حاكم أسبانيا وزوج أم ميسالينا – وكان السبب وراء قتله هو الانتقام منه بسبب إهانته لميسالينا برفضه الانسياق لرغباتها وتجاهله لها. فقامت ميسالينا بالتعاون مع ناركيسوس بتلفيق تهمة ضده والادعاء عليه بأنه يخطط للتخلص من الإمبراطور[٢١] مستغلين في ذلك أنه كان من بين الأمور التي تثير مخاوف كلاوديوس هو ترويعه بالادعاء بوجود مؤامرات ضده، وفي هذه الحالة كان مسموحاً لزوجتيه ومعتقيه عمل أي شئ يرونه، وغالباً ما كان خوفه يدفعه إلى توجيه الأمر بقتل الشخص المتهم بالتآمر[٢٢].

وأحياناً كان سبب الإضطهاد: الطمع في ممتلكات المستهدف والرغبة في مصادرتها. وحتى يتسنى عمل ذلك، كان يتهم بجريمة عقوبتها المصادرة. ومن الأمثلة على ذلك أن ميسالينا كانت تطمع في حدائق فاليريوس أسياتيكوس Valerius Asiaticus – الذي كان فيما سبق أحد عشاقها – لذلك حرضت ضده حتى تتمكن من الاستيلاء على تلك الحدائق عام ٤٧م[٢٣]. وكذلك كان طمع أجربيينا في حدائق ستاتليوس تاورس Statilius Taurus – حاكم آسيا – هو السبب الحقيقي وراء اتهامه بارتكاب أعمال فساد وقيامه بممارسات

سحرية، وكان أداة أجربيينا في تلفيق الاتهام له هو نائب ستاتليوس تاورس في آسيا. ولم يتحمل تاورس الادعاء الكاذب فانتحر قبل حكم السناتو عليه[٢٤].

وأحياناً كانت الغيرة هي السبب وراء اضطهاد البعض وخاصة النساء من تلك الطبقة، فمثلاً كانت غيرة ميسالينا من جوليا Julia ابنة دروسوس Drussus ابن الإمبراطور تيبريوس Tiberius (١٤ – ٣٧م) بسبب جمالها وقربها من الإمبراطور، هي السبب وراء العمل على نفي جوليا خارج روما عن طريق اتهامها بارتكاب الزنا مع الفيلسوف سينيكا Seneca، ثم دبرت بعد ذلك موتها في المنفى[٢٥]. وقامت أجربيينا بدافع الغيرة أيضا بالسعي لنفي لوليا باولينا Lollia Paulina عمة نيرون ومصادرة ممتلكاتها الضخمة في عام ٤٩م. وكذلك بسبب الغيرة تخلصت أجربيينا من كالبورنيا Calpurnia عام ٥٠م، وهي سيدة أرستقراطية ذات مكانة رفيعة – هذا ما نعرفه عن هذه المرأة فقط –، وذلك بسبب مدح الإمبراطور لجمالها في حديث عابر له[٢٦].

أما التخلص من سيلانوس Silanus حفيد أبيوس سيلانوس، خطيب ابنة الإمبراطور الصغرى في عام ٤٩م، فكان يهدف إلى إزاحته بعيداً عن طريق نيرون، وخطبة ابنة الإمبراطور لنيرون. وكان فيتليوس زميل الإمبراطور في القنصلية هو المدعي بالاتهام ضده، حيث ادعى عليه بارتكاب سفاح محارم مع شقيقته. فألغى الإمبراطور الخطوبة وأجبره على أن يترك منصبه في البرايتورية. فانتحر سيلانوس في نفس يوم زواج كلاوديوس وأجربيينا[٢٧].

٢- الاعتماد على أهل الثقة – لا الكفاءة – وتعيين الأتباع يعتبر شكلاً آخراً من أشكال فساد حاشية الإمبراطور، فقد وجدنا ميسالينا تكافئ عدداً من الرجال المقربين منها بالامتيازات والوظائف ليس لكفاءتهم ولكن لقربهم وحظوتهم[٢٨]. ومن أولئك السناتور جايوس سيليوس Gaius Silius فقد كانت وراء تعيينه قنصلاً. وتطرفت ميسالينا في مكافأة هذا السناتور – الذي كان عشيقها –

بالتخطيط للزواج منه والاحتفال بذلك وهي ما تزال زوجة للإمبراطور عام ٤٨م[٢٩]. وقد عجل هذا التصرف بنهاية الإمبراطورة ميسالينا وسيليوس، والذي انصاع لرغبات الإمبراطورة لأنه كان يعرف أن الرفض يعني الموت المؤكد، لذا تجاهل ما يمكن أن يحدث في المستقبل[٣٠].

وأوعزت أجربيينا للإمبراطور بتعيين أفرانيوس بوروس Afranius Burrus قائداً منفرداً للحرس البريتوري Praefectus Praetorio، تحت دعوى أنه يمكن الاستفادة من الحرس بشكل أكثر فعالية وصرامة إذا ما وضعت قيادته تحت رجل واحد[٣١]. كما تمكن بالاس بما لديه من نفوذ وتأثير لدى أجربيينا من ترقية أخيه فيلكس Felix لمرتبة الفرسان ثم إقرار تعيينه حاكماً Procurator على يهوداً Judae[٣٢].

٣- عزل الخصوم والمناوئيين حتى ولو كانوا من أصحاب الكفاءة وهذا مظهر آخر من مظاهر الفساد، ومن الأمثلة على ذلك أن ميسالينا كانت وراء عزل كاتونيوس جستوسCatonius Justus قائد الحرس البريتورى من منصبه لكونه هددها بإخبار الإمبراطور بتصرفاتها وأفعالها المخزية[٣٣] وفعلت الشيء نفسه الإمبراطورة أجربيينا، فعندما لم يخضع قائدا الحرس البريتورى روفريوس كريسبينوس Rufrius Crispinus ولوسيوس جيتا Lusius Geta لرغباتها في سنة ٥١م، فإنها حرضت الإمبراطور لإزاحتهما عن منصبيهما[٣٤]. وكان السبب الحقيقي وراء عزلهما هو إخلاص الرجلين لذكرى ميسالينا واهتمامهما بأبنائها وهذا ما أزعج أجربيينا منهما. ولذا أوعزت للإمبراطور بعزلهما بدعوى انقسام كتائب الحرس بين الرجلين[٣٥].

كما أُجبر فالريوس مسالا كورفينوس Valerius Messalla Corvinus حاكم المدينة Praefectus Urbi على التخلي عن وظيفته خلال أسبوع دون توضيح أسباب هذا العزل[٣٦]. وكذلك أُجبر أبيوس سيلانوس الصغير Appius

Silanus في عام ٤٨م على التخلي عن برايتوريته عقاباً له على جريمته المزعومة وذلك تمهيداً لإزاحته بعيداً عن طريق نيرون[٣٧].

٤- السعي لنيل الحظوة لدى أصحاب النفوذ من المعتقين وزوجتي الإمبراطور كان أحد مظاهر الفساد، حيث سعى أصحاب المصلحة إلى التقرب منهم، وبذل كل نفيس في سبيل نيل الحظوة لديهم. ومثال ذلك الفارس الروماني آلديوس سيفروس Alledius Severus الذي كرس نفسه لخدمة أهداف أجربيينا ونيل حظوتها[٣٨]. والقنصل فيتلليوس Vitellius الذي سخر نفسه في خدمة ميسالينا ثم أجربيينا، وذلك طمعاً في تحقيق المكاسب الخاصة والامتيازات التي يمكن أن يخرج بها من خلال إرضائه لكلتيهما[٣٩].

وبالنسبة لموظفي البلاط الإمبراطوري من المعتقين. فإنه بالرغم من ازدراء الرومان وكراهيتهم لهم، إلا أنهم كانوا يخشونهم فسعوا لاسترضائهم نظراً لإدراكهم أهميتهم وتأثيرهم على الإمبراطور. وقد توددت بعض الشخصيات الرومانية البارزة من هؤلاء المعتقين، ومنهم على سبيل المثال المُعلم والفيلسوف سينيكا Seneca، والذي تودد إلى بوليبيوس – أحد المعتقين البارزين في البلاط – حيث كتب إليه من منفاه في كورسيكا Corsica، آملاً في أن يكون وسيلة للعفو عنه وعودته إلى روما[٤٠].

وقد ذكرت المصادر[٤١] بعض الأمثلة التي تؤكد إدراك الرومان لمكانة المعتقين وأنهم الحكام الفعليون في الدولة إبان حكم كلاوديوس، فبدون رضائهم كان من الصعب تحقيق شيء. ومن تلك الأمثلة أنه في إحدى المناسبات كان الإمبراطور يقيم مأدبة عشاء ودعا إليها الكثير من الشخصيات البارزة في المجتمع الروماني. وفي الوقت نفسه، كان يقيم أحد معتقي الإمبراطور البارزين – دون ذكر اسمه – مأدبة، فإن المدعوين تجاهلوا دعوة الإمبراطور واحتشدوا على مأدبة ذلك المعتق.

٥- وقد مثلت الرشوة وبيع المناصب المهمة، إحدى أهم مظاهر الفساد انتشاراً في بلاط الإمبراطور كلاوديوس، والتي كانت بمثابة الوسيلة الكفيلة بتحقيق أهداف الراشين سواء بالحصول على منصب؛ أو الإعفاء من حكم قضائي، أو الحصول على لقب شرفي... الخ. فقد ذكر ديوكاسيوس وسويتونيوس[٤٢] أن منح الألقاب الشرفية، وتولية قيادة الجيوش والعفو عن أو توقيع العقوبة وسحب الهبات وإلغاء بعض القرارات، كل ذلك كان يتم بتدخل من المعتقين وزوجتي الإمبراطور ووفقاً لمشيئتهم.

وقد حرصت ميسالينا والمعتقين على بيع كل شئ، فإلى جانب ما سبق كان هناك بيع المواطنة التي اشتراها الكثيرون بمبالغ مالية ضخمة في أول الأمر، سرعان ما أصبحت تباع بمبالغ أقل وذلك بسبب سهولة الحصول عليها، حتى أصبح هناك قول شائع، بأن الرجل يمكن أن يصبح مواطناً عن طريق إعطاء الرجل المناسب بعض قطع الزجاج[٤٣].

وطالما كان الحصول على المنصب قد تم عن طريق الرشوة، فقد ترتب على ذلك قيام الراشين بتعويض ما دفعوه من أموال على حساب وظائفهم ومواطنيهم، لذلك لم يقتصر انتشار الفساد على العاصمة فقط وإنما امتد إلى الولايات الرومانية. وتمثل ذلك في شكل الرشوة والمحسوبية في تعيين حكام الولايات وتواطؤ المعتقون مع أولئك الحكام من خلال توفير الغطاء اللازم لحمايتهم وعدم وصول أصوات الشاكيين من فسادهم إلى الإمبراطور.

وقد مثلت الرشوة أحياناً إحدى الوسائل لإلغاء بعض الأحكام القضائية، نرى ذلك عندما تمكنت أجربيينا مثلاً من إلغاء اتهام وجهه السناتور جونيوس لوبوس Junius Lupus إلى أحد أنصارها ورجالها المخلصين وهو القنصل فيتلليوس، وذلك رغم أن الاتهام الموجه إليه كان اتهاماً خطيراً، حيث أتهم بالخيانة والتخطيط ضد الإمبراطورية[٤٤].

وقدمت الرشوة أحيانا من أجل التستر على أعمال فساد ارتكبها البعض، مثلاً عندما جاءت بعثة من بيثنيا Bithenia إلى الإمبراطور كلاوديوس عام ٥٣م للشكوى من ممارسات نائبه هناك جونيوس كيلو Junius Cilo واتهامه بالابتزاز وتلقي الرشاوي. وكان ناركسيوس يصطحب الإمبراطور لدى مقابلته لهم، ونتيجة للضوضاء المحيطة في تلك الأثناء لم يسمعهم الإمبراطور وبدلاً من أن يخبره ناركيسوس بالحقيقة، فإنه تستر على جونيوس وضلل الإمبراطور مدعياً بأنهم جاءوا ليعبروا عن امتنانهم للإمبراطور والذي بدوره صدق ناركسيوس وقال "حسناً فإنه سوف يكون نائباً لعامين آخرين".

" Oΰkoὒv έπί δıεTές έTı έπıTροπεύσει "[٤٥].

ولقد تمكن المعتقون وزوجتا الإمبراطور عن طريق الرشوة ومصادرة ممتلكات الغير، وبيع المناصب، والامتيازات من جمع ثروات ضخمة. وقد ساعدهم الإمبراطور في جمعها، وذلك عن طريق غض الطرف عن الوسائل التي استخدمها رجاله المقربون وزوجاته. وذات مرة عندما اشتكى الإمبراطور من ضعف موارده المالية، فكانت الإجابة بأنه سوف يجد أموالاً كافية إذا شارك معتقية ناركيسوس وبالاس ثروتهما[٤٦]. ويبدو أن ثروة هذين المعتقين كانت ضخمة لدرجة لاكتها الألسن حتى أصبح هناك قول مأثور بين الرومان وهو "غنى مثل ناركيسوس" للتعبير عن ثروة خرافية[٤٧]. وكذلك جمعت أجربيينا ثروة غير محدودة، وفي سبيل جمعها لم تترك أي وسيلة يمكن أن تدر عليها الأموال إلا واستخدمتها حتى وإن كانت وسيلة أكثر وضاعة وحقارة[٤٨].

٦- وكان نشر الممارسات المنافية للآداب مظهراً آخر من مظاهر فساد حاشية الإمبراطور، فقد عُرف عن الإمبراطورة ميسالينا أنها امرأة لعوب سيئة السمعة. واشتهرت بعلاقاتها الكثيرة ونزواتها، ولم تكتف بممارسة الرذيلة وإنما عملت على نشرها حيث أجبرت الكثيرات من نساء الطبقة الأرستقراطية على

ممارسة الفاحشة داخل القصر الإمبراطوري بحضور أزواجهن. ومَن قَبِل ذلك الفعل المشين منهم، كافأتهم ميسالينا بالامتيازات والوظائف. أما أولئك الذين رفضوا تقديم زوجاتهم لمثل هذا العمل، فإنهم جلبوا على أنفسهم نِقمة الإمبراطورة، وسعيها الحثيث في القضاء عليهم في نهاية المطاف(٤٩).

وقد بالغ البعض في القول بأن الإمبراطورة لم تمارس الرذيلة فقط داخل القصر الإمبراطوري، وإنما مارستها خارج القصر أيضا في دار خاصة للبغاء. وأنها كانت تقابل كل القادمين وتطلب ثروتهم ثمناً لذلك، وبعد انتهائها من ممارسة هذه الأفعال كانت تعود إلى القصر والإمبراطور مازال نائماً(٥٠).

وفي الوقت الذي انتشرت فيه أخبار ممارسات ميسالينا بين العامة، استاء الكثيرون وغضبوا من الإمبراطور – والذي بدا وكأنه الوحيد الذي لا يعرف شيئاً عن أفعال زوجته– وقد وصل سخط العامة على ميسالينا ذروته عندما تدخلت لإنقاذ أحد الأشخاص المدانيين، لا لشئ إلا لأنه كان أحد عشاقها؛ وهذا الشخص هو كورنيليوس سابينوس Cornelius Sabinus القائد السابق للحرس الجرماني الخاص في عهد الإمبراطور جايوس كاليجولا Gaius Caligula (٣٧ – ٤١م)، والذي أوشك على أن يُقتل في معركة مصارعة لو لم تتدخل ميسالينا وتنقذه(٥١). وكذلك استاء العامة كثيراً عندما أخذت الإمبراطورة الراقص منستر Mnester بعيداً عن المسرح وأبقته معها داخل القصر، وحرمت الناس من رقصه وتمثيله(٥٢).

- ومن الجدير بالملاحظة أن فساد حاشية الإمبراطور كانت له عدة آثار سلبية، يأتي في مقدمتها انحراف أسلوب الإمبراطور في سياسته انحرافاً مغايراً لذلك الأسلوب الذي بدأ به حكمه. وكانت الإجراءات التي اتخذها كلاوديوس عقب توليه العرش قد حظيت بتقدير جميع الرومان على اختلاف انتماءاتهم، والتي كانت بداية طيبة حيث اتخذ مجموعة من الإجراءات المالية والتي من خلالها

ألغى الضرائب التي كان الإمبراطور كاليجولا قد فرضها. وأعاد المنفيين ورد لهم ممتلكاتهم، وأطلق سراح السجناء المتهمين بالخيانة العظمى Maiestas. ولكنه في الوقت نفسه عاقب مرتكبي الجرائم الفعليين(٥٣).

- ولكن سرعان ما انقلب كلاوديوس على ما بدأ به حكمه، إذ انتشر في عهده نهب الثروات ومصادرة الممتلكات والنفي والقتل، والإفراط في استخدام قانون الخيانة العظمى وذلك كله بسبب رضوخه لإملاءات زوجتيه ومعتقيه فقد استغلوا المؤامرة الفاشلة ضده بعد حوالي عام من توليه العرش. وسخروا كل تصرفات الإمبراطور – بسبب الخوف على حياته –بما يخدم مصالحهم ورغباتهم. بالإضافة إلى أن تساهله وسلبيته تجاههم قد شجعهم على استغلال الفرص لتحقيق أهدافهم وهو تكديس ثروات ضخمة، حيث استخدموا كل الوسائل الممكنة من النهب والابتزاز والرشوة والمصادرة إلى آخره، وبطبيعة الحال ولكي يتمكنوا من تحقيق ذلك ارتكبوا الكثير من الجرائم(٥٤).

- ومن الآثار التي ترتبت على فساد حاشية الإمبراطور انتشار الفساد في إدارة الدولة والولايات، فإن أولئك الذين شغلوا المناصب الهامة في الدولة والولايات عن طريق تدخل وحماية تلك الحاشية الفاسدة، مارسوا الفساد هم أيضا، بل وتمادوا فيه، لكونهم مطمئنين إلى عدم الوقوع تحت طائلة المساءلة والمحاسبة، ومثال على ذلك جونيوس كيلو نائب بيثنيا(٥٥). وفيلكس نائب يهوداً وشقيق المعتق بالاس. وكان قد أساء الحكم في يهوداً وهو محصن بسبب نفوذ أخيه(٥٦).

- ازدياد الاعتماد على الوشاة والمخبرين السريين Delatores(٥٧)، والذين ازدهر دورهم بشكل كبير في عهد كلاوديوس نتيجة الإضطهادات التي مارستها حاشية الإمبراطور فقد لجأوا إلى الوشاة في إثبات التهم ضد البعض أو إلصاق التهم ضد البعض الآخر، والأمثلة على ذلك كثيرة – كما سبق وذكرنا – وكلما

ازدادت أطماع حاشية الإمبراطور، كلما زاد الاعتماد علـــى أولئـك الوشـــاة، والذين كانوا وسيلة نافذة المفعول لتحقيق ما يريدون.

- تفشي ظاهرة إعدام أثرياء المجتمع الروماني دون محاكمات عادلة. وقد عُرفت هذه الظاهرة بمحاكم القصر الإمبراطوري، حيث كانت تـتم داخـل القـصر وبحضور حاشيته وكان يتم الحكم في تلك القضايا بـشكل سـريع، لأن تلـك المحاكمات كانت تتم بناءً على تهم زائفة غير حقيقية والهدف من ورائها هـو التخلص من أولئك الأشخاص والاستيلاء على ثرواتهم، فبالتالي كان من غيـر المنطقي إعطائهم الفرصة للدفاع عن أنفسهم، ومن ثم عمـدوا إلـى التعجيـل بالمحاكمة وإصدار الإدانة ومن ثم التخلص منهم(٥٨).

- وقد ضمت قائمـة الـذين أعـدموا الكثيـرين "quando quidem divus Claudius Occidit Socerum Suum Appium Silanum, generos duos Magnum Pompeium et L. Silanus, Socerum Filiae Suae Crassum Frugi.... Scriboniam socrum filiae suae", (Seneca, Apocolo., 11). "Hic erat C: Silius Consul designatus, Iuncus Praetorius, Sex. Traulus, M. Helvius, Trogus, Cotta, Vettius Valens, Fabius equites R. quos Narcissus duci iusserats. Deinde praefecti duo Iustus Catonius et Rufrius Pollio. Deinde amici Saturninus Lusius et Pedo Pompeius et Lupus et Celer Asinius Consulares. Novissime Fratris Filia, Sororis Filia, generi, soceri, socrus, Omnes Plane Consanguirei" (Seneca, Apocolo., 13). وبنظرة سريعة على الأسماء التي ورد ذكرها في النص والتي أُعدم أصحابها في عهد كلاوديوس، نجد أن كل من يمكـن أن يشكل خطراً أو مطمعاً لأصحاب النفوذ، كان هدفاً يجب إزاحته ولـذا وجـدنا تنوعاً كبيراً فيمن تم إعدامه ما بين قادة: (مثل جستوس كـاتونيوس Justus Catonius وروفريوس بوليوس Rufrius Pollius) قائدي الحرس البريتوري، وقناصـل: (مثـل سـاتورنينوس لوسـيوس Saturninus Lusius، وبيـدو

بومبيوسPedo Pompeius) لا توجد أي إشارة عنهما سوى أنهما قنصلين [٥٩] وبعض أفراد عائلة الإمبراطور نفسه وأصهاره: (مثل حماه زوج أم ميسالينا القنصل أبيوس سيلانوس Appius Silanus وحفيده لوكيوس سيلانوس Lucius Junius Silanus خطيب ابنة الإمبراطور الصغرى) عام ٤٩م[٦٠]. كما أُعدم الكثير من الفرسان بأمر من ناركيسوس ومن أولئك سكستوس تراولوس Sextus Traulus وفيتيوس فالنس Vettius Valens والكثير غيرهم وذلك وفقاً لما جاء بالنص السابق[٦١]. وكانت هذه مجرد أمثلة لكثير ممن قُتلوا في عهد كلاوديوس، وليس مجالنا هنا حصر كل أولئك الضحايا، ضحايا جشع زوجتي الإمبراطور ومعتقيه.

- ضعف هيبة الإمبراطور وتراجعها أمام ازدياد سطوة المعتقين وزوجتيه الذين تخطوا سلطته في بعض المسائل المهمة، فعلى سبيل المثال أمر ناركيسوس بإعدام بعض المناوئين مدعياً بأن الأمر صادر عن الإمبراطور، ومن ثم أُعدم الكثير من الفرسان بناءً على أمر ناركسيوس[٦٢]. كما ذكر سويتونيوس[٦٣] أن أحد قادة المائة Centurion قد نفذ حكم الإعدام على قنصل سابق وهو أبيوس سيلانوس، وعندما علم الإمبراطور بالأمر، قال بأنه لم يصدر أوامر التنفيذ، إلا أنه مع ذلك استحسن عمل قائد المائة، وأعلن أن الجنود قد أدوا واجبهم في الإسراع بالانتقام للإمبراطور دون أوامره.

- ويشير جوفينال[٦٤] إلى أن الإمبراطور كان يطيع أوامر ناركيسوس عندما أصدر أمراً بإعدام ميسالينا. وخوفاً من تأثيرها على كلاوديوس، فإن ناركيسوس أوصى بإبعادها إلى حدائق أسياتيكوس، وأرسل قائد مائة، وتربيون لكي ينفذا فيها حكم الإعدام، مدعياً بأن الأوامر صدرت من الإمبراطور[٦٥]. وقد كان تصرف ناركيسوس حرصاً منه على مصلحته الخاصة التي تتطلب استمرار كلاوديوس في الحكم. وحتى يضمن ناركيسوس نجاح محاولته اقترح

بأن يتولى قيادة الحرس البريتورى بنفسه مؤقتاً للقيام بالعملية فقط. خاصة وأن قائدي الحرس روفريوس كريسبينوس، ولوسيوس جيتا لم يكونا موضع ثقته، لأن ولاءهما كان للإمبراطورة ميسالينا صاحبة الفضل في تعيينهما[٦٦].

- وقد كان تآمر زوجتى الإمبراطور كلاوديوس ضده من أكثر التصرفات التي عكست ضياع هيبته حيث تآمرت ميسالينا ضد كلاوديوس الذى كان فى أوستيا Ostia لخلعه عن العرش ورغبت فى تعيين أحد عشاقها سيليوس إمبراطوراً بدلاً منه[٦٧]. لكن المحاولة فشلت وقرر كلاوديوس إعدامه عام ٤٨م. ويبدو أنها أقدمت على هذا التصرف لأنها كانت تعتقد بأنها هي التي تعطي الشرعية لمكانة زوجها بحكم انتمائها للأسرة الإمبراطورية. وفي الوقت ذاته كانت تتطلع إلى أن يكون سيليوس Silius وصياً على ابنها برتيناكس تمهيداً للاستحواذ على السلطة[٦٨]. وربما كان إقدامها على هذا التصرف هو اعتقادها في أن لديها القدرة على إزاحة الإمبراطور ووضع مَّن تريد بديلاً عنه، وربما شجعها على ذلك هو ثقتها في بعض الأتباع وأصحاب الحظوة ومساندتهم لها عند الحاجة. وبأن أصحاب النفوذ من المعتقين لن يُقدموا على شئ دون موافقتها. إلا أن حساباتها قد خانتها خاصة وأن المعتقين قد فقدوا ثقتهم بها، وبالتالي لن يوفروا الدعم الذي تحتاجه.

- أما زوجته الأخرى، فقد تآمرت ضده عندما انتهى دوره في إعلان تبنيه لابنها نيرون ولياً للعهد. ولإدراك أجربيينا بطبيعة الإمبراطور المترددة فإنها خشيت أن يغير موقفه من تبني ابنها، وبالتالي الإطاحة بكل خططها التي رسمتها من أجل الوصول لهذا الهدف. ومما زاد من مخاوف أجربيينا هو تزايد اهتمام الإمبراطور بابنه الحقيقي برتيناكس وإضفائه أهمية ورعاية عليه، مما دفع أجربيينا إلى التفكير في التخلص من الإمبراطور خوفاً من أي تصرف من جانبه قد يؤدي إلى إفشال مخططاتها. لذلك دست له السم في الطعام[٦٩].

مما سبق يتضح أن فساد الحاشية المحيطة بكلاوديوس كان نتيجة طبيعية لثقة الإمبراطور فيهم، مما شجعهم على السير في هذا الاتجاه لإدراكهم بأنهم كانوا من خلال الوظائف التي يشغلونها بمثابة العين التي يرى بها والأذن التي يسمع بها، لذا شكلوا جداراً فاصلاً بين الإمبراطور وبين الشعب الروماني وتحكموا في تحديد المسموح به والمحظور منه. وصار الإمبراطور بحكم السلطة التي يمثلها هو منفذاً لرغباتهم.

- كان إدراك الحاشية لمواطن الضعف في شخصية كلاوديوس، عاملاً مساعداً على تنفيذ مصالحهم الخاصة. فعملوا على توسيع الهوة بين الإمبراطور من ناحية وبين الطبقة الأرستقراطية والفرسان من ناحية أخرى. عن طريق ترديد العديد من الشائعات حول وجود مؤامرات ضد حياة الإمبراطور، واتخذوا من ذلك مبرراً لتحريضه ضد أبناء تلك الطبقتين، من أجل التخلص من منافستهم والاستيلاء على ثرواتهم.
- شكل تلاقي المصالح المشتركة ما بين المعتقين وزوجتا الإمبراطور عامل ضغط قوي عليه، ودفعه إلى إصدار قرارات تصب في مصلحة كلا الطرفين بغض النظر عن مصالح الدولة العامة.

الحـــواشـــي:

1) Dio, Lx, I; Suet., Claudius, 10.
2) Dio, Lx, 2^{1-3}; Suet., Claudius, xxx.
3) Claudius, xxx.
4) Dio, Lx, 2^{5-6}; 3^{-3}.
5) Suet., Claudius, XXXIII; Dio, Lx, 2^{5-6}.
6) Charleswarth, Gaius and Claudius, 670; Oost, Pallas, 125; Weaver, Imperial Freedmen, 10; Trimble, Juvenal, 38.
7) Millar, Emperors, 10; Fagan, Messalina's Folly, 569.
8) Alston, Romman History, 249.
9) Dio, LXI, 6 [b][Zonaras, 11, 9, p. 30, 10 – 19D]; Suet., Claudius, XXVIII.
10) Suet. Claudius, XXVIII; Seneca, ad Polyb. VI.
11) Chaleswarth, Gaius and Claudius, 687; Oost, Pallas, 126.
12) Ad polyb., VI.
13) LXI, 33^{12}.
14) Seneca, Apocolo, 13.
15) Tac., Ann. XI, XXIX; Dio, LXI, 31^{1-2}.
16) Oost, Pallas, 130; Charleswarth, Gaius and Claudius, 673.
17) Tac., Ann. XII, Lix; Dio, Lx, 16^{1-2}.
18) Tac., Ann. XII, IV.
19) Apocolo, 14.
20) Claudius, $XXIX^3$.
21) Suet., Claudius, XXXVII; Dio, LX, 14^{1-4}; Seneca, Apocolo, 11.
22) Suet., Claud., XXXVI; Dio, LX, 14.
23) Tac., Ann. X1, I; Seneca, Apocolo, 11; Dio, LXI, 29^{6a} (Zonaras 11, 9, P.30, 1-6D).
24) Tac., Ann. X11, LIX.

25) Dio, LX, 8[4-6].
26) Tac, Ann. X11, XX11.
27) Suet. Claudius, XXIX; Seneca, Apocolo, 10; Baldwin, Execution under Claudius, 40.
28) Dio, LX, 18[1-2].
29) Dio, LXI, 31[3-5].
30) Tac., Ann. X1, X11; Juvenal, Sat. X, 330 – 355.
31) Tac., Ann. X11, XL11.
32) Tac., Ann. X11, LIV.
33) Dio, LX, 18[3-4].
34) Dio, LXI, 326a, Tac. Ann. X11, XL11.
35) Tac., Ann. X11, XL11.
36) Seneca, Apocola., 10.
37) Suet., Claudius XX1X; Seneca, Apocolo., 10.
38) Tac., Ann. X11, V11.
39) Tac., Ann. Xl1, IV; Suet., Claudius, XX1X.
40) Charleswarth, Gaius and Claudius, 699.
41) Dio, LX, 2[6]; Suet., Claudius, XXV.
42) Dio, LX, 16; Suet., Claudius, XXIV.
43) Dio, LX, 17[5-8].
44) Tac., Ann. X11, XL11.
45) Dio, LXI, XXXII [1,3].
46) Suet., Claudius, XXV111; Juvenal, Sat., X1V, 325 – 330.
47) Trimble, Juvenal, 38.
48) Dio, LXI, XXXII [1;3].
49) Dio, LX, 18[1-4].
50) Juvenal, Sat. V1, 120 – 132; Fagan, Missalina's Folly, 571.
51) Dio, LX, 28[1-6].

52) Dio, LX, 28[1-6].

53) Dio, LX, 3[-6]; 4.

54) Dio, LXI, 32 [1;3]; Suet., Claudius, XXVIII; Mc Alindon, Sentorial Opposition, 114; Mc Alindon, Claudius and The Senators, 280.

55) Dio, LX1, 32 [1;3].

56) Tac., Ann. X11, LIV.

57) Tac., Ann. X11, L1x; Dio, Lx, 16 [1-2].

58) Dio, LXI, 29[-6a] (Zonaras, 11, 9, p. 30, 1-6D); Suet., Claudius, XX1X.

59) Seneca, Apocolo, 13.

60) Seneca, Apocolo., 11.

61) Seneca, Apocolo., 13.

62) Seneca, Apocolo., 13.

63) Claudius, XX1X, 3.

64) Sat. XIV, 325 – 330.

65) Tac., Ann. X1, XXXV11; Dio, LXI, 31[3-5].

66) Dio, LXI, 32.

67) Juvenal, Sat. X, 330 – 355; Tac., Ann. XI, XXV1 – XXV11; XX1X.

68) Mullens, Women of Caears, 62.

69) Juvenal., Sat. V, 145-47; Sat VI.; Dio, LXI, 34 (1-2).

المصـــادر والمراجـــع

أولاً: المصـــادر:

Dio Dio Cassius, Roman History, LCL, eng. tran. by Earnest Cary (in nine vols.) vols. VII + VIII (London, 1960).

Juvenal, Sat.Juvenal.,Satires, LCL with an eng. trans. by G.G. Ramsay, LCL (London & New York, 1928).

Seneca, ad Poly. Seneca, Moral Essays, LCL, eng. trans. by John W. Basore. II (London, 1990).

Seneca, Apocolo. Seneca, Apocolocyntosis, LCL, eng. trans. by W.H.D Rouse, M.A. Litt.D. (London, 1925).

Suet., Claudius Suetonius, De vita Caesarum, LCL, eng. tran. by J.C. Rolfe (in Two volumes) Book v. Claudius (London, 1944).

Tacit., Ann. Tacitus, The Annals, LCL, eng. trans. by John Jackson (London, 1986).

ثانياً: المراجـــع:

- Alston, Roman History. Richard Alston, Aspects of Roman History, Ad 14 – 117, (London & New York, 1998).

- Baldwin, Executions. under Claudius B. Baldwin, Exexution under Claudius: Seneca's Ludus de Morte Claudii," Phoenix, vol. 18, No. 1 (Spring, 1964) 39 – 48.

-Charleswarth, Gaius and Claudius Charleswarth; "Gaius and Claudius" CAH, vol. X, Ch. XX (1979) 653 – 701.

- Fagan, Messalina's Folly Garrett G. Fagan, "Missalina's Folly" CQ, New series vol. 52, No. 2 (2002) 566 – 579.

- Mc Alindon, Senatorial opposition D. MC. Alindon,

"Senatorial opposition to Claudius and Nero", AJph, vol 77, No. 2 (1956) 113 – 132.

- Mc Alindon, Claudius and Senators D. Mc Alindon, "Claudius and the Senators, AJph, vol. 78, No. 3 (1957) 279 – 286.

- Millar, Emperors. Fergus Millar, "Emperors at Work", JRS, vol. 57, No. 1/2 (1967) 9 – 19.

- Mullens, Women of the Caesars H. G. Mullens, "The women of the Caesars", Greece & Rome, vol. 11, No. 32 (Feb. 1942) 59 – 67.

- Oost, Pallas. Stwart Irvin Oost,"The Career of M. Antonius Pallas", AJph., vol. 79, No. 2 (1958) 113 – 139.

- Trimble, Jurenal. Helen Bell Trimble, "Juvenal and The Roman Emperors" (University of pennsy Lvania, 1912).

- Weaver, Imperial. Freedmen P. R.Weaver, "Social Mobility in Early Roman Empire: The Evidence of the Imperial Freedmen and Slaves", Past & Present, No. 37 (Jul., 1967) 3 – 20.

سياسة الادارة الرومانية تجاه النقابات في مصر

د. وائل حمدى جابر
مدرس التاريخ اليونانى والرومانى
كلية الآداب – جامعة سوهاج

هذه المقالة تعالج سياسة الادارة الرومانية تجاه النقابات الحرفية فى خلال فترة الحكم الرومانى لمصر وذلك من خلال مما يلى :

- ماهية النقابات الحرفية فى مصر خلال الحكم الرومانى
- الادارة الرومانية ومحاولة السيطرة القانونية على النقابات
- سياسة الامتيازات والاستثناءات الادارية والاقتصادية التى منحتها الادارة الرومانية للنقابات
- سياسة الامتيازات الاجتماعية التى منحتها الادارة الرومانية للنقابات

* ماهية النقابات الحرفيه في مصر خلال الحكم الرماني:ـ

ظهرت النقابات والجمعيات الدينيه والحرفيه في بلاد الاغريق منذ عصر سولون الذي اعطي لها غطاء قانوني ما دامت لا تتعارض مع قوانين الدوله، وخاصه ان هذه النقابات كان نشاطها ينحصر في المجال (اقامة الاحتفالات الدينيه الخاصه بالإلهه) لذا فانها تجمعت حول إله أغريقي او بطل من ابطال الاغريق لمزاوله مهامها (١).

اما في العصر البطلمي فكانت النقابات تمثل في البدايه نفس المهام الدينيـــه التي أنشئت من اجلها لدي الاغريق فكانت تمثل في عصر البطالمه الجهه الخيريه التي كانت تساهم في اعمال الخير بالنسبه لاعضائها, فكانت تقوم باقامة الاحتفالات الدينيه للإلهه الإغريقيه والعمل علي نشر عباده هذه الإلهه، كما كانت تقوم بتمويل عمليات دفن الموتي لغير القادرين، ثم تطورت خدماتها لتصبح بمثابـــه الوكـــالات التنظيميه للنشاط الحرفي والتجاري الذي ينتسب اليه اعضائها (٢)، في حين أنهـــا مثلت في العصر الروماني متنفساً للأفراد لإحساسهم بالعزلة السياسية والإجتماعية وخاصة الطبقة الفقيرة من الحرفيين والتجار في المجتمع والتي شـــعرت باســـتبداد الإدارة الرومانية ، فقد اوحت النقابات الى أعضائها باستقلالهم عن الدولـــة التـــي جعلت منهم مواطنين عديمي القيمة ، فتصور الأفـــراد أن النقابـــات هـــي المـــلاذ الاجتماعي والسياسي والاقتصادى من الاضطهاد الذي تعرضوا لـــه مـــن جانـــب الإدارة الرومانية (٣).

ويذكر محمد فهمي في مقالته عن النقابات الحرفيه في مصر في عصر الرومان (٤), العديد من وثائق البردي التي تشير الي تعدد وتنوع الحرف في تلك الاونه وارتباط هذه الحرف بانتاج سلع بعينها والاتجار فيها مُقسما هذه الحرف الي حرف منتجه للمواد الغذائيه، ثم التجار الذين كانوا يتاجرون في تلك السلع، ثم يعدد الحرف القديمه في مصر والتي كانت متاصله فيها قبل الحكم الروماني وظل المصريون يعملون بها حتي الحكم الروماني، ثم يذكر بعض الحرف الصناعيه الدخيله علي المجتمع المصري والتي انتشرت في تلك الاونه، ويتضح من تلك الدراسه انتشار العديد من الحرف في مصر خلال فتره الحكم الروماني وتنوعها مما ادي الي انتشار النقابات والجمعيات الدينية والحرفية والتجارية في مصر أثناء تلك الفتره ، وأثار ذلك أسئلة هامة حول وجود هذه النقابات وأعضائها وكيفية تعامل السلطة الرومانية معها، وما كانت تؤديه تلك النقابات من خدمات لأعضائها والمجتمع ودورها لمؤسسات خدمية منحت الفرصة لأعضائها بممارسة أنشطة

سياسية واجتماعية في صور متعددة، مثل إقامة عبادات للألهة الراعية وتقديم وجبات الطعام العمومية للعامة، وإقامة الإحتفالات الخاصة بحفلات الزواج أو الولادة والقيام بترتيب الأمور الخاصة بإقامة الشعائر الجنائزية، وكل ذلك نتج عنه علاقة بين النقابات وبين الإدارة المحلية في مصر تمثلت في سياسة الإدارة الرومانية مع النقابات وكيفية احتواءها ومحاولة النقابات ممارسة أنشطتها وتجاوز القيود التي فرضتها عليها الإدارة(٥).

ولعبت النقابات الحرفية والتجارية في مصر أثناء فترة الحكم الروماني دوراً اقتصادياً واجتماعياً هاماً بالنسبة لأعضائها والمجتمع بشكل عام، وكانت الغالبية العظمى من أعضاء تلك النقابات من صغار الحرفيين والتجار الذين لم يكن لديهم ثروات، وضمت كذلك بين أعضائها من كان لهم ثروات، واستطاع أصحاب الثروات داخل النقابات أن يلعبوا دوراً بارزاً في أنشطة النقابات ألاقتصاديه والاجتماعية ، مما كان له ابلغ الأثر في أن تصبح مصدر قلق للإدارة الرومانية في مصر(٦).

إلا أن الإدارة الرومانية تعاملت مع النقابات من منطلق تنفيذ متطلباتها ومصالحها وكيفية تحقيق أكبر قدر من المكاسب من وراء تكوين وانتشار هذه النقابات وكيفية استغلالها لأنشطة تلك النقابات بما يتوافق وخدمة أغراضها، فيلاحظ أن الإدارة الرومانية في أحيان كثيرة كانت تدعم وتشجع انضمام الأفراد لنقاباتهم حتى أنها ألزمت الحرفيين والتجار في بعض المهن بأن ينضموا إلى نقاباتهم وفُسر ذلك الإلزام من جانب الإدارة على أنه كان بدافع حصر العاملين في المهن التي ألزم الأفراد المشتغلين بها بالانضمام لنقاباتهم لتحصيل الضرائب من الأعضاء المسجلين في تلك النقابات(٧).

واستطاعت النقابات أن تلعب دوراً هاماً بالنسبة لأعضائها في تلك الفترة حيث منحتهم الإحساس بالانتماء لحرفهم وتجارتهم وقدرتهم على اتخاذ القرار الذي

يصب في مصلحتهم، وممارسة أنشطة اجتماعية وسياسية كانوا محرومين منها قاموا بممارستها داخل نقاباتهم فمثلاً استطاع الأعضاء انتخاب رئيسهم واختياره(٨)، وهذا المفهوم المتنامي عن المشاركة السياسية والاجتماعية داخل النقابات في مصر خلال فترة الحكم الروماني كان مقتبس من تكوينات الفكر اليوناني في النظم السياسية لإدارة المدن Polis اليونانية والتي كانت تسمح للأفراد بإدارة شئون مدنهم، في حين إن الإدارة الرومانية كانت تمنع الأفراد داخل مصر من ممارسة الأنشطة السياسية بمفهومها، وبالتالي أصبحت النقابة هي القبلة الوحيدة للأفراد لممارسة تلك الأنشطة السياسية بمفهومها اليوناني والذي كانت تدار به المدن اليونانية(٩).

وقد تشابهت الإدارة في بناءها وتكوينها داخل النقابات إلى حد كبير بتلك الإدارات التي إدارات المدن اليونانية، وبناءً على ذلك فالأفراد الذين كانوا مسئولين عن النقابات كان لديهم إحساس بضرورة ممارسة دوراً فعالاً داخل المجتمع، فلم تقتصر خدماتهم على أعضاء

نقاباتهم وإنما قاموا بخدمات إدارية في بعض الأحيان وخدمات اقتصادية واجتماعية في أحيان أخرى، وسواء أكانت هذه الخدمات إلزامية من قبل الإدارة الرومانية بمعني فرض تعاقدات علي هذه النقابات لانجازها من خلال أعضاءها وبضمان رؤساؤها الأثرياء أو أنها تطوعية إلا أنها أدت إلى تواصل النقابات مع مختلف فئات المجتمع وخاصة في مجال التدريب على الصناعات والحرف وإشراف النقابات على تعليم المهن لأبناء أعضائها ومحاولة توريثهم تلك المهن(١٠).

وشهدت مصر في القرون الأولي للحكم الروماني العديد من المساهمات النقابية لتدريب الحرفيين والتجار على المهن وكذلك الممارسات الفعلية لأعضاء النقابات المختلفة في الإدارة المحلية للقرى والمدن التي يقطنوا فيها (١١).

وتشير إحدى الوثائق من القرن الثالث إلى ذلك حيث توضح أن أحد الأشخاص ويدعي سيبتيميوس سيرينوس Septimius Serenus والذي كان يمتلك إحدى الورش الخاصة بتصنيع الفخار وعضو في النقابة الخاصة بمهنته ويشغل في نفس الوقت منصب ذو منزلة رفيعة داخل الإدارة المحلية لقريته (١٢).

وفي أحيان كثيرة كانت الإدارة المحلية تقوم بانشاء بعض المجموعات أو النقابات لتسخيرها لخدمة أغراضها، مثل تلك النقابات أو المجموعات الزراعية التي أنشأتها الإدارة المحلية في قرية ثيادلفيا لتأجير وزراعة الأراضي الخاصة بالدولة في تلك القرية(١٣).

وتشير أوراق البردي إلى تعدد النقابات داخل مصر في فترة الحكم الروماني لمختلف المهن سواء أكانت تجارية أو حرفية، مثل نقابة العاملين بالمؤن الخاصة بالوقود(١٤)، ونقابة خاصة بالعاملين في مجال الحياكة(١٥)، ونقابة العاملين في إمدادات المياه(١٦)، ونقابة تجارة الأصواف(١٧)، ونقابة تجار الملح(١٨)، والعاملين في مجال نقل الحبوب(١٩)، ونقابة الملاحيين البحريين(٢٠)، ونقابة الفنانيين والرياضيين الذين كانوا يشاركوا في الاحتفالات الموسيقية والألعاب المختلفة(٢١)، ونقابة صانعي الفضة(٢٢)، ويذكر محمد فهمي العديد من النقابات التي قام بحصرها من خلال وثائق البردي مثل نقابه الحمالين وصانعي الزجاج وبائعي الزيوت العطريه وتجار الكتان وصناع الفخار الطيني ونقابه السماسره وصناع الزيت وتجار البهار وبائعي شربه السمك وتجار النبيذ وتجار التقاوي والخضروات والقصارين وحافظي البيره وبائعي العطور(٢٣).

وقد انخرط كل من الحرفيين والتجار المشتركين في النقابات والذين كانت لهم مناصب إدارية داخل النقابات في تقديم الخدمات الخاصة بالطقوس الدينية للعبادات مثلهم في ذلك مثل الجمعيات الدينية فكان لكل نقابه اهتماماتها الدينية الخاصة بها وذلك مساهمة منهم في خدمة المجتمع دينياً ويبدو أن هذه المساهمات

الدينية كانت للتواصل مع المجتمع ، وكذلك تولوا مناصب إدارية داخل القرى والمدن التي يقطنوا بها كنتيجة لمكانتهم كأعضاء بارزين في نقاباتهم (٢٤).

ويبدو أن بعض الحرف والمهن التجارية قد حاز المشتغلين بها مكانة اجتماعية بارزة لعلاقة تجارتهم وحرفهم بما يقدم من خدمات للإدارة الرومانية تقدم في صورة عقود بين النقابات وبين الإدارة المحلية ، ومن خلال هذه العلاقات كانت الفائدة متبادلة بين الاداره وبين النقابات وإفرادها، إما الاداره فكانت تستفيد ضمان انجاز إعمالها في الوقت المطلوب وباجر اقل مما كان متداول في تلك الفترة، كما عادت الفوائد الاقتصادية والاجتماعية على أعضاء النقابات بحصولهم علي هذه التعاقدات بصوره تضمن لهم استمرار الدخل من هذه العقود ومن ثم على المجتمع بصورة غير مباشرة كنتيجة للمشاركات الفعالة لأعضاء النقابات "وخاصة البارزين منهم" في تاديه خدماتاتهم للمجتمع (٢٥).

* الإدارة الرومانية ومحاولة السيطرة القانونية على النقابات:ـــ

قامت الإدارة الإمبراطورية بتقسيم النقابات إلى فريقين، فريق مميز وتقوم الدولة بمنحه العديد من الامتيازات وآخر محظور النشاط لعدم شرعيته، ووضعت الإدارة للتفريق بين الفريقين معايير قانونية يجب على النقابات العمل بها كي تصبح مشروعة النشاط وتمارس إعمالها، وقد اهتمت الدولة اهتمام بالغ بأنشطة النقابات وكيفية ممارسة سلطاتها كدولة للسيطرة على ما يدور فيما بين الأعضاء من مناقشات داخل النقابات والانشطه ألاقتصاديه والاجتماعية والسياسية التي يقوم بها الأعضاء وكذلك السيطرة على الاشتراكات التي يقدمها هولاء الأعضاء للحصول على عضوية النقابات وكيفية التصرف فيها(٢٦)، وللقيام بذلك كله قامت الدولة باتخاذ مجموعة من الإجراءات الاداريه والقانونية لعمل نوع من السياج حول انتشار وتشعب هذه النقابات واستعملت هذه الوسائل القانونية لتحجيم أنشطة النقابات والملتحقين بها مادامت تتعارض مع سياسة الإدارة الرومانية.

وتشير مجموعة البردي إلى سياسة الإدارة الرومانية تجاه النقابات فيما يتعلق بالسياسة الضريبية والترهيب القانوني للالتحاق بالنقابات المحظورة وفرض غرامات على الأفراد الذين ينضموا إلى النقابات محظورة التكوين والنشاط من جانب الإدارة الرومانية وكانت هذه الغرامات تصل في بعض الأحيان إلى ٥٠٠ دراخمة (٢٧).

كما استعملت الإدارة الرومانية سياسة الترغيب في كثير من الأحيان في تعاملاتها مع بعض النقابات التي تحتاج إليها في إمداد وتجهيز الجيش أو نقل الحبوب وغيرها من الأمور المتعلقة بالسياسة الاقتصادية للدولة فقامت بمنح تلك النقابات وأعضائها بعض الامتيازات دون غيرهم من النقابات الأخرى، ولم تكن السياسة تجاه النقابات موحدة وعامة في القرى والمدن ولكن كانت تختلف من منطقة إلى أخرى وذلك حسب ما تمليه الإدارة الرومانية، فمثلاً بعض النقابات يتم حظرها في إحدى المديريات في حين أن نفس النقابات والتي تمتهن نفس المهنة في مناطق ومديريات أخرى تعمل بصورة طبيعية بل ويحصل أفرادها على بعض الامتيازات، ويبدو أن فرض سياسة عامة على النقابات في كل المديريات كان صعب التطبيق لما قد تحتاجه الإدارة المحلية في كل مديرية من متطلبات من تلك النقابات تتعارض وتطبيق هذه القوانين(٢٨).

وكانت المراسيم الإمبراطورية الصادرة من الأباطرة تحتوى على قوانين متعددة تنظم العمل النقابي في شتى أنحاء الإمبراطورية بشكل عام وتم استغلالها من جانب السلطة المحلية في مصر للتحكم في أنشطة النقابات (٢٩) ، في حين أن النقابات حاولت بقدر استطاعتها أن تنتزع أحقيتها في ممارسة أنشطتها من حين إلى آخر(٣٠)، مما أوجد صراع دائم بين السلطات المحلية من جانب وبين النقابات من جانب أخر ، ولكن السلطات المحلية في مصر أدارت هذا الصراع واضعه نصب أعينها اعتبارات مصلحتها في استغلال تلك النقابات بما يخدم إغراضها الاقتصادية،

وأول هذه الاعتبارات مدى الالتزام الذي فرضته الإدارة المحلية في مصر على مزاولي المهن من الحرفيين والتجار لتسجيل أنفسهم في النقابات والانضمام إليها ومزاولة أنشطتهم التجارية والحرفية والاجتماعية من خلالها لضمان جمع وتحصيل الضرائب المستحقة على هذه المهن ومراقبة النشاط النقابي للأعضاء سواء أكان نشاط اقتصادي أو اجتماعي لتكون النقابات وأعضائها تحت عين السلطة الإدارية للدولة (٣١).

ويذكر Keenan ان تأيد بعض الباحثين لفكره ان الإدارة الرومانية كانت متسامحة تجاه فرض القيود القانونية على النقابات وعلى تعاملاتها الاجتماعية لان الإدارة لم يكن لديها تخوفات مثيرة من النشاط الاجتماعي لهذه النقابات مثلما كان لديها تحفظات أكثر حدة على النشاط الاقتصادي الذي كانت تقوم به تلك النقابات(٣٢)، إلا أنه يذكر أيضا أن الكثير من الباحثين يشيروا من خلال الوثائق إلى أن الصراع بين الإدارة وبين النقابات "والذي أشرت إليه سابقاً" كان حاداً، وأن الدولة كانت كثيراً ما تتدخل في الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالأعضاء المسجلين في النقابات سواء أكانوا حرفيين أو تجار، كما أن الإدارة قامت بإلزام النقابات بالتبليغ عن أسماء المشتركين فيها(٣٣).

ويبدو أن هذا الإلزام لم يكن بدافع جمع الضرائب فقط ولكن أيضاً للسيطرة على الأموال التي يقوم المشتركون بتقديمها لتقييد أسماءهم في نقاباتهم ومعرفه كيفيه التصرف فيها (٣٤)، وفي أحيان أخرى كان هذا الإلزام للسيطرة الكاملة على أعمال تلك النقابات كتلك التي أشرت إليها من قبل في ثيادلفيا(٣٥)، ومع ذلك كان هناك العديد من النقابات غير إلزامية الاشتراك فيها كما إن القيود لم تكن بنفس الحدة التي كانت مفروضة على تلك التي كانت تعتمد عليها الإدارة في الإعمال الخاصة بإمدادات وتجهيزات الجيش أو نقل الحبوب(٣٦).

ويرجع الاختلاف حول تفسيرات الصراع بين الإدارة الرومانية في مصر

وبين النقابات إلى تلك الصورة المتجزئة التي وصلت للباحثين من خلال المصادر المتعددة عن القرارات والقوانين التي صدرت بشأن النقابات، والتي ظلت محل تفسيرات متغيرة من حين إلى آخر لأسباب ترجع في الأساس إلى مدى تطبيق الإدارة المحلية للقوانين الصادرة من الإدارة الإمبراطورية، وكيفية تعامل الإدارة المحلية في مصر مع هذه القوانين بما يخدم مصالحها التي ترتبط بأعمال هذه النقابات وخاصة فيما يتعلق بالنقابات المعنية بتجهيزات الجيش ونقل الحبوب(٣٧)، فلم تكن كل النقابات متساوية في التعامل القانوني وإنما كانت بعض النقابات يتم حظرها وأخرى تمنح المزايا مع أنها نقابات لمهنة واحدة ولكن تختلف أماكنها، أضف إلى ذلك أن هذا التمييز كان يحدث ايضا بين نقابات المهن المختلفة فليس الجميع سواء أمام القانون، في حين ارتبطت مصالح الأعضاء في النقابات الحرفية والتجارية بالمنفعة الشخصية من خلال تعاملات السلطة الإدارية معهم في القرى والمدن.

وكان على كل نقابة لتمارس أنشطتها أن تكتسب حق التكوين والاجتماع وذلك من خلال تنفيذ قرارات وقوانين السلطة المركزية في روما والمتعلقة بالنقابات والتي كانت تصدرفي صورة مراسيم أو قرارات إمبراطورية يقوم بإصدارها الأباطرة (٣٨)، بجانب ما كان يصدره مجلس السناتو من قوانين تتعلق أيضاً بشئون وضوابط تكوين وعمل النقابات في أرجاء الإمبراطورية،وصدرت في شكل senatas consultum aومن خلال هاتين الجهتين "الإمبراطور والسناتو"وتنفيذ ما يصدر عنهما من قوانين من خلال الإدارة المحلية، كانت الإدارة المحلية تمنح النقابات الموافقة على تكوينها واجتماع أعضائها وتصبح بذلك النقابة لها حق ممارسة نشاطها تحت إشراف وموافقة الدولة (٣٩).

وتتضح من احدي الوثائق الضوابط التي فرتضتها احدي النقابات الخاصه بتجار الملح الغير معروفه في قريه تبتينيوس(٤٠)، في عهد الامبراطور تيبيريوس

والتي توضح الوائح والاشتراكات والغرامات والميزات التي كانت تفرضها تلك النقابه علي اعضائها،وهي تذكر:

(اختير كرئيس في السنه العاشره لتيبيريوس قيصر اغسطس هيرون ابن اورسيوس،في الجمعيه التي كانت تعقد مأدبه كل شهر في اليوم الثاني عشر، كل فرد (عضو) يساهم شهريا باثني عشر دراخمه فضيه تفرض بالتساوي لكل منهم. اذا فشل اي فرد في تأديه التزاماته في هذا الشائن (الاشتراكات) او الامور الاخري، يمتلك الرئيس الحق لانتزاع العقود. اذا كان اي فرد سلوكه منحرف لابد من تغريمه كما يقرر المجتمع. اذا استلم اي فرد اشعار بالجلسه (المحدده من جانب النقابه) ولم يحضر، يتم تغريمه دراخمه واحده في القريه ولكن في المدينه اربعه دراخمات. اذا تزوج اي فرد يدفع درخمتان، لكل مولود ذكر درخمتان، لكل مولود انثي دراخمه واحده، لشراء ممتلكات اربعة دراخمات، لقطيع من الاغنام اربعة دراخمات، للماشيه دراخمه واحده. اذا اهمل فرد في مشكله شخص اخر وكان (هذا الفرد) يعمل ولم يقدم المساعده لاطلاق سراحه من هذه المشكله عليه دفع ثمانيه دراخمات. وكل فرد اخذ مقاعد اماميه في المأدب عليه دفع ثلاث اوبل اضافيه لمقعده المكتسب.اذا اي فرد قاضي اخر او شهر به يتم تغريمه ثمانية دراخمات. اذا اي فرد تامر ضد اخر او افسد منزله،يتم تغريمه ستون دراخمه. اذا كان اي فرد معرض للحجز (السجن) بسب الدين الخاص تدفع له كفاله في حدود مائة دراخمه فضيه لثلاثون يوما، والتي من خلالها سيتم الافراج عن الرجال. والسائد من الناحيه الصحيه ! إذا توفي أحد الأفراد, يتم تشييع الجنازه والسماح باقامة وليمه ليوم واحد والكل يجلب لمره واحده دراخمه واحده ورغيفين، وفي حالة أحزان الفواجع الاخري يسمح لهم باقامه وليمه ليوم واحد. الشخص الذي لم يحضر الجنازه يغرم أربعة دراخمات. ومن لم يشارك في أي جزء أو لم يحضر اكليل من الزهور علي القبر يغرم بأربعة دراخمات. وترك الامور الاخري يقررها المجتمع. ويكون القانون صالح عندما تقرره الأغلبيه، وعندما يتم اقراره يعاد إلي الرئيس).

. ε/)τ]ουφ Τιβερι/ου Κ#ι/?##ρ?[οφ] Σεβαστου= Ηρωνα Ορσευ=το φ συ(ν ⊥ι ε/παναγκον ευ/ωξει/σθωσαν κατα/ μη=να τη?= ιβ, ε/κα/στου ει/φ ε/πιμ(η/ν[ι]ο?ν? τελου=ντοφ τα/φ ε)χ ι?(/σου κατэ ο)/(/νομα κεκριμ ε/ναφ α/ργυρι/ου δραξμα/φ δε(κα δυ/ο, κατα(δε) του= α)δωσιδικου=ντο φ ε)πι(του)των και (τω=ν α)/λ?[λω]ν ε)χε)στω τω=ι προ?σ?τα/τηι ε)νεξυ ρα)ζειν. ε)α(ν δε) τιφ ε)κπαροινη/σ∃ χημιου/σθω ο(/ ε)α/ν τω=ι κοιν=ω ι δο/χηι . ε/?α(ν δε/ τιν?ι? [[ζ]] συ/λλο?[γ]ο?φ παραγγελη= και(μη(παρα γε)νηται, ζημιου)σθω ε)πι(με(ν τη=φ κω/μηφ δραξ[μη(ν] μι/αν, ε)πι(δε(τη=φ πο)λεω[φ] δραξ[μα(φ] τε)σσαραφ. [ε)]α(ν δε) τιφ γα?μ?η)ση?, δο)τ ω [δραξμα(φ] β, παιδογονι/ου α/)ρρενο[φ] [δραξμα(φ] β, θηλει/αφ [δρα ξμη(ν] α, α)/γορασμου= ε)γγαιι/ου [δραξμα(φ] δ, α)γε/ληφ προβατων [δρ αξμα(φ] δ, κτηνω=[ν] [δραξμη(ν] α. ε)α/ν τιφ παρι)δ∃ τινα(ε)ν α)ηδι)α ? και(μη(συνεπισξυ)σ∃ ε)πι/ το(συλλυ=σαι αυ)τον τη=φ α)ηδι/αφ, δ[ο/]τ?ω?ι? [δραξμα(φ] ∃. ο(δ) ε)ν ται=φ ευ)ωξι/α<ι>φ κατα(κλισι/αν προα ναπι/πτων του= ε(τερου δο)τω περισσο/τερον τριω/βολον του= ι)δι/ου το /που ε(/κασ?τ?ο?φ . ε)α/ν τιφ του= ε(τε/ρου κατηγορη/σ∃ ∃)/ διαβολη/ν ποιη/σηται, ζημι[ου/σθω] [δραξμα(φ] η. ε)α/ν τιφ το(ν ε)/τερον υ(πονο μευ/σ∃ η)/ οι)κοφθορη/σ∃, ζημιο[υ/σθω] [δραξμα(φ] χ. ε)α/ν τιφ προ(φ ι)διωτικ[ο(ν] παραδοθ∃=, ε)γγυα/σθωσαν αυ)το(ν ε(/ωφ α)ργ[υρι/ου] [δ ραξμω=ν] ε(κατο(ν προ(φ η(με/ρ[αφ] λ, ε)ν α=ιφ α=/πευλυτη/σει του(φ α)/νδραφ . ει)/η με(ν υ(γιει/α! ε)α/ν τιφ τω=ν συνοδιτω=ν τελευτη/σ∃, χ υρασ/θωσαν πα/ντ?ε?φ και(ε(στια/τωσαν η(με/ρ[άν] α , ε(κα/στου πα ραξρη=μα ει)σφε/ροντοφ [δραξμη(ν] α και (κα/κειφ δυ/ο, ε)πι/ δε(τω=ν α)/λλων α)νθρωπι/νων ε(στια/<τωσα>ν η(με/ρ[αν] α. ο(ε)πι/ κεφαλικου = μη(χυρησα/μενοφ ζημιο[υ/σθω] [δραξμα(φ] δ. ο(ε)πι/ πα/ντων μη(μι ανθει(φ
μ?ηδε([στε/]μ?μα καταστη/σαφ ε)πι/ το(ν τα/φον ζημιο[υ/σθω] [δραξμα(φ] δ. τα(δ)α)/λλα α(/ ε)α/ν τω=ι κοινω=ι δο/χ∃.

ومع أن هذه الوثيقة أصابها بعض التلف إلا أنها توضح عمل النقابات في إطار يخدم الاداره المحليه بحيث تقوم هذه النقابات بتنفيذ ما تطلبه الاداره منها من خلال ما تفرضه علي أعضائها من التزامات، وكذلك ما تقدمه للأعضاء من خدمات تسيطر بها علي تصرفاتهم بحيث اذا قام العضو باي مخالفه يحرم من الامتيازات والخدمات التي تقدمها النقابه لاعضائها، كما أنها توضح عده أمور هامة تتعلق بكيفيه سيطرة النقابة علي الأعضاء وتقرير ما تراه يخدم مصالح النقابه وذلك

من خلال ما يلي.

أولا: إن اشتراك تلك النقابه كان إثني عشر دراخمه شهريا لكل عضو في هذه النقابه.

ثانيا: ان هذه النقابه كانت تقوم بعقد اجتماعا شهريا في اليوم الثاني عشر من كل شهر ويلتزم الاعضاء بحضوره ومن لم يقم من الاعضاء بدفع الاشتراكات كان يتعرض لعقوبه مباشره بفسخ تعاقداته التي كانت تتم باشراف هذه النقابه كما ان العضو يتعرض لنفس العقوبه اذا لم يفي بالتزاماته التي تحددها التعاقدات التي كانت تحت اشراف النقابه، واقرت النقابه ان تلك العقوبه كانت في يد رئيس النقابه دون غيره.

ثالثا: اقرت النقابه بان العضو الذي ينتهج سلوكا سيئا كان يعاقب بما يقرره المجتمعون في الاجتماعات الشهريه التي كانت تعقدها النقابه.

رابعا: ان الوثيقه حددت الغرامات المتعلقه بالمخالفات التي من الممكن ان يقوم بها الاعضاء بدايه من حضور الاجتماعات وحتي الامور المتعلقه بالمساهمات الاجتماعيه والمساعدات التي يقدمها الاعضاء لبعضهم البعض في المناسبات المختلفه عن طريق النقابه واقرت الوثيقه بحق المجتمعين في التصويت واتخاذ قرارات علي امور عديده تتعلق بالنقابه وتصبح هذه القرات نافذه بعد العوده لرئيس النقابه.

وأكثر الأدلة وضوحاً على وجود سياسة واضحة من جانب الإدارة الرومانية تجاه النقابات وتحدد ملامح الترهيب القانوني للأفراد إذا ما اشتركوا في جمعيات أو نقابات محظورة أو مشاغبة لا تخضع للقانون الذي فرضته السلطة الإدارية ذلك النص الذي ورد في قرار الامبراطور فيسباسيان Titus Flaius Vespasian (من٦٩ إلي ٧٩ م) وهو ما عرف بقانون فلافيان ويرجع تاريخ إصداره إلى القرن الأول الميلادي، وورد فيه ما يختص بانضمام الأفراد للنقابات، ومنع انضمامهم

للنقابات محظورة النشاط والمشاغبة والتي جاء ذكرها في النص وفرض غرامة ١٠,٠٠٠ sesterees على من يشترك أو يحضر اجتماعات تلك النقابات المحظورة (٤١).

ومثل هذه القرارات والقوانين كان لها تأثيرها في علاقة السلطة الإدارية المحلية في مصر بعمل النقابات والجمعيات كمجموعات تخشى الإدارة المركزية في روما من نشاطها وتعمل على أن تكون تحت الرقابة الدائمة للدولة، ويوضح النص هذه الرقابة الدائمة والصارمة بالنسبة لتلك النقابات المحظورة، وكان على الجهات الإدارية في القرى والمدن تطبيق مثل هذه الأوامر والقوانين بكل صرامة وجدية وذلك لكونه أمر إمبراطوري واجب التطبيق ويشرف على ذلك الوالي بنفسه(٤٢).

وقد صدرت هذه الأوامر الإمبراطورية بصورة متكررة حتى العصر الروماني المتأخر حيث اعتبر الباحثون أن المراسيم الإمبراطورية التي صدرت في عهد كل من جوستينيان Justinian (٣٧٩-٣٩٥ م)وثيودوسيوس الثاني Theodosian II (٤٠١-٤٥٠ م) بمثابة الرموز القانونية التي أرسلت كمراسيم إلى حكام القرى والمدن في هيئة قرارات إمبراطورية تختص بشئون النقابات المخالفة والمحظورة، وأصبحت قابلة للتطبيق على حالات مماثلة لنقابات أخرى لم تطبق القرارات والقوانين الخاصة بالنقابات والتي عند إصدارها كانت تتحول إلى سلطة قانونية مستندة على كونها مراسيم إمبراطورية واجبة التنفيذ والتطبيق(٤٣).

وكل الإشارات الخاصة بالنقابات ونشاطها في المراسيم الإمبراطورية كانت تختص في معظم الأحيان بالنقابات التي ارتبطت بتجهيزات الجيش أو تزويده بالمؤن الغذائية، وذلك لما كانت تمثله تلك التجمعات النقابية من أهمية خاصة بالنسبة لمتطلبات الإدارة المحلية في مصر وكذلك المركزية في روما، ومع الإشارة إلى أن تلك القوانين لم تكن تطبق على نحو عام وبصورة مؤكدة على كل النقابات

إلى أنه في ذات الوقت كانت تمثل سلطة قانونية تستخدمها الإدارة المحلية وقتما تريد وكيفما تشاء وبما يتوافق مع مصالحها في إدارة البلاد ومدي استفادتها من هذا التطبيق، بحيث تطبق الاداره هذه القوانين على النقابات التي ليست لديها منفعة تختص بالدولة وتمتنع عن تطبيقها عن نقابات أخرى ترتبط بها بمصالح الدولة(٤٤).

وكان تفسير الشروط القانونية لتكوين النقابات والسماح لأعضائها بالاجتماع غامض ويترك مجالات متعددة للتلاعب من جانب الإدارة في تنفيذها(٤٥)، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما كان يهم الإدارة الرومانية في كافة الأحوال إلا يتوقف الأفراد المنتمين للنقابات عن العمل أو أن ينخرطوا في أعمال تخريبية ضد الإدارة وخاصة في ما يتعلق بان يقوم أعضاء النقابات بتنفيذ العقود المبرمة بين نقاباتهم وبين الإدارة دون تقصير أو تأخير(٤٦).

وقد استطاعت الإدارة الرومانية في مصر أن تسيطر سيطرة مباشرة وصارمة على نشاطات النقابات سواء أكانت خاصة بالتجار أو الحرفيين من حيث تكليف تلك النقابات بتعهداتها مع الإدارة الرومانية والتي كانت تطلبها وتفرضها من خلال الإدارة المحلية وخاصة فيما يتعلق بالخدمات الإلزامية والتي كانت بدون أجر والتي تضمن بصورة ما وصول شحنات الحبوب وتقديم الخدمات التي تتعلق بهذه الشحنات على طول ضفاف النيل وحتى وصولها إلى روما، ووضعت الإدارة الرومانية قواعد بمقتضاها تكلف النقابات والأفراد المشتركين فيها للقيام بالخدمات الإلزامية لنقل المواد الغذائية للأسواق المحلية والمواني عن طريق عقود كانت تتم بين الإدارة وبين تلك النقابات المعنية بالمؤن الغذائية للجيش وعمليات نقل الحبوب إلى روما مثل الخبازون، الطحانون والعاملين في مجال النقل (٤٧).

*** سياسة الامتيازات والاستثناءات الإدارية والاقتصادية التي منحتها الإدارة للنقابات:**

تشير النقوش وأوراق البردي إلى ثبات الروابط التي تجمع كل من الإدارة المحلية في مصر خلال الحكم الروماني والنقابات والمجتمع من حيث تولي المناصب وتوافق المصالح فيما بينهم، ويتجلى هذا الترابط في العلاقة بين المشرفين على الأنشطة النقابية الذين كانوا في أغلب الأحيان يقوموا بمهام المناصب الإدارية داخل القرى والمدن المصرية، كما أنهم كانوا يشرفوا على إتمام الصفقات والتعاقدات التي تتم بين الإدارة المحلية والنقابات التي كانوا منضمين إليها، وحصل هؤلاء على العديد من الامتيازات والاستثناءات من الدولة لما قدموه من خدمات متعلقة بمهامهم النقابية، وقامت الإدارة الرومانية باستغلال مواقع الأفراد في نقاباتهم وما تمتعوا به من خصائص اقتصادية متميزة في مجال عمل كل منهم سواء أكانوا تجار أو حرفيين وأوكلت لهم العديد من المناصب الإدارية داخل القرى والمدن كى ينجزوا التعاقدات التي تتم بين الدولة وبين نقاباتهم المختلفة وذلك لخفض أجور من يعمل بهذه العقود وضمان انجازها في الوقت المطلوب(٤٨).

وتشير إحدى البرديات إلى ارتباط أفراد الخبازين والصائغين وعمال آخرون منتمين إلى مجموعات أو نقابات كان بينهم وبين الإدارة عمليات إمداد وصفقات بتكلفة أقل(٤٩)، وهذا النوع من العلاقات الاقتصادية الرسمية بين النقابات وبين الإدارة كان شيء مناسب لكل من الطرفين فتحصل النقابات لأعضائها على زيادة في عدد الصفقات وبعض الامتيازات والاستثناءات الإدارية التي تمنحها لها الإدارة في حين تحصل الإدارة على انجاز لأعمالها بتكلفة اقل ووقت أقصر، وتجدر الإشارة هنا إن الإدارة اعتمدت في تنفيذ هذا الاستغلال على الفئات الغنية من التجار والحرفيين والذين كانوا يحتلوا مناصب إدارية في نقاباتهم المختلفة وبالتالي أولتهم المناصب الإدارية داخل القرى والمدن مثل تلك التي تتعلق بعمليات جمع وحصر الضرائب وغيرها من المناصب الإدارية الأخرى وذلك للاستفادة من مناصب هؤلاء الأفراد في نقاباتهم أو في داخل الإدارة المحلية(٥٠).

وكان تولي الإفراد للمناصب الإدارية في حد ذاته امتياز تمنحه الإدارة لمن ترى فيهم القدرة على تنفيذ متطلبات تلك المناصب، وكانت هذه القدرة مرتبطة ارتباط وثيق بثروات الأفراد من التجار والحرفيين ومدى مقدرتهم وكفاءتهم الاقتصادية وهو ما يجعلهم قادرين على احتلال مكانة اجتماعية مميزة يحتلون بها مكانة في نقاباتهم وتعطيهم القدرة على حماية متطلبات مناصبهم الإدارية التي تُسند إليهم من قبل الدولة(٥١).

وقد قدمت "الحكومة الرومانية" أو السلطات الرومانية العديد من الحقوق والامتيازات الاقتصادية إلى مجموعات الحرفيين والتجار الذين شكلوا النقابات وخاصة من قدم منهم خدمات للإمبراطورية من خلال أعمالهم(٥٢).

وتمثلت الامتيازات والاستثناءات الاقتصادية العديدة التي قدمتها الإدارة الرومانية للمشتركين في النقابات في إعفائهم من الخدمات والأعباء الإلزامية وتتضمنها المراسيم والقرارات الإمبراطورية بداية من القرن الأول الميلادي فصاعداً وعلى سبيل المثال مرسوم إمبراطوري يؤرخ بإعلان ٣٣٧م، وقد صدر باسم قسطنطين بعد فترة قليلة من موته وهو يعدد الاستثناءات التي استثني بها بعض الحرفيين والتجار من الخدمات الحكومية الإلزامية ومتضمن أسماء حرف ومهن هؤلاء الحرفيين والتجار وعلى سبيل المثال الحجارون، ملمعوا الأسلحة، الحدادون، صناع الرخام، الصباغون، صاغة الذهب، صاغة الفضة، مدراء توزيع المياه، عمال الزجاج، دباغون وغيرهم من الصناع ذاكراً في قراره أن هذه الإعفاءات منحت لهم حتى يستطيع هؤلاء التفرغ لتنمية مهارتهم وتدريب أطفالهم ومن يتعلم على أيديهم حرفهم(٥٣)، ومن الصعب التحقق من الدوافع والظروف التي جعلت قسطنطين يتخذ مثل هذا القرار، فربما كان يحاول إعادة هيكلة الصناعة وتنميتها أو أنه كان يكرر سياسة اسلافه من الأباطرة تجاه تعاملاتهم مع الحرفيين والتجار, ويبدو أن هذا التفسير منطقي إلى حد كبير وذلك لأن هذا القرار تم إدراجه

في المجموعه القانونيه لثيودوسيوس الثاني وهي ما عرفت باسم Theodosian Code في ما بعد والتي احتوت معظم القرارات التي كانت تطبق بصورة مكررة في عهد الأباطرة المتعاقبين، ويؤكد هذا الأمر ما جاء في إعلان سابق عام ٣٣٤م ليؤكد هذه الامتيازات والاستثناءات لمعلموا الهندسة المعمارية والرسامين والمصممين والقائمين على إمدادات المياه، وتتمثل هذه الامتيازات في أعضاء هؤلاء وعوائلهم وحتى عبيدهم من مسئولية التقدير الضريبي، وأن يتم استثنائهم كذلك من الضريبة المقامة على التجارة المتعلقة بأعمالهم واستثناهم كذلك من تقديم الخدمات بل وتعدى الأمر ذلك بأنه ذكر في هذا الإعلان أن هؤلاء غير ملزمين أو مجبرين على عبادة الإمبراطور، وإذا تجاهل أى مسئول سواء أكان تابع للإدارات المحلية أو الإدارة الإمبراطورية تنفيذ هذه الاستثناءات فإنه سيتعرض لعقوبات وخيمة، وخاصة فيما يتعلق بإجبار هؤلاء الحرفيين على أداء الخدمات الإلزامية، أو جباة الضرائب المتعسفين في جمع الضرائب التي تم إعفاء هؤلاء الحرفيين والتجار منها (٥٤).

ومع أن هذه القرارات كانت في معظمها ترجع إلى العصر الروماني المتأخر إلا أنها كانت تنم عن أسلوب الإدارة الإمبراطورية ومنهجها في التعاطي مع النقابات وكيفية الاستفادة من تكوينها وانتشارها، ويتضح من خلال هذه القرارات كيف حاولت الإدارة من خلال القرارات الإمبراطورية وإشراف مستشاريهم على تنفيذ ما يتعلق بها من استثناءات تجاه أفراد النقابات إلى كبح جماح تعسف الموظفين الذين كانوا في أحيان كثيرة يحاولون عدم تنفيذ هذه القرارات، هذا إلى جانب أن الإدارة الرومانية الإمبراطورية حاولت جاهدة في إن تُعطي هذه الامتيازات لفئة معينة من الحرفيين والتجار الذين كان لهم دور بارز في الحياة الاقتصادية داخل الإمبراطورية كلها وبالتالي ينطبق على مصر كواحدة من أهم الولايات في الإمبراطورية.

ويلاحظ إصرار أفراد النقابات في مصر على الحصول على امتيازاتهم التي أقرتها المراسيم الإمبراطورية لهم ويشير إلى ذلك ما ذكر في أحد البرديات عن قيام إحدى الشخصيات وهو عضو في نقابة الحياك وفي نفس الوقت، عضو بالإدارة المحلية بالتفاوض باسم مجموعته مع الإدارة المحلية فيما يختص بالتعاقدات الاقتصادية التي ترجع على أعضاء نقابته بالفائدة، وحصول أفراد نقابته على امتيازاتهم التي نصت عليها القرارات الإمبراطورية والتي كان من المفترض أن يحصلوا عليها (٥٥).

ولم يقتصر دور النقابات في مصر في تلك الأثناء على المطالبة بالحصول على الامتيازات لأعضائها والتي كانت تنص عليها قرارات الأباطرة بل إنها كانت تقوم بالمساهمة في تزويد الأعضاء "الفقراء" بالأموال في الأعياد، ودفع الضرائب المطلوبة من زملائهم والتي لم يكن في مقدورهم دفعها، وذلك من خلال ما يجمعونه من اشتراكات(٥٦).

وكان مسموحاً لعضو النقابة الذي يتم تكليفه من الإدارة المحلية بالخدمات الإلزامية أن يكلف شخص آخر لينوب عنه للقيام بتلك الخدمات بدلاً منه، ويستدل على ذلك من إحدى الوثائق التي توضح أنه كان هناك شخص يدعي بابيريس وهو عضو في نقابة الملاحين، وأحد ملاك المراكب التي تعمل في مجال النقل وكان هناك تعاقدات بينه وبين المديرية قد بعث الي ابولونيوس استراتيجوس إحدى المديريات وهي ابولونو بوليت هيبتاكوميا ليعرفه انه انتدب وكيله لينوب عنه في مَديريته ليقوم بالخدمات المطلوبة بدلاً منه وذلك لانشغاله بمنصب كاهن النقابة التي ينتمي إليها وذلك بموافقة الشخص المسئول ويدعى بيساريون (٥٧).

ومن خلال تلك الوثيقة يتضح أيضاً أنه كان هناك تعارض بين إتمام الخدمات الإلزامية أو التعاقدات التي كان مكلف بها "بابيريس" وبين المهام التي يقوم بها من أجل نقابته وهو توليه منصب الكهانة داخل نقابته واستطاع هذا الشخص من خلال

استفادته من اتصالاته مع الإدارة المحلية أن ينتدب أحد الأشخاص للقيام بتلك الأعمال التي كان مكلف بها من قبل الإدارة المحلية وهي نقل شحنات الحبوب التي كان متعاقد عليها مع الإدارة المحلية للمديرية.

ومع ما تمثله الوثيقة من استثناء لصاحب العمل في النقابة من أنه يستطيع أن يكلف شخص اخر يحل محله لينجز الأعمال الموكلة إليه إلا أنها في ذات الوقت تعطي صورة إضافية عن طريق إنجاز العمل الداخلي للإدارة وكيفية إدارة تعاقداتها مع النقابات أو أعضائها وطبيعة إنجاز الخدمات التي تم تكليف الأفراد بها ومدى الصرامة التي اتبعتها الإدارة في مواجهة أي تخاذل من المتعاقدين معها فإن لم يستطع الفرد أن يقوم بأعماله عليه في ذات الوقت أن ينجزه عن طريق وكيل له، ولا شك أن ذلك كلف العضو أجر إضافي لمن انتدبه ولكنه لم يكن يستطع أن يتخاذل فيما عليه من التزامات مع الإدارة المحلية مهما تكلف من أموال.

وقد تمتعت النخبة من أعضاء النقابة من أغنياء التجار والحرفيين بتلك الامتيازات أكثر من غيرهم من عامة الأعضاء، فالمناصب الإدارية ارتبطت في العصر الروماني في مصر بأصحاب رأس المال في أغلب الأحيان وكثيراً ما كان يتم تعيينهم في الإدارة المحلية للقرى والمدن، وكانوا في ذات الوقت أصحاب أعمال وثروات في النقابات التابعين لها، مما يجعل هناك تساؤل يفرض نفسه إذا كان الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال هم المستثنون من الخدمات الإلزامية أو يحصلون على امتيازات نقاباتهم كما جاء في القرار السابق ذكره لقسطنطين، كما أن الوثائق البردية المشار إليها سابقا تدل في مجملها على أن المستثنون من هذه الأعباء الإلزامية كانوا من النخبة الثرية في نقاباتهم فمن إذن الذي كانوا يقوم بالتمويل اللازم للقيام بهذه الأعباء مثل توفير الدواب لنقل الحبوب حتى تصل لروما أو غيرها من الخدمات الإلزامية التي فرضتها الإدارة المحلية، ويبدو أن الإجابة على هذا السؤال تكمن في تعيين هذه النخبة الثرية في مناصب الإدارات المحلية

للقرى والمدن لإجبارهم على تأدية تلك الخدمات عن طريق استخدام ثرواتهم في تنفيذ المهام الموكلة إليهم واستعمالهم لهذه الثروات لتكليف غيرهم للقيام بهذه الأعباء التي كلفتهم بها الإدارة وخاصة أن الإدارة كانت في كثير من الأحيان ما تقوم باختيار الأفراد الأكثر سلطة في نقاباتهم، كما أن هؤلاء الأفراد كانوا من خلال تعيينهم في هذه المناصب يحققون المنفعة الاقتصادية والتربح من وراء هذه المناصب بما يعادل قيامهم بهذه المهام،وهذا ما يؤكده ما جاء في البردية السابق الاشاره إليها (٥٨).

وقد كانت تلك النخبة الثرية تحاول بشتى الطرق الحصول على امتيازاتها كاملة دون نقصان وهذا دون شك أوجد نوعاً من الصراع بين هذه النخبة وهم الأعضاء الأكثر أهمية في نقاباتهم وبين الإدارة ومتطلباتها ولكن هذه النخبة لم تكن تستطع كما اتضح من موقف "بابيريس" السابق أن يتجاهل ما تم التعاقد عليه وتم إلزامه به من جانب الإدارة مع انه كان يتمتع بمركز مرموق داخل نقابته.

وحصلت النقابات المشروعة والتي صرحت لها الدولة بالموافقة على تكوينها أيضاً على بعض الامتيازات القانونية التي تحقق مكاسب اقتصادية مثل ما يتعلق بحق تلك النقابات في امتلاك عبيد خاضعين لها والعمل تحت إمرتها (٥٩).

*** سياسه الإمتيازات الاجتماعية التي منحتها الإدارة الرومانية للنقابات:**

تؤكد المصادر الوثائقية على إن النقابات وأعضاءها كانوا دعامة رئيسية في تحقيق الإدارة المحلية في مصر لمآربها الاقتصادية ، كما أن أعضاء النقابات كان لهم وضع خاص داخل المجتمع المصري في تلك الفترة خاصة مع وجود روابط اقتصادية بينهم وبين النقابة من جهة وبين الإدارة المحلية في مصر والنقابات من جهة أخرى من خلال العقود التي كانت تبرم بين النقابات والإدارة المحلية في مصر ، وحاول أعضاء النقابات البارزين تحقيق مكاسب وامتيازات اجتماعية لنقاباتهم ، كتلك التي كانوا يحققونها في المجال الاقتصادي ، ولم تمانع الإدارة

الرومانية في منح أعضاء النقابات الهامة والتي ارتبطت بمصالح معها بعض الامتيازات الاجتماعية والتي كانت تعتبر حافز هام بالنسبة لأعضاء تلك النقابات، وبناء على ما وجد في الوثائق فإن أعضاء النقابات انخرطوا في الخدمات الاجتماعية عن طريق مساهماتهم في الطقوس الدينية التي شاركوا فيها وبإسهامات عديدة, ومن أهم الامتيازات الاجتماعية التي منحتها الإدارة الرومانية لبعض النقابات وأعضاءها البارزين اقتصادياً وإدارياً داخل نقاباتهم منحهم مقاعد في أماكن مميزة في الحفلات والمسارح والمسابقات الرياضية ، وقد صنفVan Nijf الأماكن الخاصة بكل نقابة تم تمييزها داخل المسارح والمسابقات الرياضية وترتيبهم من حيث الأهمية الاجتماعية داخل المجتمع وكذلك داخل نقاباتهم(٦٠).

ومن خلال الوثائق يتكشف خطاب للإمبراطور هادريان Hadrian لمجلس مدينة اوكسرينخوس Oxyrhynchus والذي يوضح فيه امتيازات شخص يدعى أوريليوس هاتريس Aurelius Hatres وهو أحد الأعضاء المنضمين حديثاً لإحدى النقابات وأحد المشاركين في المهرجانات المقدسة والألعاب الرياضية والذي يوضح فيه الاستثناءات الاجتماعية والاقتصادية لذلك الشخص والتي من ضمنها منحة الحصانة، وأسبقية الجلوس "في المسارح خلال الاحتفالات والمهرجانات" واستثناءه من أداء الخدمة العسكرية، واستثناءه من دفع الضرائب الخاصة، وعدم إجباره على الخدمات الإلزامية(٦١).

وقد منحت الإدارة الرومانية تلك الامتيازات لكل من الحائكين والصائغين وبعض التجار وكذلك الرياضيين والفنانين، ويبدو أن تلك الامتيازات والاستثناءات كانت نتيجة للعلاقات والفوائد التي كانت تجنيها الإدارة الرومانية من تلك النقابات وأعضائها، كما أن تفضيل أعضاء نقابة على أعضاء آخرين في نقابة أخرى كان دون شك يرجع في الأساس إلى الفائدة التي ترجع من تلك النقابة بالنسبة للإدارة الرومانية(٦٢).

وقد كانت هناك جمعيات أو نقابات للفانين والرياضيين ساهمت بقدر كبير في الحياة الاجتماعية داخل المجتمع المصري في تلك الفترة ، وحصلت على العديد من الامتيازات الاجتماعية من الإدارة الرومانية وتشير العديد من النصوص البردية إلي إن هولاء كانوا أيضا أصحاب أعمال اقتصادية متميزة وبالتالي أعضاء في النقابات التي تختص بمجال أعمالهم ، وهناك إحدى الوثائق توضح زلك فتذكر ان شخص يدعي ماركوس أوريليوس ميكالون ثيوفيلوس، كان عضو جمعية الفنانين والرياضيين، كما أنه كان أحد التجار الكبار المسئولين عن إمدادات الوقود للحكومة وعضو بارز في نقابة تجار الوقود(٦٣).

وكان للمشاركات في الجمانزيوم والمهرجانات والألعاب الرياضية والمسابقات الفنية مردودها الاجتماعي على المشاركين فيها من أعضاء النقابات وعلاقاتهم المتعددة مع بعضهم البعض، هذا إضافة إلى حصولهم على الامتيازات والاستثناءات من الحكومة نتيجة لمشاركتهم في تلك الاحتفالات مما أدى في النهاية إلى أن يقوم هؤلاء الأعضاء بأداء التكليفات التي كلفتهم بها الإدارة دون عناء وذلك من خلال العلاقات الاجتماعية التي قاموا بتكوينها من خلال مشاركتهم في هذه الاحتفالات ، وقد أعطت الإدارة هؤلاء المشاركين في الاحتفالات من الفنانين والرياضيين ومن انتصر منهم في الألعاب المختلفة وكانوا مشاركين في نقاباتهم امتياز الجلوس في أماكن بعينها في تلك الاحتفالات واحتلوا بذلك مكانة اجتماعية بارزة داخل المجتمع.

كما كان لأعضاء النقابات العديد من الأنشطة الاجتماعية مثل سداد الضرائب المستحقه علي الأعضاء الغير قادرين علي السداد وإمداد فقراء الأعضاء في النقابات بالطعام وتوزيعه عليهم وإقامة العديد من الأنشطة الدينية داخل النقابات مصحوبة ببعض النشاط الاقتصادي نتيجة للأسواق التي كانت تقام مع تلك الاحتفالات الدينية (٦٤).

وقد ارتبطت المكانة الاجتماعية لعضو النقابة بمكانته الاقتصادية وما يؤديه من خدمات للإدارة الرومانية والتي بفضل تأديتها يمنح الامتيازات والاستثناءات من الإدارة، كما كانت الإدارة تكلفهم بالمناصب الإدارية التي تمنحهم المزيد من تلك المكانة بجانب كون توليهم تلك المناصب ساهم إلي حد كبير في تعميق العلاقات الاجتماعية بين هولاء الأعضاء البارزين وبين باقي أعضاء نقاباتهم ، مما كان يعود بالفائدة على الإدارة لتحقيق أهدافها سواء أكانت تلك الأهداف متعلقة بصفقاتها مع النقابات أو تحصيل الضرائب وجبايتها من خلال من تكلفهم من أعضاء النقابات بالمناصب الإدارية.

المراجع

(١)محمد فهمي عبد الباقي "اهم الدراسات الحديثه عن النقابات الحرفيه في عصر الرومان في الربع الاخير من القرن العشرين" تم تقديم هذا البحث (كمقاله مرجعيه للجنه الدائمه) عام ١٩٩٩ غير منشور ص ٣

" وتعتبر تلك المقاله من اهم الدراسات الحديثه التي تضم اسماء النقابات خلال الحكم الروماني لمصر واصلها ونشئتها والقواعد المنظمه لمهام عملها والمصطلحات المستخدمه ومدي الشرعيه التي تمتعت بها تلك النقابات،وكذلك توضح هذه الدراسه كيفيه اختيار الرئيس والواجبات الماليه التي فرضت علي الاعضاء وما كانت تقوم به النقابات منخدمات توديها لاعضائها كخدمات بالضافه الي ان المقاله عددت اهم الدراسات الحديثه فيالربع الاخير من القرن العشرين ".

(2) Philo, In Flaccum, 4; Dio Cassius, 52.
36; Pliny Eg. 10. 33; 10. 34

(3) Walker – Ramisch S; "Graeco-Roman Voluntary Associations and the Damascus Document: Asociologicalanalysis" in Voluntary Associations in the Graeco-Roman World; eds. Kloppenborq (J.S); and Wilson (S.G); London; New York; 1996. p. 133.

(٤)محمد فهمي– المرجع السابق– ص ٥ –٨، ايضا راجع عوض شعبان – رساله دكتوراه غير منشوره – جامعة الاسكندريه –١٩٨٨ ص ٢٧٧ وما بعدها

(5) Filey M.I ; The Ancient Economy. Revised Berkley. 1999. P. 138.

(6) Fikhman I.F; Sur quelques aspects socio- économiques de l'activité des corporationsprofessionnelles de l' Égypte Byzantine, ZPE 111(1994): pp. 19-40.

(7) Amaoutoglou I.N; Collegia in the Province of Egypt in the first Century CE " Ancient Society 35 (2005). P. 197- 216.

(8) Burford A.; Craftsmen in Greek and Roman Society. Ithaca: Cornell University Press, 1972, p. 159.

(9) Burford A.; Ibid

(10) P. Oxy. XXXI 2586 (AD 253).
(11) SB XVI 12497
(12) P. Oxy. 1359 24 – 255.

(١٣) أمال محمد محمد الروبي "نظام النقابات الزراعية في قرية ثيادلفيا (بطن هربت–الفيوم) في العصر الروماني ٣٠–٢٨٤ ق م مركز الدراسات البرديه – جامعه عين شمس – المجلد الخامس – ١٩٨٨ ص ٦١–٦٦

(14) P. Oxy ; III 473 (AD 138- 160).
(15) P. Oxy ; XXXI 2586 (AD 253).
(16) SB ; XVI 12497.
(17) P. Fay ; 23; Line 14, P. Fay. 26 Line 8 (AD 150).
(18) Lewis N ; The Compulsory Publice Services of Roman Egypt, 2nd Edition, PapyrologicaFlorentina, XXVIII. Florence; 1997. P. 34- 38.
(19) P. Oxy. LX 4063 (AD 183).
(20) Garnsey P ; and Whittaker (C.R); "Trade, Industry and the Urban Economy" in Cambridge Ancient History, Volume XIII.1998.p.320
(21) P. Lond. 111. 1178.
(22) Van Nijf, O. The Civic World of Professional Associations in the Roman East. Amsterdam, 1997, pp. 210 ff.

(٢٣) محمد فهمي– المرجع السابق – ص ٢٤

(24) Van Nijf O ; op. cit. p. 21.
(25) Van Nijf O ; Ibid. pp. 22.

(٢٦) لمراجعة القيود على النقابات والجمعيات راجع:

Kloppenborg J.S ; and Wilson S.G ; Voluntary Associations in the Graeco-Roman World; London; 1996.
(27) P. Oxy. XLII 3014.
(28) Amaoutoglou I.N ; op. cit. p. 201.
(29) Gonzalez J ; and Crowford M ; The Lex Imitana: A New Copy of the Flavian Municipal Law, JRS 76 (1986): pp. 147- 243.
(30) P. Mich. V. Texts nos 243- 248.
(31) Grey C ; "Contextualizing Colonatus: The Origo of the Late Roman Empire." JRS 97 (2007): pp. 155- 175.
(32) Keenan J. G ; "On Law and Society in late Roman Egypt" ZPE 17 (1975) pp. 237- 250.
(33) Keenan J. G ; op. cit. pp. 243 ff.
(34) Fikhman I. F ; op. cit, pp. 28 ff.

(٣٥) آمال الروبي: المرجع السابق، ص٦١– ٦٦.

(٣٦) لمراجعة تعدد النقابات في مصر الرومانية راجع:
محمد فهمي – المرجع السابق– ص٢٤، وكذلك حسن يوسف– النقابات في مصر الرومانية – رسالة ماجستير عام –تاريخ المصريين العدد ١١٩–عام ١٩٩٨.

(37) Keenan J. G ; op. cit. p. 250.
(38) Amaoutoglou I.N ; op. cit. p. 198.
(39) Van Nijf O ; op. cit. pp. 230 ff.
(40) P.Mich. V 243,lines 1-12

(٤١) لمراجعة المرسوم الإمبراطوري وترجمته راجع:
Gonzalez J ; and Crowford (M.); op. cit.; 147- 243.

(42) Keenan J. G ; op. cit. p. 232- 235.

(٤٣) لمراجعة ترجمة حديثة للقرارات التي أصدرها ثيودوسيوس الثاني راجع:
Matthews J ; Laying Down the Law Yale University, 2000.
وكذلك ترجمة حديثة للقرارات التي أصدرها جوستينيان راجع:
Watson A ; The Digest of the Justinian "Philadelphia: University of Pennsylvania ; 1985.

(44) Matthews J ; op. cit. ; pp. 65 ff.
(45) Liu J ; Occupation, Social Organization and Public Service in the Collegia Centonariorum in the Roman Empire (First Century BC-Fourth Century AD)." Columbia University, 2004, p. 119.

(٤٦) لمراجعة الوثائق التي تشير إلى العقود المبرمة بين الإدارة الرومانية والنقابات راجع:
Rea J.R ; "P. Lond. Inv. 1562 verso: Market Taxes in Oxyrhynchus" ZPE 46 "1982": pp 191- 209.

(47) P. Oxy. VI. 908.
(48) P. Oxy. XII. 1414; p. Tebt. 11.287 (AD 161- 169).
(49) Rea (J.R). op. cit. 191- 209.
(50) Rea (J.R); Ibid.
(51) P. Oxy. LXVII. 4596 (AD 264).
(52) Sallar R ; Personal Patronage under the Early Empire. Cambridge 1982; pp. 30 FF.
(53) Matthews J ; op. cit. ; pp.89 ff.
(54) Matthews J ; Ibid.
(55) P. Oxy. XII. 1414 (AD 270).
(56) P. Mich. V. 224, Line 13.

(57) Johnson A.C ; Roman Egypt to the Reign Diocletian.London, 1936, Vol. 11.No.374.

(٥٨) تمت معالجة كيفية قيام روما باستغلال أصحاب رؤوس الأموال في مصر لتوصيل الغلال لروما في الفصل السادس من كتاب :

Sirks A.J.B ; Food for Rome. Gieben. 1991. pp. 193- 239.

(59) Van Nijf O ; op. cit. p. 227.

(60) Van Nijf O ; ibid, p. 210- 240.

(61) BGU ; 1074 (AD 275) lines 3- 4.

(62) Van Nijf O ; op. cit. p. 215.

(63) P. Oxy ; III. 473 (AD 138- 160).

(64) P. Oslo ;III.144

الأوضاع الداخلية في مصر زمن
السلطان العادل كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م)

د. منال محمد السيد عبدالمجيد
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب جامعة بني سويف

بعد مقتل الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م، تم الاتفاق بين الأمراء على تنصيب الابن الثاني للملك المنصور قلاوون، وكان طفلاً صغيرًا في التاسعة من عمره وهو الملك الناصر محمد، وذلك عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣[١] وتم الاتفاق على أن يكون الأمير كتبغا نائب السلطنة ويتولى سنجر الشجاعي أمر الوزراة[٢].

وكان من الطبيعي أن يحدث صدام بين الوزير سنجر ونائب السلطنة كتبغا، خاصة أن كل واحدًا منهما عمل على أن يستأثر بالسلطنة دون الآخر، وانضم إلى كل منهما عدد كبير من الأنصار والاتباع، وبدأ الوزير الشجاعي بالعدوان وسعى للتخلص من نائب السلطنة كتبغا عام ٦٩٣هـ/١٢٩٤م[٣].

فانقسم المماليك إلى قسمين، قسم يتزعمه الشجاعي الذي تزعم المماليك البرجية وجعلهم يقفون موقفًا واحدًا ضد زعماء المماليك البحرية، الذي يتزعمهم زين الدين كتبغا وقد تنبه إلى هذا المؤرخ ابن إياس عندما أشار إلى " أن العسكر صاروا فريقين، فريق مع الشجاعي والآخر مع كتبغا "[٤].

ومن هذه اللحظة بدأت نيران الفتنة تشتعل بشدة بين الوزير ونائب السلطنة فأمر نائب السلطنة كتبغا ومن معه من الأمراء مماليكهم وأجنادهم أن يلبسوا عدة الحرب[٥].

وعندما علم الوزير سنجر الشجاعي بذلك جمع هو الآخر أتباعه ووزع عليهم صرر من ذهب فصار من يحضر إليه يعطيه صره ذهب على قدرة(٦).

ومهما يكن من أمر فقد انتهى هذا الصراع بانتصار الأمير كتبغا والتخلص من سنجر الشجاعي بالقتل(٧).

وبعد ذلك حدثت اضطرابات من قبل المماليك السلطانية الذين اثاروا فتنة كبيرة لأن الأمير كتبغا، فرق شملهم بعد مقتل سنجر، ففرق بعضهم على الأمراء وحبس بعضهم، فعزم هؤلاء على أن يجمعوا شملهم مرة ثانية، ويخرجوا خشداشيتهم المعتقلين إلا أن الأمير سيف الدين بهادر الحلبي استطاع أن يقضي عليهم بقطع رقاب بعضهم وصلب بعضهم على باب زويلة أحد أبواب القاهرة، كما نفى بعضهم وفرق باقيهم على الأمراء وكان عددهم أكثر من ثلثمائة مملوك(٨).

وكانت هذه الفتنة حُجة قوية اعتمد عليها الأمير كتبغا لانتزاع الحكم من الناصر محمد بن قلاوون(٩).

حيث جمع الأمراء ودعاهم إلى بيعته بالسلطنة وقال لهم " أن ناموس السلطنة وحرمة المملكة لا تتم لصغر سن الملك الناصر "(١٠). فبايعوه عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م وتولى السلطنة ولقب الملك العادل كتبغا المنصوري(١١). وقدم له فرس النوبة بالرقبة المملوكية وعليها ألقابه، وركب من دار النيابة قبل آذان العصر(١٢)، ودخل من باب القلة إلى الأدر السلطانية، والأمراء مشاة في خدمته ودخل على تخت السلطنة(١٣).

وخلع الملك الناصر محمد، وحجبه وجعله هو وأمه في بعض القاعات بقلعة الجبل وعامله بما لا يليق أن يعامل به(١٤). فكانت مدة سلطنة الناصر محمد وهي السلطنة الأولى سنة واحدة(١٥).

ثم كتب إلى نواب الشام يأخذ البيعة فأجابوا بالسمع والطاعة(١٦)، وخطب له بمصر والشام وضربت السكة باسمه(١٧)، ومد سماطًا عظيمًا وجلس على عادة

الملوك ودخل الأمراء إليه وقبلوا يده وهنأوه بالسطنة وأكلوا على السماط على جاري العادة وأخلع على الأمير حسام الدين لاجين المنصوري وولاه نيابة السلطنة بالديار المصرية، وأقر الصاحب فخر الدين بن الخليلي في الوزارة، ثم أمر العادل أن تجهز الخلع لساير الأمراء والمقدمين ومن جرت له العادة بالخلع كالوزراء وقضاة القضاة[١٨].

ثم قدم مماليكه وأمرهم وجعل سيف الدين بتخاص أستاذ الدار، أما سيف الدين أغرلوا وبدر الدين بكتوت الأزرق وسيف الدين قطلوبك فركب هؤلاء الأربعة بالأمرة في يوم واحد[١٩].

وكان هدف كتبغا من أمرة هؤلاء أن تقوى شوكته وتصير له عصبية، فالتف حوله جماعة من الأمراء، وتعصبوا له، فراج أمره في السلطنة وثبت قواعده، وصار له حلف من الأمراء والمماليك السلطانية[٢٠].

ورغم ذلك لم يكن العادل كتبغا موفقًا في مدة سلطنته فشاءت الظروف أن تتجمع عدة عوامل تجعل الناس يكرهون هذا السلطان الجديد، ويتمنون أن يزول حكمه[٢١].

كان أول هذه العوامل تتمثل في :

أولاً : حدوث الغلاء والمجاعة منذ بداية حكمه :

فقد تشاءم الناس من سلطنة العادل كتبغا لحدوث غلاء ومجاعة كبيرة في عصره عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، فقد كان سيء الطالع أصيبت البلاد على أثر اعتلائه العرش بالقحط والمجاعة والوباء، وارتفاع الأسعار، فتمنوا زواله ورددوا على ألسنتهم عبارة " يا نهار الشؤم، أن هذا النهار نحس "[٢٢]. كما رددوا عبارة " بكعبه المشئوم ووجه المحذور، توالت علينا الشرور "[٢٣].

فكانت هذه الأزمة بسبب انخفاض منسوب النيل ويجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن غالبية المجاعات والأوبئة التي ألمت بمصر في ذلك الحين،

إنما كانت مرتبطة بنهر النيل وفيضانه السنوي الذي تعتمد عليه الزراعة في البلاد[٢٤]. ليس فقط في العصر المملوكي، بل في مختلف عصور مصر التاريخية القديمة منها والحديثة والمعاصرة، وإذا كان سلاطين المماليك اهتموا بنهر النيل اهتمامًا كبيرًا من ذلك ما بذلوه في عمارة الجسور وصيانتها وتعيين أحد الموظفين الكبار للإشراف على الجسور وعمارتها، كذلك اهتم سلاطين المماليك بمقياس النيل[٢٥]. وعلى الرغم من كل ذلك إلا أن هذه الجهود لم تكن كافية، فكثيرًا ما انخفض منسوب نهر النيل في مصر، الأمر الذي يؤدي إلى فساد الزراعة وحدوث القحط وقلة المراعي وما يترتب على ذلك من ضعف المحصول وبالتالي احتكار الغلال في الأسواق مما يؤدي إلى انتشار المجاعة[٢٦].

فحدث ذلك بداية عصر كتبغا أن قصر النيل وبلغ ستة عشر ذراعًا وسبعة عشر إصبعًا، ثم هبط ولم يصعد مرة أخرى[٢٧]. فارتفعت الأسعار فبلغ سعر أردب القمح بمصر مائة وخمسين درهمًا فضة، والشعير مائة درهم للأردب[٢٨]. كذلك ارتفعت أسعار الفول والعدس والفاكهة ارتفاعًا ملحوظًا[٢٩].

واستمر الحال على ذلك إلى أن دخلت سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م فزاد الأمر سوءًا عندما بدأ النيل في التوقف من جهة، ثم هبوب رياح عاصفة محملة بالأتربة أدت إلى فساد ما كان موجودًا بالمزارع من محاصيل كانت على وشك النضوج، مما أدى إلى قلة المحاصيل الزراعية في ذلك العام، وأدى بالتالي إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعًا كبيرًا، وبلغ ثمن أردب القمح إلى مائة وتسعين درهمًا والشعير إلى مائة وعشرين درهمًا والفول والعدس إلى مائة درهم[٣٠]. فغلت الأسعار في سائر الأصناف، وبلغ ثمن الفروج عشرين درهمًا، ويروي النويري " أنه سمع أن بعض الناس اشترى فراريج لمريض عنده، فوزن لحمها، فكان يوزن الدراهم التي اشتراها بها، فتقوم عليه لحم الفراريج " بأربعة دراهم فضة[٣١]، كما بيعت البطيخة الرطل بأربعة دراهم وبيعت السفرجلة، بثلاثين درهمًا[٣٢]، وأبيع كل رطل لحم بسبعة دراهم وكل سبع بيضات من بيض الدجاج بدرهم[٣٣].

وكان أكبر أسباب هذا الغلاء وتزايده بمصر، خلو الأهراء السلطانية من الغلال، وذلك منذ أيام السلطان الملك الأشرف خليل، فقد فرق الغلال، وأخلى الأهراء منها بتوزيعها على الأمراء وغيرهم، حتى نفذ ما فيها. وحدث بعد ذلك قصر النيل، فاحتاج وزير الدولة إلى مشتري الغلال للمؤنة والعليق فتزايدت الأسعار بسبب ذلك(٣٤).

أعقب هذا الغلاء الكبير فناء عظيم حيث انتشر الوباء فمات عدد كبير من أهل مصر فكان عدد من يموت في اليوم الواحد أكثر من سبعمائة، ونتيجة لكثرة عدد الموتى عجز الناس عن دفن الأموات أفرادًا، فكانوا يحفرون حفرة كبيرة ويرص فيها الأموات من الرجال والنساء، ويجعل الأطفال بين أرجلهم، ويردم عليهم، كما أن بعض الأموات لم يجدوا من يواريهم في قبورهم، فأكلتهم الكلاب(٣٥).

ويذكر ابن إياس أن الملك العادل كتبغا، كفن من ماله، في مدة يسيرة، من مات من الغرباء في الطرقات، نحوًا من مائتي ألف وسبعين ألف إنسان، حتى جافت منهم الطرقات والحارات والأزقة، وصار الرجل يكون ماشيًا، فيقع ميتًا في الحال(٣٦).

وكان عدد الموتى كبير جدًا لدرجة أن بعض القرى خلت لفناء أهلها بالموت(٣٧).

فقد كان الناس يتساقطون موتى في الطرقات(٣٨) ومن الجدير بالذكر أنه "أحصى من مات بالقاهرة وثبت اسمه في ديوان المواريث الحشرية عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م فبلغوا سبعة عشر ألفًا وخمسمائة وهذا سوى من لم يرد اسمه في ديوان المواريث من الغرباء والفقراء من لم يطلق من الديوان "(٣٩).

ونتيجة لكثرة عدد الوفيات كان يخرج من كل باب من أبواب القاهرة في كل يوم ما يزيد عن سبعمائة ميت، ويغسل في كل يوم نحو المائة والخمسين ميتًا ولا

يكاد يوجد باب أحد من المستورين بالقاهرة ومصر إلا ويصبح على بابه عدة أموات قد طرحوا حتى يكفنهم ويدفنهم، فيشغل نهاره فيهم، ومن كثرة عدد الأموات كانت تدفن بغير غسل ولا كفن، فكان الواحد يدفن في ثوب وبمجرد ما يوضع في حفرته يؤخذ ثوبه حتى يلبس لميت آخر، فكان يدفن في الثوب الواحد عدة أموات(٤٠).

كذلك استأجر الناس من يحمل الأموات فكانوا يأخذون عن كل ميت نصف درهم، فيحمله الواحد منهم ويلقيه إما في حفرة أو في النيل إن كان قريبًا منه، كذلك حمل الأموات في شباك على الجمال إلى مكان مواراتهم(٤١). بالإضافة إلى ذلك كان المتوفى يبقى مطروحًا في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات اليوم واليومين دون أن يجد من يدفنه وذلك نتيجة كثرة عدد الموتى من ناحية وانشغال الأفراد بمرضاهم من ناحية أخرى(٤٢). كما هلكت الكلاب والحمير والقطط من شدة الجوع(٤٣).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأزمة الكبيرة أضرت بالأغنياء أيضًا ضررًا بالغًا. فمثلاً أن بعض الأعيان كان إذا أتى سماط الأمراء الأكابر يمنع من معه من الدخول صحبته خشية أن يضيق على مماليك الأمراء راتبهم وإذا رفع سماط الأمراء لم يوجد فيه من الخبز ولا غيره(٤٤). ووصل الحال بالناس أن جماعة من الطباخين واللحامين قاموا ببيع اللحوم الفاسدة والمحرمة شرعًا كلحوم الدواب والكلاب الميتة، فكثر تعزير المحتسب لهم(٤٥).

ونتيجة لشدة الجوع الذي عانى منه الناس قاموا بنهب الخبز من الأفران والحوانيت حتى كان العجين إذا خرج من الفرن انتهبه الناس فلا يحمل إلى الفرن، ولا يخرج الخبز منه إلا ومعه عده يحمونه بالعصى، فكان من الناس من يلقي نفسه على الخبر ليخطف منه، ولا يبالي بما ينال رأسه وبدنه من الضرب، لشدة ما نزل به من الجوع(٤٦).

كذلك وجد أعداد كبيرة من الناس موتى في مزارع الفول وفي ذلك يقول المقريزي " وكان أكثرهم يوجد ميتًا في مزارع الفول لا يزال يأكل منه إذا وجده حتى يموت، ولا يستطيع الحراس ردهم لكثرتهم "(٤٧).

وهناك قصة الأمير فخر الدين الطنيغا فقد كان من جملة زرعه مائة فدان فولاً لم يمنع أحد من الأكل منها في موضع الزرع، ولم يمكن أحدًا أن يحمل منه شيئًا، فلما كان أوان الدراس لم يرض بمن وكل إليه أمر الزرع حتى خرج بنفسه، ووقف على أجران تلك المائة فدان الفول، فإذا تل عظيم من القشر الذي أكل الفقراء فوله أخضر، فطاف به، وفتشه فلم يجد به شيئًا من الفول فأمر به عند انقضاء شغله أن يدرس لينفع بتبنه، فحصل منه سبعمائة وستون اردبًا فعد ذلك من بركة الصدقة وفائدة أعمال البر(٤٨).

يضاف إلى ذلك أن بعض الناس اضطروا لأكل الميتة من المواشي والكلاب وبني أدم وكانت النساء يأكلن أولادهن الموتى(٤٩).

ولاشك أن كثير من كتابات المؤرخين بشأن هذه المجاعة تحمل المبالغة والتهويل مثال ذلك القصة التي يرويها بعض المؤرخين أن بعض الأمراء رأى بباب داره إمرأة جميلة وهي تستعطي، فرق لها وادخلها داره فأحضر لها رغيفًا وإناء مملوءة طعامًا فأكلته كله ولم تشبع، فقدم إليها مثله فأكلته وشكت الجوع، فمازال يقدم لها وهي تأكل حتى اكتفت، ثم استندت إلى الحائط ونامت، فلما حركوها وجدت ميتة، فأخذوا من كتفها جرابا فلقوا فيه يد إنسان صغير ورجله، فأخذ الأمير ذلك وصعد به القلعة وأراه السلطان والأمراء(٥٠).

وهناك قصة أخرى يذكرها المؤرخ ابن إيبك الدواداري بأن متولي القاهرة أمسك بثلاث رجال وجدهم على مائدة يضعون طفل صغير، بعد أن قطعت يديه ورجليه ودهن بزعفران، وشوى كما يشوي الخروف والجدي وقد جلس الثلاثة لكي يأكلوا هذا الطفل فتم القبض عليهم واعترفوا إنهم فعلوا ذلك بالأمس فكان الحكم

عليهم من بشاعة ما فعلوه الشنق بباب زويلة ولم يصبح منهم شيء، بـل أكلـوهم غيرهم، فكما أكلو أكلوا، وهذه من غرايب البلايا[٥١].

كذلك بالغ بعض المؤرخين في أعداد من توفوا في هذه المجاعة، فيذكر ابن الفرات أن من مات في شهر واحد من شهور هذه السنة ٦٩٥هـ مائة ألف وسبعة وعشرين ألفًا وهذا الرقم بلا شك مبالغ جدًا فيه[٥٢].

ومن المبالغات أيضًا التي جاءت في كتابات المؤرخين أنه نتيجة لكثرة عدد الموتى وتفشي الأمراض أن الأدوية طلبت للمرضى بكميات كبيرة حتى أن عطار يبيع في شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم، كما أكثر الطلب على الأطباء وبذلت لهم الأموال، فكان كسب الواحد منهم في اليوم مائة درهم[٥٣].

ومن المؤكد أن هذه المبالغات التي جاءت في كتب المؤرخين كانت نتيجة لشدة الأزمة التي أدت إلى الوباء وكثرة عدد الموتى " وساءت ظنون الناس، وكثر الشح وضاقت الأرزاق ووقفت الأحوال، واشتد البكاء، وعظم ضجيج الناس في الأسواق من شدة الغلاء والوباء[٥٤].

لذلك احتوت كتب المؤرخين على العديد من الحكايات والقصص التي تدل على المبالغة والخيال في وصف هذه المجاعة، ليبرهنوا على صحة حديثهم، ويرجع سبب ذلك إلى أن معظمهم مؤرخون متأخرون بعض الشيء عن أحداث تلك المجاعة عاشوا في القرن التاسع الهجري والعاشر الهجري أمثال المقريزي (ت ٨٤٥هـ) والسيوطي (ت٩١١هـ) في حين أننا نجد حديث من عاصر هذه المجاعة حديثًا خاليًا تمامًا من تلك الروايات[٥٥]. فمثلاً أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ)، وكان معاصرًا لهذه المجاعة يشير إلى أنه " في عام ٦٩٤هـ قصر النيل تقصيرًا عظيمًا، وتبعه غلاء واعقبه وباء وفناء عظيم "[٥٦].

ومن الجدير بالذكر أن السلطان العادل كتبغا حاول أن يعالج هذه الأزمة قدر استطاعته، فاستورد القمح من الشام[٥٧]. كما فرق الفقراء على الأمراء كل واحد

على قدره[٥٨]، فأرسل إلى أمير المائة مائة فقير وإلى أمير الخمسين خمسين حتى كان لأمير العشرة عشرة. فكان كل أمير يطعم من معه من الفقراء حسب حالته فمنهم من أطعمهم لحم البقر مثرودًا في مرقة يمده لهم في السماط ويأكلون جميعًا، ومنهم من يعطي فقراءه رغيفًا، وبعضهم كان يفرق الكعك، وبعضهم يعطي رقاقًا، فحف بالناس من الفقراء على حد قول المقريزي[٥٩].

وأدى هذا الحل بلاشك إلى تخفيف الأزمة على الناس والتقليل من حدتها، وقد أشار إلى ذلك كل من ابن حجر والشوكاني بقولهما : " ولولا أنه فرق الفقراء على الأمراء كل واحد على قدره وإلا لمات الجميع من الغلاء "[٦٠]. كما أمر العادل بالخروج لأداء صلاة الاستسقاء عسى أن يزيد الله من ماء النيل[٦١].

ومن الملاحظ أن هذه المحاولات التي قام بها العادل كتبغا لم تخفف من كراهية الشعب له، فقد قرنوا بين هذا البلاء وبين توليه عرش السلطنة، والدليل على ذلك أن السلطان عندما كان ينزل الميدان وقت شدة الأزمة وهو خائف على نفسه، متخوف من إيقاع فتنة، كان لا يجد من يقف بين يديه، ولا يدعو أحد له اللهم إلا جماعة من أصحاب الدكاكين هناك الذين يكسبوا من هذه الأزمة وذلك الوباء[٦٢].

ولم تلبث تلك الغمة أن انقشعت أواخر عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م عندما حضرت الغلال بكميات كبيرة من بلاد الفرنج مثل صقلية والقسطنطينية وغيرها[٦٣].

وكانت هذه الغلال تقدر بثلثمائة ألف أردب قمحًا[٦٤]. فتخلص الناس من هذه المجاعة عندما " جاء الله بالفرج، على حد قول المقريزي "[٦٥].

كما أن ابن إياس عبر عن ذلك بقوله " لطف الله تعالى بأهل مصر، فأرسل عليهم جرادًا، فأكل منه الناس قاضبة وصار يباع منه كل أربعة أرطال بدرهمين"[٦٦].

هكذا انتهت هذه المجاعة عصر السلطان كتبغا والتي أدت إلى شدة كراهية

الناس له وتمنوا من أعماق نفوسهم زوال هذا الحكم[٦٧].

والسؤال هنا ما هي الآثار التي ترتبت على هذه المجاعة وذلك الوباء ؟

بالتأكيد كان لها أثرًا كبيرًا على الحياتين الاقتصادية والاجتماعية بمصر في تلك الفترة.

أولاً : من الناحية الاقتصادية :

كثرت أرباح التجار والباعة وازدادت فوائدهم وثـرواتهم نتيجـة للتلاعـب بالأسعار واحتكار السلع، فكان الواحد منهم يكسب في اليوم الواحد المائة والمائتين، فزادت ثروة جماعة كثيرة خلال فترة الغلاء، كذلك كثر التلاعب بالعملة ممـا أدى إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية[٦٨]. وقد عبر المقريزي عن ذلك بقوله " ولعبت الناس في الفلوس لما ضربت، فنودي أن يستقر الرطل منهم بدرهمين، وزنة الفلس درهم، هذا أول ما عرف من وزن الفلوس "[٦٩].

وفي نفس الوقت كثرت المصادرات في الولاة وأرباب الأموال[٧٠]. وزاد ظلم أتباع السلطان العادل كتبغا ومماليكه وطمعوا في أخذ البراطيل والحمايات وكثـر عسفهم وغضبم من الأمراء[٧١].

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل أن الوزير فخر الدين بن الخليلي. أخذ متحصل ديوان المواريث الخاص بالغذاء والعشاء، كذلك الأموال الموروثة ولو كان الوارث ولدًا أو غيره، فإذا طالبه الولد بميراث أبيه طلب منه إثبات نسبه أو استحقاقه، فـلا يكاد يثبت ذلك إلا بعد عناء طويل ومشقة، فإذا تم الإثبات أحاله على المواريـث، حتى إذا مات آخر وله مال ووارث من ولد ذكر أو غيره فعل معهم كذلك، فعجـز الورثة من الطلب، وفي بعض الأحيان يتركوا المطالبة بإرثهم[٧٢].

ثانياً : من الناحية الاجتماعية :

فقد تناقص عدد سكان مصر تناقصًا ملحوظًا لدرجة تعطلت معها كثير مـن الأعمال، ومن الآثار الاجتماعية أيضًا ما حدث من توقف كثير من الأفراد عن منح

العطاء للفقراء والصالحين[٧٣]. ويشير الأدفوي إلى أنه بعد أن أيقن الناس من أن النيل توقف عن الزيادة عام ٦٩٤هـ/١٢٩٣م " امتنعوا عن العطاء .. "، وقد أضر هذا المنع بأحوال كثير من أولئك الذين عاشوا على العطاء سواء كانوا فقراء أم الفقهاء والصالحين، ومن بين أولئك الفقهاء الذين حرموا من العطاء محمد بن محمد ابن عيسى النصيبي القوصي، وكان مقيمًا بأحد المساجد المجاورة للمدرسة الشمسية بمدينة قوص، مما دعاه إلى أن نظم قصيدة لقاضي قوص إسماعيل بن موسى السفطي جاء فيها :

وكم من مرجف يظنون سوء   فلا صدقت ظنون المرجفينا
يحوق من سنى جدب ونرجو   دوام الخصب من رب السنينا[٧٤]

غير أن هذا الوضع لم يكن السمة الغالبة على المجتمع المصري في تلك الفترة، فظل كثير من الأغنياء على حالهم من توزيع الأموال والغلال على الفقراء والمحتاجين طوال فترة المجاعة، من ذلك ما فعله الأمير نجم الدين وهو من بني كنز بأسوان. و" قام بفقراء أسوان وأعطى الغلال حتى نفذت لهم الثمار حتى فرغت، ثم ذبح الغنم حتى خرج الغلال "[٧٥].

ثالثاً : الآثار النفسية لهذه المجاعة :

تشاؤم الناس في مصر بسلطنة العادل كتبغا التي استهلت بهبوط ماء النيل بعد زيادته وهو ما دفعهم إلى التمسك ببيت قلاوون[٧٦].

ثم جاء العامل الثاني الذي جعل الناس يزدادون كراهية للسلطان العادل كتبغا وتمثل في المغول الذين وفدوا إلى مصر عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م وعرفوا باسم الأويراتية وكان مقدمهم طرغاي[٧٧]. ووصل عددهم إلى عشرة آلاف بيت بحريمهم وأولادهم ومواشيهم[٧٨]، ووصلوا إلى بلاد الشام أولاً ثم أرسل السلطان العادل كتبغا الأمير سنقر الأعسر لإحضار أعيانهم إلى مصر، فجاء الأمير سنقر بمائة وثلاثة

عشر رجل منهم أما ما تبقى منهم فوزعوا على بلاد الساحل الشامي[٧٩]. وكانوا وثنيين، وإن كانوا قد أعلنوا أنهم " يرغبون في دين الإسلام "[٨١].

فما كاد هؤلاء الأويراتية يصلون إلى مصر حتى أمر العادل كتبغا الأمراء والجند بالخروج لاستقبالهم والترحيب بهم فكان لدخولهم يوم عظيم[٨١].

" فلم ينس كتبغا أصله المغولي " فاقطعهم الإقطاعات الوفيرة وأنعم على طرغاي مقدمهم بأمرة طبلخاناه، وعلى البعض الآخر بإمرة عشرة وأعطى البقية تقادمًا في الحلقة[٨٢].

فأدى ترحيب كتبغا بهم إلى استثارة شعور الأهالي، وإلى نقمتهم على السلطان كتبغا وحكمه[٨٣]، خاصة بعد أن منحهم السلطان حق ممارسة شعائرهم الدينية الوثنية بحرية، ونهى عن التعرض لهم، ورفض أن يكرههم على الدخول في الإسلام[٨٤].

وكان هدف السلطان العادل كتبغا من العناية بهم أن يجعلهم عونًا له يتقوى بهم فبالغ في إكرامهم[٨٥].

وزاد بغض الناس لهم أنهم بقوا على كفرهم، فعندما دخل شهر رمضان فلم يصم منهم أحد، فخاطب الأمراء السلطان في ذلك وقالوا : " ينبغي أن يخاطب هؤلاء في الإسلام ويتعلمون شرائع الدين، ولا يمكن أن هؤلاء في بلاد الإسلام وفي مملكة مصر على غير دين الإسلام فلم يرجع إلى شيء في كلامهم، ورد عليهم قائلاً : لا يشوش أحد عليهم، واجعلهم على دينهم فغضب الأمراء من هذا الرد ووجدوا فيه أمرًا عظيمًا "[٨٦].

والسؤال الذي يجب أن نسأله الآن هو : ما هي النتائج التي ترتبت على وجود هؤلاء المغول في مصر عصر كتبغا ؟

كان من الطبيعي أن تنتشر عادات وتقاليد هؤلاء المغول في مصر نظرًا للحرية التامة التي تمتعوا بها من قبل السلطان كتبغا. فظهر في أطعمة مصر انواع

لم تكن معروفة قبل مجيئهم، وقد سموها بأسماء من لغتهم[٨٧]. يضاف إلى ذلك انتشار أكل لحوم الخيل في الحفلات والمناسبات[٨٨].

ولم يقتصر الأمر على الأطعمة بل تعداه إلى ألعاب الرياضة فشغف الناس بألعاب الرياضة والفروسية واقتناء الخيل، حتى اقتناها وسابق عليها بعض رجال الدين[٨٩].

كما أن الأمراء كرهوا جلوسهم معهم بباب القلة في الخدمة، ولم يعرفوا أوضاع الأدب ولا اهتدوا إلى سبيل الصواب " على حد قول بيبرس المنصوري[٩٠].

كانت هذه المكانة التي تمتع بها المغول في مصر عصر كتبغا سبب كبير لكراهية الناس له، وقد أشار المقريزي إلى ذلك بقوله : " وعظم على الناس إكرامهم، وتزايد بغضهم في السلطان، وانطلقت الألسنة بذمه حتى أوجب ذلك خلع السلطان "[٩١]. كذلك أشار بيبرس المنصوري بقوله " تشاءم الجميع بوجهه وطلعته واتفقوا على عزله، وحزنوا كثيرًا على زمن الناصر محمد وأيامه "[٩٢].

من الجدير بالذكر أن هؤلاء المغول كانوا يتصفون بالجمال الشديد، الأمر الذي دفع الأمراء أن يأخذوا أولادهم الشباب للخدمة، كما تزوج الناس من بناتهم وتنافس الأمراء والأجناد وغيرهم في صبيانهم وبناتهم، ثم استخدم من بقى منهم في العساكر، فتفرقوا في الممالك ودخلوا في الإسلام واختلطوا بأهل البلاد "[٩٣].

أما عن العامل الثالث والذي أدى إلى زوال حكم السلطان كتبغا وعزله من السلطنة، فتمثل في منح كتبغا السلطة لأميرين من خاصته هما يتخاص وبكتوت الأزرق، فأساءا استعمالها، وتحكما في أمور الدولة، وظلما الرعية، وحرضاه على التخلص من نائب السلطنة الأمير لاجين، أشد أمراءالمماليك نفوذًا في ذلك الوقت، ويبدوا أن هذا الأمير طمع من جهته في منصب السلطنة منذ اعتلاء كتبغا[٩٤].

يضاف إل ذلك أن كتبغا اهتم اهتمامًا كبيرًا بمماليكه فقط، مما أثار بقية الجند

عليه، فلم يتبع الطريقة الصحيحة في ترقية مماليكه وتأمرهم وهي طريقة التدرج، مما أدى إلى تطاول مماليكه على الأمراء الكبار والقدامى، فتكبروا عليهم واستحوذوا على الإقطاعات، وكثرت مطالبهم مما أدى إلى زيادة كراهية العامة والخاصة للسلطان كتبغا والرغبة في الخلاص منه[٩٥].

يضاف إلى ذلك أن كتبغا اتهم بعض الأمراء بمراسلة المغول كي يتخلص منهم، فزادت كراهية الأمراء له[٩٦].

وفي هذا الوقت كان الأمير لاجين نائب السلطنة طامعًا في منصب السلطنة، فأخذ يكيد له باطنًا، مستغلاً عوامل الكراهية والحقد التي أخذت تتجمع ضده[٩٧].

نتيجة لذلك عم السخط حكم العادل كتبغا ليس في مصر فقط وبل في بلاد الشام أيضًا وذلك عندما ذهب إلى دمشق عام ٦٩٥هـ/١٢٩٦م قام بعزل الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة بها وولى مملوكه سيف الدين أغرلوا الزيني في نيابة السلطنة بالشام، وصادر الأمير عز الدين الحموي واستصفى أمواله، وأخذ منه شيئًا كثيرًا من الخيول المسومة والأقمشة وغيرها[٩٨].

فضلاً عن أن كتبغا عندما زار دمشق لأول مرة بعد سلطنته لم يوزع على الأمراء ما جرت به عادة السلاطين السابقين من منح وإنعامات[٩٩]، الأمر الذي أوغر قلوب الجميع منه " وتوجه إلى حمص متصيدًا وعاد منها وقلوب الجماعة نافرة من جهته " على حد قول بيبرس الدودار[١٠٠].

وعندما رحل السلطان من دمشق بعساكره يريد القاهرة اتفق الجميع على التخلص من السلطان كتبغا أثناء عودته، وتم اختيار منطقة العوجاء لتنفيذ المؤامرة[١٠١].

وتزعم هذه المؤامرة نائب السلطنة لاجين فهجم أولاً على الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق وكانا جناحي الملك العادل[١٠٢]. شجاعين عزيزين عند أستاذهما، وقتلهما في الحال، ثم قصد مخيم السلطان فمنعه بعض مماليك السلطان قليلاً

وعوقوه عن الوصول إلى الملك العادل. ولما بلغ العادل هذا الأمر علم أنه لا قبل له على قتال لاجين لعلمه بمن وافقه من الأمراء وغيرهم وخاف على نفسه وركب من خيل النوبة فرسًا تسمى حمامة وساقه لقلة سعده ولزوال ملكه(١٠٣). راجعًا إلى الشام حتى وصل إلى دمشق، ومعه أربعة أو خمسة من خواصه(١٠٤)، وكان نائب الشام الأمير أغرلوا العادلي أحد مماليك كتبغا فاستعد وأحضر أمراء الشام عند السلطان على الفور ورسم بالاحتياط على نواب الأمير لاجين وعلى حواصله بدمشق(١٠٥). وندم الملك العادل على ما فعله من خير مع لاجين فندم حيث لا ينفعه الندم(١٠٦).

ثم تأهب لقتال لاجين إلا أن عسكر دمشق رفضوا ذلك فاضطر إلى خلع نفسه(١٠٧). وخاصة بعد أن ورد الخبر بسلطنة لاجين، فقد بايع الجميع لاجين بالسلطنة ولقبوه المنصور وشرطوا عليه أن لا ينفرد عنهم بالرأي فقبل، وسار إلى مصر ودخل قلعة الجبل عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م(١٠٨). وعندما وجد كتبغا ضعف أمره، وتخاذل الناس عنه، وثبات قدم الملك لاجين في السلطنة، وانضمام الناس إليه، أذعن إلى الطاعة، والدخول فيما دخل الناس فيه(١٠٩)، قائلاً لأمراء السلطان الملك المنصور هو خوشداش وأنا في خدمته وطاعته(١١٠).

ومن الجدير بالذكر أن الناس تعجبوا من تسليم الملك العادل كتبغا الأمر إلى الملك المنصور لاجين على هذا الوجه المهين من غير قتال ولا حرب(١١١).

هكذا انتهت سلطنة العادل كتبغا وكانت مدتها سنتين وسبعة عشر يومًا(١١٢)، منذ أن جلس على تخت السلطنة يوم الأربعاء حادي عشر المحرم سنة ٦٩٤هـ، وإلى أن فارق الدهليز بمنزلة العوجاء وتوجه إلى دمشق في يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم، سنة ٦٩٦هـ(١١٣).

ثم تجهز الملك العادل كتبغا وخرج من قلعة دمشق بأولاده، ومماليكه إلى صرخد بعد أن أمره لاجين بذلك فخرج معززًا مكرمًا وأقام بها حتى عام

٦٩٦هـ/١٢٩٦م يباشر نيابتها[١١٤].

وظل بصرخد حتى انتقل إلى نيابة حماة في سلطنة الناصر محمد الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٩م) ولم يزل على نيابة حماة حتى مات بها في ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وهو في سن الكهولية، ودفن بحماة ثم نقل منها ودفن بتربته التي أنشأها بسفح جبل قاسيون بدمشق[١١٥].

وقد وصفه أبو المحاسن بقوله " وكان ملكًا خيرًا دينًا عاقلاً عادلاً سليم الباطن شجاعًا متواضعًا، وكان يحب الفقهاء والعلماء والصلحاء ويكرمهم إكرامًا زائدًا، وكان أسمر اللون قصير العنق، وكان له لحية صغيرة في حنكه "[١١٦].

هوامش البحث

(١) الذهبي : العبر في خبر من غبر، ٤ أجزاء، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد، لبنـان، د.ت، ج٣، ص٣٧٩؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجـزاء، تحقيـق : محمـد مصطفى، القاهرة د.ط، ج١، ق١، ص٣٧٨؛ انظر أيضًا : آمال حامد زيان : الأمير علـم الدين سنجر الشجاعي والصراع حول سلطنة المماليك، بحث منشور بمجلـة كليـة الآداب، الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مجلد ٧١، العدد ٢ ، إبريل ٢٠١١م، ص٢٢؛ حامد زيان : المماليك التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص٣٦.

- الأشرف خليل بن السلطان المنصور قلاوون ولد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م، وتولى السلطنة بعد وفاة أبيه عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، إلا أنه لم يستمر طويلاً في السلطنة، فما لبـث أن تآمر عليه الأمراء، وقتلوه عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م. ابن شاكر الكتبي : فـوات الوفيـات والذيل عليها، تحقيق : إحسان عباس، ٥ أجزاء، دار الصادر، بيـروت ١٩٧٣م، ج١، ص٤٠٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٣ جزء، ج٣١، تحقيـق : السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٥٩.

تولى الناصر محمد السلطنة ثلاث مـرات الأولـى ٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م، والثانية ٦٩٨-٧٠٧هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م، والثالثة ٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م.

(٢) حمدي عبدالمنعم : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية ٢٠٠٧م، ص١٨٩.

- الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، أصله من سبايا التتـار، أخـذه الملـك المنـصور قلاوون في وقعة حمص عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م، فصار من جملة المماليك الـسلطانية، وما لبث يترقى في المناصب حتى تولى نيابة السلطنة للـسلطان الناصـر محمـد بـن قلاوون، ثم أصبح سلطانً عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م. ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٨٦، ٣٩٢؛ الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القـرن الـسابع، جـزءين، القاهرة د.ت، ج٢، ص٥٨؛ ابن شاكر : فـوات الوفيـات، ج٣، ص٢١٨-٢١٩؛ أبـو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ١٢ جزء، ج٩، تحقيـق : محمـد

أمين، ص١١٥-١١٨.

- نائب السلطنة من المناصب الإدارية الكبرى وضعها الخالدي على رأس أرباب الوظائف، إذ جعل ترتيب نائب السلطنة الأول، والنائب هو الذي يقوم مقام السلطان في عامة أموره أو في غالبها. المقصد الرفيع الهادي لديوان الإنشاء، رسالة دكتوراه، تحقيق: خليل شحاده، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فرع الآداب العربية، بيروت ١٩٨٨م؛ انظر أيضًا: ليلى عبدالجواد : نائب السلطنة في القاهرة في عصر المماليك البحرية، بحث منشور بالمؤرخ المصري، يصدرها قسم التاريخ جامعة القاهرة، العدد الأول، يناير ١٩٨٨م، ص١٥٩-٢٢٥؛ سعيد عاشور : نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، بحث منشور في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ٢٩، ٣٠.
- علم الدين سنجر الشجاعي، أصله من مماليك المنصور قلاوون، ثم اعتق ولما آلت السلطنة إلى المنصور قلاوون أنعم على طائفة من مماليكه بالإمرة، وكان الشجاعي منهم، وتولى بعض الوظائف في دولة بني قلاوون ومنها الوزارة إلى أن قتل عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م. ابن أيبك الدواداري : الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : ولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ج٨، ص٢٥٣؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ص١٧٢؛ انظر أيضًا : آمال حامد : الأمير سنجر الشجاعي، ص١١-٦٥.

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام، طبعة أولى، القاهرة ١٩٦٥م، ص١٠٤-١٠٥؛ منال محمد : الوزارة في مصر خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بني سويف، ٢٠٠٧م، ص١٧٧.

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٨١؛ انظر أيضًا : آمال حامد : الأمير علم الدين سنجر، ص٢٥؛ جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر، د.ت، ص٣٣.

- المماليك البرجية، ويسمون أيضًا المماليك الجراكسة والتسمية الأولى نسبه لأن غالبية سلاطينها كانوا يسكنون بروج القلعة على جبل المقطم، أما التسمية الثانية فلأنهم كانوا أصلاً من بلاد الجركس أو الشركس ويقال أيضًا – الشراكسة – وهي كلمة روسية

قديمة معناها القوقاز بجوار بحر قزوين، للمزيد من التفاصيل، انظر : ابن إياس: بدائع، ج١، ص٢٥٧، ٢٥٨؛ انظر أيضًا : عبدالمنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، جزءان، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٩م، ج١، ص١١؛ آمال حامد: الأمير علم الدين سنجر، ص٢٤، ٢٥.

- المماليك البحرية، أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب آبان سلطنته (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) وقد أطلق على تلك الفرقة هذا الاسم نسبة إلى " بحر " النيل حيث سكنوا جزيرة الروضة الواقعة وسط ذلك النهر أو إلى أنهم جلبوا عن طريق البحر. للمزيد من التفاصيل، انظر : محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الرابع، ج١، مايو ١٩٣٦م؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، ج٣، ص٣٨٤.

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : زبيدة عطا، ج٩، ص٢٨١؛ بيبرس المنصوري : التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق : عبدالحميد صالح حمدان، طبعة أولى، لبنان، ١٩٨٧م، ص١٤٠؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٧٥؛ انظر أيضًا : مجهول المؤلف : تاريخ سلاطين المماليك، د.ط، ص٣٠.

(٦) ابن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور بذكر الملك المنصور، تحقيق : مراد كامل، طبعة أولى، القاهرة ١٩٦١م، ص٢٧٨؛ ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، ٣ أجزاء، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، طبعة أولى، بيروت ١٩٩٨م، ج١، ص١٩٧؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، ٩ أجزاء، ج٨، تحقيق : قسطنطين رزيق، نجلاء عز الدين، بيروت ١٩٣٨م، ص١٨٠؛ انظر أيضًا : آمال حامد : الأمير علم الدين سنجر، ص٢٢٨؛ منال محمد : الوزارة، ص١٧٨.

- Glubb J. Soldiers of Fortune The Story of The Manlukes, New York, 1973, p. 157.

(٧) للمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع، انظر : ابن الجزري : تاريخه، ج١، ص١٧٧-

١٨٠؛ انظر أيضًا : محمد عبدالغني الأشقر : نائب السلطنة المملكية في مصر ١٩٩٩م، ص٢٣٧؛ لبيبة إبراهيم مصطفى : الفتن والقلاقل الداخلية في دولة سلاطين المماليك وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٦-٢٧؛ آمال حامد : الأمير علم الدين سنجر، ص١١-٦٥؛ منال محمد : الوزارة، ص١٧٧-١٨٠.

- Mounira : " Levizirat en a L'Epoque Mamluk " in Aevuetunisie nnedescience Sociales, p. 116.

(٨) للمزيد من التفاصيل عن هذه الفتنة انظر : ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩١-١٩٢؛ بيبرس المنصوري : التحفة المملوكية، ج١٤٢-١٤٣؛ أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر : ٤ أجزاء، القاهرة د.ت، ج٤، ص٤٢؛ انظر أيضًا : حمدي عبدالمنعم : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٩٠؛ Mounira : Levizirat, p. 116–118.

- المماليك السلطانية هم مماليك السلاطين السابقين والذين ضمهم السلطان القائم إلى مماليكه، ومنهم العجائز والشيوخ، وكانوا أعظم الجند شأنًا وأرفعهم قدرًا وأقرب من غيرهم إلى السلطان. عنهم انظر : القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، ج٤، ص١٥-١٦؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٥٣؛ انظر أيضًا : محمد البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة ١٩٨٣م، ص٣٢٩-٣٩٠.

- خشداش معرب من اللفظ الفارسي خواجاتاش أي الزميل في الخدمة، محمد البقلي : مصطلحات، ص١٢٠.

(٩) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩٣؛ بيبرس المنصوري : التحفة المملوكية، ص١٤٣؛ انظر أيضًا : وليم موير : تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة : محمود عابدين وسليم حسن، القاهرة د.ت، ص٧٢.

(١٠) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩٣؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٨١؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ج١، تحقيق : محمد مصطفى زيادة،

القاهرة ١٩٣٤م، ج١، ق٣، ص٨٠٣؛ قاسم عبده قاسم : في تاريخ الأيوبيين والمماليك، طبعة أولى، القاهرة ٢٠٠١م، ص٦٩.

(١١) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٨٨م، ص٢، ٢٨٨؛ ابن الفرات : تاريخه، ج١٨، ص١٩٣.

(١٢) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨٠٦؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٨٢؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩٣.

- فرس النوبة : كانت العادة أن يحفظ قرب حضرة السلطان بالقلعة أو في الأسفار فرس مجهز بالسروج الغاشية لاستخدامه في الطوارئ لركوب السلطان. المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، هامش ٣، ص٦٠٨؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ص٣٢٤، هامش ١.
- الرقبة المملوكية : هي رقبة من أطلس أصفر مزركش بالذهب بحيث لا يرى الأطلس لتراكم الذهب عليها، توضع على رقبة فرس السلطان في العيدين وفي خروجه في الميادين. القلقشندي : صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٣؛ الخالدي : المقصد الرفيع، ص١٢٢؛ البقلي : مصطلحات صبح الأعشى، ص١٦٠.
- دار النيابة : بناها السلطان قلاوون سنة ٦٨٧هـ لنائب السلطنة في الميدان الذي تحت القلعة، وكان فيها شباك يجلس فيه النائب للمتظلمين أو يقف بين يدي السلطان ونحوه في المواكب ليبلغ ضرورات الرعية إليه. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣، ص٣٧٠، ٣٧٣؛ ج٥، ص٤٥٠؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٣٨٢-٣٤٩؛ البقلي : مصطلحات، ص١٣١.

(١٣) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨٠٦؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٨٢؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨٩، ص١٩٣.

- باب القلة : عرف بذلك من أجل أنه كان هناك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس وهدمها الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، وبنى مكانها قبة ثم هدمها الملك الناصر محمد وجدد باب القلة. المقريزي : المواعظ، ج٣، ص٢١٢.
- تخت السلطنة : وهو المقعد أو السرير الذي يجلس فوقه لإدارة سلطنته، البقلي:

مصطلحات، ص٧٤.

(١٤) النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٨٢؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ص٣٢٤.

(١٥) النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٨٣؛ ابن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، منشور في :

Patrologia Orrientalis ed Blochett, XII, Xiv, XXII, Paris 1919, p. 585.

(١٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المسمى تاريخ ابن خلدون، ٧ أجزاء، طبعة أولى، دار الكتب العلمية، لبنان ١٩٩٢م، ج٥، ص٤٨٤.

(١٧) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة د.ت، ج٤، ص٤٢؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، القاهرة ١٢٨٥م، ج٢، ص١٢٣٩م، ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤ جزء، طبعة أولى، القاهرة ٢٠٠٠م، ج١٣، ص٣٤٦.

(١٨) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩٣-١٩٤؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٨٣.

- السماط : معناه المائدة السلطانية أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين، وكان يمد أكثر من مرة في اليوم. لمزيد من التفاصيل، انظر : المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢١٠-٢١١؛ البقلي : مصطلحات صبح الأعشى، ص١٨٥؛ انظر أيضًا : نبيلة حسن محمد : المقتبس من تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية ٢٠٠٧م، ص٨٧.

- الأمير حسام الدين لاجين : جركسي الأصل، من مماليك الملك المنصور قلاوون، أمره عندما تسلطن وجعله نائبًا لقلعة دمشق. انظر ترجمته في أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٩، ص١٦٦-١٧٣، الدليل الشافي على المنهل الصافي، جزءان، تحقيق : فهيم شلتوت، طبعة ثانية، القاهرة ١٩٩٨م، ج٢، ص٥٦٦؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٦ أجزاء، بيروت د.ت، ج٥، ص٤٤٠؛ انظر أيضًا : علي مبارك : الخطط التوفيقية، ج١، القاهرة ١٩٨٥م، ص٩٠.

(١٩) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩٥؛ المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨٠٨.

- الاستادار : هو الذي يتولى شئون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته وتنفيذ أوامره؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠؛ انظر أيضًا : محمد سيد كامل : الأستادار والاستادرية، وقائع تاريخية، القاهرة ٢٠٠٨م، ص١٥-١٦٩.
- بكتوت الأزرق : عرف بذلك لأن إحدى عينيه زرقاء والأخرى سوداء، انظر : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ص٣٢٤.

(٢٠) ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٨٧.

(٢١) ليلى عبدالجواد : تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٤٨؛ محمد عبدالعزيز مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة د.ت، ص١١٥.

(٢٢) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨٠٧؛ انظر أيضًا : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٣٧؛ محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر، طبعة أولى، لبنان، ص١٧.

(٢٣) بيبرس المنصوري : التحفة المملوكية، ص١٤٤.

(٢٤) قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص١٦٠.

(٢٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج١، ص٩٢-٩٣؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٦م، ص١٢، ١٣.

- مقياس النيل : وهو عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند إنسيابه إليه وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعًا. للمزيد من التفاصيل، انظر: المقريزي : الخطط، ج١، ص٩٢، ٩٣؛ حامد زيان : الأزمات، ص١٠.

(٢٦) حامد زيان : الأزمات، ص١٢، ١٣.

(٢٧) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، طبعة ثانية، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٣٣؛ السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، لبنان ١٩٩٢م، ج٢٨، ص٦٨؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩٩؛ انظر أيضًا : عثمان علي محمد : الأزمات الاقتصادية في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، القاهرة د.ت، ص٥٩.

(٢٨) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩٩؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٨٦؛ ابن أبي الفضائل : النهج السديد، ص٥٩١؛ انظر أيضًا : ليلى عبدالجواد : تاريخ الأيوبيين، ص٢٤٨.

(٢٩) ليلى عبدالجواد : تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٤٨.

(٣٠) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٣٣، ٣٤؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات الاقتصادية، ص٣٢.

(٣١) نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٣.

(٣٢) النويري : نهاية الآرب، ج٣١، ص٢٩٣؛ ابن الفرات، تاريخه، ص٢٠٨.

(٣٣) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢٠٨؛ انظر أيضًا : قاسم عبده : عصر سلاطين المماليك، ص١٦٤.

(٣٤) النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٤؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص١٩٦؛ المقريزي : السلوك، ج١٠، ق٣، ص٨٠٨، ٨٠٩.

- الأهراء السلطانية : هي الأماكن التي تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان أحتياطًا لوقت الحاجة، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة. للمزيد من التفاصيل انظر: ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق : بولس راويس، باريس ١٨٩٣م، ص١٢٢، ١٢٣؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١٠، ص٤٤٦؛ انظر أيضًا : محمد البقلي : مصطلحات صبح الأعشى، ص٥٢، ٥٣.

(٣٥) النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٣، ٢٩٤؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات، ص٣٣، ٣٤.

(٣٦) بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٨٩، ٣٩٠.

(٣٧) النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٤.

(٣٨) ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٨٩، ٣٩٠.

(٣٩) أبو المحاسن: النجوم، ج٨، ص٤٩؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات الاقتصادية، ص٣٣.

- ديوان المواريث الحشرية : كان لهذا الديوان ناظر يولى من قبل السلطان، ومعه

مباشرون من شاد وكاتب ومشارف، وشهود وكان كاتب هذا الديوان يقوم بكتابة من يموت كل يوم من رجال ونساء وصغار، ويهود ونصارى وغيرهم. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٠.

(٤٠) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٤.

(٤١) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص١١٤، ١١٥؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢١٠؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات، ص٣٣، ٣٤

(٤٢) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨٠٨؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢١٠؛ انظر أيضًا: حامد زيان : الأزمات، ص٣٣؛ ليلى عبدالجواد : تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٤٩.

(٤٣) المقريزي : السلوك، ج١، ق٢، ص٨١٤؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج١، ص١٨٤.

(٤٤) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢٠٨.

(٤٥) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٤؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢٠٨.

- المحتسب : مهمته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويشرف على المكاييل والموازين ولا يحال بينه وبين مصلحة رأها. للمزيد عنه انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣، ص٤٨٣؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج١، ص٤٦٣، ٤٦٤؛ انظر أيضًا : البقلي : مصطلحات صبح الأعشى، ص٣٠٢، ٣٠٣.

(٤٦) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٣٥؛ العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ٤ أجزاء، تحقيق : محمد محمد أمين، ص٤٨٧.

(٤٧) إغاثة الأمة، ص٣٦.

(٤٨) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٣٦.

(٤٩) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢٠٨، ٢٠٩؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ص٣٢٥؛ المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٤.

(٥٠) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٤؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢٠٩؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات، ص٣٥.

(٥١) الدرة الذكية، ص٣٦٤٥.

(٥٢) تاريخه، ج٨، ص٢١٠.

(٥٣) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٣٥؛ العيني : عقد الجمان، ص٤٨٨.

(٥٤) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٤؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢٠٩.

(٥٥) حامد زيان : الأزمات، ص٣٥.

(٥٦) المختصر، ج٤، ص٣٣.

(٥٧) ليلى عبدالجواد : تاريخ الأيوبيين، ص٢٤٩؛ محمد مرزوق : الناصر محمد، ص١١٦.

(٥٨) المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٠؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ص٣٢٦؛ ابن حجر : الدرر الكامنة، في أعيان المائة الثامنة، بيروت، ج٣، ص٢٦٣.

(٥٩) إغاثة الأمة، ص٣٥.

- أمير مائة : مرتبة حربية خاصة بأرباب السيف وتقرن عادة بلقب مقدم ألف، فيقال : أمير مائة مقدم ألف، والمقصود بهذه الوظيفة أن يكون في خدمته مائة مملوك. انظر: ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص١١١-١٢٠؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢١٥-٢٢٠، انظر أيضًا : البقلي : مصطلحات صبح الأعشى، ص٤٩، ٥٠.

(٦٠) الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٦٣؛ البدر الطالع، ج٢، ص٥٨.

(٦١) ابن حجر : الدرر، ج٣، ص٢٦٣؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات، ص٣٧.

(٦٢) العيني : عقد الجمان، ص٤٨٩.

- من الجدير بالذكر أن السلطان كتبغا فكر أثناء هذه الأزمة تحويل اصطبل الجوق الذي للمماليك السلطانية ميدانًا، وحسن له الأمراء ذلك فعمر ميدانًا، وأنشأ حوله أماكن وبيوتًا، وكان أول من أنشأ فيه الأمير علم الدين سنجر الخازن فنسب الحجر باسمه وعرف باسم حجر الخازن، واتخذت فيه الأمراء الاصطبلات والمناظر فصار حجرًا كبيرًا، وكان السلطان ينزل إليه من القلعة، ولا يجد أحد يقف بين يديه. انظر : العيني : عقد، ص٤٨٨-٤٨٩.

(٦٣) إبن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٩١؛ بيبرس المنصوري : التحفة، ص١٤٥.

- صقلية: جزيرة في بحر المغرب مقابلة لأفريقية، وهي مثلثة الشكل. ياقوت الحموي : معجم

البلدان، ٥ أجزاء، تحقيق : فريد عبدالعزيز الجندي، لبنان د.ط، ج٣، ص٤٧٣-٤٧٦.

- القسطنطينية : أنشأها الإمبراطور قسطنطين وعرفت باسمه عام ٣٣٠م، يحدها البسفور من جهة الشرق القرن الذهبي من جهة الشمال، وبحر مرمرة من جهة الجنوب للمزيد من التفاصيل، عنها انظر : حامد زيان : تاريخ مصر وحضارتها في العصر البيزنطي، القاهرة ٢٠١٠م، ص٢٧-٣٣.

(٦٤) بيبرس الدودار : زبدة الفكرة، ص٣٢٦.

(٦٥) إغاثة الأمة، ص٣٩.

(٦٦) بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٩١.

(٦٧) محمد مرزوق : الناصر محمد، ص١١٧.

(٦٨) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٣٦، ٣٧؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات، ص٣٧.

(٦٩) إغاثة الأمة، ص٣٧.

(٧٠) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٣٧؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات، ص٣٧، ٣٨.

(٧١) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٣٧.

- البراطيل : وهي الأموال التي تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها. وأول من أوجدها بمصر الصالح بن رزيك في ولاة النواحي فقط. التفاصيل انظر : المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٠٣-١١١؛ إغاثة الأمة، ص٣٧، هامش ٤؛ انظر أيضًا : البقلي : مصطلحات، ص٦١، ٦٢.

- الحمايات : وهي مكوس يفرضها الأمير أو السلطان أحيانًا على بعض الأراضي والمتاجر والمراكب والأرزاق وعرفت بذلك الاسم لقيام الأمير بحماية الشخص الذي يدفع ذلك المكس المقرر. القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٣، ص١٥٧؛ البقلي : مصطلحات، ص١١٠.

(٧٢) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٣٧، ٣٨.

- الوزير فخر الدين عمر بن إبراهيم الخليلي : ولد سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، وشارك في عدة وظائف حتى ولي الوزارة أكثر من مرة، مات يوم عيد الفطر سنة ٧١١هـ/١٣١١م. ابن

حجر العسقلاني : الدرر، ج٣، ص٣٤٥؛ المقريزي : السلوك ج١، ق٣، ص١١٣.

(٧٣) حامد زيان : الأزمات، ص٣٨.

(٧٤) الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، القاهرة ١٩٦٦م، ص٦١٣، ٦١٤؛ انظر أيضًا: حامد زيان : الأزمات، ص٣٨.

(٧٥) الأدفوي : الطالع السعيد، ص٣٠، ٣١؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الأزمات، ص٣٨،٣٩.

- بنو كنز : أحد فروع سكان النوبة وبخاصة وادي حلفا يعود أصلهم إلى قبيلة ربيعة أحد القبائل العربية وتزاوجوا بالنوبيين الأصليين بأسوان. عنهم انظر : المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٣-١٩٨.

(٧٦) أبو المحاسن : النجوم، ج٨، ص٦٨؛ حامد زيان : الأزمات، ص٣٩.

(٧٧) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٨؛ ليلى عبدالجواد : تاريخ الأيوبيين، ص٢٤٩.

- الأويراتية : نسبة إلى لفظ أويرات، وهو اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت الجزء الأعلى من حوض نهر بينس بأواسط آسيا. انظر : ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج٨، ص١٨٥؛ أبو المحاسن : النجوم، ج٨، ص٥١، هامش ٢.

- طرغاي : وهو زوج بنت هولاكو وكان سبب هروبهم من بلادهم أن طرغاي اتفق مع الخان السابق بايد و على قتل كيخانو بن إياقا فلما تولى غازان الحكم أراد أن يثأر لعمه كيخاتو مما دفع طرغاي للهرب مع أنصاره من الأويراتية الذين تخوفوا من غازان وخشوا أن يبطش بهم، وكان غازان قد أمر جنوده بالقبض على طرغاي. بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ص٣٢٩-٣٣١؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٦-٢٩٨؛ ابن الفرت : ج٨، ص١٤٦؛ أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٦، ص٣٨١-٣٨٢؛ صبحي عبدالمنعم : المغول والمماليك، ص٣٤؛ هامش ٣.

(٧٨) سعيد عاشور : الأيوبيون، ص٢٣٨؛ ليلى عبدالجواد : تاريخ الأيوبيين، ص٢٤٩.

(٧٩) أبو المحاسن : النجوم، ج٨، ص٥١؛ المقريزي : السلوك، ج١، ص٣، ص٨١٢؛ ابن أيبك : الدرة الذكية، ج٩، ص٣٦٢.

- سنقر الأعسر : كان من جملة مماليك الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الشام، ولما عزل أيدمر في أيام المنصور قلاوون، وحضر إلى قلعة الجبل اختار السلطان قلاوون عدة من مماليكه كان منهم سنقر وولاه الاستادارية ثم الوزارة. انظر ترجمته : أبوالمحاسن : المنهل الصافي، ج٦، ص٩٦-٩٨؛ المقريزي : المواعظ، ج٣، ص٨٤، ٨٥.

ومن الجدير بالذكر أن الأمير علم الدين سنجر الدواداري توجه بمن تبقى إلى الساحل ولما مروا بدمشق أنزلهم بالمرج، ولم يمكن أحد منهم من دخول المدينة. ورسم بإخراج الأسواق إليهم للبيع والشراء بالمرج، إلى الكسوة وكان يفعل ذلك في كل منزله إلى أن وصل بهم إلى أرض عثليت (حصن بسواحل الشام يعرف بالحصن الأحمر) فاقام سنجر معهم إلى أن يحضر السلطان إلى الشام. النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٩؛ المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٣.

(٨٠) سعيد عاشور : الأيوبيون، ص٢٣٨.

- عن ديانات المغول، انظر : إبراهيم سعيد : تاريخ المغول وعلاقاتهم بأوروبا، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص٣٨، ٣٩؛ فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، قطر د.ت، ص٣٣٤-٣٣٦.

(٨١) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥٢٢.

(٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٢.

- الطبلخاناه : كلمة فارسية معناها فرقة الموسيقى السلطانية، أو بيت الطبل ويشتمل على الطبول والأبواق، وكانت العادة أن تُدق نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يقف عليها عند ضربها ويتولى أمره. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص٨، ٩.

(٨٣) سعيد عاشور : الأيوبيون، ص٢٣٨.

(٨٤) حمدي عبدالمنعم : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية ٢٠٠٧م، ص١٩٢؛ محمد طقوش : المماليك، ص٢١٧.

(٨٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٢؛ حامد زيان : المماليك التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص٣٧.

(٨٦) العيني : عقد الجمان، ص٤٩١؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٨؛ انظر أيضًا : قاسم عبده : الأيوبيين والمماليك، ص٣٧١.

(٨٧) سعيد عاشور : المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص٨.

(٨٨) فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي، ص٣٣٠، ٣٣١؛ إبراهيم سعيد فهيم : تاريخ المغول، ص٣٠. Jahn : History of Momgole, p. 16–21.

- من الجدير بالذكر أن المغول كانوا يأكلون الخيل من غير ذبح، بل يربط الفرس ويضرب على وجهه حتى يموت فيوكل. النويري : نهاية الأرب، ج٣، ص٢٩٨؛ المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ث٢٧١؛ عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي، ص١٣٠، ١٣١.

(٨٩) ابن حجر : الدرر، ج٣، ص٤٤٦؛ انظر أيضًا : سعيد عاشور : المجتمع المصري، ص٨.

(٩٠) التحفة المملوكية، ص١٤٦.

(٩١) السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٢.

(٩٢) التحفة المملوكية، ص١٤٦.

(٩٣) النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٩؛ المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٣.

(٩٤) محمد طقوش : تاريخ المماليك، ص٢١٧.

(٩٥) ليلى عبدالجواد : تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٥٠.

(٩٦) النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٣١٢؛ انظر أيضًا : محمد طقوش، ص٢١٦.

(٩٧) ليلى عبدالجواد : ناريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٥١.

(٩٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ص٣٣١؛ النويري : نهاية الأرب، ص٣٠٧؛ بيبرس المنصوري : التحفة المملوكية، ص١٤٧؛ ابن أبي الفضائل : النهج السديد، ص٥٩٣.

- دمشق : من أشهر مدن بلاد الشام وأجملها وأحصنها. للمزيد انظر : ياقوت : معجم

البلدان، ج٢، ص٥٢٧.

(٩٩) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك، ٢٢٣٨؛ العصر المماليكي، ص١١٢؛ محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص٢١٧.

(١٠٠)زبدة الفكرة، ص١٤٧.

- حمص : بين دمشق وحلب وبها قلعة حصينة على تل كبير. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص٣٤٧-٣٥٠.

(١٠١)المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨١٨؛ انظر أيضًا : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٨؛ محمد طقوش : تاريخ المماليك، ص٢١٨.

- العوجاء : تقع في فلسطين بالقرب من طبرية. للمزيد عنها انظر : ياقوت : معجم البلدان، ج٤، ص١٨٨.

(١٠٢)أبو المحاسن : الدليل الشافي، ج٢، ص٥٥٤.

(١٠٣)أبو المحاسن : النجوم، ج٨، ص٥٣، ٥٤.

(١٠٤)المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص٨٢٠؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج٣، ص٢١٨؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج٣، ص٥٤.

(١٠٥)النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٣١٦؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٥٥.

(١٠٦)أبو المحاسن : النجوم، ج٨، ص٥٤.

(١٠٧)ابن الوردي : تتمة المختصر، ج٢، ص٢٤٢.

(١٠٨)ابن خلدون : تاريخه، ج٥، ص٤٨٥؛ أبو الفدا : المختصر، ج٤، ص٤٥؛ انظر أيضًا : جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها، القاهرة د.ت، ص٣٧.

(١٠٩)النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٣١٧؛ أبو المحاسن : النجوم، ج٨، ص٥٥.

(١١٠)النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٣١٧؛ ابن حجر : الدرر، ج٣، ص٢٦٣؛ أبوالمحاسن: النجوم، ج٨، ص٥٥.

(١١١)أبو المحاسن : النجوم، ج٨، ص٥٥.

(١١٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج١، ص١٩١؛ انظر أيضًا : قاسم عبده قاسم : تاريخ الأيوبيين، ص٢٧١.

(١١٣) النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٣٢٠.

- الدهليز : الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب وتختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه بكونها خيمة قائمة بذاتها، ليس بجوانبها خيم صغيرة. البقلي : مصطلحات صبح الأعشى، ص١٣٨.

(١١٤) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٢٢١؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق١، ث٣٩٢؛ ابن حجر : الدرر،ج٣، ص٢٦٣؛ ابن أيبك الدواداري : الدرة الذكية، ج٨، ص٣٦٨.

- صرخد : بلد قرب حوران من أعمال دمشق. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٣، ص٤٥٥.

(١١٥) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٦، ص٥؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج٣، ص٢٣٩؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج١، ص٢٥٤.

(١١٦) النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥٧.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) :
  - بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، القاهرة د.ت.
- ابن أيبك الدواداري : أبو بكر بن عبدالله (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) :
  - كنزر الدرر وجامع الغرر، ٩ أجزاء.
  - الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : ولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م.
- ابن الجزري : شمس الدين ابن عبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٧م) :
  - تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري، ٣ أجزاء، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، طبعة أولى، بيروت ١٩٩٨م.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :
  - تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ٣ أجزاء، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦م.
- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) :
  - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، بيروت ١٩٩٣م.
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) :
  - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المسمى تاريخ ابن خلدون، ٧ أجزاء، طبعة أولى، دار الكتب العلمية، لبنان ١٩٩٢م.
- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) :
  - فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق : إحسان عباس، ٥ أجزاء، دار الصادر، بيروت ١٩٧٣م.
- ابن شاهين : غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) :
  - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق : بولس راويس، باريس ١٨٩٣م.

- **ابن عبدالظاهر : محيي الدين أبو الفضل عبدالله (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) :**
  - تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق : مراد كامل، طبعة أولى، القاهرة ١٩٦١م.
- **ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٩٠م) :**
  - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٦ أجزاء، بيروت د.ت.
- **ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن علي (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م) :**
  - تاريخ ابن الفرات، ٩ أجزاء، ج٨، تحقيق : قسطنطين رزيف، نجلاء عز الدين، بيروت من ١٩٣٨، ١٩٤٢م.
- **ابن كثير : عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) :**
  - البداية والنهاية، ١٤ جزء، طبعة أولى، القاهرة ٢٠٠٠م.
- **ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) :**
  - تتمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٥.
- **ابن أبي الفضائل : المفضل القبطي المصري (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) :**
  - النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد
  - Patrologia Orrientalis ed Blochett, XII, Xiv, XXII, Paris 1919
- **أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) :**
  - المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، تحقيق : محمد زينهم سيد، القاهرة د.ت.
- **أبو المحاسن : جمال الدين بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) :**
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٩٢م.
  - الدليل الشافي على المنهل الصافي، جزءان، تحقيق : محمد شلتوت، ١٩٧٩م.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ١٢ جزء، ٦ ، ٩ : تحقيق : محمد أمين، ١٩٩٠م.

- **الأدفوي : كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ/١٤٤٧م) :**
  - الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، القاهرة ١٩١٤م.
- **بيبرس الدوادار : ركن الدين بيبرس (ت ٧٢٤هـ/١٣٢٣م) :**
  - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩، تحقيق، زبيدة عطا، د. ط.
- **بيبرس المنصوري : ركن الدين بيبرس بن عبدالله (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م) :**
  - التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق : عبدالحميد صالح حمدان، طبعة أولى، لبنان ١٩٨٧م.
- **الخالدي : بهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبدالله (ت ٩٣٨هـ/١٥٣١م) :**
  - " المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء "، رسالة دكتوراه، تحقيق، خليل شحاده، جامعة القديس يوسف كلية الآداب والعلوم الإنسانية فرع الآداب العربية، بيروت ١٩٨٨م.
- **الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) :**
  - العبر في خبر من غبر، ٤ أجزاء، تحقيق، أبو هاجر : محمد السعيد، لبنان د.ت.
- **السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) :**
  - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٩٨م.
- **الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ).**
  - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جزءين، القاهرة د.ت.
- **العيني :**
  - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ٤ أجزاء، تحقيق، محمد أمين.
- **القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤٨١م) :**
  - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة.

- **مجهول المؤلف :**
  - تاريخ سلاطين المماليك، نشره، زيترشتين، لندن ١٩١٩م.
- **المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :**
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ج١، تحقيق، محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤م.
  - إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره، محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، طبعة ثالثة، القاهرة ٢٠٠٢م.
  - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، طبعة مصورة بالأوفست من طبعة بولاق.
- **النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) :**
  - نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٢ جزء، ج٣١، تحقيق، السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م.
- **ياقوت الحموي : أبو عبدالله ياقوت بن عبدالملقب (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) :**
  - معجم البلدان، ٥ أجزاء، تحقيق، فريد عبدالعزيز الجندي، لبنان د. ط.

قائمة المراجع العربية

- **إبراهيم سعيد :** تاريخ المغول وعلاقاتهم بأوروبا، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.
- **آمال حامد زيان :** الأمير علم الدين سنجر الشجاعي والصراع حول سلطنة المماليك، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مجلد ٧١، العدد ٢، أبريل ٢٠١١م، ص١١-٦٥.
- **حامد زيان غانم :**
  - المماليك التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م.
  - الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٦م.
  - تاريخ مصر وحضارتها في العصر البيزنطي، القاهرة ٢٠١٠م.

- **حمدي عبدالمنعم** : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية ٢٠٠٧م.
- **سعيد عبدالفتاح عاشور** :
  - الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ١٩٨٢م.
  - المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م.
  - نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، مقال منشور في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، مجلد ٣، طبعة أولى، ١٩٨٧م، ص٢٣٩-٢٨٩.
  - العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٧٦م.
- **عبدالمنعم ماجد** : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، جزءان، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٩م.
- **عثمان علي محمد** : الازمات الاقتصادية في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، القاهرة د.ت.
- **علي مبارك** : الخطط التوفيقية، ج١، القاهرة ١٩٨٠م.
- **صبحي عبالمنعم** : المغول والمماليك السياسة والصراع، د.ت.
- **فؤاد عبدالمعطي الصياد** : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين" أسرة هولاكو خان "، قطر د.ت.
- **قاسم عبده قاسم** : عصر سلاطين المماليك، طبعة أولى، القاهرة ١٩٩٤م.
- **لبيبة إبراهيم مصطفى** : الفتن والقلاقل الداخلية في دولة سلاطين المماليك وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠٠م.
- **ليلى عبدالجواد** :
  - نائب السلطنة في القاهرة في عصر المماليك البحرية، بحث منشور بالمؤرخ المصري، يصدرها قسم التاريخ جامعة القاهرة، العدد ١، يناير ١٩٨٨م، ص١٥٩-٢٢٥.

• تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة ٢٠٠٦م.

- **محمد جمال الدين سرور** : دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص، القاهرة د.ت.
- **محمد عبدالعزيز مرزوق** : الناصر محمد بن قلاوون، مكتبة مصر، القاهرة د.ت.
- **محمد عبدالغني الأشقر**: نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة ١٩٩٩م.
- **محمد قنديل البقلي** : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة ١٩٨٣.
- **محمد سهيل طقوس** : تاريخ المماليك في مصر، طبعة أولى، لبنان ١٩٩٧م.
- **محمد سيد كامل** : الأستادار والاستادارية، بحث منشور في الوقائع التاريخية، القاهرة ٢٠٠٨م، ص١٥-١٦٩.
- **محمد مصطفى زيادة** : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٤، ج١، مايو ١٩٣٦م.
- **منال محمد السيد** : الوزارة في مصر خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بني سويف، ٢٠٠٧م.
- **نبيلة حسن محمد** : المقتبس من تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.
- **وليم موير** : تاريخ دولة المماليك، ترجمة محمود عابدين، وسليم حسن، القاهرة د.ت.

الإتجاهات الثقافية في بلاد وسط آسيا
من الفتح الإسلامي إلى الغزو المغولي

د. نجيب بن خيرة
قسم التاريخ و الحضارة الإسلامية
جامعة الشارقة ـ الإمارات العربية المتحدة

---

١ ـ توطئة :

الثقافة هي ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع من البيئة، ومعبر عنها أو مواصل لتقاليدها في كل الميادين، على أن ذلك يختلف باختلاف الحضارات والعصور والبيئات، كما تختلف حسب الأفراد و الجماعات ومستوى الثقافة عندهم.

أما الإتجاهات فتعني التنوع في مجال الثقافة التي قد تخضع لاتجاهات فكرية وعقائدية وسياسية، مما يؤدي إلى توجيه الثقافة وفق التيارات التي يخضع لها هذا الإتجاه أو ذاك.ومدى قدرته على توجيه ثقافة المجتمع توجيها يخالف الموروث، أو يصادم الثقافة القائمة التي تحكم بالتسلط أو تتماهى مع الثقافة الوافدة بالتوافق.وهو ما يؤثر تأثيرا واضحا في صياغة المنهج والتوجه السياسي والثقافي للفرد والمجتمع على حد سواء.

وبلاد وسط آسيا بمختلف أقاليمها وشعوبها، ورثت ثقافة متنوعة المنابع والمشارب، مختلفة المظاهر والأشكال، ولعل العزلة الجغرافية هي التي أرغمت سكان تلك البلاد من اتخاذ حياة غير مستقرة،وأساليب في العيش متباينة، وأعراف تختلف من إقليم لآخر.ومن ثم كان لتلك المتغيرات في بلاد آسيا الوسطى ــ كما في أي بلد آخر ــ أثرها في التاريخ السياسي والثقافي وما ينتج عنهما من ظواهر اجتماعية واقتصادية كثيرة.

وقد حظيت بلاد آسيا الوسطى باهتمام بالغ منذ فجر الدعوة الإسلامية من

زمن الخلفاء الراشدين حتى نهاية العصر العباسي، وبالرغم من أن أغلب الولاة الذين حكموا هذه الأقاليم امتازوا بالقوة والشدة، إلا كثير من الأحيان سببت قلقا كبيرا للخلافة الإسلامية وذلك لما ورثه المسلمون هناك من آثار للعقائد الدينية القديمة حنّت إليها النفوس الضعيفة، فأخذت تصنع الفتنة، وتغري بالتمرد، ولكن الخلفاء المتعاقبين بذلوا قصارى الجهد في قمعهم وضبط أمورهم.

ومع نهاية العصر العباسي الأول بدأت ملامح الاستقلال في أقاليم المشرق، ولكنها ظلت ـ على غير مثيلاتها في المغرب ـ تحرص على البقاء متصلة بالخلافة، معترفة بسلطانها، عاملة في مجال التعاون معها، بل حرصت على أن يكون قيامها بتأييد من الخلافة العباسية نفسها،وقد تفنن الحاكمون في الدول المتعاقبة على أقاليم بلاد المشرق في الرقي بالحياة الثقافية في مختلف مجالاتها،وقد برز ذلك في التجليات الثقافية المتعددة التي أبدعت فيها شعوب أسيا الوسطى عبر تاريخا الطويل.ولم يكن ذلك في فترة محدودة، بل شمل تاريخ المنطقة من الفتح إلى نهاية العصور الإسلامية الوسطى.

٢ـ وسط آسيا من الفتح إلى الهجرة والإستيطان :

إن اتصال العرب بشعوب وسط آسيا تم في سنة ٢٢هـ عندما تقدم الأحنف بن قيس في أجزاء من المنطقة متعقباً يزدجرد ملك فارس التي هرب إليها عقب هزيمته، وابتداء من عام ٣١هـ أخذ النفوذ العربي يتوطد في المنطقة، إذ سار في ذلك العام عبد الله بن عامر بن كريز على رأس حملة عسكرية موفداً من الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، بمكنة هذه الحملة من فتح بلدان كثيرة في بلاد تركستان الغربية وحاول فتح بعض المناطق المجاورة للنهر.

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان تقدم الصحابي الحكم بن عمرو الغفاري عام ٥٠هـ (٦٧٠م) نحو المنطقة الجنوبية من بلاد (التركستان) حتى اجتاز نهر جيحون، في جنوب (أوزبكستان) فكان أول من اجتاز النهر بقوات إسلامية إلى داخل بلاد التركستان.

وفي عام ٥٤هـ تقدم عبيد الله بن زياد فيما وراء النهر ووصل إلى جبال بخاري فكان أول من قطع جبال بخاري في جيش ففتح رامني ونسف وبيكند وهي من بخاري وغنم غنائم كثيرة. تعتبر سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) بداية مرحلة جديدة من الفتح الإسلامي لبلاد التركستان حيث بدأ الفتح الحقيقي لبلاد ما وراء النهر، ذلك لأنها السنة التي قام الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق بتولية قتيبة بن مسلم الباهلي علي خراسان. كانت خراسان قاعدة تخرج منها النزوات الخاطفة في موسم الصيف ثم تعود إلى القاعدة الرئيسية في الشتاء، وقد اقترنت هذه الغارات الثغرية على منطقة ما وراء النهر بأسماء عبد الله بن زياد، وسعيد بن عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن زياد، ويزيد بن المهلب وعبد الله بن حازم.

أحرز المسلمون أكبر انتصاراتهم في وسط آسيا فيما بين عامي ٨٧ – ٩٧هـ وهي الفترة التي حكم فيها قتيبة بن مسلم بلاد خراسان. ولقد كان الإسلام يتقدم نحو المشرق بلا توقف وكانت المقاومة شديدة في بخاري وسمرقند بحيث كان المسلمون لا يفارقون أسلحتهم في المساجد أو في خارجها. ولكن هؤلاء الفاتحين المسلمين كانوا يؤلفون قلوب الأتراك بالمال ونشر العلم وذلك بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية ليفهمها أكبر عدد من سكان المنطقة، فأنشأ قتيبة المساجد في بخاري وسمرقند وغيرهما من مدن ما وراء النهر. وكان أول مسجد بني في هذه المنطقة هو مسجد بخارى الذي أنشأه قتيبة سنة ٩٤ هـ، في قلعة كانت تضم معبداً وثنياً يعتقد أنه كان معبداً بوذياً. وكانت مرحلة التوسع العربي في بلاد ما وراء النهر على يد قتيبة بن مسلم الباهلي، واستغرقت عشر سنوات توزعت على أربع مراحل، استعاد في الأولى سنة ٨٦هـ طخرستان السفلى، وأخمدوا الثورات التي نشبت فيها كما استولى على الطالقان وبلخ، وفي الثانية من سنة ٨٧ هـ إلى سنة ٩٠ هـ استولى على بخارى، وفي الثالثة خلال السنوات من ٩١ هـ إلى ٩٣ هـ توغلت قواته في وادي جيحون وبلاد الصغد، أما الرابعة وهي الأخيرة وتمتد من سنة ٩٤ هـ إلى ٩٧هـ فقد تركزت على المناطق الواقعة على نهر سيحون ووصلت قواته إلى الشاش شمالاً وكاشغر شرقاً، وولي العمال العرب على جميع البلاد بما فيها فرغانه[1].

ثم أتم فتح أوزبكستان ودعم انتشار الدعوة الإسلامية هناك. واقتضت الفتوحات العربية في وسط آسيا تجنيد أعداد كبيرة من المقاتلين، بلغ عددهم قرابة خمسين ألف مقاتل في عام ٩٦هـ توزعوا على تسعة آلاف من أهل البصرة والعالية، ومن بكر بن وائل سبعة آلاف، ومن تميم عشرة آلاف، وعبد القيس أربعة آلاف، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف(٢).

وفي سنة ١٢١هـ استغل نصر بن سيار ــ والي خراسان ــ سقوط دولة الترك الغربيين وأعاد السيادة العربية على حوض سيحون، وعقد معاهدات مع أمراء أشروسنة والشاش، وكانت موقّتة(٣)، كما وجه جيشًا إلى كابل شاه أرغمه على دفع الجزية والطاعة، واستمر في دعوة الناس إلى الإسلام إن هم أطاعوه. وتشير الأخبار إلى أن ولاية خراسان في عهد نصر بن سيار كانت في أوج الرخاء والعمارة والاستقرار(٤).

ولكن هذا الاستقرار كان نسبيا؛ لأن دولة بني أمية كانت تعاني من فتن واضطرابات في أواخر أيامها، أدت إلى سقوطها، وقد انتقلت هذه الاضطرابات إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر، فاستفحل أمر أبي مسلم الخراساني منذ سنة ١٢٩هـ،كما ظهر في بخارى شريك بن الشيخ المهري، وكان رجلاً مبارزًا شيعيا، يدعو الناس إلى خلافة أبناء أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فأيده خلق كثير من أهل بخارى وخوارزم وغيرهما(٥).

ولما استخلف المأمون أغزى الصغد وأشروسنة ومن انتقض عليه من أهل فرغانة الجند، وألح عليهم بالحروب، ورغّبهم في دخول الإسلام.

وكان المأمون يكتب إلى عماله في خراسان أن يعرفوا من لم يكن على الإسلام من أهل ما وراء النهر، ويفرض لمن أراد الفرض من أهل تلك النواحي، وأبناء ملوكهم، ويستميلهم بالترغيب، فإذا وردوا بابه شرّفهم، وبذل لهم الأرزاق والصلات(٦).

وفي خلافة المعتصم بالله صار جلّ عسكره من الجند من أهل ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والأشروسنية وأهل الشاش. وغلب الإسلام على تلك البلاد، وصاروا هم يغزون مَن وراءهم من الأتراك(٧)، إلى أن جاء عصر الدويلات الإسلامية، حيث شهدت نوعًا من الاستقرار والازدهار، وصارت عواصمها مراكز للحضارة، ومناهل

للعلم، ومنتجعًا للعلماء، يقصده القاصي والداني من طلاب العلم. وأنجبت تلك البلاد علماء أعلامًا في شتى المعارف والعلوم.

وبعد ذلك تعاقبت الدول الإسلامية التي حكمت وسط آسيا،فتأسست بها الدولة السامانية التي استقلت عن الدولة العباسية من سنة ٢٦١هـ إلى سنة ٣٨٩هـ في خراسان وبلاد ما وراء النهر[٨].

ومن أشهر الدول التي حكمت بلاد ما وراء النهر الدولة السلجوقية، ثم الدولة الخوارزمية التي استقلت عنها بعد أن استطاع السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش هزيمة السلطان السلجوقي طغرل الثالث سنة ٥٩٠هـ، وأضحت الدولة الخوارزمية في أقصى اتساع[٩].

وفي القرن السابع الهجري سيطر المغول على بلاد التركستان الغربية ثم لم تلبث إمبراطورية المغول أن تجزأت إلى عدة دول يحكم كل واحد منها (خان) مستقل اعتنق ديانة المنطقة التي حكمها فدخل خانات غرب آسيا ووسطها في الإسلام، واعتنق خان الصين البوذية. وورث التتار إمبراطورية المغول الواسعة فتوسعوا في فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى وروسيا.

وكان لدخول (خانات) المغول في الدين الإسلامي تأثير في انتشار الإسلام وتكوين دولة إسلامية في عهد الأمير (بركة خان) ٦٥٤ هـ -٦٦٥ هـ. ثم ما لبثت أن ضعفت دولتهم وتجزأت وبدأت الولايات في الانفصال عنها. ومن هذه الولايات التي انفصلت روسيا، التي بدأت في الظهور كقوة في المنطقة. فحاربت التتار واحتلت بلادهم، وتوسعت شرقاً في بلاد ما وراء النهر التي كانت في حالة من التفكك والضعف، حتى أحكم الروس سيطرتهم على وسط آسيا وكان ذلك نحو عام ١٣٠٢هـ.

٣ ـ عوامل النهضة الثقافية في وسط آسيا (خراسان وبلاد ما وراء النهر)

أ ـ الرحلة في طلب العلم إلى حواضر المشرق العربي :

لقد تولدت في المجتمع الإسلامي دافعية قوية إلى التعلم، والرحلة في طلب

العلم، والصبر على تحصيله، والجد في اجتياز مراحله، واستطاع المسلمون فعلاً أن يجسّدوا (مجتمع التعلم المفتوح)، وطبّقوا عمليا شعار: (التعلم مدى الحياة).

فانطلقوا كالشهاب الراصدة يقطعون الفيافي، ويجوبون الآفاق، ويسطرون في صفحات التاريخ أنصعها في ما سُمِّي في حضارتنا بــ (الرحلة في طلب العلم).

وتعتبر الرحلة في طلب العلم من أهم ما ميزّ حضارتنا الإسلامية عبر العصور، مما أدّى إلى ازدهار الحياة الفكرية في جميع حواضر العالم الإسلامي، وخاصة في مدن الشرق، بآسيا الوسطى.

وقد ساعد على تيسير الرحلة بين أقطار العالم الإسلامي، عدم وجود العوائق والحواجز؛ لوحدة المسلمين، والتواصل بين أممهم وشعوبهم. فاندفع طلاّب العلم في جميع البقاع ينفقون الجهد والمال، والنفس والنفيس، سعيًا وراء العلماء يسمعون منهم، ويتلقّون المعارف على أيديهم.

وقد رصد ابن خلدون هذه الظاهرة في فصل خاص بعنوان: (في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم)، فقال: ((والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علمًا وتعليمًا وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلّطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق من المعلمين، فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرّد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم، وطرق توصيل))[١٠].

ومن أبلغ الأمثلة على رحلات العلماء في بلاد آسيا الوسطى خلال عصر الدويلات الإسلامية المستقلة يمكن أن نذكر :

المحدّث الشهير الإمام البخاري (ت٢٦٥هــ) الذي أراد أن يجمع أكبر عدد

من الأحاديث الصحيحة، فجمع أحاديث بخارى ثم رحل إلى بلخ وسمع محدثيها، وروى أحاديثهم، ثم رحل إلى نيسابور والري وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر ودمشق وقيسارية وعسقلان وحمص، فجمع بهذا ما تفرّق من الحديث في الأمصار، وأمضى في هذه الرحلات ستة عشر عامًا، لقي فيها عناء شديدًا لا يتحمله إلاّ الأبطال الصابرون، وأخيرا عاد إلى وطنه(١١).

ثم جاء من بعده تلميذه مسلم بن الحجاج القشيري، وكان من أهل نيسابور (ت٢٦١هـ)، وامتاز كالبخاري بكثرة رحلاته في طلب الحديث، رحل إلى العراق والشام ومصر والحجاز، وتكررت رحلاته إلى بغداد خاصة، وأفاد من البخاري في أثناء إقامته في نيسابور مدة.

ومنهم أبو بكر محمد بن إسحق بن خزيمة السلمي النيسابوري، كبير أئمة الفقه بنيسابور في عصره، كان مجتهدًا عالمًا بالحديث مشاركًا في العلوم الأخرى، قام برحلات في طلب العلم، فزار مرو والري وواسط وبغداد والشام ومصر والجزيرة.

قال عنه ابن كثير: ((محمد بن اسحق بن خزيمة... الملقّب بإمام الأئمة، كان بحرًا من بحور العلم، طاف البلاد ورحل إلى الآفاق في الحديث وطلب العلم، فكتب الكثير وصنف وجمع، وهو من المجتهدين في دين الإسلام...)). توفي سنة (٣١١هـ)(١٢).

وممن رحل خارج بلاد المشرق (من بلادآسيا الوسطى) نذكر أيضا :

أبوالحسن الجويني عم إمام الحرمين رحل إلى الحجاز، وسمع الكثير، وحدث وغلب عليه التصوف،وكان يعرف بشيخ الحجاز(ت٤٣٨هـ) (١٣).

ومنهم محمد بن حاتم بن محمد بن عبد الرحمن الطائي، أبو الحسن من أهل طوس بخراسان، تفقه على إمام الحرمين بنيسابور، ورحل إلى العراق و الشام والحجاز، وسمع بها الحديث، ثم رجع إلى نيسابور فنشر بها العلم وتوفي سنة (٥١٢هـ) (١٤).

ومنهم أسعد بن أبي نصر المهيني المروزي، تفقه على أبي المظفر السمعاني وغيره، وبرع في الفقه، ورحل إلى بغداد، فقربه إليه الوزير نظام الملك الطوسي، وفوّض إليه التدريس بنظامية بغداد، وأفاد الناس بعلمه، ثم رحل إلى همذان، وأفاد طلبه العلم بها، إلى توفي سنة ٥٢٣هـ (١٥).

ب ـ الرحلة في طلب العلم بين أقاليم بلاد المشرق وبلاد الأندلس :

على الرغم من البعد الجغرافي بين الأندلس، وأقصى المشرق الإسلامي، ولاسيما في أواسط آسيا، نجد أن التواصل الثقافي والاجتماعي والاقتصادي كان موجودا ومستمرا عبر العصور الإسلامية المختلفة، فلم تكن هناك حدود سياسية تمنع الراغبين في طلب العلم، أوالتجارة، من حدود الصين شرقا إلى شه الجزيرة الإيبيرية غربا..

وكانت المراكز العلمية الكبرى في المشرق هي الهدف المباشر قبل الانتهاء من فريضة الحج أو بعده، بالنسبة إلى القادمين من المغرب أو الأندلس، فكانوا يتوجهون إلى مصر أو العراق أو الشام، وكان بعضهم يكتفي بهذه المراكز، في حين طمح بعضهم الآخر إلى زيارة مراكز أبعد فيما وراء النهر، وبلاد إيران، ولا سيما في بخارى وسمرقند ، ومرو، ونيسابور، وأصبهان ، وهمدان، وهراة، وغيرها من المراكز التي اشتهرت بالعلم والمعرفة، وتواجد العلماء الذين كانوا هدف القادمين لالتقائهم والأخذ عنهم(١٦).

ومن بعض رحلات أهل المشرق إلى الأندلس يمكن أن نذكر :

سهل بن علي بن عثمان النيسابوري الذي غلبت عليه مهنة التجارة، إلا أنه كان عالما بالحديث الشريف، وفقيها شافعيا، أدرك الإمام الجويني في نيسابور،وحضر مجلسه ودروسه.. وأجازه أبو نصر النيسابوري جميع رواياته، وقد استفاد منه أهل المغرب والأندلس، ولاسيما القاضي عياض السبتي..ولما أراد الرجوع إلى بلاد المشرق ركب البحر من مدينة المرية بالأندلس،ولكنه غرق في طريق سفره، وتوفي سنة ٥٣١هـ (١٧).

ولعل من أشهر الداخلين إلى الأندلس من أهل المشرق الإسلامي أبا زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر التميمي البخاري، الذي ولد في بخارى سنة ٣٨٢هـ، وسمع فيها الحديث، كما سمعه أيضا فيما وراء النهر، والعراق، ومصر، واليمن، والقيروان..ضمن رحلته التي انتهت بالمغرب والأندلس..يقول عنه المقري: أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث.

توفي بالحوراء سنة ٤٧١هـ، وله رسالة بعنوان " رسالة الرحلة وأسبابها وقول لا إله إلا الله وثوابها " (١٨).

ومنهم الشيخ تاج الدين أبي أحمد عبد الله بن عمر بن محمد بن حمويه السرخسي، المولود سنة٥٧٢هـ وهو من سرخس ورحل إلى المغرب، وأقام فيها حقبة من الزمن، ثم رجع إلى الشام واستقرّ فيها، وكان في أثناء ذلك ينشر علمه الغزير بالأصول، والفروع والتاريخ، والهندسة،والطب...وقد دوّن رحلته وذكر فيها عجائب شاهدهافي بلاد المغرب، ومشايخ لقيهم، وأخباراعن دولة الموحدين في عهد خليفتها يعقوب المنصور..وله كتب أخرى منها " المؤنس في أصول الأشياء "، وكتاب " عطف الذيل "، وكتاب " المسالك والممالك " ولا تشير المصادر إلى تاريخ وفاة السرخسي.باستثناء أنه عاد إلى الشام سنة ٦٠٠هـ، وحج إلى مكة سنة ٦٠٤هـ(١٩).

وكما كانت الرحلة من بلاد المشرق إلى بلاد الأندلس كانت هناك رحلة أيضا من بلاد الأندلس إلى أقاليم المشرق على مرّ العصور، بل كان عددهم أكثر، وهذا أمر طبيعي، لأن كفة العلاقات العلمية دائما في جانب الأندلس، التي بادر علماؤها بالرحلة إلى المشرق ولاسيما للحج وطلب العلم، وقد أشار المقري إلى نحو من خمسة عشر إسما من هؤلاء،لم يرجع منهم أحد إلى الأندلس، فمنهم من توفي أوقتل في بلاد ماوراء النهر، وإيران، ومنهم من رجع إلى العراق وبلاد الشام، فاستقرّ هناك، إلى أن وافته المنية (٢٠).

ويمكن أن نذكر منهم :أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن نزار بن ثعلبة المعافري الأندلسي المالكي، من الأندلس إلى المغرب، فسمع فيها، ثم استمر

إلى مصر، والحجاز،والشام، والجزيرة، وبغداد،..إستفاد منه أهل المشرق ولا سيما في بلاد ما وراء النهر والهضبة الإيرانية...ثم توجه إلى أصبهان، ونيسابور، حيث سمع الكثير، ثم خرج إلى مرو، ومنها إلى بخارى،التي استقرّ فيها إلى أن وافته المنية سنة ٣٨٣هـ [٢١].

كما شهدت الهضبة الإيرانية وبلاد ما وراء النهر زيارة أحد الأندلسيين الذين كرّسوا حياتهم للرحلة وجوب الآفاق، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي،المعروف بأبي حامد،، غادر إلى المشرق في حدود سنة ٥٠٠هـ، في رحلة طويلة، شملت أولا نواحي المغرب الأقصى ثم مصر،والشام، وبغداد، التي اتخذها قاعدة لرحلاته إلى هضبة إيران، وبلاد تركستان، وحوض الفولغا، والمجر، وشرق أوروبا، وأماكن أخرى [٢٢].

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نسجل الملاحظات التالية:

١ ـ أن الرحلة ساهمت مساهمة كبيرة في النهضة الثقافية في أقاليم المشرق في بلاد آسيا الوسطى.

٢ ـ نلحظ من خلال تتبعنا للمصادر أن معدل الرحلات كان منخفضا في القرون الهجرية الأولى، ويبدأ مع عصر التألق المعرفي، وحركة التدوين، أي منذ القرن الرابع فالخامس، وتزداد في القرنين السادس والسابع..وغالبية الراحلين خرجوا بنية الحج وطلب العلم.

٣ ـ أغلب العلماء الراحلين كانوا من الراسخين في العلم ولكن علمهم لم يمنعهم من السماع والاستفادة،وبعضهم استقر في المشرق وتزوج وأنجب، وكان المثوى الأخير لبعضهم هناك.وبعضهم رجع إلى العراق والشام، وقليل منهم من رجع إلى بلاد المغرب والأندلس.

٤ ـ بعض العلماء كان يعتقد أن علمه لم يكتمل إذا لم يرحل إلى حواضر المشرق في آسيا الوسطى كنيسابور، ومرو، وبخارى، وسمرقند....ويلتقي علماءها ويأخذ عنهم...

ج ـــ مؤسسات التوجيه الثقافي (المساجد، المدارس، المكتبات) :

ج ـــ ١ ـــ المساجد :

لقد اعتبر المسلمون عبر تاريخهم أن تنشيط الحركة العلمية، وبعث الحياة الثقافية، وإحياء النفوس بالعلم في المساجد، هو صنو الصلاة، من حيث أثره وانعكاسه على الأمة اجتماعيا وتربويا، ذلك أن عملية التشكيل الثقافي يبقى محلها المسجد، فيه يعبد الناس ربهم، ويفقهوا أحكام دينهم، ويعرفوا حقوقهم وواجباتهم، ويتشبعوا بفضائل الأخلاق وكريم الشمائل.

فالدرس يلقى حيث تقام الصلاة، وترادَف المسجد والمدرسة وتماثَلا في الشكل والمعنى والوظيفة، واختلط الدرس بالصلاة، حتى كان ابن مسعود يقول: ((الدراسة صلاة)). بل وقدّم ابن الجوزي الدراسة على صلاة النافلة فقال: ((العلم أفضل من كل صلاة نافلة))، فالعلم طلبه عبادة، ودراسته تسبيح(٢٣).

ومن المهم أن نذكر أن المسلمين الفاتحين لبلاد آسيا الوسطى(خراسان وما وراء النهر) حرصوا على أن تكون أول انجازاتهم هو بناء المساجد الجامعة، تُحشد فيها الجماهير لتعليم القرآن ومبادئ الإسلام، فحين فتح قتيبة بن مسلم سمرقند ((بنى مسجدًا فيها، وخلّف بها جماعة من المسلمين، فيهم الضحاك بن مزاحم البلخي صاحب التفسير))(٢٤). وعندما فتح بخارى بنى فيها مسجداً، وحرص على أن يحضر أهل بخارى الصلاة الجامعة، لتعلم أحكام الدين، والتزم بإعطاء درهمين لكل من يحضر الصلاة(٢٥). وكانت مساجد بخارى مكتظة بالعلماء الذين يدرّسون الطلاب والمدرسّين على السواء(٢٦).

وذكر ابن حزم أن بلاد فارس حين فتحت لم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد، ونسخت فيه المصاحف، وقرأ الأئمة القرآن(٢٧).

وعجّت نيسابور بالمساجد العامرة التي ذكر كثيرا منها الصيرفيني، صاحب المنتخب من السياق(٢٨). كما شهدت جوامع مرو كل ليلة مجالس الفقه يتعلم الناس فيها فقه أبي حنيفة رضي الله عنه(٢٩).

ومن أشهر جوامع نيسابور : جامع نيسابور، وقد تولى الخطابة والإمامة به مجموعة من أشهر علماء خراسان منهم إمام الحرمين أبو المعالي الجويني الشافعي،الذي تولى الخطابة فيه، وتوفي سنة ٤٧٨هـ [٣٠].

وكان يملي بجامع نيسابور كل يوم جمعة ايضا : مسند خراسان وجيه بن طاهر الشحامي النيسابوري،توفي سنة٥٤١هـ [٣١].

كما أشار ابن حوقل إلى مساجد خراسان وما وراء النهر وما تزدحم به من العلماء والفقهاء، فقال: ((ليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال أعمر بالناس على دوام الأيام من مسجد هراة ومسجد بلخ... فإن بهذه المساجد كثرة من الفقهاء، وزحمة من أرباب القرآن))[٣٢].

وقد عقد كثير من العلماء حلقات دروسهم في المساجد الجامعة، أو في المساجد التي بنوها هم بأنفسهم، ونُسبت إليهم. نذكر منهم :

ـ أبو سعيد، عبد الرحمن بن الحسن النيسابوري الحافظ (ت٤٣١هـ)، وهو مصنِّف كتاب (المختلف في المؤتلف)، وكان مجلسه الأسبوعي يُعقد يوم الأربعاء، يتحدث فيه عن أبي سعيد الرازي والحاكم بن أحمد، وأبي بكر بن شاذان، وأبي حفص بن شاهين الدارقطني، وفي الوقت ذاته تتلمذ على يد أبي عبد الغافر الفارسي وأبي المعالي الجويني[٣٣].

أما الإمام أبو إسحاق الإسفراييني (ت٤١٨هـ)، فكانت له مجالس إملاء بمسجد عقيل بنيسابور، وهو من أئمة العربية، والفقه، والكلام، والأصول، والقرآن والسنة[٣٤].

والشيخ أبو بكر الإسماعيلي (ت٣٧١هـ) يعقد مجالسه العلمية بمسجد نيسابور بالعشيات من كل يوم إلا يوم الجمعة، يومين للإملاء، ويومًا للنظر، ويومين للقراءة، وكان لا يتخلف عن مجلسه كل يوم في هذه العلوم أحد إلا لعذر[٣٥].

ولما زادت العمارة في العصر العباسي وفي عصر الدويلات المستقلة في آسيا الوسطى فإننا نقرأ أن الإمام السبكي ينقل عن "تاريخ خوارزم " لمحمود بن محمد بن العباس بن أرسلان المتوفي سنة ٥٦٨هـ فقال : سمعت عددا من المشايخ يقولون كان بمنصورة " خوارزم " إثنا عشر ألف مسجد، وأن فيها إثنا عشر ألف سكة، وفي كل سكة مسجد [٣٦].

وقد اشتهر إقليم خورازم بكثرة المساجد، وتدلنا كتب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين على كثرة هذه المساجد، وأثرها في الحياة الثقافية. يذكر المقدسي " أن الجرجانية أربعة أبواب، وأن كل باب به جامع في الأسواق وعلى طرف الأسواق "[٣٧].

ومن الفقهاء الذين كان لهم مجلس علم في مساجد الجرجانية عبد الغافر بن إسماعيل الشافعي الفارسي النيسابوري (ت٥٢٩هـ)، والإمام الزمخشري الحنفي المعتزلي (ت٥٣٨هـ)صاحب"الكشاف في تفسير القرآن " [٣٨].ولم تكن الجرجانية بمساجدها وعلمائها إلا أنموذجا لما كانت عليه حواضر أقاليم المشرق في آسيا الوسطى.

وهذه الكثرة في المساجد تعكس لنا مدى نموّ وتطور الحركة التعليمية في إقليم المشرق، وكثرة المتعلّمين والمعلّمين. كما تعكس مدى الالتزام الديني الذي كان عليه أهل المنطقة.

ج ـ ٢ ـ المدارس :

مما وقر في أذهان كثير من المؤرخين قديمًا[٣٩] وحديثًا[٤٠]، أن نشأة المدارس في العالم الإسلامي كانت بعد الأربعمائة من سني الهجرة، على يد الوزير السلجوقي (نظام الملك الطوسي)[٤١]، وسُمِّيت بالمدارس النظامية التسع في (نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ، وأصبهان، وآمل طبرستان، والبصرة، والموصل، وبغداد)[٤٢]، وأن السلاطين والأمراء المسلمين من بعده اقتدوا به في إنشاء المدارس الحرة المجانية في أنحاء المملكة الإسلامية، وأشهرهم السلطان نور الدين زنكي

(ت٥٦٩هـ)، ثم صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ)، ثم الملك المعظّم مظفّر الدين كوكبري صاحب إربل (ت٦٣٠هـ)[٤٣].

غير أنه بعد البحث والتقصي تبين أن هناك مدارس أنشئت في العالم الإسلامي قبل المدارس النظامية بأكثر من قرن ونصف، فهذا المقدسي (ت٣٧٨هـ) يشير إلى المدارس في بلاد الشام سنة (٣٧٥هـ)، حيث ذكر أنه شاهد في رحلته إلى بلاد المشرق مراكز علمية من مساجد، وجوامع، ومدارس، ومكاتب، فيقول: ((أقمت في المساجد، وذكرت في الجوامع، واختلفت إلى المدارس))[٤٤].

ثم يتحدث عن إقليم المشرق، فيقول عنه: ((كثير العلماء، ومستقرّ العلم، فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك... فجانب الهيطل من الإقليم يضم سمرقند الجليلة، وخجندة العجيبة، والمدارس، والأئمة، والمشايخ... والدرس بالليل والنهار))، وجانب خراسان (الذي فيه نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ...) يراه المقدسي أكثر علمًا وتقدّماً، وأنه ليس به إلا مساجد ومكاتب، ثم يقرر أن بمرو مدارس، لكل دارس وظيفة[٤٥].

ولكننا لا ننكر أن المدارس النظامية أصبحت أنموذجا يقتديه مؤسسو المعاهد العلمية، ومن تلك المدارس التي اتخذت من النظامية حافزا لها وشيدت على غرارها، " المدرسة النظامية بخوارزم " التي أسسها الوزير نظام الملك مسعود بن علي (ت٥٩٦هـ)، وكان أحد المتعصبين للشافعية [٤٦].

وعلى الرغم من اهتمام السلاطين والحكام والوزراء ببناء المدارس، فقد أولى العلماء ايضا اهتمامهم بإنشاء المدارس لنشر مذاهبهم وعلمهم، فظهرت إلى جانب المدارس الشافعية المدارس الحنفية أيضا..[٤٧]. كما ظهرت مدارس للمذاهب العقدية كالمعتزلة، وأول من أدخله إلى إقليم خوارزم محمود بن جرير الضبي (ت٥٠٧هـ) فاجتمع عليه الخلق، وتمذهبوا بمذهبه [٤٨].

إن إنشاء المدارس مع أنه أدى إلى نشر العلم وكثرة تحصيله، فقد أدّى إلى

التعصب الفكري، وكثرة الأتباع، وقلة التفكير الحر المستقل الذي ينظر إلى الدليل، وما يوصل إليه البرهان من غير تقليد أو اتباع، وإن تساهلنا وقلنا أن ذلك التحيّز الفكري قد اقترن بإنشاء المدارس، فإنه لا بد أن ذلك كان بعض أسبابه وإن لم يكن كلها))[٤٩].

ومدارس بلاد المشرق في آسيا الوسطى كانت تمثل ملاذًا وملجأ لأهل السنّة، فمنذ أيام الطاهريين في خراسان وجدنا أن المذهب السنّي وجد في الإمارة الطاهرية سندًا وعونًا لكبار رجال العلم والحديث، ممن اضطهدوا من قبل المعتزلة في بغداد. وفي القرن الرابع ازداد النفوذ الشيعي في العراق بسبب الحكم البويهي وتشجيعه عليه، مما دفع بالمذهب السنّي إلى التوجه نحو إقليم خراسان؛ لبعده عن مركز الحكم في بغداد، مما شجعهم لإحياء المدرسة السنّية هناك على المذهبين الشافعي والحنفي، مع التعايش مع المذهب الشيعي العلوي والكرامي.

وعلى ذكر ما تقدم يمكن القول أن الدويلات الإسلامية بالمشرق بعد استقلالها عن الخلافة العباسية استطاعت أن توطّن للثقافة الإسلامية في تلك الأقطار الجديدة، وأن تنفس على بغداد ــ عاصمة العلم يومئذ ــ مكانتها ومركزها الثقافي، فعملت جاهدة على تزيين مدارسها وجوامعها، ومجالس أمرائها، بالنُخب العلمية، وفي شتى المعارف والآداب، وتُغدق عليهم الأموال، وتجعل من حواضر بلاد آسيا الوسطى قبلة لطلاب العلم والعلماء على حد سواء.

ج ٣ ــ المكتبات :

لما كانت أقاليم المشرق في آسيا الوسطى من أوائل الأقاليم التي اهتمت بإنشاء المدارس فقد اهتم مؤسّسو المدارس فيها بإيقاف الكتب على اختلاف علومها وفنونها، وأنشأوا للمكتبات المباني الخاصة والحجرات العديدة، وأقاموا عليها الخزّان، والمشرفين والنُظّار، وتدل كثرة الخزائن ودور الكتب على ما كان عند المسلمين من عناية بالعلم، ورعاية لطلبته، فانتشرت المكتبات في المشرق الإسلامي، مثل مرو، ونيسابور، وهراة، وبخارى، وسمرقند... وغيرها. وقد كانت

هذه المكتبات إما خاصة مستقلة، وإما عامة في المدارس والمساجد وأشار السيوطي إلى أنه كان في جامع (مرو) كتب موقوفة(٥٠)، وجدير بالذكر أن المكتبات العامة كانت عامة بالمعنى الحرفي والدقيق للكلمة، فلا يُمنع أحد من ارتيادها، أو المطالعة فيها بالمجان، كما أنها تقدّم لروادها الورق والحبر وأدوات الكتابة مجانًا، وكان في بعضها مرشدون لمساعدة القرّاء في إيجاد الكتب التي يبحثون عنها، كما أنها تسمح أحيانا بالإعارة الخارجية بدون رهن(٥١).

أما المكتبات الخاصة فتشمل المكتبات التي كان ينشئها الخلفاء والأمراء والحكام، من أجل أنفسهم وقد جعلوها حلقات للمناظرة والسمر والمحاضرات وإلقاء العلوم المختلفة. وقد ازدهرت هذه المكتبات حيثما وجد الأمير المتنوِّر، والحاكم المولع بالعلوم والآداب، الراغب في تحصيلها، والتقرب من أهلها. وكان يُسمح بدخول هذه المكتبات للصفوة من الناس، كحاشية الأمير وخلصائه من العلماء والأدباء.

فهذا الأمير نوح بن نصر الساماني فتح دارًا له فيها بيوت الكتب، واستدعى الطبيب ابن سينا لعلاجه حتى برئ، فقربه إليه، مما جعله يظفر بما في تلك المكتبة من علم الأوائل وغيرها، وحصّل فوائدها، واطّلع على أكثر علومها، واتفق بعد ذلك أن احترقت تلك الخزانة فانفرد بما حصله من علومها(٥٢).

وكان وزراء وحكام الأقاليم الإسلامية يملكون مكتبات كبيرة، يتردد عليها الفقهاء والعلماء والأدباء بين الحين والآخر للاستفادة منها في القراءة والملاحظة، وفي تدوين ملاحظاتهم أثناء كتابة البحوث.

ومن مكتبات أقاليم المشرق يمكن أن نذكر خزائن مرو التي كان بها عشر خزائن للكتب منها خزانتان في الجامع، الأولى : الخزانة العزيزية، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني، وكان فيها اثنى عشر مجلدا أو ما يقاربها ن وبالأخرى يقال لها الكمالية، كما بمدينة طوس تحتوي على أندر الكتب والمخطوطات (٥٣).

ومن المكتبات الخاصة التي أنشأها العلماء والأدباء لاستعمالهم الخاص، مكتبة أبي عمرو النسوي الشافعي (ت٤٧٨هـ) بمدرسته في خوارزم، وأوقف عليها مؤلفاته في التفسير والحديث والفقه [٥٤].

٤ ـ أثر بعض العلوم في النهضة الثقافية في وسط آسيا

أ ـ علوم الوحي :

إن القفزة العلمية الجديدة التي شهدها العالم الإسلامي القديم، إنما حدثت نتيجة لتغيير حضاري شامل أحدثه الإسلام في البيئة العربية أولاً والبيئات التي فتحها المسلمون ثانيًا. ويترتب على ذلك أن تلاحظ أهمية الوحي في تأسيس عقلية منهجية جديدة. إن العقلية الإسلامية التي قدمت لتاريخ العلوم إضافات نوعية نظريًّا ومنهجيًا، قد تشكلت بفضل الوحي أولاً، فعن الوحي (القرآن والسنة) صدرت الصياغة المنهجية العقلية للمعارف العلمية في لحظة التأسيس، وهي: علوم الوحي (التفسير والأصول والحديث)، وعلوم الآلة (اللغة والنحو)، وعلوم الحال (الرياضيات، الفيزياء)، وانبثقت طرق الاستدلال بالتبع عن هذه الصياغة المنهجية الخاصة. وهكذا يتجلى التكامل العلمي (أو الشمولية) في بنية التفكير العلمي الإسلامي...وهذا التكامل هو جوهر لا عرض طارئ على العقلانية الإسلامية الأصيلة،ويترتب ذلك على أمرين:

١- وحدة العقل والنقل: ذلك أن تعارض النص الصريح من الكتاب والسنة مع العقل الصحيح السليم غير متصور أصلاً، بل هو مستحيل كما تقدم.

٢- قدسية الحقيقة العلمية من قدسية الدين نفسه: وهي قدسية تبلورت من جهتين: إحداهما جهة الاشتراك في قيمة العلم، إذ يقع طلب العلم، كيفما كان وحيثما وجد في أعلى درجات العبادة الدينية. فمحراب البحث العلمي لا يقل قدسية عن محراب العبادة الدينية. والثانية جهة الوسيلة المنهجية، إذ دفعت قدسية الأحاديث النبوية علماء الإسلام إلى ضبط المنهجية العلمية في البحث والتنقيب، رواية ودراية، نقلاً ونقدًا، داخل حقل علوم الحديث وخارجه. لقد عممت هذه القدسية

على الحقيقة العلمية حيث كانت وكيفما كانت. مما أدى إلى تشارك معرفي عام وتفاعل منهجي خاص بين العلوم الدائرة على الوحي من أصول وحديث وفقه وعقائد من جهة، ثم بينها وبين علوم الطب والصيدلة والرياضيات والفلك من جهة أخرى. وهو ما يؤدي إلى تكامل في الموضوعات والمناهج داخل العلوم الإسلامية(٥٥).

ــ إن نمو الحياة العلمية وازدهارها لا شك أنه كان ثمرة من ثمار التزام المسلمين ــ عامة ــ بتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة جاءت نصوصها حاثة على طلب العلم، ودالة على فضله، ورفعة شأن أهله، وقد سعت بلاطات الدويلات المستقلة في آسيا الوسطى إلى منافسة البلاط الخلافي في بغداد من جهة، ومنافسة بلاطات الأمصار من جهة أخرى، وذلك بتقريب العلماء، وجلب النبغاء، ورعايتهم، وإغداق العطايا عليهم، وملء أيديهم بالنِعَم، وتحفيز النشاط المعرفي والإعانة عليه بوسائل وإمكانات السلطة نفسها، مما جعل العلماء يُبحرون في خضم الثقافات بشقيها: الذاتية والأجنبية دون ضغوط السلطة أو توجيه الثقافة، إنما كان المعيار الوحيد الذي ينضبط به العلم والإبداع والنقل عن الآخرين هو العقيدة التي ينتمي إليها الجميع. وقد أبدع العلماء في ظل حكام يعشقون الثقافة، ويقدسون الفكر، ويسعون إلى توفير مناخ صحي للحياة الفكرية المثمرة.

حتى قال عبد الله بن طاهر معلقا على كتاب " غريب الحديث " الذي أهداه مؤلفه أبو عبيد القاسم بن سلام إليه: " إن عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق أن لا يخرج من هذا إلى طلب المعاش " وأجرى له عشرة آلاف درهم كل شهر. وقد ــ كشفت الدراسة الدقيقة لهوية العلماء في الحياة العلمية أن هؤلاء العلماء تنوعت أجناسهم وأعراقهم، وفي هذا دلالة واضحة على عظمة الإسلام الذي وحّد الجميع، وصهر الجميع في بوتقة واحدة.

ومن الملاحظات الجديرة بالانتباه التي قادنا إليها جهد التقصي أن الحياة العلمية تميّزت ــ خلال فترة الدراسة ــ بنبوغ عدد من العلماء الموسوعيين الذين برّزوا في علوم شتى مما جعل بعضهم يذكر في أكثر من موضع.

وفي ميدان العلوم الشرعية (علوم الوحي) يمكن أن نلاحظ ما يلي :

١ ــ إهتمام أهل بلاد آسيا الوسطى بعلوم الوحي لأنها العلوم التي توصلهم بالله وتعرفهم بدينه، وتربطهم بالأمة المسلمة قاطبة في المشرق والمغرب.

٢ ــ وصلت القراءات العشر إلى بلاد آسيا الوسطى بأسانيدها المتصلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت القراءة الأشهر والأكثر انتشارا في المنطقة هي قراءة نافع.

٣ ــ أما علم التفسير فقد برّز فيه علماء أجلاّء على اختلاف مناهجهم سواء في التفسير بالمأثور، أو التفسير الإشاري (الصوفي) أو التفسير اللغوي، أو التفسير العقدي.

٤ ــ إن التقصي الدقيق في المظان المختلفة يدل دلالة واضحة على وجود تراث حديثي خصب ــ رواية ودراية ــ مما جعل هذا العلم يشهد نُقلة واسعة ومتطورة، حيث استطاع علماء المنطقة أن يضعوا منهجا علميا دقيقا صنفوا على أساسه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأشهر من أفاد بجهوده في هذا الجانب الإمام البخاري والإمام مسلم والإمام الترمذي.

٥-ارتبطت المنطقة بالمذهب الحنفي لارتباط أبنائها بالتتلمذ المباشر على يد الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه. إلا أن شوكة الشافعية سرعان ما قويت نظرا لاهتمام بعض الوزراء الشافعيين بالناحية العلمية، وعلى رأسهم نظام الملك الشافعي المذهب.الذي بنى المدارس النظامية في مرو وجعل التدريس فيها وقفا على فقهاء الشافعية أصلا وفروعا(٥٦).

٦ ــ كثرة المناظرات العلمية والردود الفكرية بين العلماء، مما نشّط ميدان الدراسات الفقهية، لأن كل فريق من المتناظرين يسعى إلى تأييد وجهة نظره وحشد الأدلة والحجج لنصرة مذهبه. الأمر الذي أدّى إلى كسر الجمود الفكري، وإثراء الفكر الفقهي بأرقى ما وصل إليه العقل الإسلامي من نمو وعطاء.

٧ ــ إحتدام الصراعات المذهبية في معظم بلاد آسيا الوسطى لتدخل سلاطين

وأمراء الدول المتعاقبة وذلك بعقد المجالس ومتابعة المناقشات المتبادلة بين المذاهب المختلفة مما نتج عنه سلسلة من الثورات والفتن نتج عنها انتشار الفوضى والخوف بين الناس.والميل إلى العزلة والإنزواء [٥٧].

٨ــ كثير من العلماء والفقهاء لم ينأوا بعيدا عن الحياة السياسية والاجتماعية للأمة، بل شاركوا وساهموا مساهمة جادة في الإصلاح والإفتاء والقضاء، وهو ما أكسب الفقهاء مكانة اجتماعية بارزة، وجعل حياة المجتمع تسير في الأغلب وفق أحكام الدين ومقاصد الشرع.

ب ــ العلوم العقلية (علم الكلام أنموذجا) :

بسبب ما كانت تموج به بلاد آسيا الوسطى من أفكار وتيارات ومذاهب هدّامة، أغرت بثمارها المحرمّة عبّاد اللذة وروّاد المنكر من ضعاف العقول وصغار الأنفس، وأمعنوا في الغيّ والضلال، واشتركوا في النساء والأموال، وفي سبيل ذلك نشروا الإرهاب، وبدّدوا النظام، وزعزعوا الأمن.

كان أولئك الهدّامون يقترفون هذه الكبائر تحت ستارٍ من الدين والخلق، فبسلطان الدين يشيعون الإلحاد، وباسم الخلق كانوا ينشرون الإباحية، وباسم حرية الاعتقاد يحيون الفكر القديم، ولكن للإسلام منبعانِ من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا يزالان يتدفّقان بالصفاء والطّهر والعذوبة، فإذا تلوّثت مجاريه البعيدة بمثل هذا الدّنس أقبل الفيض الإلهي فجرف تيّاره القوي كل عَفن، وطهّر ماؤه النقي كل رجس.

لقد انبرى علماء الكلام لهذه الحركة المضادة بنتاج علمي ثَرٍّ، استطاع أن يُحكم السياج حول مسائل الاعتقاد بأسوار من الأدلة والحجج والبراهين، تصدّى لوضعها أئمة أعلام، نذكر نماذج منهم، مع التنبيه إلى أن دراستنا لا شأن لها بتقصي كل صغيرة وكبيرة عن القضايا الكلامية المطروحة؛ إذ أن كلاً منها يحتاج إلى بحث دراسي مستقل، وإنما الذي يعنينا في هذا المجال هو تقرير ما انتهت إليه هذه الطروحات من تطور وتغيير، وتنشيط للحياة الفكرية في إقليم المشرق، ونذكر من بينهم:

ـ أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن حفص البخاري (ت٢٦٤هـ) الذي وضع كتاب (الرد على اللفظية)، و(الأهواء والاختلاف)[٥٨].

ـ وأبو بكر محمد بن اليمان السمرقندي (ت٢٦٨هـ)، الفقيه، المتكلم، صاحب كتاب (الرد على الكرامية)، و(الاعتصام) في الحديث، و(معالم الدين) و(الأنوار)[٥٩].

ـ كما نذكر محمد بن اسحاق بن خزيمة بن المغيرة، أبو بكر السلمي النيسابوري (ت٣١١هـ)، الذي روى عنه خلق كثير من علماء أعلام الحديث، منهم أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله البخاري صاحب (الجامع الصحيح)، والإمام الحجة الثقة مسلم بن الحجّاج، صاحب (الصحيح)، والحافظ أبو إسحاق بن أبي طالب النيسابوري. كما يرجع الفضل في تنشيط الحركة الكلامية والفلسفية بإقليم المشرق إلى شخصيتين بارزتين هما: أبو زيد البلخي، وأبو القاسم الكعبي.

ـ أما أبو زيد، فهو أحمد بن سهل البلخي. جمع بين الفلسفة والعلوم الشرعية والأدب. قال عنه أبو حيان التوحيدي فيما يذكره الحموي: ((أنه لم يتقدم له شبيه في الأعصر الأُوَل، ولا يُظنّ أنه يوجد له نظير في مُستأنَف الدهر، ومَن تصفّح كلامه في كتاب (أقسام العلوم)، وفي كتاب (أخلاق الأمم)، وفي كتاب (نظم القرآن)، وكتاب (اختيار السِّيَر)، وفي رسائله إلى إخوانه، وجوابه عما يسأل عنه، ويُبْدِهُ به، عَلِم أنه بحر البحور، وأنه عالم العلماء وما رُئِيَ في الناس من جمعٍ بين الحكمة والشريعة سواه، وإن القول فيه لكثير))[٦٠].

من تآليفه: كتاب (شرائع الأديان)، وكتاب (السياسة الكبير والصغير)، و(حدود الفلسفة)، وكتاب (ما يصح من أحكام النجوم)، وكتاب (الرد على عبدة الأثان)، وكتاب (أخلاق الأمم) الذي استحسنه أبو حيان التوحيدي، وأثنى عليه بقوله: ((قد رأيته وقرأته وقد أفاد، وكل من تكلم على طريقة الحكماء الذين يتوخون من الأمور لبابها، ويصرفون عنها قشورها، فله السابقة والتقدم على من يخبط كفلان وفلان...))[٦١]. توفي ببلخ سنة (٣٢٢هـ)[٦٢].

ويُفهم من حكاية ذكرها ابن النديم أن أبا زيد البلخي كان معتزليا، وفي صراع فكري مع القرامطة،والثنوية، وهذا ما دعا منافسيه إضافةً إلى استغلالهم خوضَه في المنطق، إلى رميه بالإلحاد[٦٣]، وتلويث سمعته العلمية، وبالتالي الخلاص منه، فكانوا يعرضون على إحراجه في مناظرات ليس فيها ما يجدي طائلاً، ولا يتضمن حاصلا، على حد تعبيره، فيسألونه عن تفضيل الصحابة بعضهم على بعض، وعن مفاخرة العربي والعجمي، فيأتي جوابه واقعيا سليمًا، كسلامة فكره فيقول: ((إن الله تعالى يقول في القرآن : إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (يوسف: ٢) وأما معنى الصحابة وتفضيل بعضهم فقوله: ((أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ، بِأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ))[٦٤].

ومن أسف القول أن المحاورات والمناقشات والمناظرات بين الفرق الكلامية وبينها وبين المخالفين لم تحظ باهتمام المصادر إلا قليلا، على الرغم من أن الدلائل تشير إلى كثرتها، كنتيجة طبيعية لمحاولة كل فرقة التعصب لمذهبها، والانتصار لآرائها.

ـ والثاني أبو القاسم، عبد الله بن أحمد الكعبي، من بلخ أيضا. كان معاصرًا لأبي زيد، وصديقًا له، اشتهر بتبحره في علم الكلام، وهو رأس من رؤوس المعتزلة، له مذهب خاص، وأتباع يقال لهم: (الكعبية). من كبار المتكلمين، وله اختيارات في علم الكلام. من تصانيفه في هذا العلم: كتاب (المقالات)، و(الاستدلال بالشاهد على الغائب)، و(الجدل)، وكتاب في (النقض على الرازي في الفلسفة الإلهية)، و(المسترشد في الإمامة)، و(نقض كتاب أبي علي الجبّائي في الإرادة)، و(أدب الجدل)، و(النقض على المجبّرة)، و(تأييد مقالة أبي الهذيل في الجبر). توفي سنة (٣١٧هـ)[٦٥].

ويمكن القول أنه بالرغم من وجود بعض المتكلمين من المعتزلة في بلخ، إلا أنها ظلّت قلعة أهل السنّة، تدافع عن عقيدتها بحرارة، حتى أنه لما ورد كتاب دار الخلافة إلى الليث بن مساور (ت٢٢٦هـ)، وكان قاضيًا فيها، بوجوب القول بخلق القرآن، فإنه خلع نفسه من القضاء، ورمى عمامته على الأرض ونادى: ((إن كل

من يقول بخلق القرآن فهو كافر)).

وقد عدّ صاحب كتاب (فضائل بلخ) ـــ الذي ألفه سنة (٦١٠هـ) ـــ من شمائل بلخ المخصوصة، كون أهلها مسلمين، وكلّهم على مذهب أهل السنّة والجماعة. ومن دفاع بلخ عن عقيدتها السنية، وتمسك بها، أنه حين أمر أحد الولاة بالمناداة بالشهادة الثالثة في الأذان، وهي: أشهد أن عليًا ولي الله، فإنهم هاجموه وقتلوه سنة (٤٠٢هـ)[٦٦].

ويظهر من مصنّفات المتكلمين السابقين أن الصراع كان محتدمًا بين الأشعرية والمعتزلة في خراسان وما وراء النهر، مما جعل الخلافة العباسية تتدخل لفضّ هذه المناظرات والخلافات. ففي عام (٤٠٨هـ) أصدر الخليفة القادر بالله كتابًا ضد المعتزلة، أمرهم فيه بترك الكلام، والتدريس، والمناظرة في الاعتزال، والمقالات المخالفة للإسلام، وأنذرهم إن خالفوا أمره فسوف يتخذ ضدهم أشدّ العقوبات. وكان السلطان محمود الغزنوي أول من امتثل في غزنة لأمر أمير المؤمنين، واستنّ بسنّته في قتل المخالفين، ونفيهم وحبسهم، كما أمر بلعنهم[٦٧].

وقد كُتب لفكر الأشعري أن ينتشر في الآفاق، وينتقض على فكر المعتزلة، ويصنّف ردوده عليهم، ويحمل معه (عقلانيةً) ميّزته عن السلفية النصوصية، متخذًا في ذلك منهج الفقهاء في أصول الفقه، كما صاغه الشافعي، ومنهج المتكلمين من أهل السنّة، وخاصة ابن كلاّب، وبسلفية أحمد بن حنبل... بكل هذه المنطلقات ومنها انطلق الأشعري صانعًا تحوله الفكري التاريخي، ومبلورًا منهجه الوسطي الجديد[٦٨].

وقد ساعدت هذه الوسطية مذهب الأشعرية، وجعلته مهيّئا أكثر من غيره كي يلبّي حاجة أوساط جمهور الأمّة في قضايا الاعتقاد... كما أن فقهاء الإسلام العظام أغنوا المذهب، وحققوا له هيمنة فكرية على أمّة الإسلام، من أمثال أبي بكر القفال الشاشي النيسابوري، وأبي سهل الصعلوكي، وأبي زيد المروزي... إلى آخر أعلام الطبقة الأولى من الأشعرية، ومن تبعهم، وتتلمذ على أيديهم.

وقد استطاع علماء خراسان أن يطوّروا المذهب الأشعري، ويقعّدوا له القواعد، حتى يصل إلى مرحلة النضج في القرن الخامس الهجري، الذي سُمِّي (قرن الأشعرية)؛ لأن قوى سياسية في بغداد أو خراسان أو في بلاد ما وراء النهر عملت على دعمه، بل ورأت فيه الإيديولوجية السنية التي تمكّنها من الإجهاز على الإيديولوجية الشيعية، كالذي فعله السلاجقة مع البويهيين.

إلا أن المذهب الأشعري في أصول الدين اقترن في كثير من الأحيان بالمذهب الشافعي في الفقه، وكلاهما اقترنا في وجودهما بخراسان (نيسابور، مرو، بلخ، هراة)، أما بلاد ما وراء النهر فقد ظهر بها مذهب سنّي حاول سد الثغرات التي تركها الفكر الأشعري، وقام يدافع عن معتقدات أهل السنّة، ويصوغ أدلة عقلية لإثبات آرائهم، ويثبت عن طريق العقل بطلان أدلة مخالفيهم، إلا أنه لم يتحقق له الذيوع والانتشار ما تحقق لمذهب الأشعري، وهو المذهب الماتريدي، المنسوب إلى مؤسسه محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي[٦٩] (ت٣٣٣هـ).

ونخلص من الحديث عن علم الكلام وموقع أعلامه من التحديات الهاجمة على العقيدة، وكيفية تصدّيهم لها، ومواجهتهم لغلواء الشُّبه والأفكار المنحرفة، إلى تسجيل الملاحظات التالية:

١ ــ بالرغم من التفكك السياسي الذي عانت منه الدولة العباسية منذ القرن الثالث للهجرة، وكثرة الفرق والطوائف، وتشعّب الآراء والمذاهب... الشيء الذي نال من وحدة السلطة، واستمرارية الحكم المركزي، إلا أن الوحدة الفكرية والارتباط العقائدي ظلّ ميزة تميزت بها القرون الثلاثة ــ موضوع الدراسة ــ، وذلك خلاف ما ذهب إليه الجابري: ((من أن كثرة المذاهب والفرق والطوائف نال من وحدة السلطة، واستمرارية الدولة، وبالتالي من وحدة الفكر ودوام المجتمع))[٧٠]، إذ لو كان الأمر كذلك لما رأينا ذلك الامتداد الفكري والتواصل الثقافي بين مركز الخلافة وأقاليم الدويلات المستقلة في المشرق. ويشهد على ذلك تماثل البحث والتأليف، وتناغم الأفكار، وتوحد المرجعية الثقافية لجميع علماء الإسلام في بلاد المسلمين.

٢ ــ في أحضان البيئة الهادئة سياسيا، ينمو الفكر، ويزدهر العلم والتفكير السليم في شتى مناحيه؛ وذلك ما نلحظه في عطاء المذاهب الإسلامية تأليفًا وتصنيفًا وعطاءً، وخاصة في زمن الدولة السامانية.

٣ ــ بالرغم مما كانت تعّج به خراسان وبلاد ما وراء النهر من أفكار وفلسفة، فقد استعصت أمّة الإسلام على الاحتواء الحضاري، والسحق القومي، الذي تحدّاها به أعداء كثيرون على امتداد مسيرتها الثقافية... وظلّت رغم الفلسفات الهاجمة، والأفكار الدخيلة الزاحفة إلى عقل الأمة وضميرها ووجدانها، يمثل جميع فِرَقها شرف الانتماء إلى الكيان العقلي الإسلامي الذي يشكل القسمات الأصيلة المميّزة لأمتنا وحضارتنا. وانتصب العقل المسلم ليتعبّد بالنّص المأثور، ويوفّق بين الحكمة والشريعة، مما جعل الفلسفة في حضارتنا تتديّن، كما تفلسف عندنا الدين.

٤ ــ لاشك أن محورية العقيدة الإسلامية في قيام المجتمع الإسلامي، وإغفال كل اعتبار للجنس والعنصر والقومية والإقليمية والتاريخية كأساس من أسس قيام المجتمع، جعلت المجتمعات على مرّ الدويلات الإسلامية في إقليم المشرق تعيش جوًّا من التسامح والمساواة والحرية، إلا أن التسلل الثقافي الذي نشطت في ظلّه حركات هدّامة، ومذاهب منحرفة مناوئة للسلطات القائمة، نشّطت ميدان علم الكلام، وحفّزت علماءه على رصد الفكر الدخيل، وصون العقيدة الإسلامية من تحديات العقائد المناوئة على اختلاف أنواعها، وفي صورها المستترة والمعلنة على السواء.

٥ ــ لم ينحصر بعض الفقهاء الأعلام في خراسان وما وراء النهر في المسائل الفقهية الفرعية، ونأوا بعيدًا عن اهتمامات الأمة الراهنة، وما تعانيه عقائدها من غلواء الانحراف والإلحاد، بل وجّهوا أنظارهم أيضا إلى المباحث التي يدور فيها الاحتكاك بين الإسلام وبين عقائد المخالفين، وأعدّوا لمنازلتها أقوى الأدلة، وأغنى البراهين، وأصلب الحجج، مما مكنّهم من الانتصار عليها، وكشف عوارها، وفضح أساليب منتحليها، والاحتفاظ للأمة بدورها العالمي القيادي كما فعل الإمام أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى.

٦ ــ إن علم الكلام علم إسلامي نشأ من النقاش الذاتي حول القرآن الكريم، وتلبية لحاجة عصره، بالمشاركة في حلّ مشكلاته، ومتصديًا لدفاع عن الإسلام. وقد بدت في مباحثه ابتكارات المسلمين، ووضوح العنصر الإسلامي أكثر من غيره. ولا يعني هذا أنه كان مقطوع الصلة بالثقافات الأجنبية، بل نقصد قلّة ذلك التأثر، خاصة عند أوائل المتكلمين الذين جعلوا من مهامهم استبعاد الفلسفة اليونانية من دائرة الدين، ومعارضة المنطق الأرسطي؛ لأنه مبني على ميتافيزيقا أرسطو التي رفضوها... ولكن هذا لا يمنع من استفادة المتكلمين في منهجهم الجدلي ببعض القواعد الفنية للجدل الأرسطي، ولكن هذا الأثر المحدود لم يدخل في صميم آرائهم وأفكارهم، فعاش متكلمو الإسلام أبناء بارين للفكر الإسلامي والبيئة الثقافية الإسلامية، وقيّمين أمناء للتراث الإسلامي الخالص.

٧ ــ لم يكن هدف علم الكلام هو الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد شبهات الخصوم فحسب، بل تضمنت مباحثه ومناظرات أعلامه شرح حقائق الإيمان بالأدلة العقلية، بهدف اجتذاب هؤلاء الخصوم إلى رحاب الإيمان.

٨ ــ استبحار المعرفة الإسلامية في خراسان وما وراء النهر من فقه وتفسير وحديث وعلوم الأدب واللغة وغيرها... مما أمّد علماء المنطقة بثقافة واسعة استطاعوا عن طريقها تأسيس مذهب كلامي سني خالص، كان مظهر عبقرية أمّتنا في هذا الميدان.

٩ ــ شهدت الحياة الفكرية في الميدان الكلامي خلافات ومشادات ومناظرات بين الفرق الكلامية الإسلامية، كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية، آخذين بالدليل العقلي والنقلي، ومختلفين في مدى الأخذ بهما، جاعلين أحدهما الأصل والآخر الفرع، ويرجع ذلك إلى تقدم أحدهما على الآخر، وإلى درجة اليقين في كل منهما. ولكن جميع هذه المسالك أثْرت الحياة العقلية، وجعلت الآراء تتطور داخل كل فرقة، وتتضح آراؤها من المتقدّمين إلى المتأخرين، كردود الماتريدي على أقطاب مذهب الاعتزال من أمثال النظّام، وابن شبيب، وجعفر بن حرب، والكعبي، وردوده على محمد بن كرام السجستاني زعيم الطائفة الكرامية، والجهمية،

والمتصوفة... وذلك مظهر إيجابي أضفاه علم الكلام على الفكر الإسلامي دون شك.

١٠ ــ إنّ علم الكلام في الفترة ــ موضوع الدراسة ــ لم يكن قد اختلط بالفلسفة بعد، إذ أنه في مراحل لاحقة، وفي فترات متأخرة عن فترة بحثنا اختلط علم الكلام بالفلسفة، وأصبحت له غاية تعليمية، وسلبت منه وظيفته الدفاعية الحية عن عقائد الإسلام وتعاليمه. وقد عبّر عن هذا المعنى ابن خلدون في قوله: ((وعلى الجملة فينبغي أن يُعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزّه الباري عن الكثير من إيهاماته وإطلاقاته))[٧١].

ولاشك أن عقائد الإسلام تتعرض في كل زمان ــ وخاصة في عصرنا الراهن ــ للخطر الذي تعرضت له في العصور الأولى إن لم يكن أشد منها عنفًا. فالفلسفات الحديثة والمعاصرة من جدلية مادية، وبراجماتية، ووضعية، ووجودية، وعولمة ثقافية، ومن يقف وراء هذه الفلسفات من دول عظمى، ومؤسسات قوية، تتسم بالضراوة والحنكة وحسن التخطيط، تناوش عقائد الإسلام، وتعمل على هزيمته في أكثر من ميدان.

ج ــ علم التصوف :

وقد مثّل حركة الزهد في هذه المرحلة أئمة أعلام من فقهاء ومحدّثين على المذهب الحنفي خاصة، ونالت هذه الحركة العطف الشديد من قبل الحكام، وأنعموا على بعض هؤلاء الأتقياء بالوظائف الإدارية، والدينية كرئاسة المدن والقضاء والخطبة[٧٢]. وزهد البعض الآخر بهذه الوظائف كما زهدوا بالحياة الدنيا ومتاعها، وحوّلوا أنظارهم نحو الآخرة، ووضعوا آمالهم فيها. وبرز من الزهاد في خراسان في القرن الثاني الهجري أعلام أثروا على حركة الزهد، نذكر من بينهم: إبراهيم بن أدهم البلخي (ت١٦١هـ) ــ عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ)[٧٣] ــ الفضيل

بن عياض السمرقندي (ت١٨٧هـ)[٧٤] ـ شقيق البلخي (ت١٩٤هـ)[٧٥].

وقد استطاع هؤلاء الزّهاد المتنسّكة أن يُنَمُّوا الحياة الروحية في إقليم المشرق، ويزرعوا بذور حركة صوفية سوف تنمو وتؤتي ثمارًا يانعة، أكُلُها دائم، في القرن الثالث الهجري وما بعده.

ويمكن أن نلاحظ مما سبق ذكره عن الزهد ومدارسه في البصرة والكوفة وخراسان قبل القرن الثالث أنّه يتميّز بالخصائص التالية:

أولا: أنه يقوم علي أساس فكرة مجانبةِ الدنيا من أجل الظّفر بثواب الآخرة، واتّقاء عذاب النار، متأثِّرًا في ذلك بتعاليم القرآن والسنة، وبالظروف السياسية والاجتماعية السائدة في المجتمع الإسلامي آنذاك.

ثانيا: أنه زهد ذو طابع عملي، ولم يُعنَ أصحابه بوضع القواعد النظرية له، ومن وسائله العملية العيش في هدوء، وبساطة تامة، والتقليل من المأكل والمشرب، والإكثار من العبادات والنوافل والذكر، مع المبالغة في الشعور بالخطيئة، والخضوع المطلق لمشيئة الله، والتوكل عليه، وهو بهذا يهدف إلى غاية أخلاقية.

ثالثا: إنه كان يتخذ دافعًا له الخوف من الله، وهو خوف يبعث على العمل الديني الجاد، على أنه ظهرله دافع آخر في أواخر القرن الثاني عند رابعة العدوية، وهو الحب لله المنزّه عن الخوف من عقاب الله والطمع في ثوابه في آن معًا، وهو يعبّر عن إنكار الذات وعن التجرد في علاقة الإنسان بالله.

رابعا: أغلب الزهاد في هذه الفترة درسوا العلوم الشرعية وأتقنوها، وأفادوا منها في سلوكهم إلى الله عزّ وجل، ومن الأمثلة على ذلك: أن المتصوّفة الأربعة الذين سبق ذكرهم قد أخذوا (الحديث النبوي) عن الإمام سفيان الثوري. بل يُعدّ ابن المبارك من المحدّثين الحفّاظ، وكان الفضيل متفرّغًا لدراسة الحديث، وجاور مكة من أجل ذلك، وأخذ ثلاثة منهم الفقه على الإمام أبي حنيفة مباشرة، وهم: إبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وشقيق البلخي.

وهذا يشير إلى أمرين:

الأول: أن منبع الفكر الفقهي والحديثي لدى متصوفة المنطقة واحد.

والثاني: أن طريق التصوف عندهم واحد، يعتمد على الشريعة وتطبيق قواعد الدين وأحكامه بشكل علمي دقيق، ولعل وصف هؤلاء بالمتصوفة مع التزامهم بتطبيق قواعد الشريعة، هو تغليبهم للجانب الروحي في سلوكهم إلى الله تعالى.

خامسا: نشأ أغلب أعلام التصوف المنتسبين إلى إقليم المشرق في بلاد عربية كالبصرة والكوفة، فإبراهيم بن أدهم رحل إلى البصرة، ثم إلى الكوفة، والفضيل بن عاض رحل إلى الكوفة، وفي هذا إشارة إلى أن التصوف إسلامي النشأة، امتد أثره إلى خراسان وما وراء النهر.

سادسا: ارتبط التصوف بالجهاد في سبيل الله، ومن مظاهر ذلك حياة إبراهيم بن أدهم الذي مات في إحدى الغزوات ضدّ البيزنطيين، ودفن في بلدة (جبلة) بالقرب من مدينة اللاذقية في بلاد الشام. كما أن عبد الله بن المبارك عاش متنسّكا زاهدًا، ومجاهدًا غازيًا، ويُذكر أنه بنى رباطًا للمجاهدين في مرو. وها هو حاتم الأصمّ وأستاذه شقيق البلخي، وكلاهما من بلخ، قد ساهما في الجهاد، واستشهد شقيق في ساحة المعركة.

سابعا: إن زهد بعض المتأخرين من الزهاد خصوصًا في خراسان، يمكن ــ لما تميّز به من تعمّق في التحليل ــ أن يُعتبر مرحلة تمهيدية للتصوف، وأصحابه، وإن كانوا يقتربون من التصوف، لا يُعدّون صوفية بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما يمكن اعتبارهم روّادًا لمن سيجيء بعدهم من صوفية القرنين الثالث والرابع[٧٦].

لقد كانت حركة التصوف خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين في أوج ازدهارها، حتى اعتبرهما كثير من الدارسين والباحثين من أزهى عصور التصوف الإسلامي وأرقاها[٧٧]. وانتشر أعلام التصوف في أنحاء العالم الإسلامي يحفظون أسسه وأصوله، ويمهّدون قواعده وفروعه، وينظّمون أنفسهم في جماعات وفرق لها طرقها الخاصة، وشيوخها ومريدوها. وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف في هذه

الفترة، لكل منها طابع معيّن. وقد أحصى الهجويري الفرق الصوفية (أو المدارس الصوفية) التي وجدت في هذه الفترة باثنتي عشرة فرقة. ونسبُ كل واحدة منها إلى شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين، ولعلّ من أبرز هذه المدارس التي عبّرت عن التصوف، وبيّنت أسسه وقواعده وآدابه ومعاملاته، مدرسة أبي القاسم الجنيد (ت٢٠٧هـ) ببغداد، وقد اعتمدت هذه المدرسة على الكلمة المنطوقة، واتخذت من المساجد منابر لدعوتها، ثم مدرسة أبي نصر السراج (ت٣٧٨هـ) في نيسابور، واعتمدت على الكلمة المكتوبة، واتخذت من الكتب ميدانًا لبيان دعوتها، وشرح رسالتها، ونشر علومها وأذواقها، كما حفظت لنا أيضا تراث المدرسة الأولى في بغداد.

وقد اشتهر في خراسان وما وراء النهر جماعة من أعلام الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، أسهموا بنصيب وافر في مجال الدراسات الصوفية، منهم من ارتبط بالمراكز العلمية في إقليم المشرق، ومنهم من ارتحل إلى مراكز علمية خارجه (في العراق أو الشام أو الحجاز أو مصر)، وتأثّر بها أو أثّر فيها، فالتواصل الفكري بين أقاليم العالم الإسلامي من أهم سمات الحياة الثقافية في هذا العصر.

وقد أوردت لنا كتب الطبقات والتراجم عددًا هائلا من المتصوفة في خراسان وما وراء النهر. وسوف نقصر الحديث عن ذكر المشاهير منهم حسب بلدانهم:

ومن خلال حديثنا عن متصوفة القرن الثالث والرابع الهجريين واتجاهاتهم وتآليفهم يمكن أن نتبيّن ملامح عامة للتصوف في هذه الفترة، نسجلها في النقاط التالية:

١ ـ إن جميع النظريات التي تجعل مصدر التصوف الإسلامي أجنبيا وافدًا، هي نظريات بعيدة في الصدور عن حقيقة موضوعية، وتقوم على التنكّر التام لماضي هذه الأمّة، والاستخفاف بمقوماتها الحضارية، ومنجزاتها الفكرية، وأصولها الروحية. وتريد أن تنتزع من التصوف الإسلامي أصالته، وتقطعه عن جذوره، وهو أمر لا يستسيغه العقل السليم، ولا تسمح به حقائق التاريخ.

وقد ذهب الدكتور عبد الحليم محمود إلى القول بأن: ((الصوفية ليست شيئا أضيف إلى الدين الإسلامي، إنها ليست شيئًا أتى من الخارج فأُلصق بالإسلام، وإنما هي بالعكس تكون جزءًا جوهريا من الدين؛ إذ أنّ الدين بدونها يكون ناقصًا، بل يكون ناقصًا من جهته السامية، أعني جهة المركز الأساسي، لذلك كانت فروضًا رخيصة تلك التي تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبي: يوناني أو هندي فارسي، وهي معارَضة بالمصطلحات الصوفية نفسها، تلك المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطًا وثيقًا، وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وبين ما يماثلها في البيئات الأخرى، فتفسير هذا طبيعي لا يحتاج إلى فرض الاستعارة، وذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتّحد في جوهرها، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور))(٧٨).

أما ماسينيون (Massignon) وهو رائد المدرسة الفرنسية في دراسة التصوف الإسلامي، فقد نظر إلى مسألة أصل التصوف نظرة علمية منصفة فيقول: ((إن في القرآن البذور الحقيقية للتصوف عامة، وهذه البذور كفيلة وحدها بتنميته في استقلال عن أي غذاء أجنبي)). وقال: ((كل بيئة دينية يتوافر لأبنائها الإخلاص والتفكير، تصلح لأن يظهر فيها روح التصوف. فليس التصوف إذن من خصائص عنصر أو لغة أو أمّة، بل هو مظهر روحي لا تحده مثل هذه الحدود المادية، فمن القرآن ــ يردّد المسلم تلاوته، ويتأمل في آياته، ويقوم بفرائضه ــ انبثق التصوف الإسلامي ونما وتطور))(٧٩).

٢ ــ أصبح للتصوف منذ القرن الثالث مدارس وشيوخ ومريدون، بعد أن كان سلوكًا فرديا في القرنين الأول والثاني.

٣ ــ أنّ أغلب المتصوفة كانوا من الطلاّب الذين نفروا في سبيل الله ليتفقهوا في الدين ثم لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، فكان منهم الفقهاء وعلماء الشريعة المبرزين، بالإضافة إلى أنهم من رواة الحديث النبوي، رواية ودراية، وهذا ما جعل اتجاههم اتجاهًا سُنيًّا منضبطًا بضوابط الشرع، ملتزمًا بالكتاب والسنة.

٤ ــ إن الفكر الصوفي المستقيم لم يستطع أن يسيطر على عالم التصوف سيطرة

كاملة، فتسللت إلى المساحة الفكرية الإسلامية أفكار النزعات الزهدية الهرمسية القديمة، ولوثات الفلسفات الأجنبية، فأخرجت لنا طائفة من الصوفية إلى شطحات في حال السكر، التي تمثل عدم شرح الصدر الذي حصل للجنيد وأمثاله، كما أنها أخرجت طائفة أخرى إلى اعتناق نظريات هندية وإشراقية ويونانية منحرفة جدا، انتهت إلى القول بالحلول عند الحلاج، والفلسفة الإشراقية عند السهروردي، ووحدة الوجود عند محي الدين بن عربي.

تلك النظريات التي لم تكن نتيجة طبيعية لتجربة روحية إسلامية، وإنما كانت مظهرًا واضحًا لدراسات فلسفية عرفانية لا علاقة لها بروحانية الإسلام عند المتصوفة المستقيمين من المتمسكين بالكتاب والسنة وضوابط فهمها.

٥ ــ إن صوفية القرن الثالث عُنوا بالكلام في دقائق أحوال النفس والسلوك، وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم، فصار التصوف على أيديهم علما للأخلاق الدينية. وكانت مباحثهم الأخلاقية تدفعهم إلى التعمق في دراسة النفس الإنسانية ودقائق أحوال سلوكها، فكانت تقودهم أحيانًا إلى الكلام في المعرفة الذوقية وأداتها ومنهجها، وإلى الكلام عن الذات الإلهية من حيث صلتها بالإنسان وصلة الإنسان بها، وظهر الكلام في الفناء الصوفي خصوصًا على يد البسطامي، ونشأ من ذلك كله علم للصوفية يتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية[٨٠].

٦ ــ ظهرت خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ما يُسمّى لأول مرة بالطرق الصوفية في الإسلام. فقد استطاع أعلام المتصوفة أن يجمعوا حولهم المريدين من أجل تربيتهم وتأديبهم بآداب التصوف علمًا وعملاً، فتكون مجالسهم أشبه بالرياض النضرة.

وقد وُصف مجلس أحد الصوفية بخراسان بأنه: ((روضة الحقائق والدقائق، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب، ومواجيده مقطرة الدماء من الجفون مكان الدموع، ومفطرة الصدور بالتخويف والتقريع))[٨١]. ولا تزال آثار هذه الطرق إلى يومنا هذا هي السمة الغالبة على الحياة الدينية في خراسان وما وراء النهر (الجمهوريات الإسلامية).

ومما يميز التصوف في هذه الفترة أن المتصوفة لم يكونوا منقطعين عن الحياة، منعزلين عن الناس، بل شاركوا في الحياة الاجتماعية، وأدّوا دورًا بارزًا في بناء المساجد، وإنشاء المدارس، وبناء الحصون والرُبُط والخانقاهات، مع المشاركة الفعالة في الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الإسلام.

٧ ــ من المألوف أن المتصوفة في أغلب بلاد المسلمين لم يشاركوا في حركة التأليف والتصنيف بالقدر الذي شارك به الفقهاء والمحدّثون والمؤرخون... وغيرهم؛ لأن التصوف أحوال ذوقية، ومقامات استشرافية، يُعبّر عنها المتصوف بعبارة موجزة، وحكمة دالة، ومعنى دقيق، إلا أن متصوفة خراسان وما وراء النهر لم يكتفوا بما ينقله عنهم تلاميذهم ومريدوهم من الأحوال والأقوال، بل شاركوا مشاركة جادة في حركة تأليف واسعة، تذود عن أصحاب المقامات والمجاهدات، وتنافح عن أصحاب الأذواق والمواجيد، بكتب ظلّت المرجع والأساس في هذا الميدان، ينقلها لاحق عن سابق، تضيء طريق السالكين إلى رضوان الله رب العالمين.

٨ ــ أغلب تآليف الصوفية كانت في هذه الفترة باللغة العربية، وهذا يعكس مدى انتشار لغة العرب في تلك الأقاليم، وتذوّق أهاليها بلاغة العربية وأساليبها، ولا غرو فهي لغة القرآن الكريم، الذي هو المرجع والمثاب لأهل تلك البلاد.

٩ ــ دور المرأة المتصوفة في إذكاء الحياة الروحية تعلمًا وتعليمًا ومصاحبة، ومشاركتها في التربية الأخلاقية والنفسيّة التي اضطلع بها كبار المتصوفة من الرجال.

ولذلك اتخذ التصوف في القرن الخامس اتجاهًا إصلاحيا واضحًا، على أساس من إرجاعه إلى حظيرة الكتاب والسنة، ويعتبر القشيري والهروي من أبرز صوفية هذا القرن الذين نَحَوْا بالتصوف هذا المنحى السنّي، وسينهج نهجهما في الإصلاح الإمام أبو حامد الغزالي في النصف الثاني من هذا القرن، ويُكتب بذلك الانتصار للتصوف السنّي، فينتشر على نطاق واسع جدا في العالم الإسلامي، وتستقر دعائمه زمنًا طويلا في المجتمعات الإسلامية))[٨٢].

كما ظهرت في القرن الخامس اتجاهات تجديدية في دراسة التصوف ونشره بين الناس، وهو الاتجاه العلمي الذي يجمع فيه المتصوف بين معارف الوحي وحقائق الدين. فأقبل التلاميذ والمريدون يتأدبون ويتعلمون علوم التفسير والحديث والكلام.

وممن تزعم هذا الاتجاه في بداية القرن عبد الرحمن السلمي، المتوفى سنة (٤١٢هـ)، الذي اعتمد على التأليف والتصنيف، واتخذ من الأحاديث والتفسير ميدانًا لبيان دعوته، ومن الرواية سلكت به طريق التصوف فجعلها تفسيرًا على لسان أهل الحقائق، حتى اشتهر أبو عبد الرحمن بأنه ((الموفّق في جمع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف، وصاحب التصانيف المشهورة في علوم القوم))[٨٣].

وهذا الاتجاه العلمي للتصوف جعل المتصوفة يُقبلون على العلوم الدينية التي أصبحت من أهم العلوم نجاحًا في القرن الخامس الهجري، وهم بذلك واكبوا الحركات العلمية التي ضمّت أعظم القوى الدينية في ذلك الوقت، وأخذت من خراسان أكبر مركز تجمّع للتصوف في العالم الإسلامي.

ومن المميزات التي تميز بها التصوف في هذه الفترة ظهور اتجاه (فرسنة الشعر الصوفي) أي: خصائص ومصطلحات الشعر الفارسي نفذت إلى الشعر الصوفي الإسلامي، فبدأنا نسمع عن الإشارات والرموز والكنايات والاستعارات، فالله عندهم هو ((الحبيب والمعشوق والمحبوب، والوجد الحاصل من التفكير فيه هو الخمر والخمار، والظاهر والباطن منه عبارة عن (طلعته المنيرة) أو (طرته السوداء القائمة)، وما إلى ذلك من التعبيرات الرمزية الكثيرة))[٨٤].

كما أننا نلحظ في نفس الفترة بروز اتجاه جديد يتمثل في زيادة انتشار الخانقاهات والاستقرار فيها على يد مشايخ الطرق، حيث عمّت أنحاء الدولة الإسلامية، وقد وضعوا نظامًا معيّنا في الحياة، فكان يقوم بإدارة كل واحدة منها شيخ من شيوخ الصوفية المعروفين. ونجد على رأس هؤلاء أبا سعيد بن أبي الخير، الذي يعتبر أول من شرع نظام الحياة في الخانقاهات، وأدار عددًا منها،

واعتلى المنبر في نيسابور، وعقد المجالس، وتصدى لعلماء الظاهر وأئمة المذاهب وجادلهم وحاورهم، مما عرّض حياته للخطر في بعض الأحيان(٨٥). وظل أبو سعيد يعمل قرابة نصف قرن على نشر تعاليمه الصوفية في خراسان متنقلا بين حواضرها، فتجمّع حوله المريدون من كل مكان، ونال حظوة كبيرة عند العامة والخاصة(٨٦).

وفي القرن الخامس أصبح إقليم خوارزم في آسيا الوسطى مقرا للصوفية، وتطور علم التصوف، وانتشرت الطرق الصوفية، وكان لكل منها أولياؤها ومؤسسوها الذين تسمى الطريقة باسمهم، ومن هذه الطرق نذكر مثلا " الطريقة الكبروية " التي أسسها الشيخ نجم الدين الكبري (ت٦١٨هـ)، وكان إماما زاهدا صوفيا، له عدة رسائل في التصوف، وصار شيخ خوارزم، وملجأ للغرباء ن عظيم الجاه فلا يخاف في الله لومة لائم، وكثر أتباعه، وانتشر مريدوه، وانتفع به خلائق في سلوك الطريق إلى الله تعالى (٨٧).

٥ ـ أثر الغزو المغولي على الحياة الثقافية في آسيا الوسطى (الدولة الخوارزمية أنموذجا) :

كانت ببلاد الشرق في آسيا الوسطى إمبراطورية خوارزم العظيمة، التي حاربت جميع الملوك، ودمّرت دولا عديدة، ففسحت المجال بذلك واسعا أمام المغول. وكانت الدولة الخوارزمية في أول أمرها تحمي الخلافة العباسية من الشرق والشمال الشرقي، بقوة جيوشها وكثرة أموالها.. لكن سلطانها علاء الدين محمد خوارزمشاه طمع في الاستيلاء على بغداد، وعزم على ذلك، حتى فاجأه المغول فهزموه، ومات في إحدى الجزر. ولما جاء ابنه جلال الدين، بدأ –بمجرد أن عاد المغول إلى بلدهم، لأنه لم يكن في نيتهم مواصلة التقدم– بتجميع فلول الجيش، لا ليستعد لمواجهة التتار، بل ليسيطر على فارس والعراق، فيخربهما ويدمرهما. ولم يتعلم شيئا من تجربة أبيه.. فكانت نهايته ونهاية دولته على يد المغول أنفسهم الذين عاودوا الهجوم على الشرق.

وقد تأثر إقليم خوارزم بالغزو المغولي تأثرا سياسيا واقتصاديا وعلميا

وفكريا،أماعن الأثر السياسي : فقد زالت الدولة الخوارزمية، وانتقل الحكم في خوارزم من الدولة الخوارزمية الإسلامية إلى الدولة المغولية، أما عن الأثر الإقتصادي : فقد تم تخريب الإقليم كله، مما كان له الأثر السلبي بعد الغزو مباشرة، إلا أن النشاط الاقتصادي عاد ونشط عما كان عليه من قبل بعد فترة وجيزة..

أما الأثر العلمي والفكري : فقد كان إقليم خوارزم وعاصمته الجرجانية (كركانج) مركزا لرجال الدين والعلماء والأباء والشعراء وغيرهم من رجال العلم، وبغزو المغول لهذا الإقليم تم تخريب معاهد العلم ومراكز التعليم، وقتل العلماء والشيوخ، وهجر بعض العلماء والفقهاء البلاد، مما كان له الأثر السيء في الحياة الثقافية في إقليم خوارزم.

تذكر المصادر أنه عندما اكتسح المغول إقليم خوارزم، فتحوا السد في نهر جيحون فغرق الإقليم، وأمر جنكيزخان بهدم ما لم يصبه التخريب، فتهدمت الأبنية، وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين [٨٨]، فتهدمت المدن العلمية وتهدمت الدكاكين التي كانت معظمها أماكن للعلم وملتقى العلماء [٨٩].

كما خربوا القصور التي كانت أحد أهم الأماكن العلمية في العصر الخوارزمي، هذه القصور التي شهدت من حاملي مشاعل العلم والأدب خلال العصرين السلجوقي والخوارزمي (البيروني،ت ٤٤٠هـ)، و(الزمخشري، ت ٥٣٨هـ) و(رشيد الدين الوطواط، ت ٥٧٣هـ) و(فخر الدين الرازي، ت ٦٠٦هـ)، و(المطرزي، ت٦١٠هـ)، وغيرهم من العلماء الأجلاء..ولم يبق من هذه القصور سوى القصر العتيق المعروف باسم " كوشك أخجك"، كما خربوا المساجد وحرقوا المصاحف، وفعلوا ما لم يسمع به في تاريخ الإسلام ولا بعده.

كما قاموا بتدمير آلاف المجلدات من الكتب النفيسة وحرقوا المكتبات ودمروا المدارس، ومعاهد العلم كافة، فلم يبق هناك كتاب يهتدى به، وكانت مكتبة خوارزم من المكتبات الكبيرة المشهورة في بلاد فارس، فهدمها المغول، وأتلفوا ما كان فيها من الذخائر العلمية [٩٠].

أما حوانيت الوراقين فقد أصابها ما أصاب غيرها من معاهد العلم، حيث أثر

الغزو المغولي على حوانيت الوراقين، كما أثّر على صناعة الورق ونتاجهم.

وبذلك دمرت معاهد ومراكز العلم في إقليم خوارزم، ممــاأدى إلــى انــدثار النفوذ الحضاري الإسلامي بإقليم خوارزم وما وراء النهر وآسيا الوسطى (٩١).

ومن الأكيد أن هذا الغزو أثّر تأثيرا بالغا في الإنتاج العلمي والإتجاه الثقافي للإقليم وقد تمثل ذلك فيما يلي :

ــ تراجع حركة التأليف، والترجمة، بقتل العلماء وهجــرة بعــضهم إلــى الــبلاد المجاورة

ــ ركود الحياة العلمية في الإقليم، وتأخر التطور العلمي، وانحصار العمل القــافي في مجالات محدودة كفروع الفقه المذهبي فقط.

ــ انتشار فكر التصوف البدعي، الذي سببته الهزائم المتلاحقة على الإقليم مماجعل الناس تنعزل عن الحياة، وتركن إلى الحياة الروحية بطريقة سلبية.

ــ هجرة العلماء من إقليم خوارزم أدت إلى انتشار لغتهم الفارسية خارج بلادهــم، وحرمت بلادهم من نتاجهم العلمي والأدبي.ومثال ذلك : ما فعله الشيخ الــصوفي نجم الدين الرازي (ت٦٤٥هــ) الذي رحل بعد الغزو المغولي إلى بلاد الــروم، وهناك ألف كتابه المعروف باسم " مرصاد العباد من المبتدإ إلى المعــاد " وهــو كتاب باللغة الفارسية (٩٢).

ــ بعد اختلاط المغول بالمسلمين في الشرق أدى ذلك إلى خلق جيــل جديــد مــن العرب والمغول، تجددت به الحياة العقلية، فطهرت طائفة مــن العلمــاء الــذين يختلفون في تفكيرهم عن تلك الطائفة التي عرفها العالم الإســلامي قبــل تلــك الغزوات، وقد نتج عن هذا تغيير في الحياة الثقافية الإسلامية بوجه عام، وخاصة بعد أن طبع المغول المسلمون هذه البلاد بطابعهم الخاص وثقافتهم الخاصــة،التي حملوها معهم من موطنهم الأصلي والتي اقتبسوها عن الصينيين بعــد غــزوهم بلادهم.فنرى على سبيل المثال أن الغزو المغولي قد أضعف المكانة الأدبية التي امتازت بها بلاد ما وراء النهر، فبعد أن كان الأهالي في نيسابور ومرو يتنافسون

في ميادين الأدب ويتبارون في الشعر والنحو والطب، نرى أن الغزو المغولي قد وضع حدا للحياة العقلية في هذه البلاد بوجه خاص وفي آسيا الوسطى بوجه عام.

وإلى الآن لم تستعد بخارى وسمرقند ما كان لهما من آثار ثقافية قبل الغزوالمغولي، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المغول قتلوا أهل البلاد الأصليين الذين كانوا نواة الحضارة الإسلامية ثم تركوا البلاد في يد الأتراك الذين لا يعرفون طعما للحضارة، كذلك نرى أن اللغة العربية قد فقدت مكانتها التي تمتعت بها قبل الغزو المغولي في ميادين الثقافة العلمية والأدبية وخاصة بعد سقوط بغداد [٩٣].

ـ بعد أن استقر المغول في البلاد الإسلامية ذهلوا أمام حضارة الإسلام وشدتهم حياة الاستقرار والأمان خاصة أن ديانتهم (الشامانية)[٩٤] كانت ديانة بدائية وثنية لا تقوم على نهج أخلاقي، فانتصر عليهم الإسلام ـ بالرغم من هزيمتهم المسلمين عسكريا ـ بأتباعه وعلمائه وفقهائه ممن يملكون الحجة والإقناع، فتحولوا إلى الإسلام راغبين ومتفاعلين مع حضارته، وساعدهم على ذلك إختلاطهم بالفرس والترك المسلمين والتزوج منهم، مع استخدامهم الموظفين المسلمين في الوزارات والدواوين، وحلت اللغة التركية محل المغولية في مغول القفجاق[٩٥] وآسيا الوسطى، وأصبحت اللغة الرسمية للبلاد [٩٦].

وبرز الكثير من العلماء والأدباء بفضل تشجيع المغول لهم، ومن ذلك ما حبوا به أسرة الجويني وما أسبغوه على أفرادها من عطف، وكان لهذه الأسرة قصب السبق في نشر العلوم والمعارف،إذ برز منهم كثيرون أهمهم علاء الدين عطا ملك الجويني مؤلف كتاب "جهان كشاي " وهو في ثلاث مجلدات بحث فيها تاريخ المغول منذ نشأتهم حتى سنة ٦٥٥هـ، اي إلى عهد مانجوخان، ومنهم ايضا: رشيد الدين فضل الله الهمذاني الذي ألّف كتاب " جامع التواريخ " [٩٧].

كما انتشر التصوف بين المغول في أنحاء كثيرة من آسيا الوسطى، وتنافست الطرق الصوفية المختلفة في أداء مهامها بكل قوة وإخلاص وكثرة الزوايا والخوانق، وعمرت بالفقهاء والصالحين مما ساعد على إسلام الكثير من خانات المغول على يد هؤلاء الأولياء والصوفيين، فحسن إسلامهم، وأحاطوا أنفسهم بقارئي القرآن في بلاطهم، وأغدقوا على الصوفية العطايا والهبات دون حساب.

ولم ينته هذا الأمر عند هذا الحد، وإنما ساهم سلاطين المغول المسلمين في نشر الإسلام في البلاد المختلفة التي لا تزال على الوثنية كما فعل السلطان طوما شيرين في آسيا الوسطى (٧٢٦هـ ـ ٧٣٤هـ)، ويعتبر هذا الخان هو المؤسس الحقيقي لدولة المغول الإسلامية في آسيا الوسطى، وقد وصفه العمري :" بأنه كان حسن الإسلام، عادل السيرة، طاهر الذيل، مؤثرا للخير محبا لأهله " [٩٨].

ـ رغم أن المغول في بداية عهدهم لم يكونوا يفهمون كنه الفنون وجمال العمائر فعمدوا إلى تخريبها،والقضاء على أوابدها، ولكن ما أن استقروا في البلاد الإسلامية حتى أدركوا جماليات العمارة الإسلامية، وسحر الفن الإسلامي، فجمعوا إليه ما حملوه معهم من جماليات الفن الصيني.فأولوا الفنون والآداب عنايتهم ورعايتهم. وقد ظهر أثر ذلك واضحا جليا بعد أن استقروا في البلاد الإسلامية، وأسسوا تلك الأسرة التي عرفت باسم إيلخانات المغول في فارس، التي طُبع أفرادها بالطابع الإسلامي، وكان أفراد هذه الأسرة يرتبطون في الوقت نفسه بإخوانهم المغول في شرق آسيا برابطة الدم، وأدى ذلك إلى سهولة تبادل الثقافات بين شرق آسيا وغربها، كما ساعد على ظهور الطابع الصيني واضحا في الفنون الإسلامية [٩٩].

وقد شهدت البلاد التي استولى عليها المغول بعد القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي استقرارا سياسيا لم يكن يوجد من قبل، ولاشك أن ملوك المغول لم يُعنوا بالآداب المحلية، ولم يبالوا بالعلوم الدينية قبل اعتناقهم الإسلام، ولكنهم اجتهدوا لإنهاض حياة المدن، وترقية الصناعة والتجارة، مراعين في ذلك منافعهم الخاصة، وقاموا بحماية العلوم ذات الخطورة العملية الخاصة كالطب والرياضة والهيئة [١٠٠].

وبعد الهجمة المغولية على بلاد العالم الإسلامي بدءا من بلاد آسيا الوسطى أصيبت الأمة بفتور عام الذي كان بدوره وراء كل تخلّف معنوي وماديّ بعد ذلك، ويصيب هذا الفتور كل أمة بعد أن تفقد أهم عنصر من عناصر حيويتها..وهو العزّة.

الهوامش :

(١) حسن أحمد محمود. **الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى.** القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٨م، ص ١٢٥.

(٢) الطبري. **تاريخ الأمم والملوك.** ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١م، ج٤/ص٣٧.

(٣) انظر: البلاذري. **فتوح البلدان.** تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، عمر أنيس الطباع ، بيروت : دار النشر للجامعيين ١٩٥٧م ، ص٤١٨.

(٤) انظر: الطبري. **تاريخ.** ج٤/ص٢٣٠.

(٥) النرشخي. تاريخ بخارى. تعريب: عبد المجيد بدوي، وتصر الله مبشر الطرازي، ط٣، القاهرة: دار المعارف، (د.ت). ص٩٥.

(٦) البلاذري. **فتوح البلدان.** ص٤١٨ ــ ٤٢٠، قدامة. **الخراج.** ص٤١٢.

(٧) قدامة بن جعفر البغدادي. **الخراج وصناعة الكتابة.** تحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد: دار الرشيد، ١٩٨١م ، ص٤١٣.

(٨) محمد جمال الدين سرور. **تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق.** القاهرة: ١٩٦٥م، ص٨١.

(٩) صبري سليم. الأتراك الخوارزميون في الشرق الأدنى الإسلامي ٦٨-٦٤٤هـ. القاهرة: ٢٠٠٠م، ص٢١.

(١٠) ابن خلدون. **المقدمة.** بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٢م. ص٥٥٩.

A.S.Tritton. **Materials On Muslim Education In The Middle Ages**. Luzac. LTD, London, 1954.

(١١) ابن خلكان. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.** تحقيق: إحسان عباس، (د.ط)، بيروت:دار صادر. ج٢/ص٦٤٩.

(١٢) انظر: **البداية والنهاية.** ج١١/ص١٤٩، شمس الدين الذهبي. **كتاب تذكرة الحفاظ.** بيروت: دار الكتب العلمية. (د.ت). ج٢/ص٧٢٠، تاج الدين السبكي. **طبقات الشافعية الكبرى.** ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م. ج٢/ص٨٤، اليافعي. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،** ط٢، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٩٣م. ج٢/ص٢٦٤، الذهبي. **العبرفي خبر من غبر.** تحقيق أبو هاجر، السعيد بن بسيوني زغلول، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م. ج٢/ص١٤٩، ابن العماد الحنبلي. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب.** بيروت: دار الآفاق الجديدة، (د.ت).

ج٢/ص٢٦٢، الذهبي. **سير أعلام النبلاء**. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ج٩/ص٢٣٥.

(١٣) ابن العماد. **شذرات الذهب**. ج٣/ص٢٦٢.

(١٤) السبكي. **طبقات الشافعية**. ج٦/ص٩٦.

(١٥) ابن كثير. **البداية والنهاية**. بيروت: مكتبة المعارف، (د.ت).ج١٢/ص٢١٦.

(١٦) عبد الواحد ذنون طه. **الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق**. ط١ ، بيروت : دار المدار الإسلامي ٢٠٠٥م ، ص٩٩-١٠٠.

(١٧) ابن الأبار. **التكملة لكتاب الصلة**. نشر فرانسيسكو كوديرا ، مدريد ، ١٨٨٦م ، ص٧١٣ رقم (٢٠٠٨) ، المقري (أحمد بن محمد). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تحقيق :إحسان عباس ، بيروت :دار صادر ، ١٩٦٨م ،ج٣/ص١٣٨.

(١٨) المقري. **نفح الطيب**. ج٣/ص٦٢-٦٤.

(١٩) ابن الجوزي. **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**. مج ١/٨ـ ٢ص٧٤٨-٧٤٩، المقري. **نفح الطيب**. ج٣/ص٩٩-١١١. عبد الواحد ذنون طه. **الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق**. مرجع سابق ، **ص ١٠٢-١٠٤.**

(٢٠) عبد الواحد ذنون طه. **الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق**. مرجع سابق ،ص١٠٥-١٠٦.

(٢١) ابن الفرضي (عبد الله بن محمد). **تاريخ علماء الأندلس**. القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م ،ج٢/.ص٨٩، ابن الأبار. **التكملة**. ج٢/ص٣٧٢-٣٧٣، المقري. **نفح الطيب**. ج٢/ص١٤٣-١٥٢.

(٢٢) عبد الواحد ذنون طه. **الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق**. مرجع سابق، ص١١٠.

(٢٣) البيهقي. **الأربعون الصغرى**. الدوحة: دار إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٣م. ص١٩٥. محمد قمبر. **دراسات تراثية في التربية الإسلامية**. ط١، الدوحة: دار الثقافة، ١٩٩٢م. ج٣/ص٧٧.

(٢٤) قدامة بن جعفر. **الخراج وصنعة الكتابة**. ص٤٠٨.

(٢٥) النرشخي. **تاريخ بخارى**. ص٧٨.

(٢٦) برهان الإسلام الزرنوجي. **تعليم المتعلم طريق التعلم**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦م. ص١٠٨، إحسان ذنون. **التاريخ الحضاري لمدينة بخارى**

منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٧م، (رسالة ماجستير). ص٣٢٧.

(٢٧) ابن حزم. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**. بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٣م. ج٢/ص٨٠.

(٢٨) انظر: الصيرفيني. **المنتخب من السياق**، ص٦٦، ٧٣، ١٠١، ١١١، ١٦٨.

(٢٩) المقدسي. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. ط٢، ليدن (د، ت) ،١٩٠٩م ، ص٣١٠.

(٣٠) ابن العماد. **شذرات الذهب**. ج٣/ص٣٥٨.

(٣١) الذهبي(شمس الدين) . **تهذيب سير أعلام النبلاء**. هذبه أحمد فايز الحمصي ، ط٢، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٢م ، ج٢/ص٥٦٠.

(٣٢) ابن حوقل. **صورة الأرض**. ص٣٦٦.

(٣٣) تقي الدين الصيرفيني. **المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور**. ضبط نصه، خالد حيدر، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٣م، ص٣٣٦ــ ٣٣٧.

(٣٤) السمعاني. **الأنساب**. ط١، بيروت: دار الجنان، ١٩٨٨م. ج١ / ص١٤٤، ابن العماد. **شذرات الذهب**. ج٢/ص٢٠٩. ابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ج١/ص٢٨.

(٣٥) السمعاني. **الأنساب**. ج١/ص١٥٢.

(٣٦) السبكي.**طبقات الشافعية**. ج٧/ص٢٨٩ وما بعدها.

(٣٧) المقدسي. **أحسن التقاسيم**. ص ٢٣٠.

(٣٨) محمد سعد السيد أحمد عزب.**الحياة الفكرية في إقليم خوارزم في العصرين السلجوقي والخوارزمي**. ط١، القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، ٢٠٠٩م ، ص١٠٦- ١٠٧.

(٣٩) انظر: المقريزي. **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بكتاب الخطط المقريزية)**. القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع (د، ت) ، ج٢/ص٣٦٣، ابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ج٢/ص١٢٩.

(٤٠) انظر: جرجي زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي. بيروت: منشورات مكتبة الحياة، (د، ت). ج٢/ص٢٢٠، أحمد شلبي. تاريخ التربية الإسلامية. مرجع سابق. ص١١٦، محمود قمبر. دراسات تراثية في التربية الإسلامية. مرجع سابق. ص١٧، أحمد أمين. ضحى الإسلام. ط١٠، بيروت: دار الكتاب العربي، (د.ت).

مرجع سابق. ج٢/٤٩.

(٤١) هو أبو علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي، ولد براذكان بليدة صغيرة بطوس سنة

(٤٠٨هـ)، اشتغل بالحديث والفقه، ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان معتمد مدينة بلخ، ثم وزر للسلطان ألب أرسلان السلجوقي، ثم لولده ملكشاه، وأخذ في بناء المساجد والرباطات، والمدارس المعروفة بالنظاميات. عمّر دور الكتب، وابتاع الكتب بأوفر الأثمان، وأدرّ الجرايات على الخزّان، فكانت سوق العلم في أيّامه قائمة، قتل على يد الحشاشين الباطنية قرب نهر نهاوند سنة (٤٨٠هـ). انظر: ابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ج٢/ص١٢٨، السبكي. **طبقات الشافعية**. ج٣/ص٣.

(٤٢) انظر: السبكي. **طبقات الشافعية**. ج٣/ص٣.

(٤٣) ناجي معروف. **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**. بغداد: مطبعة الإرشاد. ١٩٧٣م. ص٤.

(٤٤) المقدسي. **أحسن التقاسيم**. ص٢٤١، ٣٦٣، ٣٩٠، ٣٩١.

(٤٥) المصدر نفسه. ص٣١٠.

(٤٦) السبكي. **طبقات الشافعية**. ج٧/ص٢٩٦-٢٩٧.

(٤٧) محمد سعد السيد أحمد عزب.**الحياة الفكرية في إقليم خوارزم في العضرين السلجوقي والخوارزمي**. مرجع سابق ، **ص ١١٢.**

(٤٨) المرجع نفسه. ص١١٣.

(٤٩) محمد أبو زهرة. **ابن تيمية. حياته وعصره ــ أراؤه وفقهه**. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩١م. ص١٣٢.

(٥٠) السيوطي. **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م. ج١/ص٥١.

(٥١) انظر: ربحي عليان. **المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية**، مرجع سابق. ص١٣٨.

(٥٢) ابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ج٢/ص١٥٨، حيدر علي. **الدويلات الإسلامية في المشرق**، مرجع سابق. ص٢٠٦.

(٥٣) محمد سعد السيد أحمد عزب.**الحياة الفكرية في إقليم خراسان في العصر السلجوقي**. ط١ ، القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، ٢٠٠٩م ، ص٢٢٥-٢٢٦.

(٥٤) محمد سعد السيد أحمد عزب.**الحياة الفكرية في إقليم خوارزم في العصرين السلجوقي والخوارزمي**. مرجع سابق، ص١١٥.

(٥٥) إدريس نغش الجابري. **الحضارة الإسلامية والتكامل في بنية التفكير العلمي**. مجلة حراء. ع ٣١ ، السنة السابعة (يوليو ــ أغسطس) ٢٠١٢ م.

(٥٦) بارتولد. **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**. ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة : ١٩٩٦م، ص ١٠٨.

(٥٧) أنظر : يحيى بن حمزة الوزنة. **مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر**. ط١، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ،٢٠٠٧م ،ص٢٠٠ــ ٢٠٤.

(٥٨) الذهبي. **سير أعلام النبلاء**. ج١٠/ص١٥٩.

(٥٩) حاجي. **كشف الظنون**. مج١/ص١١٩، البغدادي. **هدية العارفين**. مج٦/ص١٧، ابن قطلوبغا. **تاج التراجم**. ص٢٨٢، كحالة. **معجم المؤلفين**. ج٣/ص٧٧٨.

(٦٠) ياقوت. **معجم الأدباء**. ج١ / ص٣٥٤.

(٦١) أبو حيان التوحيدي. **الإمتاع والمؤانسة**. صحّحه وضبط غريبه، أحمد أمين، وأحمد الزين. بيروت: دار مكتبة الحياة. (د.ت). ج١/ص٢١٢.

(٦٢) أحمد أمين. **ظهر الإسلام**، مرجع سابق. ج١/ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧.

(٦٣) ابن النديم. **الفهرست**. ص١٧٠.

(٦٤) ياقوت. **معجم الأدباء**. ج١/ص٣٨١. عن تخريج الحديث: انظر: السلسلة الضعيفة للألباني، ج١/ص٥٨.

(٦٥) الذهبي. **سير أعلام النبلاء**. ج١٥/ص٢٥٥، الداودي. **طبقات المفسرين**. ج١/ص٢٣٠، أحمد أمين. **ظهر الإسلام**، مرجع سابق. ج١/ص٢٦٧.

(٦٦) المدرس. **مشايخ بلخ**... مرجع سابق. ج١/ص١٢٦. لاشك أن من يقوم بهذا العمل هم العوام المتعصبّة؛ لأن زيادة هذه الشهادة لا يُعاقَب صاحبها بالقتل، وهذا ليس من الإسلام في شيء.

(٦٧) آدم ميتز. **الحضارة الإسلامية**. مرجع سابق. ج١/ص٣٨١، العمادي. **خراسان**... مرجع سابق. ص٣٠٥.

(٦٨) محمد عمارة. المرجع السابق. ص١٦٨.

(٦٩) ماتريد: نسبة إلى محلة بسمرقند.

(٧٠) انظر: محمد العابد الجابري. **تكوين العقل العربي**. ط٢، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥م. ص٢٤١.

(٧١) **المقدمة**. ص٤٤٨.

(72) Nouri. M. M. **The Scholars Of Nishapur**. Vols. 2. P. P 631 - 636 .

(٧٣) مفيد محمد نوري. أعلام الصوفية في خراسان في القرنين الثاني والثالث الهجري. مجلة

آداب الرافدين (كلية الآداب). جامعة الموصل، العدد الثاني، تشرين الثاني ١٩٧١م، ص١٩٥ ــ ١٩٨.

(٧٤) علي سامي النشار. **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق. ص٥٤٩.

(٧٥) كامل الشيبي. **الصلة**... مرجع سابق. ص٣٢٧.

(٧٦) أبو الوفا التفتازاني. **مدخل إلى التصوف الإسلامي**، مرجع سابق. ص٩٠ ــ ٩١، عبد الباري محمد الطاهر. **خراسان وما وراء النهر**... مرجع سابق. ص٣٠٣ ــ ٣٠٥، سليمان سليم علم الدين. **التصوف الإسلامي. تاريخ ــ عقائد ــ طرق ــ أعلام**. ط١، بيروت: دار نوفل، ١٩٩٩م. ص٢٨٧ ــ ٣٠٩.

(٧٧) أبو العلا عفيفي. **التصوف ــ الثورة الروحية في الإسلام**. مصر: ١٩٦٣م، ص٦، ٩١، ٢٧١.

(٧٨) عبد الحليم محمود. **المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي**. القاهرة: دار النصر للطباعة. (د.ت). ص٢٢٧.

(٧٩) انظر: مادة (التصوف) في **دائرة المعارف الإسلامية**. يصدرها بالعربية: أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، بيروت: دار المعرفة،(د.ت).

(٨٠) أبو الوفا التفتازاني. **مدخل إلى التصوف الإسلامي**. مرجع سابق. ص١٧.

(٨١) الصيرفيني. **المنتخب من السياق**. ص٣٠٩.

(٨٢) أبو الوفا التفتازاني. **مدخل إلى التصوف الإسلامي**. مرجع سابق. ص١٤٥.

(٨٣) الصيرفيني. **المنتخب من السياق**. ص١٨.

(٨٤) انظر: إدوارد براون. **تاريخ الأدب في إيران**. ج٢/ص٣٣٤.

(٨٥) إسعاد قنديل. **كشف المحجوب للهجويري**. ص٣٧.

(٨٦) المصدر نفسه. ابن المنور. **أسرار التوحيد**. ص٩٥ ــ ٢٨٢، نقلاً عن. جهاد عبد الله. **الحركة الفكرية**... مرجع سابق. ص٢٩٤.

(٨٧) محمد سعد السيد أحمد عزب.**الحياة الفكرية في إقليم خوارزم في العصرين السلجوقي والخوارزمي**. مرجع سابق، ص١٤٩.

(٨٨) ياقوت. معجم البلدان.ج٣/ص٢٥٣.

(٨٩) محمد سعد السيد أحمد عزب.**الحياة الفكرية في إقليم خوارزم في العصرين السلجوقي والخوارزمي**. مرجع سابق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٩٠) أبو الفداء. **المختصر في أخبار البشر**.القاهرة : مكتبة المتنبي، (د، ت) ، ج٣/ص١٢٧-

١٢٨، ابن الوردي (زين الدين عمر بن مظفر). **تاريخ ابن الوردي**. المعروف بتتمة المختصر في تاريخ البشر ، ط١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦م ، ج٢/ص١٣٨، يحيى وهيب الجبوري. الكتاب في الحضارة الإسلامية. ط١، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٨م ،ص ٣٠٨ ، محمد سعد السيد أحمد عزب.**الحياة الفكرية في إقليم خوارزم** ...مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(٩١) محمد سعد السيد أحمد عزب.**الحياة الفكرية في إقليم خوارزم** ...مرجع سابق، ص٢٣٠.

(٩٢) رضا زاده شفق. **تاريخ الأدب الفارسي**. نقله من الفارسية إلى العربية محمد موسى هنداوي ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٤٧م ، ص٢١٥.

(٩٣) حافظ أحمد حمدي. **الدولة الخوارزمية والمغول**. القاهرة : دار الفكر العربي ، (د،ت) ، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٩٤) الشامانية : هو دين بدائي من أديان شمالي آسيا يتميز بالاعتقاد بوجوب عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف ، وإن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث.

(٩٥) القفجاق : أو القبجاق هم فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض نهر إرتش ، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر أتل (الفلجا) في ججنوب روسيا الحالية ، فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق.أنظر :القلقشندي. **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**. القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٥م ، ج ٤ /ص٤٥١، ٤٥٦..

(٩٦) عفاف صبرة ، نجوى كيرة. **تاريخ الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي دراسة سياسية حضارية**. ط١ ، القاهرة : مكتبة زهراء الشرق ، ٢٠٠٩م ، ص ٢٧٢ــ ٢٧٥.

(٩٧) حافظ أحمد حمدي. **الدولة الخوارزمية والمغول**.مرجع سابق ،ص ٣١١.

(٩٨) العمري. **التعريف بفن المصطلح الشريف**. القاهرة : ١٩١٠، ص١٦٥، نقلا عن: عفاف صبرة ، نجوى كيرة. **تاريخ الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي دراسة سياسية حضارية**. مرجع سابق ، ص ٢٧٧.

(٩٩) المرجع نفسه. ص٣١٢.

(١٠٠) قز بارتولد. **تاريخ الحضارة الإسلامية**. ترجمة :حمزة طاهر ، ط٥ ، القاهرة : دار المعارف ، (د، ت) ، ص١٢٨.

معركة شالون عام ٤٥١م
بداية النهاية لإمبراطورية الهون

د. وفاء مختار غزالى على
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الإنسانية- جامعة الأزهر (القاهرة)

تاريخ الهون قبل معركة شالون Chalons :-

معركة شالون هى إحدى أكثر المعارك المشهورة والمهمة فى تاريخ أوربا فى فترة العصور الوسطى والتى كانت بين الهون والأمم الخاضعة لهم ضد الرومان وحلفاءهم والتى نتيجتها أثرت على مستقبل الغرب الأوربى وغيرت من مجرى أحداثه، ولقد عُرفت أيضاً باسم معركة الشعوب وذلك لاشتراك معظم شعوب الغرب فيها واشتباكهم فى طرفين متصارعين فى معركة حاشدة كانت كارثة للبشرية، ففى هذه المعركة كانت كل الشعوب من نهر الفولجا Volga إلى المحيط الأطلسى إما متحالفة مع الهون أو ضدهم [١].

فى البداية لابد من التعرف قليلاً على الهون وتاريخهم قبل معركة شالون، لم يعرف المؤرخون القدامى شيئاً عن نشأة الهون أكثر من أنهم من الشعوب المغولية الأسيوية البدوية الرُحّل التى تتميز بالقوة والبطش والتى جاءت من البلاد الغير معروفة خلف بحر قزوين والتى استقرت فى الإقليم الواقع شرق نهرالدانوب وهى أراضى كان يجهلها أولئك المؤرخون الذين اعتادوا على إطلاق لفظ السكيثيين Scythian على أى شعب يعيش خلف نهر الدانوب [٢].

وبحلول القرن الخامس الميلادى بدأ المؤرخون يفرقون بين الهون وغيرهم من الشعوب الشمالية التى عاشت فى تلك البقعة، وذلك لأن الخطر الحقيقى على الإمبراطورية خلال النصف الأول من هذا القرن جاء من الهون، فقد ذكروا أن موطنهم الأصلى كان منطقة المستنقعات الضحلة التى تقع على الجانب الشمالى لسور الصين العظيم التى كانت جافة وقاحلة، وأنهم فى الفترة السابقة من تاريخهم مثلوا رعباً وتهديداً كبيراً للإمبراطورية الصينية[٣].

كانت بداية ظهور الهون فى اوربا فى حوالى عام ٣٧٥م فى السهول الواقعة شمال البحر الأسود وتقدموا بشكل تدريجى تجاه الغرب الأوربى مدمرين أمامهم كل منطقة مروا بها واستعبدوا جميع القبائل التى قاومت تقدمهم، فاشتبكوا مع الشعوب الأسيوية التى تقطن تلك المنطقة ومنها قبائل الألان Alani التى تقيم على نهر الرون Rhone والتى بعد صراع طويل معهم خضعت معظمها لهم وهربت بعضها حيث شاركت العديد من القبائل الجرمانية الأخرى فى اجتياح بلاد الغال [٤].

كانت السمة الواضحة لاجتياح الهون لأوربا هى القسوة والعنف واخضاع القبائل لسطوتهم واستعبادها والاستعانة بها فى إخضاع غيرها من القبائل، فقد استعان الهون بقبائل الألان فى إخضاع القبائل الأخرى مثل القوط الشرقيين وغيرها من القبائل الأخرى التى تسكن على طول نهر الراين، حتى تضاعفت أعدادهم باستعباد القبائل المهزومة وإجبارها على الانضمام تحت رايتهم فى عمليات السلب والنهب التى يقومون بها، واستمر الهون مقيمين على شواطىء البحر الاسود حتى عام ٤٢٥م عندما اجتاحوا إقليم الدانوب الأدنى وتقدموا إلى تراقيا Thrace وأخذوا يهددون الولايات الرومانية الواقعة فى هذا الإقليم [٥].

بالغ المؤرخون المعاصرون فى وصف الهون بالبشاعة والقبح والوحشية فقد ذكر المؤرخ الرومانى أميانوس مارسيليوس Ammianus Marcellinus الذى عاش فى نهاية القرن الرابع الميلادى، ودَوَّن تاريخ الامبراطورية الرومانية[٦]. أن

مظهرهم بغيضا اذ به عاهات وراثية نتجت عن أثار الكى بالحديد الساخن، تلك العادة التى يمارسها الهون لأطفالهم عند الولادة، فينمو الأطفال وبهم أثار تجاعيد عميقة وندبات متصلبة فيكبرون دون أن تنبت لهم لحية أو يكون لهم جمال طبيعى ويؤكد المؤرخ أميانوس للقارىء أنه على الرغم من بشاعة منظر هؤلاء الذين يملكون أطرافا قوية مكتنزة ورقبة غليظة ووجها قبيحا يحاكى الحيوانات ذات الساقين أنهم من البشر، وهم غادرون ومتقلبون مثل الوحوش جاهلون عن التمييز بين الصواب والخطأ، لا يبدون احتراما لأى دين أو معتقد، جشعون فى جمع الذهب والاستيلاء عليه من القبائل المحيطة وكانوا يحبون الخيول ويبقون على ظهورها ليلا ونهارا يأكلون ويشربون وينامون حتى الحلم، كما يناقشون أمورهم عليها (٧) .

كما يقول عنهم المؤرخ جوردان Jordanes القوطى " انهم من ذرية الساحرات والأرواح النجسة وأنهم من الأقزام الأشرار ضعاف النفوس والمجرّدين من الإنسانية ولا توجد بينهم لغة مشتركة بل أصوات شبيهة بأصوات البشر وأن مظهرهم مخيف مما يجعل الشعوب تهرب أمامهم مذعورة ولونهم داكن يبعث على الخوف، و أن الواحد منهم عبارة عن كتلة مكتنزة من اللحم لا شكل لها وليس لها رأس وبدلاً من العينين يوجد لهم ثقبان صغيران، وهم قصيروا القامة، حركتهم الجسمانية سريعة، لهم رشاقة الفرسان وقدرة على التحمل، ماهرون فى استعمال القوس والسهم ولهم رقاب قوية منتصبة بخيلاء وبالرغم من أنهم من البشر إلا أنهم وحوش فى قسوتهم(٨) ".

أظهر الهون تفوقا حربياً واضحاً فبرعوا فى الحروب على ظهور الخيل، فهم فرسان مهرة ورماة للسهام والقوس متميزون، فاستخدموا السيف والرمح وكانوا معتادون على خفة الحركة وتميزوا على أعدائهم بسرعة خيولهم، واعتادوا على المواقف المفاجئة وكانوا يقسمون أنفسهم إلى جماعات متناثرة ويهجمون فجأة على أعدائهم دفعة واحدة هنا وهناك دون تنظيم، محدثين مذبحة مروعة ويطلقون صيحات عالية عند اقتراب العدو ثم يلقون عليه وابلاً من السهام وينقضون عليه

بسرعة خارقة مما يؤدى الى ذعر الأمم وهروبها أمامهم فكانوا أشـد المحـاربين جميعاً إثارة للرعب، وبعد هزيمة عدوهم يتجمعون وينتشرون على السهول الأقرب هنا وهناك متجنبين المكان المغلق حتى لا يتم حصارهم [٩]، كل تلك السمات التـى تميز بها الهون جعلت المؤرخ المعاصر امينوس يذكر أنهم كانوا السبب الرئيـسى لكل الكوارث والدمار الذى ألم بالامبراطورية الرومانية [١٠].

لم يكن الرومان فقط من أرعبهم تقدم الهون لكن حتى المحاربين الشجعان من الجرمان والشماليين وذلك لكثرة أعدائهم وشراستهم وشكلهم القبيح وسـرعتهم الخارقة، فكانت الشعوب تفسح لهم الطريق دون حرب بعد أن شاع خبـرهم ومـا فعلوه من كوارث حتى سقطت أمامهم مدينة بعد الأخرى وخضعت لهم قبيلة بعـد قبيلة وساد الذعر والرعب أنحاء أوربا[١١].

انقسم الهون إلى عدد من القبائل العديدة المتميزة والتى حكمت فى البدايـة من قبل الأمراء المنفصلين الذين كونوا ما هو أشبه بالاتحاد السياسى، ومنذ بدايـة القرن الخامس الميلادى ظهرت مملكة الهون شيئاً فشيئاً من بين الممالك المـستقلة التى تخضع لحاكم واحد والتى تحتل منطقة بانونيا ومقاطعات أخرى جنوب نهـر الدانوب والتى استطاعت أن تمزق الجيـوش الرومانيـة التـى حاولـت مقاومـة تقدمها[١٢].

العلاقات السياسية بين الهون والرومان قبيل معركة شالون : -

إذا حاولنا القاء نظرة على الوضع فى الامبراطوريـة الرومانيـة بـشقيها الشرقى والغربى خلال الفترة موضوع البحث، نلاحظ ان الإمبراطورية الرومانية التى كانت قد بلغت أوج عظمتها فى القرنيين الأول والثانى الميلاديين، قـد بـدأت مرحلة جديدة من الاضمحلال سياسياً واقتصادياً، ودخلت فى سلسلة من الأزمـات والمشاكل الداخلية والخارجية، جعلتها عاجزة عن التصدى للقبائل البربريـة التـى استطاعت التوغل والانتشار على طول حدودها بعد أن حفزتهم السياسة التى اتبعتها الامبراطورية معهم والتى تقوم على تجنيدهم فى الجيش الرومانى، وبـذلك صـار

الطريق ممهداً أمام تلك الجماعات البربرية النازحة للحصول على الكثير من الغنائم والأسلاب الرومانية خاصة بعد أن خلت بعض مناطق الحدود من الحاميات الرومانية، لحاجة الإمبراطورية لتلك القوات فى التصدى للأعداء فى جبهات أخرى أو مواجهة الحروب الأهلية والمشاكل الداخلية، وخلاصة القول أنه منذ خوالى منتصف القرن الرابع الميلادى، انتشرت القبائل الجرمانية بمحاذاة الحدود الرومانية الشمالية من مصب نهر الراين غرباً حتى أقصى شرقى البحر الأسود، واتخذت سياسة عدائية تجاه الإمبراطورية تمثلت فى الاغارات المستمرة على أراضيها واقتطاع بعض أجزائها مستغلة ضعف الأباطرة الرومان فى الدفاع عن ممتلكاتهم لفرض شروطها . فكان الوضع فى الامبراطورية يدعو للأسى بعد أن تولى أمورها الأباطرة الضعفاء الذين تركوا السلطة الحقيقية فى يد القواد الذين كان لهم أطماع شخصية وتنافسوا مع بعضهم البعض على حساب المصالح الإمبراطورية، ففى الجانب الشرقى كان الامبراطور ثيودسيوس الثانى(٤٠٨-٤٥٠) الذى كان يدعى بالخطاط لهوايته للفنون الجميلة ولم يكن رجل دولة ولا مدركاً للمصالح العليا للامبراطورية ولم يكن الوضع أحسن حالاً فى الجانب الغربى، فكان يتولى الحكم الإمبراطور فالينتنيان الثالث Valentinian III (٤٢٥-٤٥٥م)، ذلك الشاب الضعيف الذى ترك الأمور كلها فى يد أمه بلاسيديا التى كانت وصية عليه، كل ذلك جعل الامبراطورية عاجزة عن حماية حدودها عندما اقتحمتها القبائل الجرمانية، ونتيجة لذلك وجدت ثغرات فى حدود الامبراطورية استطاع الهون وغيرهم من القبائل البربرية النفاذ منها إلى داخل أراضيها[١٣].

انتهج حاكم أو ملك الهون سياسة عامة فى التعامل مع الرومان حافظ عليها من جاء بعده من الملوك وقامت على التعامل مع الامبراطورية الرومانية على أنها إمبراطوريتان منفصلتان، إمبراطورية شرقية وأخرى غربية وتبدو الحكمة فى هذه السياسة فقد حدت من وطأة الرومان على الهون بعد أن نجحت فى منعهما من التعاون سوياً ضدهم، كما أنها مكنت الهون من فرض شروطهم وحقوقهم المكتسبة التى وافق الرومان على منحها لهم على هذا الجزء أو ذاك بسهولة أكثر كلما

سنجت لهم الفرصة وبالرغم من أن الهون هاجموا شطرى الامبراطورية، الشرقى والغربى بدرجة سواء وأرغموهما على دفع إتاوة ضخمة من الذهب سنوياً تجنباً لمهاجمة أراضيهما إلا أنهم حافظوا على علاقة الصداقة مع الشطر الغربى وأمدوه بالفرسان الهون الذين حاربوا مع الجيش الإمبراطوري ضد أعدائهم وكانوا عوناً لهم فى الحفاظ على كيان الإمبراطورية [١٤]. واختلف الأمر مع الشطر الشرقى من الامبراطورية، فلقد زادت حدة العداء بين الطرفين لتكرر الهجوم الشديد على حدود الامبراطورية الشرقية من جانب الهون جراء تأخر الإمبراطورية الشرقية فى دفع الإتاوة السنوية، لذلك لم يقتصر الأمر على رفض الهون تقديم المساعدة للإمبراطورية الشرقية بل حرم ذلك على الهون ومن يفعله يتعرض للعقاب من ملك الهون ووصل الأمر الى المطالبة باستعادة اللاجئين منهم الذين لجأوا إلى الرومان وتهديد الإمبراطور الشرقى بمهاجمة القسطنطنية إن لم يتم الاستجابة لشروطه بدفع الإتاوة السنوية وإعادة اللاجئين والتنازل السهل من الأباطرة الرومان والخضوع لابتزاز الهون شجع لديهم النهم لإثراء أنفسهم على حساب ثروات الإمبراطورية للعيش فى حياة تمتاز بالرفاهية[١٥] .

تَزّعم الهون فى هذة الفترة موضوع البحث الملك أتيلا الذى ذاع صيته وانتشرت أخباره حتى خافته أمم الأرض، وقد اتخذ من هنغاريا عاصمة له وكان مركز قيادته مدينة Buda التى تقع فى مكان ما بين نهر الدانوب وأنهار ثيس Theiss (فى المجر حالياً) واستطاع من هذا الموقع تهديد الممالك الأخرى وأصبح الهون على عهده يمثلون إرهاباً للعالم بعد أن اجتاحوا الشرق والغرب وأنزلوا الخراب والدمار بالإمبراطورية الرومانية وهددوا بإسقاطها إبان فترة تدهورها [١٦] .

إن أتيلا الذى حكم امبراطورية الهون الضخمة هو ابن مونديك Mundiuck شقيق روجيلا Rugila أو Roua ملك الهون السابق وقد تولى أتيلا الحكم بالاشتراك مع أخيه بليدا Bleda لمدة زادت عن عقد من الزمان (٤٣٣ – ٤٤٥ م) حتى تمكن من التخلص من أخيه والانفراد بحكم الهون[١٧] .

لم يستمد أتيلا شهرته من بنى جنسه لكن من كتابات أعدائـــه البيــزنطيين، والقوط مما يثبت بالدليل أن أتيلا كان محارباً جريئاً تمتع بالــدهاء وعمــل علـــى احتلال كل أنحاء أوربا معتمداً على القوة العسكرية للهون فى توسيع إمبراطوريته بالإضافة إلى ولاء وتبعية الشعوب الخاضعة له التى انساقت معه لإرهاب أعدائـــه مما جعله ينجح فى أن يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف وأن يكفل لنفسه احترام شعوبها وقادتها وانقيادهم له (١٨) .

يذكر جوردان عن أتيلا أنه رجل ولد ليهز أركان الأمم، وأنـــه ســوط الله الذى سلط على كل البلاد، فاستطاع أن يرعب الجنس البشرى جميعا نتيجة لكثـــرة عدد جيشه الذى بلغ حوالى نصف مليون مقاتل أو ما يزيد، وللإشـــاعات المثيـــرة للذعر التى انتشرت عنه و أنه كان متكبراً فى مشيته يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال وفخوراً بنفسه ويتجلى ذلك فى حركة جسمه، وفى الحقيقـــة كـــان مولعـــاً بالحرب وله قدرة على كبح جماح نفسه أثناء العمل و كان يقبل النصيحة ورحيمـــاً بالمتوسلين اليه، لين الجانب مع الذين يطلبون حمايته وكان قصير القامة، عريض المنكبين، كبير الرأس، صغير العينين وكانت لحيته خفيفـــة لونهـــا يقتـــرب مـــن الرمادى، أفطس الأنف، ويميل لون بشرته إلى اللون الـــداكن الـــذى يـــدل علـــى أصله(١٩).

كما أورد المؤرخ برسكوس الذى أرسل فى سفارة من القـــسطنطنية إلـــى بلاط أتيلا عام ٤٤٨ م وقابل أتيلا، وصفا لا يختلف عن الوصف السابق وذكر أن أتيلا كان رجلاً مغامراً محباً للحرب وله قدرة كبيرة على الـــسيطرة علـــى شـــعبه وعلى كثير من الأمم الاخرى وأنه يستطيع الحفاظ على عزلته عن الاخـــرين ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه إلا أفراد أسرته وأكثر المستشارين تقرباً منه وأنه كـــان يراعى ويحترم المراسيم الملكية وكان معتدلاً فى تناول الطعام ويتميز عن غيـــره فيأكل ويشرب فى أوانى خشبية بخلاف طبقة الهون الأرستقراطية وكـــان ملبـــسه بسيطا للغاية لكنه كان يهتم بنظافته ولم يكن هناك سيفاً بجانبـــه ولا يوجـــد إبـــزيم كالذى يستعمل فى أحذية باقى البرابرة ولم يكن لفرسه لجام كما كان يفعل الهـــون

الاخرون وكان مثلهم يتزين بالذهب والجواهر وغير ذلك من الأشياء الثمينة وكان وقوراً هادئاً لا تتغير تعبيرات وجهه أثناء الاحتفالات الهزلية (٢٠).

تركزت سياسة أتيلا على إحكام سيطرته على رعاياه فى الداخل وتوسيع حدوده فى الخارج فأخضع القبائل السكيثيّة حول نهر الدانوب مثل الجيبداى Gepids والقوط الشرقيين Ostrogoths وقبائل الروجيان Rugians والهيرول Heruli والسكريان Scirians والتركيلنجى Turciling والسويفى Sueves تلك القبائل التى تقطن السهول الواقعة حول نهر الدانوب والتى اعترفت بسيادة الهون ، ووصل نفوذ الهون إلى القبائل جنوب روسيا والنمسا وشمال البحر الأسود بالإضافة إلى القبائل السلافية العديدة التى استقرت شرق نهر الفستولا Vistula وامتدت انتصاراتهم واتسعت رقعتهم حتى كونوا إمبراطورية لم يكن أتيلا نفسه يعرف حدودها امتدت من نهر الفولجا Volga إلى نهر الدانوب (٢١).

ارتبط أتيلا ملك الهون بعلاقات مختلفة مع الشعوب الجرمانية الخاضعة له تبعاً لقوتها واخلاصها له، فبينما نراه يقيم علاقة أساسها الاحترام المتبادل مع أرداريك Ardaric ملك الجيبداى ويقربه منه ويصفه بالمخلص وكذلك الأمير إديكون Edecon أمير قبائل السكريان والذى كان من بين المستشارين المؤتمنين له بالإضافة إلى الأمير فالامير Walamir ملك القوط الشرقيين الذى تمتع باحسانه وهكذا احتفظت الشعوب الجرمانية القوية بحكمها الذاتى فى أغلب الأحيان لكنها التزمت بالخدمة العسكرية فى جيش ملك الهون، واختلفت تلك العلاقة مع الأجناس الأخرى الضعيفة الخاضعة له مثل القبائل السلافية Slaves والتى فقدت استقلالها وأُرغمت على إمداد الهون بمنتجات مزارعها وماشيتها، وبالرغم من ذلك الاختلاف فقد نظر أتيلا إلى كل الشعوب الخاضعة له على أنهم عبيداً له وأكد حقه الكامل فى التحكم فى حياتهم وممتلكاتهم وقد قوبلت كل المحاولات التى بذلت للتخلص من هذة التبعية بالوحشية والبطش وكان تسليم الهاربين من سيادته شرطاً مهماً لعب دوراً فى مفاوضاته مع أعدائه (٢٢) .

استمر أتيلا على سياسة أسلافه فيما يتعلق بعلاقته مع الإمبراطورية الرومانية إذ تعامل مع كل شق من شقيها كدولة منفصلة وبذلك نجح فى تشتيت جهودهما ضده واستطاع أن يفرض على كل منهما تقديم التنازلات والحصول على الذهب كإتاوة سنوية منهما عمل على مضاعفتها باستمرار وطاردهما بالسفارات المستمرة من أجل تلبية شروطه (٢٣). وحصل على الذهب بصفة رسمية بعد أن منحة الرومان لقب قائد الجيش الرومانى " migister militum " لإخفاء عار دفع الإتاوة له، ذلك المنصب الذى تنازل أتيلا لقبوله، والذى كان سلاحا فعالاً استغله أتيلا احسن استغلال فى تعامله مع الإمبراطورية وذلك لحاجتها الدائمة لإمدادها بالقوات المساعدة من الهون للمحافظة على بقائها، لكن هذا التحالف كان غالى الثمن فقد أجبر الرومان على ترك بانونيا للهون بالإضافة إلى انتهاك الهون باستمرار لشروطه وقيامهم بالاغارة على حدود الإمبراطورية بشقيها، لأن هدف أتيلا لم يكن هو إسقاط الإمبراطورية ولكن المحافظة عليها فى حالة ضعف وإعياء ليسهل عليه ابتزازها (٢٤).

فى نهاية عام ٤٤٠م قام أتيلا بعدة محاولات متكررة لإزعاج حدود الإمبراطورية الغربية وتهديدها تحت ذريعة أن الهاربين من سيادته وجدوا مأوى لهم هناك، كما حدثت المشكلة الخطيرة لروما مع أتيلا فى عام ٤٤١ م عندما قام الهون بذبح مجموعة من التجار الرومان الذين ذهبوا إلى نهر الدانوب للتجارة، وعندما اعترض الرومان على ذلك ألقى أتيلا مسئولية ما حدث على كاهل الرومان لأنهم تراخوا فى دفع الإتاوة السنوية واستمروا فى إيواء الهاربين من الهون وحمايتهم كما أن الرومان قاموا بنهب المقابر الملكية التابعة للهون، وذلك الإتهام الأخير استغله الهون فى الإستيلاء على مدينة مارجوس Margus التى تقع فى إقليم إلليريا Illyricum على نهر الدانوب فى مواجهة كونستانتا Constantia بدون حرب بعد ان اتفقوا سراً مع أسقف المدينة المتهم بتلك الجريمة على تسليمهم المدينة مقابل عدم التعرض له (٢٥)، كما هاجموا الأقاليم الرومانية الشرقية فى إقليم تراقيا Thrace وإلليريا واستولوا على مدن نهر الدانوب الحصينة ففى عام ٤٤٣ م

استولى الهون على مدينة راتياريا Ratiaria ودمروها وكذلك سنجدونوم Singidunum (وهى بلجراد حالياً) التى تقع فى مؤزيا العليا Moesia كذلك مدن نياسوس Naissus وسارديكا Sardica التى تقع فى الليريا أيضاً ثم توّجوا انتصاراتهم هذه بالاتجاه صوب القسطنطنية والاستيلاء على مدن البلقان ومنها فيلبولوس Philippolus بعد أن ألحقوا بالجيش الإمبراطورى هزيمة ساحقة جعلت القسطنطنية تطلب استئناف المفاوضات مع الهون (٢٦).

تم استئناف المفاوضات بين الهون والإمبراطورية الشرقية وتم تعديل المعاهدة بين الطرفين بعد أن نجح الهون فى فرض شروطهم فرفعوا الإتاوة السنوية التى يجب أن تدفعها الإمبراطورية إلى ثلاثة أضعاف من سبعمائة رطل من الذهب إلى الفين ومائة رطل كما طالبت المعاهدة بضرورة إعادة الهاربين إلى أراضى الهون وألزم الرومان بدفع الفدية عن رعاياهم الهاربين إلى أراضى الهون من ثمانية صوليد Solidi إلى اثنى عشر عن الواحد منهم بالإضافة إلى دفع ستة ألاف جنيهاً من الذهب ضماناً لتنفيذ بنود الإتفاقية (٢٧).

بالرغم مما تحمله هذه المعاهدة من مهانة وإذلال للإمبراطورية الرومانية ثمناً للسلام مع الهون إلا أنه قد تم انتهاكها بعد حوالى أربع سنوات عندما أرسل أتيلا رجاله لنهب الأقاليم الرومانية عبر نهر الدانوب لاستنزاف موارد الإمبراطورية وإضعاف معنوياتها بالاستيلاء على أراضيها من جهة والرضوخ لابتزازه المستمر من جهة أخرى ونتج عن ذلك الاستيلاء على سبعين مدينة وقلعة رومانية وعدلت المعاهدة مرة أخرى فى عام ٤٤٨ م بشروط أقسى مما سبق، فبالإضافة إلى شروط المعاهدة السابقة اضطرت الإمبراطورية إلى الجلاء عن شريط من الأراضى الرومانية طوله مسيرة خمسة أيام ويمتد على طول الضفة اليمنى لنهر الدانوب من مدينة سنجيدونوم الى نوفاى Novae (٢٨). وبعد جلاء الرومان عن تلك المنطقة أصبحت مهجورة وتمكن الهون من شن غاراتهم المدّمرة عبر هذة الأراضى على أقاليم تراقيا واليبريا دون مقاومة، وفقد الرومان بفقد هذة المنطقة مصدراً هامًا لتجنيد القوات المساعدة من بين الشعوب التى تعيش فى

الشمال [٢٩]. وهكذا استمرت العلاقات العدائية بين الهون والرومان على عهد أتيلا وذلك بسبب الشروط المخزية للرومان التى اشتملت عليها المعاهـدات مـن جهـة وتهديد الهون لأراضيهم من جهة أخرى لذلك عملت القسطنطينية علـى تـدبير مؤامرة للقضاء على أتيلا باغتياله بيد بعض رجاله الـذين خـدعوا القسطنطينية باظهار قبولهم الرشوة فى مقابل قتل سيدهم ثم أخبروه تفاصـيل المـؤامرة عقـب عودتهم إليه مباشرة فى عام ٤٤٨ م [٣٠].

أسباب معركة شالون :-

كانت العلاقات بين الجانبين الهونى والرومانى تحمل فى طياتها نذير شؤم للعالم كله بعد أن تفاقمت حدة الخلاف بينهما، مما كـان كفـيلاً بانـدلاع الحـرب وحدوث معركة شالون، وقد اختلف المؤرخون فى الأسباب المباشرة التى أدت الى حدوث هذة المعركة وإن كانت فى الحقيقة لا تحتاج لسبب وذلك لأن الدارس لتاريخ الهون يدرك أن حروبهم كانت ليست إلا بدافع السلب والنهب لإشباع رغبتهم فـى الحصول على الغنائم,وإرهاب الأمم، لكن ما الذى حدد هذا التاريخ بعينه لانـدلاع معركة شالون ؟

هناك عدة أسباب مباشرة أوردها المؤرخون أدت إلى ذلك منها : -

رفض الامبراطور الشرقى دفع الإتاوة السنوية للهون، ففى ٢٨ يوليو عام ٤٥٠ م توفى الإمبراطور الشرقى ثيودسيوس الثانى الضعيف الذى رضخ لابتزاز الهون وتولى خلفاً له مارقيان Marcian (٤٥٠ - ٤٥٧ م) عضو مجلس الشيوخ الذى ولد فى تراقيا وكان ماهراً فى فنون الحرب ومناسباً للمنصب الذى اعتلاه، فعمل على إعادة الإمبراطورية لمجدها القديم وتعهد لمجلس الشيوخ الذى اختاره بالعمل على إنهاء دفع الإتاوة السنوية التى تدفع لأتيلا [٣١]، وبناءاً على ذلك أرسل سفيره أبولوينوس Apollonius إلى بلاط أتيلا برسالة توضح أن الامبراطور يكره دفع الإتاوة السنوية للهون اذا طلبت بوقاحة وتحت ضغط تهديد أمن الامبراطورية وهو ما يعتبر إهانة للكرامة الرومانية لكنه فى نفس الوقت

مستعد لدفعها بالأسلوب اللائق والتسامح من قبيل الصداقة لحلفائه الهون، عندما علم أتيلا بطبيعة الرسالة التى يحملها السفير، رفض مقابلته، لكنه طلب الهدايا التى اعتادت تلك السفارات على حملها له، لكن شجاعة السفير جعلته يرفض تسليم الهدايا ما لم يقابل أتيلا فلقد أبدى وعيا بكرامة الرومان واحتقر الهون، ولم يجرؤ أتيلا على معاقبة السفير أو الحصول على الهدايا منه عنوة وذلك احتراماً للأعراف الدبلوماسية وحتى لا يفقد هيبته أمام الملوك، لكنه هدد بمعاقبة مارقيان والرومان جميعاً و أرسل إلى بلاط القسطنطينية ورافنا مهددا اياهما بالحرب وتدمير أراضيهما اذا لم تنفذ الالتزامات الإمبراطورية المتفق عليها سابقاً. وظل الجميع ينتظر بعين الترقب والخوف ما سيسفر عنه قراره [٣٢].

وهناك من المؤرخين من يربط أسباب معركة شالون بقصة الأميرة هونوريا Honoria شقيقة الامبراطور الغربى فالينتنيان الثالث والتى أرسلت سراً الخصى هيكنثوس Hyacinthus إلى أتيلا تطلب منه مساعدتها ضد أخيها الذى حبسها و أراد أن يزوجها رغماً عنها و أرسلت له خاتمها وعرضت عليه الزواج منها، فاستغل أتيلا هذا الأمر وطلب من الإمبراطور يد الأميرة ونصف الإمبراطورية نصيبها فى الميراث، ذلك الأمر الذى رفضه الإمبراطور بشدة وأمر بقطع رقبة السفير هيكنثوس وأوشك أن يفعل ذلك مع أخته لولا توسلات أمه وأكتفى بأن زوجها من أحد أتباعه ليمحو عار ما فعلته، ومن المخزى أن تقدم الأميرة رغباتها على الصالح العام للإمبراطورية رغم تمسكها المزعوم بشرف العزة الملكية [٣٣]، وعلى الرغم من أن هذه الحادثة تمت فى عام ٤٣٥ م أى قبل أكثرمن خمسة عشرة سنة من معركة شالون إلا أن أتيلا احتفظ بخاتم هونوريا وفى عام ٤٥٠ م أرسل رسالة إلى فالينتنيان الثالث وادعى أن كل من هونوريا وأملاكها التى هى نصف الإمبراطورية ملكاً له وطلب إطلاق سراح الأميرة وإرسالها له على الفور، فرد الإمبراطور عليه أن هونوريا متزوجة الأن ولا يمكن أن تصبح زوجة لأتيلا لأن الرومان لا يعترفون بتعدد الأزواج كما أن اخته ليس لها أى حق فى ميراث ا لإمبراطورية والتى لا يمكن أن تحكمها امرأة، فغضب أتيلا وهدد بشن

الحرب على الإمبراطورية . ويبدو من هذة القصة أنها ذرائع واهية تذرع بها أتيلا ليشعل نيران الحرب على الإمبراطورية الرومانية [٣٤].

ويذكر المؤرخ جوردان سبباً أخر لمعركة شالون هو أنه لما علم جزريك Gaisric ملك الوندال أن أتيلا يفكر فى تدمير العالم تقرب اليه بالهدايا وحرضه على شن الحرب ضد القوط الغربيين وذلك لأن القوط كانوا يهددون مملكته، بالإضافة إلى أنه كان يخشى من انتقام ثيودريك Theoderic ملكهم جراء ما لحق بابنته من أذى على يد زوجها هامريك Humeric بن جوزريك الذى كان قاسياً معها، وبمجرد الشك فى أنها حاولت دس السم له قام بجدع أنفها وقطع أذنيها ثم أعادها إلى أبيها فى بلاد الغال بعد أن حرمها من جمالها الطبيعى، فعملت هى على مطالبة أبيها بالانتقام لها. ويعقب جوردان على ذلك فيقول : " ولذلك بذل أتيلا جهوداً لإشعال نيران الحرب بتحريض من جوزريك الذى قدم إليه الأموال " [٣٥]. وبذلك انفتح باب جديد أمام أتيلا بالتحالف مع الوندال والذى من خلاله يتمكن من إشباع رغبته فى غزو الإمبراطورية الرومانية من ناحية الشمال والجنوب لذلك قام بالتخطيط لهذا الهجوم والاتفاق مع ملك الوندال على أن يقوم بالهجوم على إيطاليا من مقاطعة أفريقية التى يحتلها الوندال فى الوقت الذى ينحدر فيه أتيلا ويقوم بالانقضاض على أغنى الأقاليم الرومانية من روما إلى الغال وذلك بمساعدة حلفاءه الفرنجة الذين سوف يفتحون له ممرات نهر الراين ويعينوه على عبوره [٣٦].

وكان الفرنجة فى ذلك الوقت يعانون من الصراع الداخلى نتيجة لوفاة ملكهم والتنافس بين ابنى الملك المتوفى على العرش وانقسم الفرنجة إلى فريقين، الأول اعترف بالولاء للإبن الأكبر، والأخر اعترف بالولاء للإبن الأصغر وبينما لجأ الأول إلى أتيلا وطلب مساعدته فى الاستيلاء على العرش بعد أن أعلن ولائه له والتحالف معه، فقد لجأ الإبن الثانى إلى روما وطلب مساعدة الرومان وتحالف معهم ضد أخيه وأتباعه، وهنا وعد أتيلا حليفه الفرنجى بقيادة جيشه والسير إلى الغال لمعاقبة أخيه وأتباعه من الفرنجة [٣٧].

ومهما يكن من أمر فربما كانت كل تلك الأسباب مجتمعة هى التى تحجج بها أتيلا – وإن كانت واهية –، ليمارس إرهابه على العالم لاغتصاب ثرواته بعد أن أيقن بأنه سيكون سيداً على العالم بعد حصوله على سيف أريز Mars المقدس وهو إله الحرب عند السكيثيين، ويحكى المؤرخ برسيكوس قصة حصوله عليه فيقول : " كان أحد رعاة الأغنام يسير بالقطيع فوجد واحدة تعرج ولم يعرف السبب، فتتبع أثار الدماء التى سالت من الجرح حتى أدرك أن الحيوان داس على سيف يختفى فى الأرض، فأخذه الراعى وأهداه إلى أتيلا الذى فرح به فرحاً شديداً، ومن هذه اللحظة اعتقد أتيلا أنه عُيِّن حاكماً على العالم أجمع وأنه بسيفه هذا سيسود العالم وينتصر فى الحروب التى سيخوضها " [٣٨].

بذلك امتلك أتيلا كل الدوافع المحفزة للهجوم على الإمبراطورية الرومانية لكنه اختار الشق الغربى منها بدلاً من الشرقى وربما يرجع ذلك إلى أن الهدف من حرب كلاهما واحد وهو السلب والنهب للحصول على الغنائم وترويع الأمنين والتخريب والتدمير لأراضى الإمبراطورية، فاختار الهدف الذى اعتقد أنه الأسهل بالنسبة له فبالإضافة إلى قوة وتحصين القسطنطينية وتولى زمام أمورها إمبراطوراً جديداً عُرف عنه الشجاعة والإقدام فإن الخوف من فشل المحاولة يعرض إمبراطورية الهون للخطر الشديد وذلك لأنه إذا ما لاحت بادرة ضعف فسيرتد الملوك الجرمان عن ولائهم لسلطة أتيلا ويفقد سيطرته على الشعوب البعيدة الموالية له , بالإضافة إلى عدم جدوى مهاجمة أقاليم البلقان بعد أن تمكن من نهب ثرواتها فى الاغارات السابقة التى شنها على تلك المناطق،على عكس الامبراطورية الغربية التى كانت تحت حكم فالينتنيان الثالث الضعيف والتى كانت أقاليمها غنية بالثروات وأرضها خصبة، مما يغرى بالحصول على غنائم أكثر بكثير عما يمكن الحصول عليه من الهجوم على الشرق الرومانى [٣٩]، كما أن أتيلا اعتقد أنه سيتمكن من إلحاق ضربة قوية بالجيش الإمبراطورى الغربى بعد أن حرمه من القوات المساعدة من الهون الذى اعتمد عليهم الجيش بصفة دائمة وبذا يسهل مهمته، كما أنه سيحاول أن يحول دون انضمام القبائل الجرمانية الأخرى وتحالفهم مع الرومان فى الحرب

ضده مما يسهل مهمته فى الانتصار على الرومان (٤٠)، وبذلك سوف يستطيع الاستيلاء على هونوريا وميراثها (٤١).

كان أتيلا بالإضافة إلى شراسته الشديدة رجلاً خارق الذكاء يحارب مستخدماً سلاح المكر والخداع قبل أن يخوض المعركة (٤٢)، ولذلك عمل على منع التحالف بين الرومان والقوط الغربيين ليتفادى حشد قواتهما ضده ويتمكن من إعداد العدة لهجومه المرتقب عليهما، فعمل على إقناع كل طرف منهما أنه ينوى مهاجمة الطرف الأخر، فأرسل السفراء إلى إيطاليا لمقابلة الإمبراطور فالينتنيان الثالث لبذر بذور الشقاق بين الرومان والقوط الغربيين وأعلن سفرائه أن ملكهم يرتبط بعلاقات ود وصداقة مع الإمبراطورية وأنه لا ينوى حربها لاستحالة خرق هذه الروابط وحاولوا كسب ثقة الإمبراطور بعبارات الإطراء التى يكسوها زيف المشاعر، وفى نفس الوقت أرسل رسالة إلى ثيودريك ملك القوط الغربيين يحرضه على نقض التحالف مع الرومان ويذكره بالمعارك التى شنها الرومان ضده من قبل (٤٣).

أيقن الرومان والقوط أن أتيلا يريد الانفراد بحرب كل منهما على حده بعد أن كشفوا خداعه بتبادل السفارات والرسائل بينهما وتمخض عنه الاتفاق على التحالف معاً فى مواجهة الملك الذى يريد استعباد العالم تحت سيطرته ويحتقر قوانين العدالة والحرب وحث كل منهما الأخر على دعم هذا التحالف وامعان التفكير فى خطط العدو المزهو بانتصاراته لإحباطها، وبذلك فشل أتيلا فى إحداث تباعد بين الرومان والقوط الغربيين (٤٤).

هجوم أتيلا على بلاد الغال :-

فى ربيع عام ٤٥١ م تحرك أتيلا بجيشه الضخم الذى كان يتراوح ما بين خمسمائة ألف إلى سبعمائة ألف مقاتل من بانونيا فى إتجاه نهر الراين لعبوره إلى بلاد الغال فى هجوم استهدف الأقاليم التابعة للإمبراطورية الغربية، وتكون هذا الجيش من مجموعة من القبائل الخاضعة للهون، منها الهيرول Heruli من البحر الأسود والسكريان Scirian من جلاكيا Galicia والروجيان Rugian من إقليم

ثيس الأعلى Theiss والثورنجيين سكان ثورنجيا (اللوريين) Thuringia ومن القوط الشرقيين من حوض نهر الدانوب ومن الجيبداى Gepids من جبال داكيا Dacia ومن البرجنديين Burgundians شرق نهر الراين بالإضافة إلى حلفاءه من قبائل الفرنجة (٤٥). ومن الجدير بالذكر أن هذه الجيوش البربرية الجرارة كانت تحت قيادة ملوكها وزعمائها المحليين إلا أن أتيلا تولى منصب القائد العام والتفت جموع القادة والجند حوله وشرعوا فى تهديد الحضارة الرومانية (٤٦).

كانت خطة أتيلا تهدف إلى الاستيلاء على بلاد الغال فى البداية ثم متابعة انتصاراته إلى إيطاليا، لذلك جمع جيوشه الجرارة على حدود الدانوب وقسمها إلى قسمين، الأول سار إلى نهر الراين عن طريق الضفة اليمنى جنوب نهر الدانوب من خلال الطريق الرومانى العظيم فى تلك المنطقة وعبر هذا القسم كل القلاع والحصون الرومانية على حدود الإمبراطورية دون أن يواجه أى مقاومة مدمراً كل ما مر عليه، والقسم الثانى سار عن طريق الضفة اليسرى شمال نهر الدانوب وكانت الخطة تهدف إلى اجتماع قسمى الجيش بالقرب من مصادر ذلك النهر فى الغابات العظيمة لألمانيا حيث يتم تزويد الجيش بالمؤن الضرورية لنقلهم إلى بلاد الغال ومن خلال الأشجار الكثيفة فى تلك المنطقة يتمكنوا من إقامة الجسور وتوفير الموارد اللازمة لهم (٤٧)، و كان يستحيل على أتيلا العبور إلى بلاد الغال إذا تم مواجهته والتصدى له فى هذه المنطقة لكن الحالة السياسية التى ميزت الغال فى تلك الفترة حالت دون ذلك والتى سنلقى بعض الضوء عليها:

تم احتلال هذه المنطقة من قبل البرابرة الذين استطاعوا اختراق حدود الإمبراطورية الرومانية واقتطاع أجزائها فيما بينهم وظهرت عدة ممالك مستقلة فكان البرجنديون فى ناحية الغرب حول نهر جارا فى شمال الغال فيما نسميه اليوم بيكاردى Picardy وبلجيكا Belgium ولوكسمبورج Luxembourg كما كان يوجد الفرنجة وقد انقسموا إلى عدة أقسام، الفرنجة الساليون Salian الذين استقروا إلى الغرب حول مدن تونجرز Tongres وتورناى Tournay وأراز Arras وكامبرى Cambrai وأمينز Amiens والفرنجة الرايبوريان Ripuarian إلى

الشرق على جانبى نهر الراين حول كولون Colone ومينتز Mentz وكوبلنز Coblenz وتريف Treves وإلى الجنوب من موقع الفرنجة الساليين كانت قبائل السكسون الذين امتلكوا الساحل حتى حدود نهر السين والى الجنوب منهم كانت قبائل أرموريكا Armorica حول نهر اللوار وفى المقاطعات المهجورة إلى الجنوب منهم كان البريتون Bretonss بقدر ما حول البرانس Pyrenees أما القوط الغربيون فكانوا يحتلون إقليم أكواتين Aquitaine فى جنوب غرب الغال فى المنطقة الممتدة من نهر اللوار حتى حدود البرانس،بينما بقى وسط الغال ومدنه وهى ميتز Metz وليون Lyons وفيين Vienne وأريز Aries وتروى Troyes وستراسبورج Strasburg ولاتيتيا Lutetia ونوربون Norbnne ولونجرز Longres وأورليان Orleans كله تحت السلطة الرومانية التى كانت شديدة الضعف وكانت تحت إدارة فاسدة ضعيفة بسبب أن الرومان اعتمدوا فى إدارتها على رجال الدين والأساقفة الذين تركوهم للدفاع عن البلاد وحدهم دون مساعدة من السلطة الرومانية فكانت إدارتهم للبلاد كهنوتية [٤٨].

من الواضح أنه يجب على أتيلا عبور هذه الأقاليم للوصول إلى وسط الغال حيث تقع الأقاليم الرومانية، ومثل هذا الزحف كان يعنى الدمار الكامل لكل مدينة سوف يجتازها خلال عبوره منها، وقد كانت الحدود الطبيعية للغال من ناحية الشرق هى نهر الراين وسلسلة من الجبال وكان تأمينها هو الضمان الوحيد لتأمين الغال ضد زحف أتيلا الذى يحمل معه الدمار الكامل لتلك المنطقة، ولسوء الحظ كان يستحيل إعاقة تقدمه لأن الممر الرئيسى كونفلنيتز Confluentes كان تحت سلطة الفرنجة حلفاؤه والممر الثانوى فى أوغستا Augsta كان تحت سلطة البرجنديين الذين أبدوا استعدادهم للتعاون معه وتلك الممرات هى مداخل وأبواب الغال وقد انفتحت على مصراعيها أمام أتيلا ودخل من خلالها ليدمر بلاد الغال .

يقع ممر كونفلنيتز عند نقطة التقاء نهر الموزيل Moselle مع نهر الراين ومن ذلك المكان على يسار الموزيل طريق رومانى عظيم يجرى ناحية الجنوب الغربى إلى أوغستا تريف Augusta treverum حيث أقيمت سلسلة من الطرق التى

تصل ما بين تريف والغال من كل اتجاه [٤٩]، ويجرى من ممر كونفلنيتز أيضاً طريق يمتد شمالاً على طول الشاطىء الأيسر للراين من بون Bonn إلى كولون والتى يجرى منها أيضاً طريق عظيم غرباً وجنوباً عبر بلجيكا وبيكاردى Picardy ، ويبدوا أن هذا هو الطريق الرئيسى الذى زحف منه أتيلا وتقدم تجاه الغال كما يمكن أن تعبر جيوشه من المدخل الجنوبى ل Augsta وتجتمع وتقطع هذا الطريق وتتصدى لأى هجوم يأتى من ايطاليا لانقاذ أقاليم الغال من السقوط فى يد الهون [٥٠].

بدأ أتيلا التقدم من بانونيا تجاه الغال فى شهر يناير عـام ٤٥١ م ووصـل أمام بوابة الغال فى شهر مارس وتمكن من عبور الراين وانقض على منطقة بلجيكا الغال Belgic Gaul وفى عشية عيد الفصح المبارك فى السادس من أبريل عـام ٤٥١ م سقطت مدينة ميتز Metz أمامه [٥١]، ويذكر المؤرخ جريجورى التورى Gregory of Tours ذلك فيقول : " عبر الهون من بانونيا يحرقون السكان وقتلوا الجميع بوحشية حتى أنهم قتلوا الكهنة أمام مذبح الرب ولم يبق شيء فـى المدينـة سوى مصلى القديس ستيفن "، ويذكر جريجورى التورى أن هذا المصلى أنقذ فقط لأن القديس ستيفن تضرع وطلب مساعدة القديسين بطرس وبولس [٥٢].

تعرضت مدينة ريمز Rhimes لنفس المصير بعد أن سقطت أمام الهـون وهرب السكان للغابات بعد المذابح التى قام بها الهـون الـذين تـابعوا هجـومهم فانقضوا على St. Quentin حتى وصلوا إلى Tongres ودمروا جميع مدن شمال الغال من نهر مارين Marne إلى الراين ولم يواجهوا أى مقاومة تذكر فقد هجـر السكان بلادهم مذعورين أمام تقدم الهون [٥٣]. ونجت مدينة Lutetia (بـاريس) بفضل القديسة جنيفيف St.Genevieve التى شجعت الناس على الصيام والتضرع للرب أن يجنبهم خطر الهون وكان أن استجاب الله لهم وجنب باريس الـسقوط أو حتى الهجوم عليها من قبل الهون، فلقد سئم أتيلا من الدمار الذى خلفه ورائه وحول انتباهه للهجوم على القوط الغربيين فى الجنوب الذين تحالفوا مع الرومـان ضـده [٥٤].

أظهر الفزع الذى أثاره تقدم أتيلا وتهديده للغال، فساد الإدارة الرومانية خلال الخمسين سنة الأخيرة، فمصير هذه المدن والطريقة التى واجهت بها هذا المصير وضحت الضعف العام فى المؤسسات المختلفة للبلاد فلم تكن المواجهات العسكرية هى التى أحبطت خطط أتيلا للمستقبل لكن العناية الالهية هى التى دافعت عن المسيحية ضد الوثنية المتمثلة فى الهون وزعيمهم [٥٥].

كانت خطة أتيلا تهدف بعد ذلك إلى هزيمة القوط الغربيين قبل وصول القوات الرومانية المتحالفة معهم ومن هذا المنطلق انطلق خارجاً من ميتز وتقدم بجيشه الرئيسى وعبر من خلال تول Toul وريمز واجتاز بعض المدن الأخرى التى دمرت بالكامل حتى وصل إلى مدينة أورليان التى أراد الاستيلاء عليها بمساعدة سانجبان Sangiban ملك الألان Alani الذى ذكر المؤرخ جوردان أنه وعد أتيلا بالتعاون معه، فاعتمد أتيلا على المؤامرة السرية التى كانت بينهما وهى تسليم المدينة له والتنصل من الولاء للإمبراطورية الرومانية،لكن هذه المؤامرة تم اكتشافها وأحبطت وقام الرومان بتحصين المدينة ووضع المتاريس الدفاعية حولها قبل وصول الهون، كما تم وضع سانجبان تحت المراقبة الشديدة وبذلك وجد أتيلا نفسه قد أُخذ على حين غرة فأقام معسكره حول أورليان وضرب الحصار عليها [٥٦]

.

تقع مدينة أورليان فى أقصى شمال نهر اللوار ذلك النهر الذى يقسم شرق وغرب بلاد الغال إلى شمال وجنوب وهى مدينة تجارية مهمة لأنها تقع على أعظم أنهار أوروبا الغربية وتتحكم فى ممراته، وتعتبر بوابة حصينة لا يمكن لأحد عبور الغال بدون اجتيازها [٥٧]، و بإقتراب جيوش أتيلا من أورليان عم الذعر كل أنحاء المدينة لكن قام السكان المخلصون داخلها بالدفاع المستميت عنها وتمكن الأسقف أنيانيوس Anianus – الذى يذكر المؤرخ جريجورى التورى بأنه رجل ذو قدسية وحكمة وجدير بالثناء – من الخروج من المدينة لطلب النجدة من القوات الرومانية [٥٨].

كان قائد الجيش الرومانى فى ذلك الوقت أيتيوس Aetius البطل الشجاع ويعترف المؤرخ القوطى جوردان أن أيتيوس هذا ولد لإنقاذ الإمبراطورية الرومانية، وقد كانت أمه إيطالية من طبقة النبلاء وأبوه هو Gaudentius من مقاطعة سكيثيا Scythia الذى كان يشغل رتبة مميزة هناك فقد تدرج حتى وصل إلى منصب قائد سلاح الفرسان، ترقى أيتيوس إلى رتبة النبيل الرومانى وتقلد مناصب عسكرية مهمة حتى أصبح القائد العام للجيش الرومانى صاحب السلطة العسكرية الكاملة للدولة وهو الرجل الأول فى الإمبراطورية ولقب بالدوق أول الجنرال الرومانى وقام بأعمال كثيرة لحفظ الإمبراطورية من السقوط فكان الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يقود الإمبراطورية خلال هذه المرحلة الحرجة من تاريخها بعد أن ارتبط بعلاقات ومعاهدات مع قبائل البرابرة الذين أغاروا على أراضى الإمبراطورية فحارب القوط الغربيين والبرجنديين والوندال وأبرم معهم اتفاقيات حدت من هجماتهم على حدود الإمبراطورية وحمت إيطاليا من نهبهم بعد أن جعلهم محالفين لها وكان يراقب تحركاتهم، كما ارتبط بعلاقات دبلوماسية مع الهون فكان يتبادل معهم السفارات والهدايا وارتبط بصداقة شخصية مع ملك الهون، فكان يتم استقباله فى أرض الهون بترحاب كبير حتى أرسل ابنه كاربيون Carpieon فى عام ٤٢٥ م يربى بينهم كرهينة واستعان بهم فى حروبه المختلفة وتميز أيتيوس بالحكمة والعقل الراجح والاخلاص حتى مع أعدائه حتى كسب حبهم واحترامهم وأطيعت أوامره فى بلادهم وهذه السياسة الحكيمة أطالت مدة السلام التى تمتعت بها الامبراطورية الرومانية الغربية، فقد كان يعتمد عليه فى إدارة شئونها لما كان عليه من الحكمة وحسن الإدارة حتى لقبه المؤرخون بأنه أخر الرومان [٥٩].

استقبل أيتيوس الأسقف أنيانيوس أسقف أورليان والذى جاء لطلب النجدة من الرومان بحفاوة وحثه على ضرورة الصمود حتى وصول الجيش الإمبراطورى لإنقاذ أورليان، فوعد الأسقف بأن ذلك سيكون ممكناً حتى منتصف شهر يونية لعام ٤٥١ م ثم رحل وعانى فى عودته كثيراً لأن الهون كانوا قد بدأوا فى حصار مدينة

أورليان [٦٠].

ولنا أن نتساءل لماذا انتظرت روما كل هذه الفترة قبل التدخل والدفاع عن مقاطعاتها الغربية ضد هذا الهجوم الوحشى العنيف ولماذا لم يخرج أيتيوس على رأس جيشه من إيطاليا قبل شهور من ذلك الغزو ولماذا انتظر حتى تم تخريب شمال الغال بالكامل ؟

من المحتمل أن أيتيوس القائد الرومانى الشجاع بالغ فى تقدير ذكاء خصمه و أخفق فى إدراك بساطة خطته وعجز عن تحديد المنطقة الرومانية التى سيشرع أتيلا فى مهاجمتها، فربما قاد جيشه وانحدر إلى الغال خداعاً وكانت إيطاليا هى هدفه الحقيقى أو لومبارديا هى ساحة المعركة الحقيقية وما يقوى هذا الاعتقاد هو ما ذكره المؤرخ جوردان اذ يقول عن أتيلا : " انه كان ماكراً يهدد فى جانب ويرسل جيشه فى جانب أخر " .

كما كان أيتيوس يخشى من جزريك ملك الوندال حليف أتيلا والذى هدد بمهاجمة الساحل الإيطالى واستمر هذا الارتباك والتشكك فى حقيقة نوايا أتيلا ضد أراضى الإمبراطورية حتى وجد أيتيوس نفسه وجهاً لوجه أمام حقيقة نوايا خصمه [٦١]. كما أن أتيلا أعلن عزمه شن الحرب ضد الإمبراطورية الرومانية بشقيها بالإضافة إلى القوط الغربيين ثم هدأت تلك التهديدات مما جعل الجميع ينظرون دون مبالاة لتهديد عدوهم المشترك [٦٢] .

أدى نجاح الهون فى اجتياح المنطقة وإثارة الفزع والرعب إلى تقاعس القوط الغربيين عن الخروج لمواجهتهم تبعاً لما كان قد تم الاتفاق عليه مع الرومان، وقرروا الاكتفاء بالبقاء للدفاع عن أراضيهم الخاصة كما أن تأخر الجيش الرومانى عن إغاثة الغال كشف عن خيانة القبائل الموجودة فى تلك البقعة التى تحالفت مع العدو بدلاً من التحالف معاً ضد العدو المشترك [٦٣]، لذلك أرسل القائد الرومانى ايتيوس سفيره Avitus إلى القوط الغربيين ليجدد اتفاقه معهم ويحثهم على التعاون معاً ضد العدو المشترك ونجح فى ذلك، كذلك استخدم ايتيوس الدبلوماسية

لكسب سانجبان ملك الألان إلى جانبه بعد أن تظاهر بأن يجهل تحالفه مع العدو حتى يجعله ينضم إلى صفوف جيشه (٦٤)، لذلك بمجرد وصول أيتيوس إلى الغال تغيرت كل الأمور، فقد هرع الناس فى كل مكان لحمل الأسلحة، النبيل والفلاح والطبقة الوسطى وعادت القبائل المتخاذلة لولائها بعد أن رأت خراب المدن الرومانية والمقاطعات التى سمح لهم الرومان باحتلالها والاستقرار فيها فعاد البرجنديون وكذلك الفرنجة لولائهم القديم فضم الجيش الرومانى العديد من الشعوب والقبائل(٦٥). وتكون من الرومان والقوط الغربيين بالإضافة الى القبائل التى استقرت فى منطقة الغال ومنها Sarmatians , Breone , Armoricans , Lasti , Alani , Saxons , Franks , Olibrions , Liticrns , Burgundians , Riparians , بالإضافة الى بعض القبائل الجرمانية الأخرى، وكل تلك الحشود قاتلت تحت راية الجيش الرومانى بقيادة أيتيوس والملك ثيودريك ملك القوط الغربيين الذى اصطحب معه ابنيه ثورسموند Thrismond وثيودريك الأصغر Theodoric وأعلن أنه مستعد أن يفقد حياته ومملكته ثمناً لهزيمة العدو وتأمين بلاد الغال(٦٦).

عانت أورليان من الحصار الدموى على يد الهون وأوشكت على السقوط فى يد أتيلا لولا شجاعة سكانها والأسقف أنيانيوس الذى عمل بعد عودته على استمرار مقاومة المدينة انتظاراً لوصول الجيش الإمبراطورى و أرسل عيونه للمراقبة من خلال المتاريس انتظاراً لوصوله الذى طال حتى دب اليأس فى نفوس السكان الذين أوشكوا على الاستسلام وأرادوا التفاوض مع أتيلا الذى أصر على تسليم المدينة بدون شروط وإلا فسيحل الموت على الجميع(٦٧) .

فى اليوم التالى تمكن الهون من دخول المدينة من خلال هدم أحد الأبواب وقاموا بسلب ونهب المدينة وضواحيها ولمدة اسبوع استمروا فى القيام بأبشع الجرائم الإنسانية من ذبح واغتصاب دون مراعاة لعمر أو جنس، حتى وصلت الأخبار باقتراب الجيش الإمبراطورى تحت قيادة أيتيوس والملك ثيودريك بأعداد هائلة من الجسر الكبير على نهر اللوار، وهنا وجد أتيلا نفسه فى موقف الضعف، لذا قرر الانسحاب والتراجع من أورليان دون الاشتباك مع العدو خوفاً من الهزيمة

فى قلب الغال , لذا بدأ فى تنظيم جيشه باستدعاء قواته التى تفرقت لسلب ونهب المدينة(٦٨) . و كانت شجاعة أتيلا وحنكته السياسية هى التى جعلته يتنبأ بالنتائج القاتلة التى يمكن أن تحدث لجيشه لو تم هزيمته فى قلب الغال لذا بدأ فى التراجع وذلك فى الرابع عشر من شهر يونية عام ٤٥١ م . وبذلك أُنقذت أورليان بفضل التعاون بين الرومان وحلفائهم (٦٩).

احتشدت طلائع قوات الرومان وحلفائهم أثناء تراجع الهون وطاردوا مؤخرتهم، كما قام سكان الغال بالإنقضاض عليهم للإنتقام منهم جراء ما أصابهم من دمار وما حل بهم من كوارث مما أدى إلى هروب الهون من الطرق الجانبية، بعد أن وجدوا صعوبة فى تزويد أنفسهم بالاحتياجات اللازمة لمواصلة رحلتهم , حتى عندما وصلوا إلى مدينة تروى التى تبعد أكثر من مائة ميل عن أورليان كانوا عاجزين عن نهبها لإنهاك قوتهم، تلك المدينة التى كانت ملائمة لينالوا فيها قسطاً من الراحة ويزودوا أنفسهم ودوابهم بالمؤن اللازمة، وذلك دليل قوى على مقدرة الجيش الإمبراطورى الذى جعل أتيلا يعجل بالهروب مما أدى إلى ارتباك فى صفوف جيشه وإنهاك لقواته (٧٠).

أثناء تراجع الهون علم ناسك مسيحى باقترابهم فانتظر أتيلا وعندما وصل قال له : "أنت سوط الله الذى سلطه لتأديب المسيحيين على ما اقترفوه من أثام" وعلى الفور اتخذ أتيلا هذا اللقب الجديد ليثير به الرعب ذلك اللقب الذى أصبح مشهوراً به فى التاريخ (٧١) .

معركة شالون :-

اجتاز أتيلا نهر السين Seine عبر ممر أوب Aube وكانت طلائع الجيش الإمبراطورى قد سبقت الهون وعبرت هذا الممر وتكونت من قبائل الفرنجة الذين وصلوا ليلاً لمطاردة الهون فانقضوا على مؤخرة جيش الهون التى تكونت من قبائل الجيبداى و هى التى كانت أول من عبر هذا الممر وأول من تلقى الضربات القاتلة من الفرنجة واستمر القتال بين الفرنجة والجيبداى طوال الليل مما أدى إلى مقتل

خمسة عشر ألفاً من الطرفين وجرحى يرقدون ملىء الميدان وكل ذلك كان مقدمة لكارثة أعظم [٧٢]، فقد استمر الجيش الإمبراطورى فى ملاحقة جيش الهون فعبر أتيلا إلى شامبنى مقاطعة Champagne والعدو يطارده لكى يحسم المعركة باشتباك حقيقى بين الطرفين فى ساحة القتال وتقدم أتيلا فى اتجاه نهر مارين Marne وعمل على إختيار موقع يكون ملائماً لعمليات الهون الحربية وسلاح الفرسان، فى السهول المستوية الواسعة سهول قطالونيان Catalounian Plains والتى تسمى أيضاً موريِاكوس Mauriacius [٧٣].

حدثت معركة شالون على بعد خمسة أميال من مدينة تروى فى مقاطعة شامبنى الفرنسية تلك البلاد السهلية الواسعة التى تقع بين ممر أوب Aube ونهر مارين Marine وبالتحديد فى منطقة شالون Chalons التى تقع شمال شرق فرنسا فى منطقة السهول التى تمتد حوالى مائة وخمسين ميلاً فى الطول ومائة ميل فى العرض [٧٤].

يُعتبر المؤرخ جوردان هو المصدر الرئيسى لمعركة شالون لذا نرى حتماً علينا الاعتماد عليه، يتعجب جوردان كيف أن الجنس البشرى يقاتل بعضه البعض من أجل عجرفة الحكام ويقوم بالمذابح البشرية ويوقع الهلاك بأشياء تكونت عبر العصور ويضيعها فى لحظة، ففى هذه المعركة دفع زحف أتيلا وجيشه شعوباً كثيرة ومختلفة الى نبذ عداوتهم المتبادلة وحمل السلاح فى صراع كانت نتيجته كارثة مأساوية للبشرية [٧٥].

أقام أتيلا معسكره فى السهول القطالونية وأصبح مستعداً للاشتباك فى هذا المكان ولأنه مؤمن بالخرافات فقد بدأ بعقد مجلس الحرب واستشارة العرّافين وسألهم عن نتيجة المعركة القادمة مع العدو، وبعد أن قام العرّافون بفحص أحشياء الطيور وعروق وعظام بعض الحيوانات الميتة أخبروه بشجاعة بنبؤة هزيمته وأضافوا أن قائد جيوش العدو سوف يقتل فى المعركة، وهنا قبل أتيلا النبؤة وعبر بيأس عن رضاه وقناعته بالهزيمة إذا كان ثمنها هو مقتل خصمه وقرر أن يخوض

المعركة بشجاعة فقد أدرك أنه لن يستطيع الهروب دون الاشتباك فى معركة حاسمة لكنه سعى لتأجيل المواجهة قدر الإمكان وذلك ليحرم العدو من الوقت الذى يمكنه من إحراز نتيجة حاسمة من جهة وحتى يحل الليل الذى يساعده على الهروب حال تحقق النبؤة وقوع الكارثة من جهة أخرى (٧٦).

كان تنظيم الجيش الإمبراطورى يشتمل على الجناح الأيمن تحت قيادة ثيودريك ملك القوط الغربيين والجناح الأيسر تحت قيادة أيتيوس و ثورسموند الإبن الأكبر لثيودريك أما القلب فكان يتكون من قبائل الألان تحت قيادة زعيمهم سانجبان وذلك حتى يسهل مراقبتهم لأنه مشكوك فى ولائهم ولأنهم أضعف أقسام الجيش فربما يندفع الهون بأقصى سرعة لهم للانقضاض على القلب وهم يجهلون قوة الجناحين الذين سينقضان عليهم ويهزموهم (٧٧) .

أما بالنسبة لتظيم جيش الهون فكان أتيلا وأشجع رجاله فى القلب ويحيط به شعبه من الجموع العديدة، والجناح الأيسر كان يتكون من القوط الشرقيين بزعامة ملكهم فلامير بالإضافة إلى قبائل الجيبداى بقيادة ملكهم أردارك Ardaric ، هذان الملكان اللذان يحبهما أتيلا ويستشيرهما ويثق بهما أكثر من كل القادة الأخرين، والجناح الأيمن كان يتكون من القوات الباقية المشتركة من ملوك وزعماء الأجناس المختلفة التى لا تعد ولا تحصى والكل ينتظر إشارة أتيلا الذى كانت له القيادة العليا واعتمدت المعركة عليه وحده(٧٨).

كان ميدان المعركة هو السهول القطالونية وهو عبارة عن سهل يعلوه مرتفع أو تل منحدر يقسم الاستواء العام للسهل إلى قسمين وبدأت المعركة بالصراع من أجل الإستئثار بهذا المرتفع للفوز بهذا الموقع الإستراتيجى المهم الذى يذكر المؤرخ جوردان أن من يملكه سيملك النصر وكان نتيجة الصراع هى فوز أيتيوس وثورسموند بقمة التل بعد أن دفعوا الهون بعنف أمامهم، فاحتل الهون الناحية اليسرى من السهل أما الجيش الإمبراطورى فاحتل الناحية اليمنى منه، وإذا تخيلنا هذا الموقع أدركنا نتيجة المعركة مسبقاً فالأرض المرتفعة أتاحت الفرصة لأيتيوس

وقواته رصد تحركات العدو بسهولة ومهاجمته والانقضاض عليه ودحره [٧٩]

أصاب الهون الارتباك بعدما فقدوا هذا الموقع المتميز فتعرضوا لهجمات العدو مما دفع أتيلا لإلقاء خطاب طويل لجنوده بعد الاضطراب العام الذى أصابهم فى محاولة منه لاستجماع قواهم ورفع روحهم المعنوية وحثهم على القتال والصمود للنهاية، فأخذ يذكرهم كيف أنهم هزموا أعظم الأمم وأخضعوا الشعوب و أن الحرب هى عادتهم وحثهم على الإنتقام من عدوهم فقال : " دعونا نقاتل العدو بحماس فالشجاع هو الذى يبدأ بالهجوم وهؤلاء القوم جبناء وضعفاء بدليل تحالفهم، انظروا : كيف أنهم خافوا قبل أن نهاجمهم وسعوا إلى المرتفعات ليحتموا بها وأنتم تعرفون ضعف الرومان ووقوفهم فى خط واحد بالدروع، هلموا للقتال وقلوبكم قوية مثل إرادتكم وتفوقوا على القوط الغربيين، تشجعوا وادفعوا روح الغضب فى نفوسكم ودعوا أسلحتكم تتكلم عنكم، لتكن جروحكم ثمناً لموت العدو، ومن سلم سوف يلاقى مذبحة العدو، كونوا شجعاناً مثل أجدادكم وأعيدوا مجدهم، هذا الميدان هو طريق العزة ونيل الشرف والحفاظ على الكرامة " [٨٠].

ألهب أتيلا بهذه الكلمات نفوس جنوده للقتال فالتحموا بالمعركة واشتدت رحى الحرب وحمى وطيسها وعمت الفوضى وساد الاضطراب ويذكر جوردان " أنها معركة لا مثيل لها فى التاريخ ولم يكن هناك أعجب من المشاهد التى وقعت فيها، ...... إنها تركت حمامات من الدم المتدفق الذى يزيد اندفاعه أكثر من الماء فى الجداول والأنهار حتى اضطر الناس لشرب الماء المخلوط بالدم الذى سال من جراحهم " [٨١] وسقط الملك ثيودريك ملك القوط الغربيين عن صهوة جواده وداس عليه رجاله وانتهت حياته، ويقال أن مقتله كان بسبب سهم أصابه من القوط الشرقيين الذين كانوا تابعين لجيش أتيلا وبذلك تحققت نبؤة العّرافين التى أعلنوها لأتيلا، وقام القوط الغربيون بالانقضاض على جيش الهون حتى كاد أتيلا أن يقتل لولا أنه تمكن من الهروب وتحصن بين رجاله داخل المعسكر الذى كان مجهزاً بالعديد من عربات الهون [٨٢] .

كما قام أيتيوس وثورسموند بالهجوم على الهون من قمة التل بشجاعة بالغة حتى أصيب ثورسموند فى رأسه بعد الاصطدام بعربات العدو فى ظلام الليل وسقط من فوق حصانه إلا أن يقظة أتباعه أنقذته من الموت وانفصل أيتيوس عن قواته أثناء الفوضى التى عمت ليلاً وراح يبحث عن أتباعه وسط الجثث التى امتلىء بها الميدان حتى وصل فى النهاية إلى المعسكر الذى يقيم فيه حلفاؤه , فقضى بقية الليل فى حماية دروعهم، وعند فجر اليوم التالى رأى الرومان أشلاء القتلى أكواماً وأدركوا أن النصر حالفهم وذلك لأن أتيلا لم يكن ليهرب من المعركة إلا إذا حدثت له كارثة مدمرة (٨٣).

بعد هروب أتيلا إلى معسكره أصبح كالأسد الذى أصابه سهم غائر فراح يعدو ذهاباً وإياباً عند عرينه وهو يطلق أصواتاً أخافت من حوله، وهنا عمل الرومان وحلفاءهم على حصاره حتى نفذت مؤنته ولم يستطع التحرك بسبب رماة السهام الذين كانوا يحيطون بمعسكره، لكنه ظل متماسكاً ومحتفظاً برباطة جأشه، وجمع سروج الخيول والغنائم المختلفة وجعلها على هيئة كومة أشعل فيها النيران وذلك حتى إذا هاجمه العدو ألقى بنفسه فيه قبل أن يتمكن منه ويصبح ذليلاً ويتعرض للعار وهو سيد القوم (٨٤) .

دام الحصار طويلاً وخلال ذلك كان القوط الغربيون يبحثون عن ملكهم ثيودريك فهم لم يعلموا بمقتله وتعجبوا لغيابه بعد أن تحقق لهم النصر على أعداءهم وأخيرا وجدوا جثته وقد تضخمت، فحملوه أمام عيون الأعداء، وذرفوا الدموع حزناً عليه، ورفعوا جسده على الملأ إظهاراً لما كان عليه من شرف وعزة وأقاموا له الشعائر الجنائزية الملائمة لموقعه (٨٥).

كان ثورسموند مصمماً على الانتقام من الهون لمقتل ابيه وراح يتشاور مع القائد الرومانى ايتيوس لما عرف عنه من الحكمة لكن الأخير حثه على العودة الى بلاده ليتولى العرش قبل أن يستولى اخوته على السلطة ويضطر إلى محاربة بنى جلدته فانساق ثورسموند للنصيحة وترك الهون وعاد إلى الغال (٨٦).

عندما علم أتيلا بانسحاب القوط الغربيين ظن أنها خدعة من العدو حتى يظفر به ويقضى عليه فبقى فى معسكره فترة يراقب انسحابهم بحذر وبعد أن طال غيابه خرج من مخبأه ثم تقدم بجيشه وعبر نهر الراين عائداً إلى وطنه، ولم يقم أيتيوس بدحر الهون أو التصدى لهم أثناء تراجعهم، وبذلك انتهت معركة شالون والتى عرفت بمعركة الشعوب بهزيمة الهون وملكهم أتيلا على يد الرومان وحلفائهم فى يوليو عام ٤٥١ م بعد أن حصدت أرواح حوالى مائة وخمسة و ستين الفاً من قتلى الطرفين، بالإضافة إلى ما خلفته من دمار وكوارث، وبذلك انتهت أسطورة أن الهون لا يقهرون (٨٧).

لنا أن نتساءل لماذا لم يستغل أيتيوس النصر الذى أحرزه على الهون بعد الجهود المضنية التى بذلها وترك ثورسموند يعود إلى بلاده دون القضاء التام على أتيلا الذى كان فى موقف الضعف ؟! ذكر جوردان أن أيتيوس كان يخشى إن تم القضاء على الهون وهلكوا أن تهلك معهم الإمبراطورية الرومانية (٨٨) وذلك يحتمل أمرين : إما أن أيتيوس خاف إن تحقق النصر الحاسم على أتيلا فسوف يؤدى ذلك إلى تعرض الامبراطورية لخطر القوط الغربيين الذين سيصبحون أكثر ازعاجاً ولن يستطيع الرومان الصمود أمام زهو انتصارهم خاصة وأن البرابرة متقلبون ولا يؤمن شرهم (٨٩) ، وإما أن أيتيوس كان يعتمد على الهون إعتمادا كبيراً وأراد أن يجندهم لصالح الإمبراطورية واكتفى بتلقينهم درساً صعباً لن ينسوه وهو أنهم لن يستطيعوا هزيمة الإمبراطورية وذلك حتى يعودوا إلى تحالفهم القديم معه فقد كان يرى أنه بدون مساعدة الهون فلن يُقدر للإمبراطورية الصمود فى وجه أعدائها(٩٠).

بينما يذكر المؤرخ جريجورى التورى " إن ذلك التصرف كان حيلة من أيتيوس وامتدت و طالت ملك الفرنجة الذى جعله أيتيوس يعجل بالهروب أيضاً وعندما ذهبا (ثورسموند وملك الفرنجة) أخذ أيتيوس غنائم المعركة وعاد منتصراً الى بلاده"(٩١).

نتائج معركة شالون : -

١ - غزو الهون لإيطاليا عام ٤٥٢ م :

بالرغم من الهزيمة التى منى بها الهون فى موقعة شالون والخسائر التى تكبدها إلا أن أتيلا لم يستسلم للهزيمة وأصر على الانتقام لمحو أثارها فضمد جراحه وجدد قوته وقاد فى صيف عام ٤٥٢ م جيش الهون عبر بانونيا وعبر جبال الألب لغزو ايطاليا عقر دار الرومان وحاصر الهون مدينة أكويليا Aquileia الإيطالية عاصمة إقليم البندقية والتى تقع عند البحر الإدرياتى شمال الساحل والتى كانت مدينة محصنة (٩٢)، فطال الحصار بدون جدوى حتى يأس أتيلا وفكر فى الانسحاب، لكنه وبينما يسير بجوار الأسوار ويفكر فيما يجب عليه فعله شاهد الطيور ترحل من أعشاشها ولأنه يؤمن بالخرافات فقد اعتبرها نبوءة وعلامة على النصر لأنه اعتقد أنها علامة على طرد أهل المدينة وراح يشجع جنوده على معاودة الهجوم لذلك حاولوا الاستيلاء على أكويليا مستخدمين كل أدوات الحصار الممكنة من أبراج متحركة وعربات وقوات هائلة تلقى بوابل من النيران حتى سقطت المدينة أمام هجماتهم فدمروها بكل وحشية وعنف واقتسموا الغنائم وازدادوا وحشية وتعطشاً للدماء الرومانية فخربوا باقى المدن فى البندقية وواصلوا سيرهم وعبروا مدن التينوم Altinum وكونكورديا Concordia وباديو Padua وبرجاما Bergama وفيرونا Verona تلك المدن التى دمرت وتحولت الى أكوام من الحجارة والرماد (٩٣). واستسلمت مدن ميلان وبافيا بدون مقاومة و قام الهون بسلب ثرواتهما (٩٤)، كذلك امتد خراب الهون إلى مدن كوميوم Comum وتورن Turin و مودينا Modena إلى السهول الخصبة للومبارديا، كما استولى أتيلا على القصر الملكى لمدينة ميلان وعندما شاهد الصورة المرسومة التى تمثل القياصرة الرومان جالسين على عروشهم وقد انبطح أمراء السكيثيين عند أقدامهم، غضب أتيلا وعمل على إذلال هذا الفخر الرومانى، فأمر الرسام أن يعكس الصورة ويعدلها حتى تدل على أن الأباطرة الرومان ينحنون أمام ملك السكيثيين الذى يعتلى العرش وهم

يفرغون من حقائبهم الذهب دلالة على الإتاوة التى كانوا يدفعونها له (٩٥).

ساد الذعر إيطاليا والتى لم يستطع سكانها الدفاع عنها بعد أن أهملوا لفترة طويلة التدريب على حمل السلاح ومواجهة الحروب، كما أن أيتيوس القائد الرومانى كان يقف وحيداً فى مواجهة هذا الخطر بعد ان انفض عنه حلفاؤه بعد موقعة شالون ورفضوا السير للدفاع عن إيطاليا، وبالرغم من المساعدة التى وعد بها الإمبراطور الشرقى مارقيان إلا أنها كانت بعيدة ومشكوك فيها ، أما الإمبراطور فالينتنيان الثالث فقد هرب من رافنا إلى روما وأتاح الفرصة بذلك لأتيلا لإحتلالها (٩٦)، وبينما كان أيتيوس واقفاً فى الميدان على رأس قواته المحلية القليلة مرهقاً، كان موكب أتيلا يواصل تقدمه والهجوم على معظم المدن الإيطالية حتى أعلن عزمه على الذهاب لمهاجمة روما رغم معارضة رجاله لهذا المشروع بحجة تخوفهم من المصير الذى ينتظره والذى سيكون مثل مصير ألاريك Alaric ملك القوط الغربيين الذى هاجم روما عام ٤١٠ م ومات بعد ذلك مباشرة انتقاماً إلهياً منه لمهاجمة مدينة الله الخالدة (٩٧) .

وبينما كان أتيلا يفكر فى ذلك جاءته سفارة من روما تستجدى منه السلام بدلاً من الحرب، و تكونت السفارة الرومانية من البابا ليو الأول أسقف روما (٤٤٠ - ٤٦١ م) (٩٨) واثنان من أشهر رجال السناتو الرومانى وهما القنصل أفينوس Avienus وتراجيتيوس Trygetius عضوا مجلس الشيوخ، الذين وافقوا جميعاً على تعريض حياتهم لخطر الهون من أجل تأمين حياة الرومان، وقابلت السفارة أتيلا فى معسكره الذى من المحتمل أنه كان بالقرب من الشاطىء الجنوبى لبحيرة جارده Garde فى ميلان بالقرب من نهر مينكيو Mincio، و استمع أتيلا بإحترام للبابا الموقر الذى يرتدى عباءته الأسقفية ويثير الوقار والتبجيل لشخصه وبذل البابا جهوداً مضنية لتحويل أتيلا عن عزمه والعودة إلى بلاده وعدم مهاجمة روما، استجاب أتيلا لتوسلات البابا وذهب الغضب عنه ووعد بالعودة من حيث أتى على وعد بالسلام، لكنه هدد بمعاودة الهجوم ما لم يتم إرسال الأميرة هونوريا مع نصيبها من الثروات الملكية فى خلال مدة حددها فى المعاهدة (٩٩) .

المؤرخ المسيحى المعاصر Prosper الذى كتب سجله فى حوالى عام ٤٥٥ م وكان فى ذلك الوقت يعيش فى روما فى خدمة البابا، ينسب تراجع " سوط الله " إلى تأثير شخصية البابا ليو عليه وأيد المؤرخون الاكليروسيون ذلك بعد أن أثنوا على البابا وزينوه بكل الأخلاق الحميدة (١٠٠).

وتذكر بعض المصادر التاريخية الأخرى أن القديسين بطرس وبولس ظهرا لأتيلا وهدداه بالموت إن لم يستجب لرغبات البابا فى الإنسحاب من إيطاليا فيقول Anonyomus : " قابل (البابا) أتيلا فى مكان بجوار نهر Mincio وتحدث مع الملك المتجهم قائلاً : السناتو وشعب روما قهروا العالم، و فى الحقيقة الأن هم قهروا أمامك .... أتيلا أنت ملك الملوك لا ترغب فى مجد أكثر من رؤية متوسل تحت قدميك، هذا الشعب الذى كانت تأتيه الملوك من قبل متوسلة أنت أخضعته ... عندما قال ليو هذه الكلمات وقف أتيلا ينظر إلى زيه الموقر وشكله وهو صامت كأنه يفكر فى شيىء عميق، وفجأة ظهر الحواريان بطرس وبولس فى زى الأساقفة وهما يقفان بجانب ليو، أحدهما على اليمين والأخر على اليسار ويحملان سيفيهما ويمدانهما على رأسه وهددا أتيلا بالموت إذا لم يستجب للبابا، ولهذا السبب قبل أتيلا بعد أن كان ثائراً مثل المجنون وبشفاعة البابا وعد على الفور بالسلام الدائم وانسحب إلى ما بعد الدانوب " (١٠١).

بالرغم مما فى هذه الرواية من خرافة و أساطير إلا أنها انتشرت فى وقت اعتقد فيه الناس بمعجزات القديسين ونلاحظ أن حقيقة السفارة لا يمكن الشك فيها و لكن من غير المحتمل أن يهتم أتيلا الوثنى عدو المسيحية بإقناع أو تهديد الكنيسة وقديسيها لكن من المؤكد أن الأسباب الحقيقية التى أدت إلى انسحاب أتيلا هى التى ذكرها المؤرخ Idatius : " ضرب بضربات من السماء، فمن ناحية عانى من المجاعة والمرض ومن ناحية أخرى بسبب الموت الذى حصد جنوده من قبل القوات المساعدة التى أرسلها الإمبراطور مارقيان بزعامة أيتيوس ..... وهكذا عاد السلام بعد أن عادوا جميعاً إلى مساكنهم الخاصة وأقاموا السلام مع الرومان " (١٠٢)

وبذلك كان موقف الهون ضعيفاً فى شمال إيطاليا بعد أن تناقص عدد الجيش جراء المجاعة والحرب والوباء الذى انتشر بين القوات والمناوشات بين الهون والقوات الرومانية بعد وصول الإمدادات من الإمبراطور الشرقى بالإضافة إلى الخوف والتصديق فى الخرافات كل ذلك منع أتيلا من تنفيذ مخططه ضد الحضارة الرومانية (١٠٣) .

٢ – محاولة أتيلا الانتقام من القوط الغربيين

قبل أن يشرع أتيلا فى العودة شمالاً إلى بلاده قاد جيشه نحو القوط الغربيين للانتقام منهم جراء ما أصابه فى معركة شالون لمحو عار هذه الهزيمة فعمل على مباغتتهم بالهجوم ولأنه كان يمتاز بالدهاء والحنكة السياسية فقد تظاهر بأنه يريد مهاجمة قبائل الألان الذين استقروا عند نهر اللوار لخيانتهم له ونقض تحالفهم معه فى شالون، لكن ثورسموند الذى توج ملكاً على القوط الغربيين بعد مقتل أبيه فى معركة شالون، أدرك حيلة أتيلا فتقدم بقواته إلى أراضى الألان قبل أن يصلها الهون وهناك أصبح القوط الغربيون قادرين على مواجهة أتيلا ورصد تحركاته وبالفعل تم هزيمة الهون وطردهم من تلك الأراضى مما دفع أتيلا وقواته للهروب إلى الوطن بعد أن تحطمتَ أماله مصحوباً بالعار والخزى الواضح بعد أن تعرض لهزيمة ساحقة بدلاً من تحقيق النصر (١٠٤).

موت أتيلا : –

عاد أتيلا إلى أرض الوطن إلى قصره الخشبى راضياً عما أحرزه من مكاسب وغنائم من هذه المغامرة الحربية التى خاضها، و بالرغم من فشل أتيلا فى تحقيق النصر إلا أنه نجح فى إثارة الرعب فى الغرب الأوربى وعاد محملاً بالذهب وغنائم شمال إيطاليا وهذا كان كاف بالنسبة له ولشعبه الذى ابتهج لعودته واستقبله وسط احتفال عظيم (١٠٥). لم يبق أتيلا على قيد الحياة سوى أشهرقلائل بعد هذه الأحداث فقد مات فجأة فى ربيع عام ٤٥٣ م بعد أن تزوج زوجة جديدة بالإضافة إلى زوجاته الكثيرات تدعى الديكو Ildico وفى ليلة زفافه أفرط فى المتعة

والشراب، وكان موته عجيباً مثلما كانت حياته، فقد سقط صريعاً بسبب النزيف الدموى الكثيف الذى سال أثناء نومه مضجعاً على ظهره فلم يخرج الدم من الأنف كالمعتاد ولكن اندفع إلى الرئتين والمعدة فمات مختنقاً بدمه، وعرض جثمانه فى وسط السهل تحت سرادق حريرى ومجموعة مختارة من الهون تتحرك حوله تنعيه بأناشيد جنائزية و تعدد أمجاده وبطولته وشجاعته وانتصاره على أعدائه وإرهابه للعالم (١٠٦)، ويذكر جوردان أن أتيلا لو لم يكن شخصاً محباً للنوم ومدمناً للشراب لما خنقه الدم الذى نزف منه وجلب العار والخزى لنفسه بعد أن كان ملكاً مشهوراً ذا بأس وسلطان (١٠٧)، بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أن زوجته الديكو هى من أودت بحياته لرغبتها فى الانتقام من أتيلا الذى قتل والديها وتزوجها عنوة بعد أن أخذها غنيمة حرب (١٠٨) ، بينما هناك روايات أخرى تشير الى أن موت أتيلا كان بسبب السم الذى دس له فى غذائه من قبل بعض المتأمرين ضده مع القائد الرومانى أيتيوس(١٠٩) .

حدث شيىء عجيب تزامن مع موت أتيلا وهو أن الإمبراطور الشرقى مارقيان رأى فيما يرى النائم أن قوس أتيلا يعرض عليه مكسوراً ومحطماً وهو ما يوضح مدى الانزعاج الذى كان يراود ذلك الإمبراطور من أتيلا ذلك العدو الشرس الذى قضى حياته فى إرهاب العالم وتهديد أمنه، وكأن هذه الرؤيا تشير إلى نهاية أتيلا وانهيار إمبراطوريته من بعده لارتباط الهون بالقوس كأداة حربية مكنتهم من بسط سيادتهم على غيرهم من القبائل وهذا يؤكد أن صورة هذا البربرى المزعج لم تغب لحظة عن عقل الإمبراطور الرومانى ويعقب جوردان على ذلك قائلاً : " إن ذلك دليل واقعى على ما سببه أتيلا للإمبراطوريات العظيمة من قلق حتى أن الألهة أبلغت الحكام بأمر وفاته" (١١٠)، أما المؤرخ برسكوس فيذكر أن " الألهة أخبرت الإمبراطورية بموت أتيلا الفظيع كهدية خاصة لها " (١١١).

انهيار إمبراطورية الهون : -

في العام التالى لموت أتيلا انهارت هيمنته المحكمة على البرابرة واندلعت

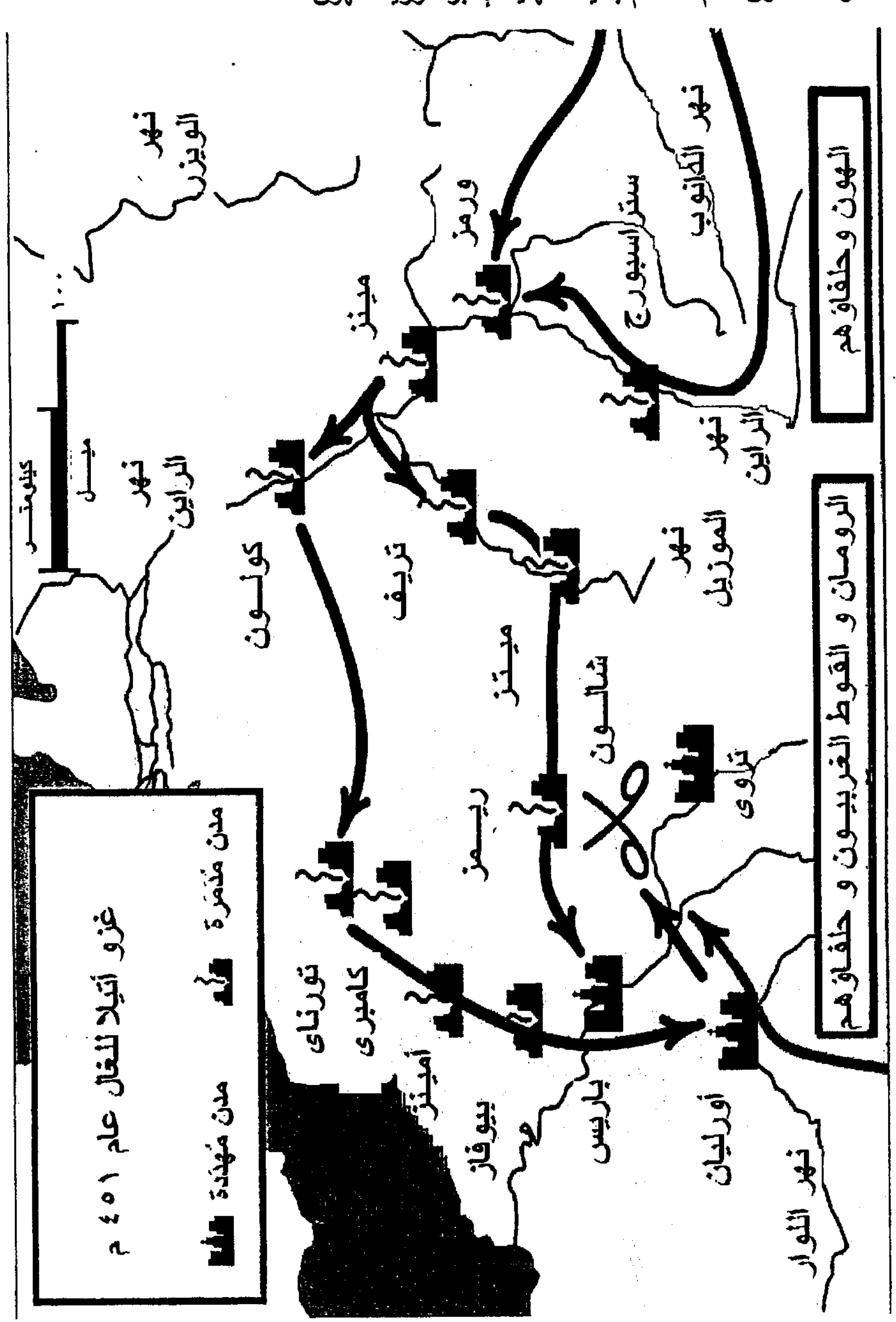
الثورات الهائلة التى مزقت إمبراطوريته إرباً إرباً وفصلت أجزائها وأعلنت نهايتها فقد ثارت الشعوب الجرمانية التابعة لإمبراطورية الهون بعد أن حدث خلاف بين ورثة أتيلا لتقسيم الأمم الخاضعة لهم فيما بينهم وكأنها ممتلكات خاصة فغضب ملوك هذه الشعوب من المعاملة التى تشبه معاملة الرقيق، وكان ملك الجيبداى أرداريك هو أول ملك نفض عن كاهله نير التبعية للهون فتصدى لهم واستطاع تخليص نفسه وشعبه من العبودية وشجع ذلك الشعوب المقهورة على حمل السلاح جميعاً ضد الهون وحدثت المعركة المشهورة بينهم عام ٤٥٤ م بالقرب من نهر يدعى نيدو Nedao فى بانونيا والتى اشتبك فيها الهون مع القبائل الأخرى التى كانت تابعة لهم فى الماضى مما أدى إلى مقتل ثلاثين ألف قتيل وسقط إلاك Ellac الابن الأكبر لأتيلا فى المعركة وهرب إخوته واستسلم الهون وكانت هذه هى الضربة الأولى التى وجهت ضد الهون للقضاء عليهم والتى أدت إلى تشتت الأمم التى كونت إمبراطوريتهم وتفرقها ذلك الأمر الذى كان كفيلاً بانهيار تلك الإمبراطورية للأبد (١١٢)، وتم ذلك فى الضربة الثانية التى وجهت للهون عام ٤٦٩ م فى موقعة تعاون فيها الرومان والقوط الشرقيين للقضاء على بقايا الهون وفيها قُتل دينزيك Dinzic بن أتيلا وجاء ذلك إعلاناً رسمياً بانتهاء الإمبراطورية التى أقامها الهون وحدد أتيلا معالمها بعدما استمرت حوالى قرناً من الزمان ٣٧٥ – ٤٦٩ م تلك الفترة التى تبدو قصيرة فى عمر الأمم لكنها تركت بصمات واضحة على مجريات الأحداث الأوربية وبهذا طويت صفحة الهون من التاريخ وأصبحت ذكرى منسية وأثر بعد عين (١١٣) .

أهم النتائج التي توصل إليها البحث : -

لقد كانت معركة شالون نقطة حاسمة فى تاريخ الهون فلقد أثبتت للإمبراطورية الرومانية والقبائل الجرمانية أن الهون يمكن هزيمتهم وبذلك تحطم حاجز الخوف منهم الذى ساد أوربا فى تلك الفترة بسبب الاشاعات المروعة التى سبقت تقدمهم والتى تتعلق بأصلهم وانتسابهم إلى الأرواح الشريرة النجسة والدمار

والخراب الذى يخلفوه ورائهم فشاعت أسطورة أنهم قوة خارقة لايمكن مواجهتها، فعجلت هزيمتهم فى معركة شالون بنهاية إمبراطوريتهم بعد أن استمدت الأمم الخاضعة لهم مداد القوة و الشجاعة من معركة شالون و واجهتهم مواجهة حاسمة فى معركة للقضاء عليهم .

لقد أظهر الهون الوثنيون وحشية كبيرة وعدم احترام للحضارات أو الأديان والمعتقدات، وكانت هذه المعركة بمثابة تهديد خطير للحضارة الرومانية فلو قدر لهم النصر فى معركة شالون لأصاب الغرب الأوربى التدهور الشديد والسريع على أيديهم فلقد أنقذ نصر الرومان وحلفاءهم فى معركة شالون الحضارة الرومانية من اندفاع ووحشية الهون وأفكارهم الهدامة نحو الغرب وسيطرتهم على الأجناس التيوتونية التى بدأت تتأثر بالحضارة الرومانية وتندمج معها فى ظل الحرية والاستقلال التى تمتعت بها وبدأت تخطو خطوات واضحة نحو التقدم والازدهار ثقافياً وحضاريا "[١١٤] ، ويمكن تلخيص كل تلك النتائج فيما ذكره بعض المؤرخين" إن الأهمية الحقيقية لأتيلا ولمعركة شالون تكمن فى حقيقة أن هجوم أتيلا و أتباعه من الهون أجبر الرومان والشعوب التيوتونية على الاعتراف بأن المصالح المشتركة أو إن شئت فقل الحضارة كانت فى خطر عظيم ومن ثم دفعهم ذلك إلى التحالف القوى الذى اعتمد عليه التقدم العالمى فى المستقبل " [١١٥].



http : // upload : wikimedia.org / wikipedia / commons / 3 / 3c

الهوامش :

(1) Gibbon E. , The Decline and Fall of The Roman Empire,Vol. II , London , No Date , P . 448 .
Hutton E. Attila and The Huns, London , 1915.P.114.

(2) Priscus , The Age of Attila,Fifth Century Byzantium and The Barbarian ,Translated by Gorden C.D.,Ann Arbor , University of Michigan Press ,1960.P.57.
Sister M.,Sh.,Battles of Destiny,Pittsburgh,Pennsylvania,1914. P.48.
Creasy E., The Fifteen Decisive Battles of World from Marathon to Woterloo , NewYork ,1882.PP.128-129

داهموس جوزيف ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد فتحى الشاعر ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٢ ، ص٣٠ .

(3) Priscus ,The Age of Attila , P.57.
Jordanes ,The Gothic History, Trans., Mierow Charles ,Princeton university press ,Princeton ,1915, chapter XXIV,P.85.
Gibbon , The Decline and Fall of The Roman Empire , Vol.II , pp.169-170.
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , PP.128-129 .

(4) Ammianus Marcellinus ,Trans.John Rolfe,Cambridge ,Harvard University Press,1908 .Vol.III,ChapterXXXI,PP.381-387. Priscus , The Age of Attila , P.58.
Jordanes ,The Gothic History , chapter XXIV, P.85 .
Hutton , Attila and The Huns, P.9.

القوط الشرقيون هم أحد القبائل الجرمانية التى جاءت من شبه جزيرة اسكندناوة ووصلت إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود واعتنقت المسيحية على المذهب الأريوسى وارتبطت مع الإمبراطورية الرومانية بمعاهدات سمح لهم بمقتضاها بالإقامة فى إقليم بانونيا وقد تعرضت مملكة القوط الشرقيين لخطر غزو الهون لهذه المنطقة بعد أن هاجموهم وأخضعوهم لسيطرتهم .عن تاريخ القوط الشرقيين انظر:
Jordanes ,The Gothic History .Chapter XV,XVI,XXIV,XXV .

Ammianus Marcellinus III, Book XXXI, P.381-387 .

ابراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ، مكتبة الهضة المصرية، ١٩٥٨ .ص ٣٢- ٤١ .

(5) Jordanes ,The Gothic History ,Chapter XXV ,PP.87-88.
Priscus ,The Age of Attila , P.57-58.
Hutton,Attila and The Huns,p .9.
Sister,Battles of Destiny ,P.48 . Creasy,The Fifteen Decisive Battles ,PP.128-129.

(6) Ammianus Marcellinus , Introduction of Translator , Vol. I.
Hutton,Attila and The Huns,p .21.

(7) Ammianus Marcellinus , Vol.III,Chapter XXXI,PP.381-387

(8) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXIV,PP.85-87.

(9) Ammianus Marcellinus , Vol.III,Chapter XXXI,PP.381-387.
Jordanes,The Gothic History , Chapter XXIV,PP.85-87.
Hutton , Atlila and The Huns , P . 24 .

داهموس ، سبع معارك فاصلة ، صـــ ٢٦

(10) Ammianus Marcellinus , Vol.III,Chapter XXXI,PP.381-387.

(11) Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P . 129 .

(12) Jordanes , The Gothic History , Chapter XXXII , PP .96 - 97.
The Cambridge Medieval History , Vol.1 , Cambridge 1911 , p . 360 .
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , PP . 128 - 129 .

(13) Hutton , Attila and The Huns , P.18 .

محمود الحويرى ، رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٩٥.ص١٥٩-١٦٤ ص١٥٩ . عن تاريخ الدولة البيزنطية انظر:

Harrison F., Byzantine History in The Middle Ages, London, 1900.

عفاف صبره ، تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المسيرة ، عمان ، الأردن ، ٢٠١١م .

(14) Olympiodorus , The Age of Attila , p . 59.
The Cambridge Medieval History , Vol.1 , p . 360.

داهموس ، سبع معارك فاصلة ، ص٣٧-٣٩ .

استعانت الأمبراطورية الرومانية بالبرابرة فى امدادها بالفرسان المحاربين بعد أن كانت معظم جيوشها تتكون من المشاة فى الفترة السابقة من تاريخها وقدّر لهؤلاء البرابرة الفرسان أن يسودوا ميدان المعركة ويلعبوا دوراً مهماً ضمن الجيوش الرومانية فى الدفاع عن حدودها.

Oman ch ., History of The Art of War, London, 1885, PP.10-11.
Harrison F., Byzantine History in The Middle Ages , London , 1900 ,

PP.22-23.

داهموس، سبع معارك فاصلة ، صـــ ٧،٨ .

([15]) Priscus , The Age of Attila , pp 59 -60
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 144 .
([16]) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXV,PP 101-102 .
Priscus , The Age of Attila , pp. 61
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 144 .
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P 133.
Hodgkin Thomas , Theodoric The Goth , London , 1923 . P.19 .

([17]) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXV,PP 101-102 .
Priscus , The Age of Attila , pp . 61.
Hodgkin Thomas , Theodoric The Goth , London , 1923 . PP.19 -20.
The Cambridge Medieval History , Vol.1 Cambridge, p . 360 .
([18]) Priscus , The Age of Attila , p .61 .
The Cambridge Medieval History , Vol,1 , Cambridge , p . 360 .
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , PP. 130- 131.
([19]) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXV, PP. 101-102 .
Priscus , The Age of Attila , p.61.
([20]) Priscus , The Age of Attila , pp.94-96.
([21]) Priscus , The Age of Attila , p.62.
The Cambridge Medieval History , Vol ,1 , p . 360
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , PP. 131- 132.
([22]) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXVIII,PP. 107 .
The Cambridge Medieval History , Vol,Cambridge vol , p . 361 .
([23]) Priscus ,The Age of Attila , pp.60 - 61.
The Cambridge Medieval History , Vol , 1, pp . 361 – 362 .
Gibbon , The Decline and Fall of The Roman Empire ,Vol . II , P.145 .
Hutton , Attila and The Huns , P . 42 .
([24]) The Cambridge Medieval History , Vol .1 , p . 361.
Bury ,Ahistory of The Later Roman Empire, Vol .1, P.361.
([25]) Priscus , The Age of Attila , p.60 , 62 – 63 .
Bury ,Ahistory of The Later Roman Empire, Vol .1, P.363-364 .
Hutton , Attila and The Huns , P .37-38 .
The Cambridge Medieval History , Vol .1 , p . 362.

([26]) Priscus ,The Age of Attila , p.60 , 63 – 65 .
The Chronicle of Marcellinus , Translated by Croke Brian ,Sydney 1995.PP.17,46 .
Bury ,Ahistory of The Later Roman Empirer Vol .1, P. 364 .
Hutton , Attila and The Huns , P . 41 .

([27]) Priscus , The Age of Attila , p.60 , 65 – 66 .
Bury , Ahistory of The Later Roman Empirer Vol .1, P. 365 .
The Cambridge Medieval History , Vol .1 , p . 363
Hutton , Attila and The Huns , P . 41 .

([28]) Priscus in The Age of Attila ,
p.60 , 70 – 71 . The Cambridge Medieval History , Vol .1 , p . 363 .

([29]) The Cambridge Medieval History , Vol .1 , p . 362.
داهموس ، سبع معارك فاصلة ، ص٤٠

٣٠) أورد المؤرخ برسكوس تفاصيل هذه المؤامرة التى تمت فى القسطنطينية بموافقة الامبراطور ثيودسيوس الثانى ، للوقوف على هذه التفاصيل انظر
Priscus , The Age of Attila , p.60 , 71 – 72.
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P.134 .

([31]) Joannes Antiochenus ,The Age of Attila , P.105 ..
Priscus , The Age of Attila , p.105.
The Chronicle of Marcellinus ,P.20 . .

([32]) Priscus , The Age of Attila , p.109 .
Gibbon , The Decline and Fall of The Roman Empire ,Vol . II , PP.435-436.

([33]) Joannes Antiochenus ,The Age of Attila , P . 104-105.
Priscus , The Age of Attila , p.105.
Jordanes, The Gothic History , Chapter XLIII ,P. 114 .
Gregorovius ,History of The City of Rome Vol.1,Translated by Hamilton A., London ,1894.PP.193-194.

([34]) Joannes Antiochenus ,The Age of Attila , P . 104-105.
Priscus , The Age of Attila , p.105

([35]) Joannes Antiochenus ,The Age of Attila , P .103 .
Priscus , The Age of Attila , p.106 .
Herbert W., Attila and The Huns and his Predessors , AHistorical Trwatise , P .44 .
الوندال : أحد القبائل الجرمانية التى جاءت من مناطق البحر البلطى فيما بين ٤٠٥-٤٠٦م

واتجهت الى الأراضى الرومانية واتسمت بالقسوة والوحشية ، فأغار الوندال على إقليم أكواتين واصطدموا بالقوط الغربيين الذين نازعوهم ملكية هذا الإقليم فنجح القوط فى طردهم منه إلى الشمال الإفريقى عام ٤٢٩م فاستقروا هناك وقاموا بالإغارة على جزر البحر المتوسط وتهديد أراضى الإمبراطورية بعد ان استطاعوا بناء اسطول ضخم استخدموه فى السيطرة على غرب البحر المتوسط .

Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXII, XXXIII , PP. 96-99.
Joannes Antiochenus ,The Age of Attila , P . 49-50 .

(36) Hutton , Attila and The Huns , P P .79-80 .

(37) Priscus , The Age of Attila , p.106 .
The Cambridge Medieval History , Vol ,1 , p . 364 .
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P. 135.

(38) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXV, PP. 102-103 .

(39) Gibbon , The Decline and Fall of The Roman Empire ,Vol . II , P.436 .

(40) Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P. 134.

(41) Priscus , The Age of Attila , p.106 .

(42) Jordanes, The Gothic History , Chapter XLIII,PP.114 – 115 .

القوط الغربيون : من القبائل الجرمانية التى قدمت من شبه جزيرة اسكندناوه وعبرت البحر البلطى حتى وصلت إلى نهر الفستولا ومنه بدأت السير ناحية الجنوب الشرقى حتى استقرت شمال البحر الأسود وأقامت فى ولاية داكيا واعتنقت المسيحية على المذهب الأريوسى ومن هذه المنطقة بدأ القوط الغربيون فى الاختلاط بالشعوب الجرمانية واستمر هذا حتى عام ٣٧٥ م عندما بدأ الهون فى التقدم إلى تلك المناطق مما جعل القوط الغربيون يسارعون فى الهروب منهم لما عرف عنهم من الوحشية والبطش لذلك طلبوا من الإمبراطور الرومانى السماح لهم بعبور نهر الدانوب ، فوافق الإمبراطور وسمح لهم بالاستقرارفى منطقة مؤيزيا السفلى (بلغاريا الحالية) وذلك لحماية الامبراطورية من خطر الهون عندما يقف القوط الغربيون حائط صد بين القوتين وبعد ذلك حدثت عدة مواجهات مسلحة بين الرومان والقوط الغربيين لإغارة القوط على أراضى الرومان أدت فى النهاية الى موافقة الرومان على منح قليم أكواتين الذى يقع فى جنوب غرب غالة فى المنطقة الممتدة من نهر اللوار حتى حدود البرانس إلى القوط الغربيين .

Priscus , The Age of Attila , pp.28 – 29 .

Jordanes, The Gothic History , Chapter XXV.

- ابراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ، صـــ ٣١ – ٥٣ .

([43]) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXVI.PP.103- 105 .

([44]) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXVI.PP.103- 105 .
Herbert, Attila , 47

([45]) Priscus , The Age of Attila ,pp .106 – 107 .
Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXV.P.102 .
Herbert, Attila , 48

عن هذه القبائل وموطنها القديم ، انظر ابراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ، ص ٦ – ٩ .

([46]) Hutton , Attila and The Huns , P P .82-83.
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P. 135.

([47]) Hutton , Attila and The Huns , P P .83-84.
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P. 135.

([48]) Hutton , Attila and The Huns , P P .83-85.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 445.

([49]) Hutton , Attila and The Huns , P .86 .

([50]) Hutton , Attila and The Huns , P .86 .

(51) Gregory of Tours , History of The Franks , Translated by Ernest Brehaut , New York ,
1916 , Book Π , chapter 6. p. 25
Herbert, Attila , 47 .

(52) Gregory of Tours , History of The Franks , Book Π , chapter 6. p. 25.

([53]) Hutton , Attila and The Huns , P .95 .

([54]) Hutton , Attila and The Huns , PP .96 - 98
Herbert, Attila , 50 .
Gibbon , The Decline and Fall of The Roman Empire , vol. II , p . 445.

([55]) Hutton , Attila and The Huns , PP .93 - 94 .

([56]) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXV II .P. 105 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 445.
Hutton , Attila and The Huns , PP .98 - 99 .

([57]) Hutton , Attila and The Huns , PP .99 - 100 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 445.

(58) Gregory of Tours , History of The Franks , , Book Π , chapter 7. p. 25 .

Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 445.

(58) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXVI , PP. 100 - 106 .
Gregory of Tours , History of The Franks , , Book Π , chapter 8.
Priscus, The Age of Attila , pp . 48 – 49 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , pp . 437 - 438.
Bury , Ahistory of The Laler Roman Empire , vol. II , pp . 176 - 177 .
Herbert, Attila , 12 .
Freeman , Aetius and Boniface , The English Historical Review, London , New York vol. II ,No V II , Joly , 1887 , pp . 417 - 465.

(60) Gregory of Tours , History of The Franks , , Book Π , chapter 7 , P . 26 .
Hutton , Attila and The Huns , PP .101.

(61) Jordanes, The Gothic History , Chapter XLIII.. PP.114 – 115 .
Hutton , Attila and The Huns , PP .101 - 103.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 446

(62) Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 446 .

(63) Hutton , Attila and The Huns , P .103 .

(64) Hutton , Attila and The Huns , PP .101 - 105 .
Herbert , Attila , 50
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 446 .

(65) Hutton , Attila and The Huns , P .104 .
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P. 136.

(66) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXV I.. P. 104 .
Priscus, The Age of Attila ,pp 106 – 107 .

Bury , Ahistory of The Laler Roman Empire , vol. I , pp . 176 - 177 .
Herbert, Attila , 50 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , pp . 446 - 447.

(67) Gregory of Tours , History of The Franks , , Book Π , chapter 7 , p . 26.
Herbert, Attila , 50 .
Hutton , Attila and The Huns , PP .106 – 107 .

(68) Gregory of Tours , History of The Franks , , Book Π , chapter 7 , p . 26.
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P. 136.
Herbert, Attila , 50 .

(69) Hutton , Attila and The Huns , P . 107 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire ,Vol. II , p . 447

(70) Hutton , Attila and The Huns , PP . 111 - 112 .

(71) Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P. 136 .
Herbert, Attila , 52 .

(72) Jordanes, The Gothic History , Chapter XL Ï.. P. 112.
Hutton , Attila and The Huns , P . 113.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 447 .
شامبنى : هى مقاطعة فى فرنسا تقع بين هاينوت Hainault ولوكسمبورج Luxembourg .
وتطل على عدة أنهار منها الميز Meus والسين Sein والمارين Marne .أنظر :
Cander J.,A dictionary of The Geography ,London ,1834 , P.146 .

(73) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXVÏ.. P. 105 .
Priscus, The Age of Attila ,pp 106 – 107.
Stephenson C. , Medieval History , Vol . I .1953 , P . 66 .
.Herbert , Attila ,51.
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P.125-126 .

(74) Jordanes, The Gothic History , Chapter XXXVÏ.. P. 105 .
لايزال يطلق على هذا المكان اسم معسكر أتيلا حتى الان .
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P.125-126 .

(75) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XXXVI ,PP.104-105 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 448 .

(76) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XXXVII ,PP.106.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 448 .
Herbert , Attila , 52 - 53

Hutton , Attila and The Huns , P . 114-115 .
(77) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XXXVII ,PP.106.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 448 .
Herbert , Attila ,53.
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P.136 .
(78) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XXXVII ,P.107.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 448 .
Herbert , Attila ,53.
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P.136 .
(79) Jordanes , The Gothic History ,Chapter XXXVIII , PP.106 - 107.
Herbert , Attila ,53.
(80) Jordanes , The Gothic History ,Chapter XXXIX ,PP.107 – 108 .
Herbert , Attila ,53 .
(81) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XL ,P.109 .
(82) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XXXVII ,PP.109 - 110.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 449 .
Herbert , Attila ,53.
(83) Jordanes , The Gothic History ,Chapter XL,PP.109 - 110.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 450 .
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , PP.136 - 137 .
(84) Jordanes , The Gothic History ,Chapter XL,P. 110.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 450 .
Creasy , The Fifteen Decisive Battles , P. 137 .
(85) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XLI,P. 111.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 450 .
Herbert , Attila ,53.
(86) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XLI,P. 111.
Gregory of Tours , History of The Franks , , Book II , chapter 7 , pp . 26 – 27 .
(87) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XLI,P. 112.
Hutton , Attila and The Huns , P . 123 .
Herbert , Attila ,54.
Gregorovius , History of The City of Rome , vol . I . P . 194 .
هناك من المصادر ما يشير إلى أن عدد القتلى تراوح ما بين (١٦٥ – ٣٠٠) ألف قتيل وهو عدد مبالغ فيه لكنه يدل على عظم تلك الكارثة .
Gordon , The Age of Attila , p. 107 .

Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 449 .

([88])Jordanes , TheGothic History ,Chapter XL,P. 111.
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 451 .

([89])Creasy , The Fifteen Decisive Battles ,.P. 137 .
Herbert , Attila ,54 .

(٩٠) داهموس ، سبع معارك فاصلة ، ص ٥١ .

([91]) Gregory of Tours , History of The Franks , , Book Π , chapter 7 , pp . 26 – 27 .

([92]) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XL Π,P. 112.
Priscus , The Age of Attila , p. 108 .
Herbert , Attila ,56 - 59 .
The Chronicle of Maarcellinus , p . 20

([93]) Gregory of Tours , History of The Franks , , Book Π , chapter 7 ,p . 27 .
Jordanes , TheGothic History ,Chapter XL Π,PP. 112 – 113 .
Priscus , The Age of Attila , p. 108 .
Herbert , Attila ,61 - 62 .
The Chronicle of Maarcellinus , p . 20 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 452 .
Hutton , Attila and The Huns , PP . 135 – 136 .
Gregorovius , History of The City of Rome , vol . I . P . 194 .

([94]) Anonyomus , Translated by Robinson , J.H .,Reading in European History , Boston
Ginn , 1905 , pp . 49 – 51 .
Hutton , Attila and The Huns , P.136 .
Gibbo The Decline and fall of The Roman Empire n , II , p . 453 .
انظر الخريطة التى توضح غزو أتيلا على ايطاليا عام ٤٥٢ م :
Hutton , Attila and The Huns , P.136 .

([95]) Herbert , Attila ,63 .
Hutton , Attila and The Huns , P.136 , Gibbon , II , p . 452 .

([96]) Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 453 .
Hutton , Attila and The Huns , P.137 – 138 .
Priscus , The Age of Attila , p. 108 .
Bury , Ahistory of The Later Roman Empire , vol. I , p . 179.
Gregorovius , History of The City of Rome , vol . I . P . 195 .

([97]) Priscus, The Age of Attila ,p 108 .

Herbert, Attila , 64 .
Jordanes, The Gothic History , Chapter XL.. P. 113 .

قام ألاريك ملك القوط الغربيين بحصار روما ثلاث مرات عام ٤١٠ م حتى سقطت أمامه و فتحها لرجاله يعيثون فيها فساداً الا أنه توفى بعد ذلك بوقت قصير في نفس العام ، لتفاصيل ذلك انظر :

Jordanes, The Gothic History , Chapter XXX.. PP. 93 - 94 .
Olympiodorus in The Age of Attila , p. 32 – 35 .
The Chronicle of Maarcellinus , p . 10 .

(٩٨)كان البابا ليو الأول واحداً من أعظم الباباوات الذى ترك بصماته واضحة فى تاريخ البابوية بما أسداه من أعمال جليلة ، وكان يعمل شماساً رومانياً فى عهد البابا سيكستيوس الثالث(٤٣٢ – ٤٤٠ م) وبعد وفاة البابا عام ٤٤٠ م تم اختياره ليكون خلفاً له، وبالاضافة الى أعماله الدينية فقد قام بمقابلة كلاً من أتيلا ملك الهون عام ٤٥٢ م وجزريك ملك الوندال عام ٤٥٥ م عندما عقدا العزم على مهاجمة روما ونجح فى تحويلهما بعيداً عنها.

The Chronicle of Maarcellinus , p . 84 .
Gregorovius , History of The City of Rome , vol . I . PP . 195 - 197 .
Platina , The Lives of The Popes, London , 1938 , p . 103 .

(99) Anonyomus , in Reading in European History , pp . 49 – 51 .
Herbert, Attila , 64 .
Hutton , Attila and The Huns , P.140 .
Priscus, in The Age of Attila ,p 108 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 454 .
Jordanes, The Gothic History , Chapter XL II.. P. 114 .

(100)Hutton , Attila and The Huns , P.140 .
Prosper Account , in Reading in European History , pp . 49 – 51 .
The Cambridge Medieval History , vol . I . P. 365 .

Gregorovius , History of The City of Rome , vol . I . P . 198 .
(101)Anonyomus , in Reading in European History , pp . 49 – 51 .
Gregorovius , History of The City of Rome , vol . I . PP . 196 - 197 .
Platina , The Lives of The Popes, pp . 103 – 105
(102) Bury , A History of The Later Roman Empire , vol . I. P.179 .
Gregorovius , History of The City of Rome , vol . I . P . 198 .
(103) The Cambridge Medieval History , vol . I . PP. 364 - 365 .
Hutton , Attila and The Huns , PP.140 - 141.
داهموس ، سبع معارك فاصلة ، ص ٥٢ .

(104) Jordanes, The Gothic History , Chapter XLIII I.. PP. 114 – 115 .
Priscus, in The Age of Attila ,p 109 .
Herbert, Attila , 66 .
(105) Hutton , Attila and The Huns , P.146.
(106) Priscus, in The Age of Attila ,pp. 109 - 110 .
Hutton , Attila and The Huns , P . 147 .
Jordanes , TheGothic History ,Chapter XL IX, PP. 123 – 124 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , pp . 456 - 457 .
The Chronicle of Maarcellinus , p . 22 .
(107) Jordanes , TheGothic History ,Chapter XL IX, PP. 123 – 124 .
(108) Hutton , Attila and The Huns , P . 147 .
(109) Herbert, Attila , 68 .
Sister , Battles of Destiny , p . 53 .

(110) The Gothic History ,Chapter XL IX, PP. 123 – 124 .
(111) The Age of Attila ,pp . 109 - 110 .
لا توجد صورة أو تمثال أو عملة معدنية تحمل صورة أتيلا تحفظ لنا ملامحه لكنه عاش وخلد فى صفحات

التاريخ التى استمدت أوصافه وأعماله من كتابات المؤرخين المعاصرين له .
Hodgkin , Italy and her Invaders , vol . II , Oxford ,MDCCCXC II p . 41 .
(112) Jordanes , TheGothic History ,Chapter L ,P. 125 .
Priscus , The Age of Attila , p. 111 .
Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 457

Hodgkin , Italy and her Invaders , vol . III, Oxford ,1885 , p . 11 .
Hodgkin , Theodoric , PP.28-29.

(113) Gibbon , The Decline and fall of The Roman Empire , vol. II , p . 457 .

Hutton , Attila and The Huns , PP . 148 – 149 .
Hodgkin ,Theodoric , PP.49-50 .

(114) The Age of Attila ,pp . 106 - 107 .

Creasy , The Fifteen Decisive Battles , PP. 126 - 127 .
Sister , Battles of Destiny , p . 48 .

(١١٥) داهموس ، سبع معارك فاصلة ، ص ٥٣ .

قائمة المصــادر والمراجــع

أولاً : المصادر الاجنبية:

The Original Sources:

Ammianus Marcellinus , Translated by Rolfe J.,The Loeb Clasical Library , Cambridge University Press , Vol .1 ,1935 . Vol.III ,1939.

Anonyomus , Translated by Robinson H., Reading in European History , Boston ,Ginn , 1905 .

The Chronicle of Marcellinus , Translated by Croke Brian , Sydney , 1995 .

Gregorovius , History of The City of Rome , Translated by Hamilton A .,Vol .I , London , 1894 .

Gregory of Tours , History of The Franks , Translated by Ernest Brehaut , N., Columbia Universty Press , New York ,1916.

Joannes Antiochenus , Translated by Gordon ,The Age of Attila , Ann Arbor University of Michigan Press , Princeton , 1960 .

Jordanes , The Gothic History , Translated by Mierow Charles , Princeton University Press , Princeton , 1915 .

Olympiodorus , Translated by Gordon ,The Age of Attila , Ann Arbor University of Michigan press , Princeton , 1960 .

Platina , The Lives of The Popes , London , 1938 .

Priscus , The Age of Attila , Fifth Century Byzantium and The Barbarians , Ann Arbor ,University of Michigan Press , 1960 .

Prosper Account , Translated by Robinson H.J., , Reading in European History , Boston ,Ginn , 1905 .

ثانيا : المراجع الاجنبية :

Modern Works:

Bury J., History of The Later Roman Empire from Arcadius to Iren , Vol.I , London , New York , 1889 .

The Cambridge Medieval History , Vol. I , Cambridge ,1911.

Cander J., Dictionary of Geography, London, 1834.

Creasy E. S., The Fifteen Decisive Battles of The World from Marathon to Waterloo , New York , 1882 .

Edward A. Freeman, Aetius and Boniface ,The English Historical Review London , New York ,Vol II , No.VII , Joly ,1887 .

Gibbon. E, The History of The Decline, and fall of the Roman Empire, Vol. II, London, N.D.

Harrison F., Byzantine History in The Middle Ages, London, 1900.

Herbert W., Attila King of The Huns and his Predecessors , A Historical Treatise

Hodgkin Thomas, Italy and her Invaders, Vol. II , Oxford , MDCCCXCII .

Hodgkin Thomas, Italy and her Invaders, Vol. III, Oxford, 1885.

Hodgkin Thomas , Theodoric The Goth , London , 1923 .

Hutton E., Attila and The Huns, London, 1915.

Oman , C., A History of The Art of War in The Middle Ages , London ,1885.

Sister M., Sh. , Battles of Destiny , Pittsburgh , Pennsylvania , 1914 .

Stevenson C., Medieval History, Vol.1, 1953.

ثالثاً: المراجع العربية والمترجمة للعربية :

- إبراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ، مكتبة الهضة المصرية ، ١٩٥٨
- داهموس جوزيف ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد فتحى الشاعر ، الهيئة العامة للكتاب ،١٩٩٢ .
- عفاف صبره، تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المسيرة ، عمـــان ، الأردن ، ٢٠١١م .
- محمود الحويرى ، رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٩٥.

كتب الجغرافيا والرحلات المغربية والأندلسية
مصدر من مصادر التأريخ للأماكن المقدسة بمدينتي القدس
والخليل من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري(١١-١٤م)

د. نواف عبد العزيز الجحمة
أستاذ مشارك، كلية التربية الأساسية
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي/ الكويت

يسعى البحث إلى تحري الأماكن المقدسة في هاتين المعلمتين من خلال المدونات الرحلية المغربية في الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجري إلى القرن الثامن الهجري أي (١١ إلى ١٤م). هذا ويتقصى البحث أهم المقدسات الإسلامية؛ حيث صورة المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة ببيت المقدس، ومقابر الأنبياء عليهم السلام في مدينة الخليل، وكذلك المشاهد والمزارات الذمية (اليهودية والمسيحية) في العصرين الأيوبي والمملوكي، ومن خلال الإفادات والإسهامات الرحلية المغربية والأندلسية نستطيع أن نتبين الخريطة الدينية للأماكن المقدسة في مدينتي القدس والخليل، والدور البارز الذي قامت به الدولة الإسلامية في الاهتمام والعناية بالمقدسات الدينية في تلك الفترة التاريخية قيد البحث.

اقتصر اهتمام الباحثين في المعالم الدينية والحركة الثقافية في بيت المقدس ومدينة الخليل عليه السلام على التآليف والإفادات المشرقية، في حين حظيت إسهامات التآليف المغربية والأندلسية بنصيب قليل من الاهتمام والعناية البحثية[١]. على أن المغرب متأخر زمناً عن المشرق في الإنتاج الجغرافي وتدوين الرحلات، إلا أن الغايات الدينية في الجمع بين زيارة بيت المقدس والخليل وزيارة قبر المصطفى وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد، والمشاركات العسكرية مع

إخوانهم في بلاد المشرق في فترة انطلاق الحروب الصليبية، أتاح لهم مزيداً من التعرف على أهم المشاهد والمزارات المقدسة، ومن ثم فتحت الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى الثامن للهجرة (١١ - ١٤م) منفذاً واسعاً للكتابة عن هاتين المعلمتين المهمتين في المأثور الإسلامي.

هذا، إضافة إلى أن المدونات الرحلية تبرهن في الظروف الحاضرة على أن المسلمين اهتموا ببيت المقدس والخليل طيلة تلك الفترة، أرضاً للسلام وملتقى لأهل الإيمان من كل جهات الأرض، ومنارتين من منارات التاريخ الإيماني للبشرية جمعاء.

وبناء على هذا التقديم الموجز، ارتأينا تقسيم عناصر هذا البحث إلى محورين اثنين رئيسين:

أولاً: المقدسات الإسلامية

ثانياً: مزارات أهل الذمة

ولا بأس هنا من تقديم بطاقات تعريف تتخيرها هذه الدراسة من كتب الجغرافيا والرحلات المغربية والأندلسية وعددها سبعة، مرتبة حسب التسلسل التاريخي:

١ - ترتيب الرحلة للترغيب في الملة

لابن العربي: محمد بن عبدالله، أبوبكر، دفين فاس (ت:٥٤٣هـ/١١٤٨م) [٢]
ولم يعثر إلى الآن على المؤلف المذكور كاملاً، وما لدينا منه منقول في كتب، وبعضها للمؤلف في صورة مقدمة "قانون التأويل" المخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ك٢٥١، يشير فيه إلى أسباب الرحلة، والشيوخ الذين أخذ عنهم بالمشرق، وبعضها لغيره كالمقري الذي أورد في "نفخ الطيب"، تحقيق إحسان عباس، ج٢، بيروت، ١٩٥٨م. كما وردت نصوص عن أبي بكر بن العربي في كتابه "شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان". مخطوط خ.ع.د ١٠٢٠. حيث حققت ذلك الدكتورة عصمت دندش ونشرته في مجلة المناهل، ع٩.

٢ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

للشريف الإدريسي: محمد بن محمد بن عبدالله الحسني العالي بأمر الله السبتي، المتوفى عام (٥٦٤هـ/١١٦٠م) (٣).

٣ - رحلة بنيامين التطيلي الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي

التطيلي: بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي، رحل سنة (٥٦١هـ/١١٦٣م) (٤) ترجمت الرحلة إلى اللغة العربية، وقام بها عزرا حداد، وصدرت في بغداد عام ١٩٤٥م، وقد اشتمل الكتاب على جميع المراجع العبرية المتعلقة برحلة بنيامين مع المراجع العربية.

٤ - تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار

اسم رحلة ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني البلنسي: المتوفى عام (٦١٤هـ/١٢١٧م) (٥).

٥ - رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية

للعبدري: محمد بن أحمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحيحي: تاريخ وفاته غير معروف (٦)، وكانت رحلته إلى الحج في سنة (٦٨٨هـ/١٢٨٩م).

٦ - تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

لابن بطوطة: محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي: استمرت حياته إلى عام(٧٧٩هـ/١٣٦٨م)(٧).

٧ - تاج المفرق، في تحلية علماء المشرق

للبلوي: خالد بن عيسى بن أحمد الأندلسي القنتوري (رحل عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، وكان حياً عام (٧٥٥هـ/١٣٥٤م).

أولاً: المقدسات الإسلامية

١ـ صورة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ببيت المقدس:

كان جل حجاج المغاربة يمرون بفلسطين عند رجوعهم من الحج، لينعموا

برؤية مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويحققوا الأجر في الرحلة إلى ثالث الحرمين، استناداً لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر أفضلية شد الرحال إليه، والإهلال بالحج والعمرة منه: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا"، وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من أهل بحج أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف إلى المسجد الحرام غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ووجبت له الجنة" (٨).

من أجل ذلك، عرج عليه عشرات بل مئات من المغاربة الأعلام ممن كانوا نبراساً يهتدى به في الديار المغربية، فكانوا يعطرون بذكره المجالس، وكانوا يروون عن الأئمة الأعلام الذين صادفوهم هناك (٩). ومن أوائل السفراء المغاربة الذين زاروا بيت المقدس القاضي الإمام عبدالله بن العربي الذي رحل في عهد الدولة المرابطية بصحبة ولده القاضي أبي بكر سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، في سفارة سياسية لدى الخليفة المستظهر العباسي(١٠) من قبل السلطان يوسف بن تاشفين (١١). وهذا القاضي أبوبكر هو صاحب الرحلة التي اشتهر أمرها بين المتقدمين فنقلوا منها ما شاء الله أن ينقلوا. لقد وصل القاضي أبوبكر بصحبة أبيه إلى بيت المقدس، وكان فيها الإمام المشهور أبوبكر الطرطوشي الفهري(١٢) الذي يعد من كبار علماء المالكية بالأندلس آنذاك، وهو كابن العربي، خرج من بلاده في زيارة القدس، وقد ظفر من لقائه بالإمام بالإفادة العلمية(١٣).

ونجد أن الرحالة العبدري الذي أقام ببيت المقدس خمسة أيام قد لفت انتباهه المميزات التي اختصت بها تلك المدينة من المشاهد المقدسة؛ يقول واصفاً: "ثم وصلنا ببيت المقدس زاده الله تعظيماً: ويحفه مبرة دائمة وتكريماً.. وبها رباطان متقاربان في غاية الإتقان، بنى أحدهما الملك المنصور، وبنى الآخر الأمير علاء الدين الأعمى، وفي كليهما رزق جار للمنقطعين وأبناء السبيل..." (١٤) وقد وصف العبدري المسجد الأقصى بأنه من المساجد الرائقة العجيبة المنشرحة الفسيحة، وبعد

أن ينقل عن الجغرافي أبي عبيدالله البكري[١٥] الذي اعتمد في إفادته على غيره، يقول: "إن المسجد كله فضاء غير مسقوف إلا الناحية الغربية.. وفي وسط فضاء المسجد قبة الصخرة وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض وأتقنها وأغربها، وقد نالت من كل حسن بديع أوفر حصة، وتلت من الإتقان ظاهره ونصه.. وصفتها أنها قبة مثمنة على نشز وسط المسجد.. وأما الذهب فما رأيته مبتذلا في شيء ابتذاله في هذه القبة!) [١٦].

ثم يتحدث العبدري عن الصخرة الشريفة التي جاء ذكرها في الآثار، وأنه عليه السلام عرج عنها إلى السماء. وصفتها هي "صخرة صماء، علوها أقل من القامة، وتحتها شبه مغارة على مقدار بيت صغير يعلو قدر القامة وينزل إليه في درج وقد هيئ له محراب، وعلى الصخرة شباكان محكمان يغلقان عليها: أحدهما وهو الخارج من الخشب، والآخر من حديد أصفر محكم العمل بديع الصنعة [١٧]. وفي القبة صورة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك وأظنها مرآة، ولكنها قد صدئت وزال صقالها. والعوام تقول إنها درقة حمزة، واشتهر عندهم هذا الزور حتى صار في حد المقطوع به" [١٨]. وبعد العبدري يأتي شيخ الرحالة ابن بطوطة الذي وصل إلى بيت المقدس في سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م في عصر سلاطين المماليك. وقد زار المسجد الأقصى أكثر من مرة، إلا أن وصفه لبيت المقدس كان في الزيارة الأولى. يقول: "ثم وصلنا إلى بيت المقدس - شرفه الله - ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ومعرجه إلى السماء".. أما وصفه للمسجد الأقصى بأنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه.. وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاثة. وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً وهو الذي يدخل منه الإمام، والمسجد كله غير مسقوف إلا المسجد الأقصى فهو مسقوف، في النهاية من إحكام العمل وإتقان الصفة، مموه بالذهب والأصبغة الرائعة.. [١٩]". ولقد تحدث ابن بطوطة عن قبة الصخرة الكريمة، كما هو الحال عند العبدري، لكن لم يضف على وصفه شيء يذكر. وقد حط ركب البلوي في مدينة القدس ضحوة يوم الأحد الثاني من شعبان عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م، وهنا يصف المدينة بأنها بلدة "الأفق

المميز ونجمه.. سامية الارتفاع، مشرفة البقاع، مباركة الأغوار والقلاع، تشهد لسكانها بالثراء والسنا.. ظل ظليل وماء سلسبيل.. ولقد قصد الحرم الشريف والمسجد العظيم المنبثق، الذي بارك الله حوله وعرفت كل أمة فضله: المسجد الأقصى موضع المعراج والإسراء.. وهذا المسجد الشريف هو أعظم المساجد في الدنيا".. [٢٠] وينفرد البلوي بعنايته الفائقة بتسجيل المنقوشات التاريخية والنصوص التأسيسية، وهذا إن دل، فإنما يدل على ما يتمتع به الرحالة من دقة الملاحظة في تدوين كل ما يشاهده؛ لأن بعض من سبقه أهملها افتياتاً وكسلاً. لذا تحتل نصوصه المكانة التاريخية بوصفها مصدراً لتأريخ العمائر الدينية في هذه البقعة المقدسة. وفي معرض حديثه عن المحراب المقدس في المسجد الأقصى ذكر أنه نقش في أعلاه بالمذهب أربعة أسطر ما نصه: "أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبدالله ووليه يوسف بن أيوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا[٢١] عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م)، وهو يسأل الله إيزاعه بشكر هذه النعمة، وإجزال حظه في المغفرة والرحمة.." [٢٢]. أما وصفه - (قبة الصخرة الكريمة) فقد ذكر فيه أنه كتب في وسطها بالذهب في أرض سماوية لازوردية على الدائرة ما نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم - أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الناصر العالم العادل المجاهد المؤيد من السماء، ناصر الدنيا والدين، محيي العدل في العالمين، وظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، محرر ممالك الدنيا، ومظهر كلمة الله العليا، مشيد أركان الشريعة الشريفة، سلطان الإسلام، الشهيد الملك المنصور قلاوون [٢٣] تغمده الله برحمته، وذلك في شهور سنة ثمان عشرة وسبعمائة (١٣١٨م) [٢٤]، ومن قبل كان البلوي تحدث عن الصخرة الكريمة، ووصفها، كما هو الحال عند سابقيه، غير أنه أضاف في الطرف القبلي من الصخرة الشريفة - أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم [٢٥]، يتبرك بها الناس، ويمرغون خدودهم فيه [٢٦].

هكذا نجد أن الرحالة المغاربة يلتقون في المعلومات المتعلقة بالصخرة الكريمة، وهذا هو ما نقرأه عند الرحالة المشارقة الذين دخلوا بيت المقدس، فها هو الرحالة ناصر خسرو [٢٧] الذي زار بيت المقدس عام ٤٣٨هـ/١٠٤٧م، وزار قبة الصخرة، وذكر أن الصخرة كانت قبلة لموسى وسليمان عليهما السلام، وكانت قبلة إلى عهد نبينا عليه السلام، فكان المصلون يولون وجوههم شطرها، إلى أن أمرهم الله تعالى أن يولوا وجوههم شطر الكعبة [٢٨]. أما الرحالة الهروي [٢٩] الذي زار القدس سنة ٥٦٩هـ/ ١١٨٤م فقد ذكر أنه رأى الصخرة في زمان حكم الفرنج بالقدس، وأنه قرأ كتابة في سقفها هذه صورتها: بسم الله الرحمن الرحيم "اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ.." إلى آخر الأية، والكتابة بالفص المذهب.. ولم تغيره الفرنج.. تحتها مغارة الأرواح.. ذكروا أن أرواح المؤمنين يجمعها الله بها. وينزل إلى هذه المغارة في أربعة عشرة درجة" [٣٠].

وقد أفرد العمري [٣١] صاحب كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" القدس بفصل خاص – ينقل عن التيفاشي في كتاب "سرور النفس بمدارك الحواس الخمس" أن المسجد الأقصى، في قبة السلسة كان مجلس داود عليه السلام، وفيه أيضاً الموضع الذي عرج بالنبي عليه السلام بالملائكة على قبة يقال لها قبة الملائكة، وفيه الصخرة التي كان يقرب عليها يوشع بن نون خلافة لموسى بن عمران. وفيه محراب مريم، وفيه متعبد زكريا، وهو نفسه من بناء داود وسليمان – عليهما السلام–" [٣٢]. ويتضح لنا مما سبق أن اهتمام الرحالة المغاربة ببيت المقدس، لا يقل إطلاقاً عن اهتمامهم بمكة والمدينة، فالخطوط العريضة في وصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة الكريمة من قبل الرحالة، هي مؤشر على إظهار القداسة الدينية لهذه المشاهد المباركة، وقد اعتمدنا في ذلك كله على الإفادات والإسهامات المغربية بوصفها وثائق ومرجعيات تاريخية يستند إليها كما هو الحال مع الإفادات المشرقية.

٢ – مقابر الأنبياء بمدينة الخليل [٣٣] عليه السلام:

هناك الكثير من المرويات تفيد فضل الخليل عليه الصلاة والسلام وفضل

زيارته. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: "وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا" (٣٤). من أجل ذلك، عرج عليه الرحالة المغاربة بقصد الزيارة والتبرك، عارفين بقدر المقام الكريم، ومستأنسين بالصلاة والسلام على الأنبياء والمرسلين، ومتوجهين بعزم ورغبة في نيل الأجر والمثوبة والإقلاع عن الذنوب بالتوبة النصوح. يحدثنا الجغرافي المشهور الشريف الإدريسي السبتي (٥٤٨هـ/١١٥٤م) صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" عن مدينة الخليل يقول "إنها قرية ممدنة، وبمسجدها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب، كل قبر من قبورهم تجاه قبر امرأة صاحبه. وهذه المدينة في وهدة بين جبال كثيفة الأشجار أعني شجر الزيتون وفواكه كثيرة.." (٣٥).

أما الرحالة العبدري فابتدأ بزيارة مدينة الخليل في سنة ٦٨٨هـ يقول واصفاً: "وفي داخل المسجد قبر الخليل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام (٣٦) وتقابلهم من ناحية يسار القبلة ثلاثة قبور أخرى وهي قبور أزواجهم، وقد نزلت إليه (المغار الكبير) وتأملته مراراً.." (٣٧)، واستند العبدري على أدلة نصية تثبت صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام. منها أنه قيد بخط المحدث الإمام أبي عبدالله محمد بن مفرج الأندلسي في تأليف علي بن جعفر الرازي كتاباً سماه "المسفر للقلوب" وقد روى فيه عن مؤلف المذكور حديثاً صدر به التأليف مسنداً إلى أبي هريرة، رضي الله عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أسري بي إلى بيت المقدس مر بي جبريل إلى قبر إبراهيم، فقال انزل صل ها هنا ركعتين فإن ها هنا قبر أبيك إبراهيم عليه السلام.." (٣٨).

ومنها أنه سمع من أحد العلماء أنه سئل عن قبر إبراهيم عليه السلام، وعن صحبته، فقال: ما رأيت أحداً من الشيوخ الذين لحقتهم من أهل العلم، إلا وهم يصححون أن هذه قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأزواجهم ويقولون: ما يطعن في ذلك، إلا رجل من أهل البدع، وهكذا نقل الخلف عن السلف ليس عندي فيه شك. ولم يكتف العبدري في طرح مثل هذه الثبوتيات؛ إذ وجدناه في موضع آخر يستند إلى رؤية قد رآها إمام مسجد قبر إبراهيم عليه السلام في ليلة النصف من شعبان،

يروى فيها خبر رؤيته للأنبياء عليهم السلام ووصفه إياهم على حسب الترتيب، والشكل والهيئة (٣٩). أما الرحالة ابن بطوطة فلم يخرج عن مقالة العبدري، إذ يؤكد لنا كل ما نقله الأخير عن صحة قبور الأنبياء عليهم السلام وأزواجهم في الغار داخل المسجد، كما أنه في الوقت نفسه يستند إلى الوثائق والأخبار التي تبرهن على صحة كون القبور الثلاثة في ذلك الموضع؛ منها: ما نقله من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه "المسفر للقلوب، عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب" (٤٠)، كما استدل ابن بطوطة بالسماع على صحة القبور الثلاثة مع المدرس الصالح والإمام الخطيب برهان الدين الجعبري (٤١) الذي يصفه بأحد العلماء المرضيين والأئمة المشهورين. يقول: "سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك، فقال لي: "كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام، وقبور زوجاتهم، ولا يطعن في ذلك إلا أهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه (٤٢). وعلى الرغم من أن ابن بطوطة يتفق مع الرحالة العبدري حول مواضع قبور الأنبياء عليهم السلام، فإن ابن بطوطة زاد عليهن بتعيين قبر سيدنا يوسف عليه السلام بداخل المسجد. وهذا ما لم تؤكده بعض المصادر، منها ما ذكره الهروي في كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات"، يقول: "بلاطة قرية من أعمال نابلس وبها حقل يوسف الصديق، وقبر يوسف بهذا الموضع عند الشجرة وهو الأصح.." (٤٣). أما الرحالة البلوي فقد دخل مدينة الخليل ضحوة الخميس التاسع من شعبان عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م، ووجد فيها "قصراً عظيم البركة، ظاهر الرحمة، لائح الأنوار، كريم المآثر والآثار.." لقد أدى البلوي وصفاً جميلاً للمسجد الأعظم "الذي رأى من حسنه عجباً، ومن بنيانه ما شئت فضة وذهباً.. وفي وسط المسجد الكريم تربة الخليل أبينا إبراهيم عليه السلام، وأمامه ضريح زوجه رضوان الله عليها، واتجاه ذلك من الجانب الجوفي قبة أخرى عظيمة القدر متناهية الإتقان، تحتها ضريح النبي يعقوب عليه السلام، وأمامه زوجه رضي الله عنها. والله سبحانه أعلم بصحة ذلك كله" (٤٤).. ويبدو أن البلوي يتفق مع ما ذهب إليه الرحالة المغاربة في معاينة القبور الثلاثة في ذلك الموضع،

لكنه في الوقت نفسه يتفق مع ما قاله ابن بطوطة في أن ضريح النبي يوسف الصديق عليه السلام بداخل المسجد الكريم.

أما صاحب كتاب "الأنس الجليل" - فيذكر أن الناس اختلفوا في ذلك، إلا أن المشهور عند الناس هو أن قبر سيدنا يوسف عليه السلام في مدينة الخليل، أضف إلى ذلك، أنه يرى أن هؤلاء الأنبياء الأربعة وهم: إبراهيم الخليل وولده إسحاق وولده يعقوب وولده يوسف وقبورهم في محل واحد، وعليهم من الوقار والجلال ما لا يكاد يوصف [٤٥]، هذا، وقد انفرد البلوي دون الرحالة في ذكر الزوار المترددين على الحرم بغية الزيارة والتبرك. فها هو ذا يلاحظ أن ما بين المسجد الكريم والقبة الجوفية صحن عظيم كبير جداً، فيه مجتمع يتعين الواردين والمقيمين من الأغنياء والفقراء، والأمراء والكبراء للضيافة المباركة، وتنعقد هذه الضيافة في كل يوم بعد صلاة العصر على توالي أحقاب الدهر. ولقد كان البلوي ممن حضر مع جملتهم متبركاً بذلك [٤٦]، وبمقربة مدينة الخليل مزارات ومشاهد مقدسة - يذكر العبدري أنه زار تربة لوط عليه السلام [٤٧]، وهي على تل مرتفع منه على غور الشام، وهنالك عاين بحيرة لوط، "وهو ماء مستبحر أجاج كماء البحر، وهي منقطعة لا تتصل بالبحر ولا هي منه قريبة، ويقال إنها موضع ديار قوم لوط" [٤٨]. ويلاحظ العبدري أن على قبر لوط عليه السلام بنية - وهو في بيت فيها مبيض مليح، والقبر أيضاً مبيض ظاهر لا ستور عليه.. وبمقربة من هذه التربة مسجد اليقين [٤٩].. وبالقرب من المسجد مغارة بها قبر يزار ويتبرك به، وهو قبر فاطمة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين [٥٠].

ثانياً - مزارات أهل الذمة:

١ - المزارات اليهودية:

لا ريب أن العامل الديني هو سبب تلك الرغبة الملحة التي كانت تدفع باليهود إلى ركوب الأهوال واقتحام المخاطر لحج بيت المقدس والتبرك بقبور الأنبياء ومقامات الصالحين. وحج بيت المقدس، وإن لم يعد فرضاً دينياً على اليهودي منذ خراب هيكل القدس في القرن الأول للميلاد [٥١]، وإلا أن اليهودي كان

يشعر بسعادة غامرة لزيارة أماكن التوراة ومهبط الوحي ومثوى الأنبياء، غير مكترث بحقيقة الأمان، ولكونه سيتمتع بحماية الحاكم أو الأمير، لا سيما أيام الحروب الصليبية، والملاحظ أن تيار الرحلات والأسفار اليهودية في العصر الوسيط، كان يتجه دائماً من الغرب إلى الشرق. وقلما تُعرف رحالة من يهود الشرق قد يمم شطر أوربا (٥٢).

وربما يرجع ذلك إلى أن يهود الشرق كانوا أكثر استقراراً وطمأنينة من إخوانهم في الغرب في ظل الحكم الإسلامي الذي أعطاهم حرية الإيمان في المعتقد، فأمنوهم على أزواجهم وما ملكت أيمانهم بدافع الشرع والتسامح الديني. وأما السفر بقصد التجارة فلم يضطر اليهودي الشرقي إلى خوض البحار وتجشم الأخطار؛ ذلك لأن بلاد المشرق العربي كانت مصدراً رئيساً لأكثر البضائع في ذلك الوقت، أضف إلى ذلك أن بيت المقدس لم يكن بعيداً عن اليهودي الشرقي؛ إذ لم تفصله عن أهوال الطبيعة الجغرافية المحفوفة بالأخطار، وهو إذ ما قام بالزيارة لم يكن يشعر باختلاف الزمان والمكان، فالبيئة العربية ومحيطها متشابهة إلى حد ما في كل الأحوال، لذا قلما تجد من بين يهود الشرق من كتب عن رحلته أو دوَّن مشاهدته، كما هو الحال بالنسبة إلى يهود الغرب، فالحاج اليهودي الأوروبي لا يسجل من الأمور سوى ما كان غريباً عنه وعن نفسه ومحيطه، لذلك تعد رحلاتهم وأسفارهم رسائل ثمينة في المصادر التاريخية. ومن مشاهير الحجاج والتجار اليهود الذين وفدوا على فلسطين في هذه الفترة - الرحالة بنيامين التطيلي الذي يعد من وجهة نظر كاتب المقدمة من "الثقات العارفين بالتوراة والشرع، وأن التدقيق والتمحيص قد أيدا ما رواه في رحلته" (٥٣). على أية حال، فقد لوحظ أن بنيامين لم يبدأ بالإسهاب والتفصيل، إلا عندما وطأت أقدامه أرض الشرق العربي في فلسطين وبلاد الشام - وهو الغاية الرئيسة لرحلته - فصار يتنقل بين نواحي فلسطين، ويدون ملاحظاته على ما زاره من قبور الأنبياء والمشاهد ومقامات الصالحين، ناصباً في مخيلته أسماء المواقع وصورتها في التوراة والتلمود، يبقى لنا أن نتعرف أن نظرة الرحالة بنيامين تجاه المزارات المتعلقة باليهود في مدينتي القدس والخليل؟

لقد وصل بنيامين إلى بيت المقدس في سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م في أثناء العدوان الصليبي، وبطبيعة الحال كانت هذه المزارات حينذاك بأيدي النصارى وتحت إدارة إشرافهم، وأول ما قصد بنيامين من المزارات بيت المقدس الذي وصفه "بمعبد سليمان" [٥٤]، وقد ذكر أن فيه طبقة عسكرية صليبية تقدر بنحو ثلاثمائة فارس عرفوا بـ"فرسان المعبد"، مهمتهم حماية حجاج النصارى الوافدين على بيت المقدس. هذا فضلا عن فرسان الاحتياط الذين يتوافدون من بلاد الإفرنجة وسائر ديار النصارى، من الذين ينذرون الخدمة في هذا المقام نحو سنة أو سنتين.

وفي معرض حديثه عن حرم بيت المقدس (المسجد الأقصى - قبة الصخرة)، ذكر أن قبالة هذا البناء يوجد الحائط الغربي [٥٥]، يقول في وصفه: "وهو من حيطان قدس الأقداس في الهيكل القديم. ويسميه اليهود "باب الرحمة" [٥٦] يحجونه لإقامة الصلاة في باحته" [٥٧]. وبعدها ينتقل بنيامين للمشاهد والمزارات الأخرى تباعاً، فها هو ذا يشاهد أطلال الإصطبلات [٥٨]: "التي عمرها الملك سليمان بجوار قصره، وقد استعمل في بنائها الصخر الجسيم المنحوت، مما لا نظير له في بناء آخر. وهناك أيضاً أطلال المذابح [٥٩] التي كانت الأضاحي تقدم عليها في سالف الزمان. وقد جرت عادة حجاج اليهود وزوارهم في هذه الأماكن أن يكتبوا أسماءهم على الحيطان الملاصقة[٦٠]. يمكننا بنيامين من مشاهدة أشهر المقابر اليهودية في واد يقال له "قدرون" [٦١]، منه ما يشاهد النصب الذي أقامه أبشالوم[٦٢]، ومرقد الملك عزية[٦٣] ونبع السلوان[٦٤] الذي يمر بوادي قدرون، وأوضح أن فوق هذا النبع من آثار الأسلاف، وليس فيه من الماء إلا يسير، لذا يشرب غالب أهل القدس ماء المطر الذي يجمعونه في الصهاريج المعدة لهذا الغرض[٦٥]. كذلك من أهم المواقع المقدسة التي ذكرها بنيامين (جبل صهيون)، الذي يعد من الجبال التي كتب لها أن تكتسب أهمية كبرى في تاريخ القدس، وتدلنا المزامير العبرانية على أن جبل صهيون الذي يقع شمالي تل الأكمة في القدس كان موقعاً مقدساً [٦٦]، وبعض المزامير العبرانية استخدمت في العبادات الإسرائيلية على جبل صهيون. ويقع سر اهتمام بنيامين لهذا المكان الجغرافي المقدس، أن عليه بيعة للنصارى،

وثلاثة مقابر قديمة لليهود، فوق كل قبر حجارة محفور عليها تاريخه، لكنه في الوقت نفسه، ينتقد الإفرنج لهدمهم هذه القبور، حيث يستعملون حجارتها لبناء بيوتهم(٦٧).

وأيضاً – وعلى جبل صهيون – قبر الملك داود عليه السلام وسائر الملوك من نسله(٦٨). لكن هذه القبور كانت عافية الآثار، ولا تكاد تعرف في عصره على حسب قوله(٦٩). وهنا نستطيع أن نتصور أن بنيامين كان يعرف المقدسات اليهودية حتى ولو لم يكن يراها بعلمه المسبق بالخريطة العقدية للحرم المقدس، وإلا كيف يتقصى هذه الأماكن المقدسة دون رواية أو دراية أو سؤال بخبر.

ولقد قصد بنيامين مدينة الخليل، وذكر أن النصارى يسمونها St. Abram De Bron ومدينة حبرون Hebron عرفت بهذا الاسم منذ القدم، وهي الآن خراب على حد قوله.

أما المدينة الجديدة فمشيدة في بطن الوادي في حقل فيه المغارة التي فيها قبور الأنبياء عليهم السلام، وأوضح بنيامين أن الإفرنج حولوا جامع الحرم الشريف في الخليل إلى مقر للأسقفية اللاتينية تدعى (كنيسة القديس إبراهيم) – وكانت في أيام حكم المسلمين كنيساً لليهود، حتى استولى الإفرنج عليها.

وقد ذكر أن بهذه الكنيسة "ستة قبور يقول النصارى: إنها أضرحة إبراهيم وسارة ويعقوب وليئة"(٧٠)، وهنا تتطابق رؤية بنيامين مع الرحالة في خبر صحة هذه القبور الشريفة إلا أنه اعتمد في رؤيته هذه المرة على النصارى المقيمين في ذلك الموضع، وليس على علمه من الأسفار، وقد لوحظ في هذه الفترة تردد الكثير من اليهود لزيارة المشهد الخليلي بقصد الحج والتبرك، وكان يتناوب على حراسته والعناية به حارس معين من قبل الإدارة الصليبية، مهمته أخذ الضرائب من الزائرين ليمكنهم من زيارة هذا المقام. يقول بنيامين: "يحجها اليهود للتبرك لقاء إتاوة يؤدونها(٧١)، فإذا جاء يهودي دفع المال إلى الحارس القيم على القبور، فيفتح له باباً من حديد يرتقي عهده إلى أسلافنا طاب ذكرهم".. ويذكر بنيامين أن من عادة اليهود في هذا المقام أن يأتوا بعظام موتاهم، فها هو يعاين العدد الكبير من القوارير

المملوءة بعظام الموتى في هذا الموضع [٧٢]. يتضح من نص بنيامين أن للدولة الصليبية سياسة ثابتة في إدارة المزارات والمشاهد المقدسة، فقد فرضت على الجالية اليهودية ضريبة زيارة المقام، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على تكاثر أعداد اليهود للزيارة إبان الحكم الصليبي بغية الحج، وقد استفادت الدولة بسن هذا القانون، لما له من مردود مادي على مداخيل الدولة، خصوصاً في هذه الظروف السياسية الصعبة وقتذاك، وينفرد بنيامين بذكر مزار آخر لم نلحظه عند الرحالة المغاربة في مدينة الخليل، ألا وهو دار يقال إنها كانت لسيدنا إبراهيم عليه السلام تقع بظاهر الغار المذكور، وقد أفاد أن الدولة لا تسمح لأحد أن يشيد حوله بناء، إجلالاً لمقام هذا النبي الكريم[٧٣]، وها هي إشارة أخرى من بنيامين تفيد ما أولت به الدولة الصليبية من رعاية واهتمام للمشاهد والمزارات، فلا نستغرب وجود استقلالية في إدارة المزارات من قبل الدولة لتحقيق أهداف سياسية ودينية مرجوة، وإذا كنا قد استندنا إلى إفادات بنيامين في تبيان مزارات ومشاهد اليهود بالقدس والخليل في القرن السادس الهجري، فذلك لأنه معني بأحوال طائفة اليهود من جميع الجوانب، أكان ينتظر من يهودي في تلك الفترة غير هذا؟

٢ - المزارات النصرانية والكنائس المقدسة:

تحتل فلسطين مركزاً رفيعاً في قلوب المسيحيين، ينظرون إليها نظرة تقديس وإجلال، شأنهم في ذلك شأن المسلمين واليهود. والتاريخ الكنسي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك البقعة المقدسة. فقد لوحظ في العصر الوسيط، وخصوصاً في ظل الحكم الصليبي أن الحجاج الأوربيين يتوافدون على بيت المقدس من كل حدب وصوب، شغوفين بزيارة الأماكن المقدسة التي لها علاقة وثيقة بالسيد المسيح ورسله وحواريه. وقد امتلأت الكتب والرحلات القديمة بأخبار أولئك الحجاج، من حيث حركة تنقلاتهم وروايات أسفارهم وسجلات مشاهداتهم، ويحفظ لنا التاريخ أسماء عدد من مشاهيرهم وعظمائهم[٧٤] الذين لهم السبق في الاكتشافات الأثرية في القدس وأطرافها، وهو ما سهل على الحجاج معرفة الجغرافيا المقدسة التي خبرها المسيحيون على مر العصور.

على أية حال، لقد كان لنا في مدونات الرحالة المغاربة إسهام علمي رفيع في تحري المقدسات المسيحية وتقصيها؛ إذ كانوا يدققون في مشاهدتهم للمقدسات، وكأن لهم دراية مسبقة بالكتب السماوية، وبـــ "جغرافية المجال المسيحي" في هذه البقعة. لذا تعد إسهاماتهم في هذا الشأن معلماً تاريخياً في المأثور الإسلامي والمسيحي.

ومن الرحالة الذين زاروا بيت المقدس في ظل حكم الصليبيين القاضي الإمام عبدالله بن العربي وولده القاضي أبوبكر سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، حيث ترك لنا ابن العربي وصفاً دقيقاً لمعلم مقدس عند النصارى، وهو جبل طور زيتا [٧٥]، يقول في وصفه: "شاهدت المائدة بطور زيتا مراراً، وأكلت عليها ليلاً ونهاراً، وذكرت الله سبحانه فيها سراً وجهاراً، وكانت صخرة صلداء لا تؤثر فيها المعارك، وكان الناس يقولون: مسخت الصخرة.. والذي عندي أنها صخرة في الأصل وقطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء، وكل ما حولها حجارة مثلها، وكان ما حولها محفوفاً بقصور، وقد نحتت في ذلك الحجر الصلب بيوت أبوابها منها ومجالسها منها مقطوعة فيها.. وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس.. وكنا نفاوض الكرامية والمعتزلة والمشبهة واليهود، وخاصمنا النصارى بها، وكانت البلاد لهم يكرون ضياعها ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها.."[٧٦].

أما الشريف الأدريسي السبتي (٥٤٨هـ/١١٥٤م)، صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، فقد وصف بيت المقدس بأوصاف أكثر دلالة وعمقاً، وما يهمنا في وصفه ما أورده عن المقدسات المسيحية، فقد حدثنا الإدريسي عن أعظم الكنائس وأقدمها عهداً وهي الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة [٧٧] ويسميها المسلمون قمامة: "وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها.. وهي من عجائب الدنيا.. ولها باب من جهة الشمال ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة، ويسمى هذا الباب باب (شنت مرية)، وعند نزول الداخل إلى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة المعظمة وعليها قبة معقودة، وقد أتقن بنيانها وحصن تشييدها وأبدع تنميقها.. وإذا خرجت من هذه

الكنيسة العظمى وقصدت شرقاً ألفيت البيت المقدس الذي بناه سليمان بن داود عليهما السلام، وكان مسجداً محجوجاً إليه في أيام دولة اليهود، ثم انتزع من أيديهم وأخرجوا عنه إلى مدة الإسلام، فكان معظماً في ملك المسلمين، وهو المسجد المسمى بالمسجد الأقصى عندهم". وعندما تناول الإدريسي أبواب القبة الأربعة ذكر أن الباب الغربي يقابله مذبح كان بنو إسرائيل يقربون عليه القرابين، وبالقرب من الباب الشرقي الكنيسة المسماة بقدس القدس، وهي لطيفة القدر، والقبلي منها يقاله المسقوف الذي كان مصلى للمسلمين، "فلما استفتح الروم بيت المقدس – وبقي المصلى بأيديهم إلى وقت تأليفنا لهذا الكتاب (٥٤٨هـ/١١٥٤م) صيروا هذا المسقوف من المسجد بيوتاً سكنها (الداوية) يعني خدام بيت الله.. وأضاف أن هناك باباً آخر مفتوحاً يعرف بباب الأسباط[٧٨]، "إذا خرجت من باب الأسباط تجد كنيسة كبيرة حسنة جداً على اسم السيدة مريم ويعرف المكان بالجسمانية"[٧٩]. ثم ينتقل الإدريسي إلى ما يلي بيت المقدس من ناحية الجنوب حيث كنيسة صهيون[٨٠]، وفيها المائدة باقية إلى الآن. يقول الإدريسي: "ومن باب صهيون تنزل في خندق يعرف بوادي جهنم، وفي هذا الخندق عين السلوان، وهي العين التي أبرأ فيها السيد المسيح الضرير الأعمى.."[٨١]. أما مشاهدات بنيامين للمقدسات المسيحية ببيت المقدس، فكانت مختصرة بخلاف ذكره ووصفه للمزارات اليهودية؛ إذ يكتفي بذكر أشهر المزارات المسيحية في صورة مقتضبة، بالرغم من أنه معني بالتفصيل والإسهاب، لأنه دخلها إبان الحكم الصليبي. يقول: "وبالقدس كنيسة كبرى تدعى (كنيسة الضريح الأقدس) منسوبة إلى مسيح النصارى، يحجها عدد غفير منهم"[٨٢]، وأشار بنيامين أن لحجاج النصارى الوافدين على بيت المقدس حماية خاصة بأمر من الدولة الصليبية – فهي تخصص طبقة عسكرية من فرسان الصليبيين، عرفت باسم (فرسان المعبد) – وهي شبيهة بمنظمة خاصة سن لها نظام خاص أدى إلى استقلالها في تدبير شؤون مهامها[٨٣]. أما إذا رجعنا إلى إفادة الرحالة ابن جبير الذي زار المشرق في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ؛ أي في الفترة التي شهدت احتكاك المسلمين بالفرنج، رأينا التسامح الديني بين المسلمين

والنصارى، وبالرغم من أن ابن جبير لم يزر بيت المقدس وقتها لكونه يوم ذاك بيد الصليبيين، لم تخل رحلته من ذكر بعض التفصيلات المهمة التي تخص الأرض المقدسة وأطرافها، ففيما يتعلق بالأمن وحرية الحركة لقوافل التجار النصارى وحجاجهم، يذكر أنه لما عزم على الرحلة إلى عكا، التمس ركوب البحر مع تجار النصارى، وأوضح أن مراكبهم لا تستعد إلا في فصل الخريف المعروف عندهم "بالصليبية" (٨٤). وفي موضع آخر يقول إن من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهما، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهما دون اعتراض عليهم.. واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا ذلك . وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض.. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية"(٨٥)، هذا ولم ينقطع توارد الحجاج النصارى الأوروبيين على فلسطين حتى في ظل استرداد بيت المقدس من قبل السلطان صلاح الدين، ذلك أن سياسته أتاحت أفضل الوسائل والسبل للوفود والجاليات للقدوم إلى هذه البقعة، كما كان لمبدئه في تطبيق سياسة التسامح الديني الأثر البالغ لأصحاب الكتب السماوية، وقد توالت حملات حجاج النصارى إلى بيت المقدس حتى في ظل الحكم الإسلامي ممثلة بالدولتين الأيوبية والمملوكية.

فسياسة التسامح الديني للأديان السماوية لم تتغير، بل أصبحت مع مرور الأيام قاعدة من القواعد السياسية المعتمدة في العلاقات السياسية الخارجية بين نصارى أوربا والمسلمين، والحق أن أفضل من أجاد في تقصي المقدسات المسيحية ومعاينة مزارتها في هذه الفترات التاريخية - هم الرحالة المغاربة والأندلسيون كالعبدري، وابن بطوطة، والبلوي، الذين أتصفوا بالدراية المسبقة للأماكن المقدسة قبل مشاهدتها، والتمعن العميق في معاينتها، والدقة والتفصيل في النقل عنها. لوحظ أن العبدري ابتدأ بزيارة أشهر المقدسات المسيحية في القدس الشريف وهي الكنيسة المعظمة المعروفة بالقيامة، لكنه لم يسمها، وأوضح أن النصارى يحجونها في كل عام، وهي التي يزعمون أن فيها قبر سيدنا عيسى عليه السلام. وأفاد العبدري أن

على كل من يحجها منهم ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الإهانة يتحملها راغماً.. [٨٦]، وعن المنازعات الأخرى ذكر: "إن في شرقي القدس وادياً يعرف بوادي جهنم في بطنه كنيسة يعظمها النصارى، ويقال إن بها قبر مريم عليها السلام" [٨٧].. ومنها بناية أخرى يقال إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء[٨٨].

هذا ويخصص ابن بطوطة فصلاً للحديث عن بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف، وقد تطابق حديثه مع الرحالة العبدري في كل ما يتعلق بالمقدسات المسيحية بالقدس، غير أنه ذكر استمرارية الدولة المملوكية في عهد الناصر محمد بن قلاوون[٨٩] في فرض الضرائب على الحجاج النصارى وإساءة معاملتهم كما هو الحال في عهد المنصور سيف الدين بن قلاوون [٩٠]، أما البلوي فيؤكد ما ذكره سابقوه في وصف هذه الأماكن المقدسة[٩١]، فبعدما أورد البلوي وصفاً للمسجد الأعظم ابتدأ بوصف المزارات والمقدسات المسيحية التي تقع خارج بيت المقدس – موضع ميلاد عيسى عليه السلام[٩٢] بمدينة بيت لحم[٩٣] BETHLEHEM. أما ابن بطوطة فقد سنحت له الزيارة، وعاين موضع ميلاد عيسى عليه السلام، وأضاف أن به أثر جذع النخلة[٩٤]، وعليه عمارة كثيرة (الكنيسة)، وأن النصارى يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به[٩٥].

الخاتمـــــــــة

من كل ما تقدم يمكن استخلاص ما يلي:

(١) من خلال إفادات الرحالة المغاربة يتبين لنا خريطة الأماكن الدينية لمدينتي القدس والخليل في تلك الفترة، هذا إلى جانب أن الرحالة تحدثوا عن الحضور المسيحي إلى جانب الحضور الإسلامي، إلا أنه لم يرد عند الرحالة المغاربة ذكر لليهود في بيت المقدس إلا من خلال ذكرهم للمزارات الدينية.

(٢) إهمال المؤرخين والباحثين الغربيين للدور البارز الذي قامت به الدولة الإسلامية في العناية بالمقدسات الإسلامية والدينية في تاريخ العصر الوسيط.

فهذا العرض يبين بوضوح إسهامها الفعال في الاهتمام بالقدس والخليل ليس في الأيام الأولى لظهور الإسلام فحسب، بل كذلك عندما استولى عليها الصليبيون عام ٤٩٢هـ/١٠٤٩م.

(٣)تشكل نظرة الرحالة المغاربة والأندلسيين إلى هاتين المعلمتين، مصدراً واقعياً، حيث عدوهما من أهم مدن العرب والإسلام في العصر الوسيط، وبخاصة في الفترة التي تلت تحريرهما من أيدي الصليبيين.

(٤)وأخيراً فإن الرحلات تكشف عن جانب التطور التاريخي الذي عاشته مدينة القدس والخليل، أي أننا نستفيد من التطور الذي عرفته المدينتان، ابتداء من العصر المرابطي الذي يمثله القاضي أبوبكر بن العربي، مرورا بالعصر الأيوبي، ثم عصريْ المماليك والمرينيين انطلاقاً من إشارات الفقيه خالد بن عيسى البلوي.

بيبليوغرافيا

١. انظر التازي، عبدالهادي.

- القدس والخليل في الرحلات المغربية: رحلة ابن عثمان نموذجاً، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم ايسيسكو، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- حي المغاربة بالقدس، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٣، ١٩٧٢م.
- مكانة القدس لدى المغاربة، بحث قدم للندوة الأولى للآثار الفلسطينية، جامعة حلب، ١٩٨١م.

أحمد، علي، القدس في نظر المغاربة والأندلسيين خلال العصور الوسطى، مجلة التاريخ العربي، العدد ٩، ١٩٩٩م.

٢. هو رحالة أندلسي كبير، كان قاضي أشبيلية، رحل إلى المشرق سنة ٤٩١هـ، أي أيام الفاطميين - فقد كتب الرحلة حقاً، ووصف مراحلها كوصف طور (زيتا) ببيت المقدس الذي نقله عنه صاحب "نفح الطيب"، (المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج٢، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: ١٩٦٨م، ص ٣٧ - ٣٨، كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، القاهرة: ١٩٦٣م، ص ٢٩٨).

٣. جغرافي مشهور، طاف في البلدان في سن مبكرة، شاهد الكثير من الأقاليم وأحوالها، ثم استدعاه روجار الثاني ملك صقلية إلى بلرمة وصنع له صورة الأرض، وألف كتابه الشهير "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي يسمى أيضاً كتاب رجار، ذكر فيه ما رآه في رحلاته وما جمعه الرواد الذين بعث بهم الملك الصقلي إلى الأقطار، تاريخ الأدب الجغرافي، من ص ٢٨٠. محمد المنوني، الشريف الإدريسي "مجلة دعوة الحق"، السنة التاسعة، العدد الثامن، ص ٧٥ - ٨٦.

٤. لم يتوصل الباحثون إلى ما يلقي الضوء على سيرة هذا الرحالة ومولده ونشأته ومركزه العلمي والأدبي، وكل ما يعرف عنه مأخوذ عن المقدمة الوجيزة التي صدر بها الرحلة كاتب مجهول الهوية وربما كان معاصراً لبنيامين: التطيلي، (بنيامين، رحلة ابن يونه إلى بلاد الشرق الإسلامي، ترجمها وعلق على حواشيها عزرا حداد، ط١، بيروت: دار ابن زيدون، ١٩٩٦م، ص٧).

أحمد الشحلان، رحلة بنيامين التطيلي، "ندوة الرحلة بين الشرق والغرب"، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، ٢٠٠٣م.

٥. بلنسي شاطبي، عني بالأدب وبالحديث، وتقدم في صناعة النثر والنظم، رحل إلى المشرق ثلاث مرات، وزار في الأولى (سنة ٥٨٥هـ) مصر والشام والعراق والحجاز، وكتب رحلته

هذه، وتعد من أمتع الرحلات الجغرافية العربية وأغناها بالملاحظات الاجتماعية والعلمية، نشر الرحلة رايت في ليدن عام ١٨٥٢م، وأعاد نشرها دغويه سنة ١٩٠٧م، ثم نشرت في بيروت. انظر في ترجمته، ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عنان، م١١، ط. القاهرة: ١٩٧٤م، ص ٢٣٣ - ٢٣٤، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٣٣١.

٦. أصله من بلنسيه ونسبته إلى بني عبدالله، كان من سكان الحامة، ونلاحظ أنه نسب سكناه إلى الحامة لا إلى الحيحة، وقد ساق خير الدين الزركلي ترجمتين متتابعتين في كتاب الأعلام، يقدر الوفاة في الترجمة الأولى بعد ٦٨٨هـ، ويحدد الوفاة في الثانية بنحو ٧٠٠هـ. الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الرباط، مطابع عكاظ، ج١، ص ١٧٣-٢٠٩.

٧. هو رحالة كبير، طاف في كثير من أقطار الأرض، وهو من البربر ولد سنة ٧٧٩هـ. قام بعدة رحلات إلى البلدان الأفريقية والآسيوية بالإضافة إلى البلدان العربية وبلغ تطوافه الهند والصين. حج مكة المكرمة، وزار المدينة المنورة، والمشاهد المقدسة كالقدس والخليل، وسجلت رحلاته هذه، وأهمها الرحلة الأولى التي بدأها من مسقط رأسه طنجة والتي قام بها سنة ٧٢٥هـ. انظر تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢١.

٨. هو أبوالبقاء، قاضي المدينة (قنتوريه). طاف بنواحي المغرب والمشرق، وكتب رحلته بأسلوب تكلف فيه الإغراب ووصف فيه أفريقية والقدس ومكة، وأخذ شيئاً من ابن جبير. (بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج٢، ترجمة: جماعة من الباحثين، القاهرة: الهيئة المصرية، ١٩٩٣/١٩٩٥م، ص ٢٦٧. زيدان، جرجي: تاريخ آداب العربية، ج٣، ط٤، بيروت: ١٩٧٨م، ص ٢٢٩ - ٢٣٠).

٩. لمراجعة ذكر فضائل المسجد الأقصى انظر إلى: ابن مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، عمان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣م، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

١٠. القدس والخليل عند الرحالة المغاربة، رحلة ابن عثمان نموذجاً، ص ١١.

١١. هو أبوالعباس أحمد المستظهر بالله ابن أبي القاسم عبدالله المقتدي بالله، أمه أم ولد تدعى (ألطون). بويع بالخلافة بعد موت أبيه سنة ٤٨٩هـ وعمره سبعة عشر عاماً، كانت خلافته خمساً وعشرين سنة، لم تصف الخلافه له، بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب، وتولى الخلافة من بعده ابنه المسترشد بالله، (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عبدالوهاب النجار، القاهرة: ١٩٦٩م، ١٠، ص ٥٣٤).

١٢. هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي اللمتوني، أبويعقوب، أمير المسلمين وملك الملثمين، سلطان المغرب الأقصى، وأول من دعي بأمير المسلمين، دخل الأندلس لنصرة المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية، وانتصر في موقعة الزلاقة على جيوش قشتالة وليون التي كان يقودها ألفونس السادس سنة ٤٧٩هـ، وخلف من بعده ابنه علي في الأندلس وولاه حاكماً عليها، أدركه الأجل في محرم سنة٥٠٠هـ. ابن الأثير، الكامل، ٩، ص ٢١٦. ابن خلدون، المقدمة، م٦، طبعة دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦م، ص ٣٨٦.

١٣. هو أبوبكر بن الوليد الفهري الأندلسي المالكي نزيل الإسكندرية وأحد الأئمة الكبار توفي عام ٥٢٠هـ. أنظر الذهبي، محمد بن أحمد عباس، العبر في خبر من غبر، ج٤، تحقيق: صلاح الدين، الكويت: ١٩٦٣، ص ٤٨.

١٤. نقل المقري في نفح الطيب - نقاشاً علمياً بين القاضي ابن العربي والإمام أبي بكر الطرطوشي في حديث أبي ثعلبة مرفوع: أن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم فقالوا: "بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعوانا وهم لا يجدون عليه أعواناً" المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ٣٧ - ٣٨.

١٥. العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٨م، ص ٢٢٨.

١٦. هو عبدالله بن عبدالعزيز القرطبي، أكبر جغرافي عرفته الأندلس، له تآليف كثيرة في الأدب والجغرافية، أشهرها اللآلئ في شرح الأمالي. وكتاب "المسالك والممالك"، كتاب "معجم ما استعجم" رتبه على حروف الهجاء حسب ترتيب المغاربة، وقد نشره مصطفى السقا عام ١٩٤٥م بلجنة التأليف والترجمة والنشر. تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٧٤.

١٧. تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

١٨. يذكر كيب Gibb أن الشباكين نصبا أيام الاحتلال الصليبي للقدس في القرن السادس الهجري، "أنظر: ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١، تحقيق: عبدالهادي التازي، الرباط، الأكاديمية المغربية، ١٩٩٧م، ص ٢٤٧، هامش ٢١.

١٩. الرحلة المغربية، ص ٢٣٠".

٢٠. رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٢٤٤ - ٢٤٦.

٢١. البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج١، تحقيق: الحسن السائح، المغرب: مطبعة فضالة، ب. ت، ص ٢٤٦.

٢٢. هو يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان، أبوالمظفر، الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي من

أشهر ملوك الإسلام، حقق أعظم الانتصارات على الصليبيين في فلسطين والساحل الشمالي يوم حطين سنة ٥٨٣هـ الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت ثم فتح القدس سنة ٥٨٣هـ، وقد عقد صلحاً مع ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد على أن يحتفظ الصليبيون بالساحل من عكا إلى يافا، وأن يسمح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس، وأن يكون الساحل منها إلى الجنوب لصلاح الدين، أدركه الأجل في دمشق وبويع لولده الأفضل نور الدين من بعده، وكان نائبه على دمشق، (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٢، ص ٩٧ – ٩٨).

٢٣. تاج المفرق، ج١، ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

٢٤. هو قلاوون بن عبدالله، مملوك تركي كان من مماليك نجم الدين أيوب، أعتقه سنة ٦٤٧هـ وكان الملك الصالح اشتراه بألف دينار، فعرف بالألفي، تولى أتابكية الملك العادل بدر الدين سلامش ابن الملك الاهر بيبرس سنة ٦٧٨هـ، ثم خلع سلامش وتسلطن ولقب نفسه الملك المنصور سيف الدين وكانت مدة حكمة أحد عشر عاماً وستة أشهر. أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبع مئة مملوك من الأمراء الجراكسة، وجعلهم بالقلعة وسماهم (البرجية). تسلطن بعده ابنه الملك الأشرف صلاح الدين. (ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٢م، ٤، ص ١٥٨).

٢٥. تاج المفرق، ج١، ٢٥٠ – ٢٥٢.

٢٦. يذكر الجغرافي ياقوت الحموي أن قبة الصخرة التي تزار على طرفها أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم، وتحتها مغارة ينزل إليها بعدة درج. "ياقوت الحموي. معجم البلدان، مادة (المقدس)".

٢٧. تاج المفزق، ج١، ٢٥٢.

٢٨. ولد ناصر خسرو في قياديان ببلاد فارس من أسرة متوسطة، وشغل مناصب حكومية مهمة في الدولتين الغزنوية والسلجوقية، فكان واسع الاطلاع قرأ كثيراً في الديانات، وقد أقام بمصر ثلاث سنوات من سنة ١٠٤٧ حتى سنة ١٠٥٠م، وحج في أثناء هذه الفترة ثلاث مرات، كتب ناصر خسرو وسجل حوادث رحلاته يوماً بيوم في كتابه (سفر نامة). (أنظر إلى الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ط. الأولى، ١٩٩٥م، ج ٢٥، ص ٣٤).

٢٩. ناصر خسرو: سفرنامة، ترجمة يحيى خشاب، دار الكتاب الجديد، ط ٣٠، ١٩٨٣م، ص ٦٩ – ٧٠.

٣٠. هو علي بن أبي بكر الموصلي، سائح مشهور "لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآها" زار الشرق الإسلامي، والهند والقسطنطينية، والمغرب وصقلية ونزل بحلب وتوفي بها. ألف كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات" ذكر فيه أماكن الزيارة التي يزورها الناس في القرن السابع الهجري في العالم الإسلامي. (كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ١، ص ٢٩٥).

٣١. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سوردين، طومين، دمشق: ١٩٥٣م، ص ٣٢ - ٣٤.

٣٢. هو شهاب الدين بن يحيى، ولد بدمشق ومات فيها سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م. شهد ببراعته الكثيرون وعلى رأسهم الصلاح الصفدي. أوتي ثقافة واسعة في التاريخ ومعرفة الممالك والمسالك والأقاليم، ألف كتابه "مسالك الأبصار" وهو من نوادر التراث العربي. (تاريخ الأدب الجغرافي، ١، ص ٤١٠).

٣٣. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: وريتا كرافولسكي، ط١٠، بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦م، ص١٢٣ - ١٢٤.

٣٤. مدينة الخليل: هي بلدة جبرون القديمة Hebron وهي تجاه بيت المقدس مما يلي القبلة، وهي مستديرة حول المسجد من الجهات الأربع، وبناؤها محدث بعد بناء السور سليمان وهو المسجد. أنظر: العمري، مسالك الأبصار، ص ٢١١. (ابن مجير الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٧٦ - ٧٧).

٣٥. سورة النساء، آية ١٢٥.

٣٦. الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج٤، نابولي: مطبوعات المعهد الشرقي، ١٩٨٢م، ص ٣٥٦ - ٣٦٣.

٣٧. يقول الهروي صاحب كتاب "الإشارات إلى معرفة الزيارات": "دخلت القدس في سنة ٥٦٧هـ واجتمعت فيه وفي مدينة الخليل بمشايخ حدثوني أن في سنة ٥١٣هـ في أيام الملك (Baudoin) . انخسف موضع في مغارة الخليل فدخل إليها جماعة من الفرنج بإذن الملك فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وقد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط وعلى رؤوسهم قناديل، فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع وذلك سنة ثلاث عشر وخمسمائة.. (الإشارات إلى معرفة الزيارات. ص ٣٠ - ٣١ - ٣٢. بنيامين التطيلي، الرحلة، ص ١٠٦).

٣٨. الرحلة، ص ٢٢١ - ٢٢٥.

٣٩. لم نقف على ترجمة لمؤلف هذا الكتاب علي بن جعفر الرازي ولا على هذا الكتاب، ويبقى بعد هذا أن نذكر أن زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم لمدينة الخليل وزيارة بيت لحم، وهو في طريقه إلى بيت المقدس، مما لم تنص عليه الآثار النبوية، ولم يروها أبوهريرة رضي الله عنه. المصدر نفسه، ص ٢٢٣. رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٢٤٢، هامش ٦.

٤٠. الرحلة، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

٤١. رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٢٤٢، هامش ٦.

٤٢. هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل بن أبي العباس الجعبري الربعي ولد بقلعة (جعبر)، تعلم ببغداد ودمشق، واستقر بمدينة الخليل، وعرف بشيخه الخليل. له تآليف كثيرة تقارب المئة فيها: نزهة البررة في القراءات العشرة، وشرح الشاطبية وشرح الرائية، أدركه أجله في رمضان ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، القاهرة: ١٩٦٦م، ج١، ص٥١ - ٥٢.

٤٣. رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٢٤١.

٤٤. الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٤.

٤٥. تاج المفرق، ج١، ص٢٤١.

٤٦. الأنس الجليل، ج١، ص ٦٦ - ٧٠.

٤٧. تاج المفزق، ج١، ص٢٤١.

٤٨. يقول الهروي إن قبر لوط عليه السلام في قرية تحمل اسم (كفر بربك)، وإن لوطاً كان يقيم في قرية حملت اسم يقين.. وأيد ابن مجير الحنبلي حديث الهروي في خبر صحة القبر. الهروي، الإشارات، ص٢٢، ابن مجير الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٧٢.

٤٩. يذكر الرحالة اليهودي بينامين التطيلي - أنه بإمكان المشاهد رؤية أهل سادوم (قوم لوط) من جبل الزيتون في بيت المقدس، الرحلة، ص١٠٢.

٥٠. هو مسجد بناه أبوبكر محمد بن إسماعيل الصياحي، فيه مرقد إبراهيم عليه السلام قد غاص في الصخر نحواً من ذراع، ويقال إن إبراهيم لما رأى قرى لوط وهي طائرة في الهواء وقف. وقيل - رقد ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن هذا هو الحق اليقين، لذلك سمي ذلك المسجد مسجد اليقين، وكان بناء ذلك المسجد في شهر شعبان سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م. الأنس الجليل، ج١، ص ٧٢.

٥١. راوية من رواة الحديث، روت عن جدتها فاطمة مرسلا، وعن أبيها وعمتها زينب وبلال بن رباح وغيرهم - توفيت سنة١١٠هـ/٦٢٨م. عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي

العرب والإسلام، ج٤، ط١٠، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩١م، ص٤٤ - ٤٧. الرحلة، ص ٢٢٦- ٢٢٧.

٥٢. الرحلة، ص ١٥.

٥٣. أنظر أسماء الرحالة اليهود الغربيين الذين زاروا المشرق العربي، رحلة بنيامين التطيلي ص ١٦ - ١٨.

٥٤. المصدر نفسه، ص ٢٣.

٥٥. يقول ناصر خسرو: "وقد استخدمت في بنائه (بيت المقدس) حجارة لا يصدق العقل كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها، وقال إن سليمان بن داود عليه السلام هو الذي بناه" يقول الإدريسي: "وقصدت شرقاً، ألفيت البيت المقدس الذي بناه سليمان بن داود عليه السلام، وكان مسجداً محجوجاً إليه في أيام دولة اليهود، ثم انتزع من أيديهم وأخرجوا عنه إلى مدة الإسلام..". أما مجير الدين الحنبلي فيخصص فصلاً عن بناء سليمان عليه السلام مدينة بيت المقدس ومسجدها أنظر إلى ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٦٩ وما بعدها. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٣٥٩ - ٣٦٢. الأنس الجليل، ص ١١٧ - ١٢٥.

٥٦. هو حائط البراق وهو من الأماكن الإسلامية المقدسة، يقع في الجهة الغربية من المسجد الأقصى. (أنظر: محمد هاشم الموسى، القدس الشامخة عبر التاريخ، الكويت: مطابع الخط، ١٩٨٩م، ص ١٣٦).

٥٧. يقول صاحب الأنس الجليل: "وأما أبواب المسجد فأولهم: بابان متحدان في السور الشرقي الذي يقال فيه (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)، وهما من داخل الحائط مما يلي المسجد، أحدهما يسمى باب الرحمة، والثاني يسمى باب التوبة. وهما الآن غير مشروعين، وعليهما من داخل المسجد مكان معقود بالبناء السليماني، ولم يبق في المسجد من البناء السيلماني سوى هذا المكان، وهو مقصود للزيارة وعليه الأبهة والوقار". (الأنس الجليل، ج٢، ص ٢٦ -٢٧).

٥٨. الرحلة، ص ١٠١.

٥٩. يقول صاحب (الأنس الجليل) في (إصطبل سليمان): "وإلى جانب هذا المكان (الأقصى قديماً) أيضاً أسفل المسجد تحت الجهة التي بها الأشجار والزيتون مكان عظيم معقود يقاله له: إصطبل سليمان، وهو داخل تحت غالب المسجد، ولعله من البناء السليماني وهو الظاهر، إلى كل من المكانين المذكورين من تحت سور المسجد القبلي". (الأنس الجليل، ج٢، ص ٢٦).

٦٠. يقول الإدريسي، في نزهة المشتاق: "والباب الغربي منه يقابله مذبح كانوا بنو إسرائيل يقربون عليه القرابين.." نزهة المشتاق، ج٤، ص٣٥٩ - ٣٦٠.

٦١. يقول معلق الرحلة: ما زلت هذه العادة متبعة عند اليهود والمسلمين في أماكن الزيارات. بنيامين التطيلي، الرحلة ص ١٠١، هامش ٤.

٦٢. هو جزء من الوادي الممتد شرقي القدس بين وادي يو شفاط ووادي جهنم. بنيامين، الرحلة، ص ١٠٢، هامش ٣.

٦٣. هو عمود تذكاري، وهو بناء كبير مربع يعلوه قبة هرمية الشكل، تقع أعلى أربعة أعمدة ارتفاعها سبعة أمتار، وهي تقع في قرية عين سلوان، ويسميه العامة (طنطور فرعون)، ويقال إن أبشالوم بن الملك داود أقام لنفسه هذا النصب تخليداً لذكره، لأنه كان بلا ولد، وأغلب المحققين يعتقدون أن هذا النصب أحدث عهداً من أيام داود، فالطرز اليونانية والرومانية ظاهرة في بنائه. (راجع محمد هاشم، القدس الشامخة، ص ١٧٩؛ كارين، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة نصر - فاطمة وعناني، ط ١٠، ١٩٩٨م، ص ٤٩ - ٢٣٩، الرحلة، ص ١٠١، تعليق ٥).

٦٤. هو الملك يهوذا وقد بويع ملكاً على الخليل الذي بويع إيشالوم ابن داود ملكاً على القدس.

٦٥. ونبع سلوان تعرف باسم بئر أيوب - عند التقاء وادي قدرون بوادي جهنم، ولا شك أن عين سلوان أو (عين روجل) كانت بقعة مقدسة في أورشليم القديمة، ويبدو أنها ارتبطت بتتويج ملوك المدينة. يقول صاحب مسالك الابصار: "وهي تخرج من مكان في الجبل الذي عليه بناء القدس، وتجري إلى داخل ذلك الجبل أزيد من غلوة نشاب، ثم تخرج من صدع في الجبل إلى مساحة لطيفة. لا يرى إلا جدولاً جارياً والنبع من داخل الصدع، ماؤها قليل وليس بالكثير". "مسالك الأبصار، ص ٢٠٩، القدس، ص ٦٧).

٦٦. الرحلة، ص ١٠٢.

٦٧. القدس، ص ٣٢ - ٥٠.

٦٨. الرحلة، ص ١٠٢.

٦٩. قال صاحب "الأنس الجليل" نقلاً عن وهب: دفن داود بالكنيسة المعروفة بالجيسمانية شرقي بيت المقدس في الوادي، ويقال إن قبر داود بكنيسة صهيون، وهي التي بظاهر القدس من جهة القبلة بأيدي طائفة الإفرنجية لأنها كانت داره. (الأنس الجليل، ج١، ص ١١٦ - ١١٧).

٧٠. الرحلة، ص ١٠٣.

٧١. الرحلة، ص ١٠٥.

٧٢. تعليق عزرا حداد: يذكر فتاحية (رحالة يهودي) أنه دفع ديناراً ذهباً لتمكينه من زيارة هذا المقام، وأنه دفع ديناراً آخر ليتمكن من زيارة الكهف، الرحلة، ص ١٠٥.

٧٣. الرحلة، ص ١٠٥ - ١٠٦.

٧٤. الرحلة، ص ١٠٦.

٧٥. من أشهر حجاج النصارى: هيلانة - أم قسطنطين الكبير. التي زارت فلسطين في أخريات أيامها فوجدت الضريح المقدس، والصليب الذي قيل إن المسيح صلب عليه على حد زعمهم، ومنهم الإمبراطور أودوسيه التي وسعت أسوار القدس سنة (٤٦٠م)، والراهب المعروف حاج بوردو (٣٣٣م) والقديس جيروم (٤٢٠م)، ويثودوسيوس (٥٢٠-٥٣٠م). (انظر: مقدمة رحلة بنيامين التطيلي، ص ٢٠ -٢١. Earlym Travellers in Palestin, London, Tight the 1949. مدينة القدس عقائد ثلاث، ص ٣٣٣).

٧٦. هو جبل يقع في شرقي القدس يفصل بينهما الوادي. سماها جغرافيو العرب طورزيتا. أما الرومان فيعرفونه بـــ Scopes - وعلى هذا الجبل عقد كتاب الصلح بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأهل بيت المقدس. (الرحلة، ص ١٠٢. الأنس الجليل، ج١، ٢٥٥).

٧٧. المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ٣٧ - ٣٨. مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت: عدد كانون الأول ١٩٦٨. (ابن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق: محيي الدين الخطيب، مصر - المطبعة السلفية، ١٣٧٥هـ، ص ١٤ - ١٥).

٧٨. كنيسة القيامة: بنتها الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين عام ٣٣٥م في الموقع الذي اكتشف فيه الصليب الذي صلب عليه عيسى عليه السلام كما يقول النصارى. ويقال إن الموقع الذي تقوم عليه كنيسة القيامة كان هو الموقع الذي يقوم عليه منزل يوكيم وحنة والدي مريم البتول. ويقول الهروي: "وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها (كنيسة القيامة) -وعمارتها من العجائب المذكورة، ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة، وذلك أنهم يعتقدون أن المسيح قامت قيامته - والصحيح أن الموضع كان اسمه (قمامة) لأنه كان مزبلة - للبلد". وذكر ناصر خسرو الذي زار بيت المقدس قبل الهروي بقرن وربع القرن أن "الكنيسة اسمها (بيعة القمامة) على حسب قول النصارى. ويحج إليها كل سنة كثير من بلاد الروم". (انظر خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب. نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت: دار لبنان للطباعة، ١٩٨٦م، ص ٢٧ - ٢٨. القدس الشامخة، ص ١٥٩ - ١١٠).

٧٩. باب الأسباط: هو من أقرب الأبواب المقدسة وهو باب كبير، يسمى بباب الأسباط نسبة إلى أسباط بني إسرائيل، وهذا يدل على قدمه.

٨٠. كنيسة الجسمانية: هي كنيسة واقعة على سفح جبل الزيتون من الغرب خارج باب الأسباط في وادي قدرون بنتها الملكة هيلانة. وعن كعب الأحبار قال: "لا تأتوا كنيسة مريم التي ببيت المقدس – أي كنيسة الجسمانية – والعمودين اللذين في كنيسة الطور إنهما طواغيت، ومن أتاهما حبط عمله". (أنظر إلى: القدس الشامخة، ص ٢١٠).

٨١. يقول الهروي: "وكنيسة صهيون يقال إن المائدة نزلت على عيسى بن مريم والحواريين بها".. أما بنيامين فيذكر أن على جبل صهيون بيعه للنصارى (الكنيسة). الرحلة، ص ١٠٢.

٨٢. نزهة المشتاق، ص ٢٤٩.

٨٣. الرحلة، ص ١٠.

٨٤. الرحلة، ص ١٠٠، هامش١.

٨٥. يقول ابن جبير: "كانت الريح الشرقية لا تهب إلا في فصل الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلا فيهما، والتجار والحجاج لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذين الفصلين". (ابن جبير، الرحلة، ص ٢٤٣).

٨٦. الرحلة، ص ٢٣٣.

٨٧. الرحلة، ص ٢٢٨.

٨٨. يقول الهروي: "إن قبر مريم أم عيسى في وادي جهنم ينزل إليه في ست وثلاثين درجة". الهروي، الاشارات، ص ٢٨.

٨٩. الرحلة، ص ٢٢٨.

٩٠. تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون عرش مصر ثلاث مرات؛ كانت أولاها سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م بعد مصر أخيه الأشرف خليل، وكان ما يزال طفلا في الثامنة من عمره، ولم يستمر فيها سوى سنة واحدة، والثانية سنة ٦٩٨/١٢٩٩م، ولكنها كانت مجرد سلطنة صورية لم تستمر سوى بضع سنوات، حتى اعتزل هو الحكم سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩، ثم كانت سلطنته الثالثة، الحقيقة سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م، بعد أن جاوز عمره الستين، وكانت تلك الفترة من أهم فترات العصر المملوكي لما تميزت به من ازدهار وإعادة ترتيب للنظام الإداري والمالي في الدولة، (حياة ناصر الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٤، ص ١٩ – ٣٠).

٩١. رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٢٤٩.

٩٢. تاج المفرق، ج١، ص ٢٥٤.

٩٣. وفوق المغارة التي يظن أن المسيح ولد فيها شيدت الإمبراطورة هيلانة، أم قسطنطين كنيسة كبرى عام ٣٣٠م تعد اليوم من أقدس الكنائس المسيحية، يتناوب على حراستها والعناية بها رهبان من الروم واللاتين والأرمن، وعرفت فيما بعد بكنيسة ميلاد المسيح، التي اعاد بناءها عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م مانويل كومنين إمبراطور بيزنطة.

٩٤. تقع قرب البيت المقدس، فيه مكان مهد عيسى بن مريم عليه السلام. قال المقدسي نقلا عن البشاري: "بيت لحم قرية على نحو فرسخ من جهة جبرين، بها ولد عيسى عليه السلام، وفيها كنيسة ليس في الكورة مثلها، ويقال إن فيها داود وسليمان عليهما السلام". (ياقوت الحموي، المعجم، مادة (بيت)).

٩٥. يقول الله تعالى: { **فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً** }.. (مريم: ٢٣). ذكر ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض) أن النخلة إلى الآن معظمة، وقد اختفت النخلة اليوم. (انظر إلى: رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٢٤٤، هامش ١٤).

٩٦. رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٢٤٤.

٩٧. راجع - عبدالهادي التازي، "طريق الإيمان، بحوث الندوة العالمية" القدس، ايسيسكو ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، الميثاق الوطني (الرباط)،٢٣ نوفمبر ١٩٩٥م.

الثورة الموريسكية (١٥٦٨- ١٥٧١م) وإشكالية التأريخ لها

عمر مصطفى لطف

باحث دكتوراه

أشرق نور الإسلام فى إسبانيا فى عام (٩٢هـ/٧١١م)، وحكم المسلمون تلك البلاد التى عرفوها بالأندلس لثمانية قرون، تعتبر العصر الذهبى فى تاريخ إسبانيا، فقد انتشر العلم والثقافة والتسامح والأخلاق الفاضلة. ولكن بدأت مدن إسبانيا الإسلامية فى السقوط فى أيدى ملوك النصارى، حتى سقط آخر المعاقل الإسلامية، غرناطة، فى عام (٨٩٧هـ /١٤٩٢م)، ورغم التسامح مع النصارى فى العصر الإسلامى، إلا انه بعد إنقضاء الحكم الإسلامى، اضطهد ملوك النصارى الموريسكيين، الذين فضلوا البقاء فى وطنهم، عن الهجرة إلى بلاد أخرى، وإن كانت إسلامية. وأدى الاضطهاد إلى موجة احتجاجات وثورات موريسكية عبر سنوات متفرقة، حتى تم الإجلاء القسرى لجميع الموريسكيين. ولهذا تبرز ضرورة دراسة هذه الاحتجاجات والثورات، بمنظور محايد موضوعى، ولكن الباحث لها تواجهه عدة إشكاليات، هى محور بحثنا الحالى.

فى بداية الأمر، لابد من الحديث عن مصطلحين مهمين فى القضية الموريسكية، وهما:

<u>المُدَجّن Mudejar</u> : شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ أوائل القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى، ويقصد به المسلمون الذين حملتهم دواعى العيش على البقاء فى الممالك النصرانية، تحت حكم الإسبان سادتهم الجدد، وذلك قبل سقوط غرناطة الإسلامية Granada فى عام (٨٩٧هـ-١٤٩٢م) (١).

<u>الموريسكى Morisco</u>: أطلق لفظ الموريسكيين فى بداية الأمر ، فى القرن

١٥ أثناء الصراع الأخير بين المسيحيين ومملكة غرناطة الإسلامية، للدلالة على من كان يدخل فى طاعة ملوك النصرانية من أهل اقليم غرناطة، ثم أُطلق على مسلمى غرناطة أجمعين بعد سقوطها فى أيدى ملكى قشتالة وأرغونة، ثم دلّ اللفظ – فى القرن ١٦ – على من بقى من العرب فى الأندلس، سواء من ظل على دينه أو من تنصر، وسواء كانوا يعيشون فى غرناطة أو غيرها من الأقاليم المسيحية[٢].

وقبل الحديث عن التأريخ للثورة الموريسكية، لابد من الحديث عن القضية الموريسكية بصورة موجزة.

١٤٩١م توقيع اتفاقية تسليم غرناطة بين الملكين الإسبانيين وملك غرناطة، وبالتالى سقوط آخر معقل إسلامى فى الأندلس

١٤٩٢ بداية تنصير المسلمين فى غرناطة وإحراق الكتب العربية

١٥٠٠ -١٥٠١م ثورة ربض البيازين Albaycin (وأنحاء أخرى فى مملكة غرناطة) ثم اخمادها وحظر استخدام موريسكيى غرناطة السلاح

١٥٠٢ م قرار يخيّر مسلمى قشتالة Castilla بين التعميد والنفى

١٥٢٠- ١٥٢٢ م حروب الجماعات فى بلنسية. فقد أدى التمرد الذى تزعمته الحركة النقابية المناهضة لطبقة السادة والنبلاء فى بلنسية Valencia أن جعلت الضحايا المفضلين لهم من الموريسكيين، وأجبرت هذه الجماعات الموريسكيين على التعميد تحت التهديد بقتلهم، حيث كان الموريسكيون مصدر دخل للسادة، أى إن عمليات التعميد كانت صورة من صور الإضرار بالسادة. وأثناء الصراع احتمى الموريسكيون بالقلعة الحصينة، وبعد عدة أيام من المقاومة استسلموا بعد أن عاهدهم المتمردون على ألا يتعرضوا لهم بأذى إن هم قبلوا التعميد. وبناء على هذا العهد فتح الموريسكيون الأبواب وقبلوا التعميد، ولكن المتمردين قتلوا منهم بعد التعميد ٦٠٠ موريسكيا دون مراعاة للعهد الذى أعطوه، بل وقالوا "هكذا نرسل الناس إلى الجنة ونرسل النقود إلى الخزانة"[٣].

- ١٥٢٥م كارلوس الخامس يخير موريسيكيي بلنسية بين التعميد والنفي، ويتعهد بأن يكون المتعمدون في مأمن من محاكم التفتيش لمدة ٤٠ عامًا
- ١٥٢٦م تعميد موريسكيي أرغونة Aragon بناءً على قرار بذلك
- ثورة موريسكيي بلنسية في بناغواثيل، وفي سييرا دى اسبادان
- ١٥٦٧م قرار بحظر عادات الموريسكيين وحظر استعمال اللغة العربية، ومحاولة طمس الهوية الإسلامية بكل السُبل، مما أدى إلى حدوث ثورة البُشَرَات Alpujarras
- ١٥٦٨- ١٥٧٠م ثورة البُشَرَات – حرب غرناطة Guerra de Granada La وهزيمة المسلمين في نهاية الثورة
- ١٥٧٠م البدء في ترحيل مسلمي غرناطة إلى قشتالة
- ١٥٧١م قرار بنزع أسلحة موريسكيي بلنسية
- ١٥٨٥م حرب في أرغونة بين الموريسكيين (من زراع الأراضي) والرعاة
- ١٦١٠م الأمر بطرد جميع المسلمين (الموريسكيين) من إسبانيا
- ١٦١٤م انتهاء عملية طرد آخر الموريسكيين

كانت هناك عدة ثورات موريسكية محدودة الانتشار والقوة، مثل : ثورة ربض البيازين بغرناطة – ثورة موريسكيي بلنسية، وهناك ثورة موريسكية عظمى وواسعة الانتشار، واستغرقت عدة سنوات، وهي ثورة البُشَرَات (حرب غرناطة).

- **ثورة الموريسكيين بربض البيازين بغرناطة:**

تصاعدت اجراءات التنصير التي اتخذها الكردينال خمينيث دى ثيسنيروس، فأمر أيضاً بتحويل المساجد إلى كنائس، وحرق آلاف الكتب الإسلامية، مما أغضب موريسكيي غرناطة، فقامت ثورتهم في ربض البيازين Albaycin ، والتي امتدت

إلى جبال البُشَرَات، ولكن الإسبان سرعان ما قمعوها بكل عنف. ورغم ذلك أدت هذه الثورة إلى اعتدال السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين على نحو مؤقت(٤).

- **ثورة البُشَرَات (حرب غرناطة):**

أصدر الملك الكاثوليكي فيليبي Filipe الثاني (١٥٥٦- ١٥٩٨م)، في يناير (١٥٦٧م)، مرسوما يحظر على الموريسكيين حمل أي نوع من الأسلحة، ويحظر عليهم أيضاً التحدث باللغة العربية أو ارتداء الملابس العربية، أو التسمي بأسماء عربية، وحظر الحجاب على نسائهم، وأمر بهدم الحمامات العامة والخاصة، ومراقبة الموريسكيين أيام الجمع والأعياد الإسلامية، وجعل عقوبة من يخالف هذا المرسوم تصل إلى الإعدام.

سعى الموريسكيون لإلغاء هذا المرسوم، دون جدوى، فاندلعت ثورتهم الكبرى بجبال البُشَرَات، في عام (٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م)، وتزعمهم فرج بن فرج، وفتكوا بالحاميات الإسبانية، ثم اجتمعوا تحت إمرة فتى يدعى "فرناندودي بالور"، يتصل نسبه ببني أمية، وتوجوه ملكًا عليهم، تحت اسم "محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة"، وكان وزيره فرج بن فرج، وأمير جيوشه عمه ابن جوهر، وسرعان ما امتدت الثورة إلى سائر مملكة غرناطة، بل وإلى ممالك أخرى في إسبانيا.

وللمواجهة العنيفة من قِبل الدولة للثورة الموريسكية الكبرى، بعث الثوار في طلب العون من أمير الجزائر وسلطان مراكش، وأتاهم عدد من المجاهدين المغاربة والأتراك، ولكن قُتل محمد بن أمية على أيدي بعض رفقته، وتولى ابن عمه مولاي عبد الله محمد المُلك، وصار له جيش صغير عدته عشرة آلاف، أغار به على حصن غرناطة عدة مرات. حينذاك قاد المواجهة مع الثوار، دون خوان Don Juan، أخو الملك فيليبي الثاني، فدارت معارك عنيفة بين الفريقين في غرناطة استمرت لمدة عامين، أمر الملك فيليبي خلالها بنفي الموريسكيين من غرناطة إلى الممالك الأخرى، حتى يأمن جانبهم، وفي الوقت ذاته، أغرى هؤلاء الثوار بالأمان، حتى انفرد دون خوان بمولاي عبد الله وقتله، لتنته الثورة في عام

(٩٧٨هـ/ ١٥٧١م).

أدت هزيمة الموريسكيين فى ثورة البُشَرَات، إلى اقتناعهم بعدم جدوى استمرار المقاومة، فأظهروا جميعهم نصرانيتهم، واستمر غالبهم على اسلامهم سرا[٥].

تواجه الباحث فى الاحتجاجات والثورة الموريسكية عدة مشكلات:

ندرة الكتابات العربية عن الفترة الأخيرة لمملكة غرناطة الإسلامية وما بعد سقوطها وحياة الموريسكيين فى إسبانيا وبالتالى الثورة الموريسكية، وهذه الكتابات العربية أيضاً تلقى بعض الضوء الخافت على تلك الفترة[٦]، حيث لا تهتم بالموريسكيين إلا إذا جاء خبر متعلق بتأريخهم الذين يكتبونه والموريسكيين، ويعزو البعض الآخر هذا إلى عدم عناية الدول الإسلامية بتاريخها، وأن بعض الوثائق اختفت بمرور الزمن أو بفعل فاعل[٧].

لا يجد الباحث هكذا أمامه إلا الأرشيف الإسبانى ، وتختلف المصادر المحفوظة بالأرشيف ما بين نصوص أدبية وتاريخية، ومحاضر محاكم التفتيش، ومحاضر اجتماعات المجلس البلدى، وسوف نتناول كل مصدر على حدة:

الكتابات الإسبانية المعاصرة للأحداث وسماتها:

بعد استيلاء الملك الإسبانى على غرناطة، ظهر بين الأدباء الإسبان اتجاهان : أحدهما يلحق بالمسلمين كل نقيصة، والآخر يبالغ فى إظهار قوتهم. فثار جدال بين الفريقين وتساءل الفريق الأول: لماذا التغنى بأمجاد الأعداء؟ فرد الفريق الآخر: إن الاعتراف بشجاعة الأعداء وقوتهم يحمل فى طياته مديحًا للملك الكاثوليكى الذى انتصر على عدو بهذه القوة وبهذه الشجاعة[٨]. وقد اختفت الدراسات المعارضة لطرد الموريسكيين أو أُخفيت، ولم يصلنا منها أو علمنا عنها إلا من خلال الحديث عنها فى كتب أخرى[٩].

هناك مشكلة فى تقديم القضية الموريسكية بشكل موضوعى، حيث تعتمد الدراسات التأريخية على المصادر الرسمية دون غيرها (مجلس الدولة – مذكرات

البطاركة- آراء مؤيدى الطرد)، وهذه المصادر – كما يقول المستعرب الإسبانى فرانثيسكو ماركيث بيانوبيا- تلوثت لأنها عملت على تبرير الاضطهاد ثم الطرد، لا على تأريخ موضوعى للأحداث، فلم يكن هدفها تحرى الموضوعية، بل التأثير على الرأى العام الإسبانى لإقناعه بقرار الطرد، فى مواجهة رأى عام مناهض لها[١٠].

كان كثير من المؤلفين من رجال الدين المسيحى، الذين لخصوا قضية الموريسكيين على أنهم أشخاص عُرضت عليهم المسيحية فلم يقبلوها رغم صبر السلطات الكنسية، وأنهم خونة للوطن، وأن البلاد سيعمها الخير الوفير فى حالة طردهم منها.

ويؤكد فرانثيسكو ماركيث بيانوبيا أن هؤلاء المؤلفين يهاجمون خصما لن تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه مطلقا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن لهم رأى مستقل أو أسباب يعرضونها، بل كانوا يرددون ما يقوله غيرهم.

ورغم ذلك فإن هذه الكتابات قدمت لنا معلومات مفيدة ليست موجودة فى مصادر أخرى، مثل وصف الحالة النفسية التى صاحبت عملية الطرد[١١].

وكان الفارق بين مؤلف اسبانى موضوعى وآخر تخلى – بعصبيته – عن الموضوعية ، من المتحدثين عن حرب غرناطة، أن أحدهما شهد الحرب وعاصر ويلاتها، وعرف غريمه عن قرب فاحترمه، أما الثانى فكان همه الإشادة بانتصار الوطن ، فألحق بالمهزومين كل المساوئ، ناسيا – أو تعمد نسيان- أنهم أبناء الوطن نفسه أيضًا وإن اختلفوا فى العقيدة[١٢].

وخلال القرن ١٦ كانت هناك شكوك مستمرة حول ثورات موريسكية أو اتصالات للموريسكيين مع سلطان المغرب أو مع سلطان تركيا، ولهذا وُجدت وثائق كثيرة يبدو فيها الموريسكيون فى نظر معاصريهم كمتآمرين ضد المسيحيين وضد الأمن الداخلى والخارجى لإسبانيا، ومن هذه الوثائق محضر جلسات نواب قشتالة المحرر فى سبتمبر ١٦٠٧م وغيره[١٣].

ولم تتحرر المشكلة التأريخية الموريسكية من معالجات تغذيها حملة الدعاية

بعد قرار الطرد، وبالتالى فإنه لا يكاد يوجد كتاب يتعرض للموريسكيين إلا ويذكر أنهم متآمرون وجواسيس وحلفاء طبيعون لكل أعداء إسبانيا الخارجيين ، وعليه فإنهم يمثلون تهديدًا وخطرًا مميتًا(١٤).

وكان هناك نصوص أدبية (مسرحيات – روايات– قصائد) كُتبت فى تلك الفترة، وكان الأدب الإسبانى المتعاطف مع المسلمين يعبر عن أمانى للتعايش والمساواة الاجتماعية مع الموريسكيين فى وطن واحد(١٥).

كان الشعراء الإسبان المتعاطفون مع المسلمين فى القرن ١٦ يعللون إشادتهم بالموريسكيين بأن ذلك يعنى الإشادة بملوك إسبانيا الذين انتصروا على أمة قوية. وكان كثير من القصائد الشعبية الإسبانية فى الفترة الموريسكية لا يخرج عن كونه كتابات دعائية(١٦).

حتى الأدب الأوربى الذى تناول موضوع الموريسكيين فى كتاباته الأدبية، تغافل – إلا قليلاً – عن الثورات الموريسكية ومحاكم التفتيش ومأساة التغريب(١٧).

وهناك بعض الوثائق الفنية مثل اللوحات الموجودة فى متحف بلنسية، حيث رسم فنان معاصر للأحداث لوحات تصف تفاصيل طرد الموريسكيين من موانى بلنسية(١٨).

خلال القرن ١٦ كان يتم تداول مخطوطات باللغة الإسبانية، وكان يستخدمها مؤلفون مهتمون بالتاريخ والفكر الأندلسى، ولكن المؤرخ الإسبانى الشهير كوندى، انتقد بعضها، مشيرًا إلى أن بعضها عبارة عن بعض الأخبار المأخوذة عن كتب عربية سيئة ، مليئة بالأخطاء والحكايات التافهة(١٩)، ولكننا لا ننسى أن كتابات كوندى نفسها نقدها الكثير من المؤلفين، وانتقدوا طريقته العلمية فى التأريخ للأندلس.

جدير بالذكر أن كثيرًا من المصادر الكلاسيكية المتحدثة عن الموريسكيين، لم يتم تنقيحها ونشرها.

وسوف نتناول فى المبحث التالى عرضا لكتابين معاصرين للأحداث:

أهم المصادر الأدبية والتاريخية المعاصرة للثورة الموريسكية:

١- كتاب **"الأحداث المهمة التى وقعت فى أراضٍ مسيحية وخاصة إسبانيا"** لماتياس اسكوديرو كوبينيا : هى المخطوطة رقم ٦٥ فى مكتبة طليطلة العامة ، نُشر بعض فصولها عام ١٩٨٢، ولكن لم تنشر بعد ترجمة كاملة لها. المؤلف لها تولى مناصب عامة واستشارية فى إسبانيا ، وكان رحالة مثقفا وموضوعيا، لا يهمه إبداء السخرية من بعض رجال السلطة والطبقة الأرستقراطية فى عصره. تتكون المخطوطة من ٩٢٤ فصلاً، تتضمن ثورة البُشَرَات منها ٤٢ فصلا، وفى الفصل ٨٠٣ يتحدث عن محاولة موريسكيى إشبيلية التمرد عام ١٥٨٠م. يسرد المؤلف فى هذه الفصول مقدمات الثورة وتفاصيلها بشئ من الإيجاز والوضوح والتكرار، فيشغل كل فصل من صفحة إلى ٣ صفحات، ولهذا يغفل بعض أحداث الثورة، ولا يذكر إلا بعض أسماء القادة والمعارك التى دارت فيها[٢٠].

يبدو أن الكتاب كُتب يوما بيوم إذ يُلاحظ وجود تغييرات فى رأى المؤلف حول الشخصيات والأحداث التى يرويها.

وتنقسم مصادر المؤلف – إذ إنه لم يتواجد فى غرناطة مطلقاً – إلى صنفين :

١- أخبار رواها له أشخاص أو جمعها من أحاديث المجالس.

٢- بيانات جمعها من قراءة يوميات مؤلفين آخرين أو جمعها من "روايات الأحداث".

نتيجة لوضعه السياسى والاجتماعى الراقى ، قام المؤلف برحلات عديدة إلى مدريد ، والتى يتجمع فى بعض ميادينها، من لا عمل لهم ويعلقون فيها على الأحداث السياسية فى مختلف أنحاء البلاد، وفى هذه الأماكن أيضاً يتوافد الجنود والنبلاء والرحالة، وكانت تُقرأ الرسائل والأخبار، وكان المجتمعون يحللون تلك الأخبار. وكان المؤلف يزور هذه الأماكن ويستمع إلى تلك التحليلات، ولهذا يقول فى الفصل المخصص لذكر أسباب الثورة الموريسكية: "حسب ما وصل إليه علمى، وكما أكد لىّ كثيرون أنه حدث هكذا".

وفى قشتالة نجد "روايات الأحداث" أيضاً، وكانت تلك المطبوعات تغذيها روايات الرحالة والخطابات الشخصية والوثائق الرسمية وكتابات الجنود(٢١).

وتكتسب أهمية مخطوطة "الأحداث المهمة" من المصادر المستخدمة من المؤلف ولإقامته بقشتالة، "فإننا نعلم (من خلالها) تصور قشتالة لثورة موريسكيى غرناطة، وأثر تلك الثورة. إن (المخطوطة) تقدم لنا صورة لفهم الحرب من وجهة نظر مسيحى قديم ، وهى صورة تنطبق على مجمل أهل قشتالة فى تلك الفترة"(٢٢).

يقول المؤلف "بعض الموريسكيين يجوبون البُشَرَات فى جماعات ، يسرقون ويقتلون المسيحيين ، بل ويأسرون الكثيرين ويرسلونهم إلى الجزائر لبيعهم"، وهو ما نفته المصادر.

وأن التمرد حدث بسبب الغضب الناتج عن نشر قرار عام ١٥٦٦ للملك الإسبانى، ولأن رجال الكنيسة والقانون كانوا يتعجلون أن يكون الموريسكيون مسيحيين حقيقة وأن يعيشوا كمسيحيين. ولما رفض هؤلاء القرار "فإنهم كانوا ثائرين ومصممين على عدم تنفيذ أوامر الملك، وهكذا تشكلت منهم فرق ، وسببوا الأذى للمسيحيين"، إذن فثورة البُشَرَات هى مواجهة بين مسيحيين ومسلمين، إذ إن تعميد الموريسكيين كان أمرا شكليا حيث لم يحدث فيهم أى تغيير. ولكن هذا تفسير ينقده المستعرب الإسبانى ميغيل بوينس إيبارا قائلاً "يعد (هذا السبب) من باب تبسيط الأمور، وهذا نهج معهود عند القشتاليين الذين كانوا يجهلون حقيقة الوضع فى مملكة غرناطة"(٢٣).

ونجد أن المؤلف لا يفرق بين مضمون اتفاقية تسليم غرناطة والقرارات الملكية اللاحقة، فيعتقد أن تنصير الموريسكيين كان أمرًا مُتفقًا عليه بين فرناندو وملك غرناطة.

والأرقام التى يقدمها إسكوديرو لعدد الثائرين الموريسكيين مبالغ فيها، فهى أقل كثيرًا . وبعض التواريخ التى يقدمها لا توافق الحقيقة(٢٤).

٢- **"الحروب الأهلية فى غرناطة"** لبيريث دى ايتا Gines Perez de Hita

يعتبر كتاب الحروب الأهلية رواية تاريخية، وكان من ثلاثة أجزاء ، ولكن لم يصلنا منه إلا جزأين فقط.

كان المؤلف جنديا فى أثناء الحرب ضد الموريسكيين، وأثناء كتابته لكتابه ، زار أصدقاءه من الفرسان الذين حضروا قبله فى الحرب، ويعقب جمال عبد الرحمن "يتحدث المؤلف إذن عن عالم يعرفه جيدا، لكنه سار وفق التيار العام السائد آنذاك، ولم يتفهم حق الإنسان الموريسكى فى حرية الاعتقاد"، وقد يعود ذلك إلى أن المؤلف المسيحى يرى أن دينه هو الحقيقى(٢٥).

ويقول دى بيدراثا : "إن جشع القضاة ووقاحة رجال الملك قد أديا إلى سخط الموريسكيين. كان القضاة ورجال الملك يرتكبون كثيراً من الظلم بحجة تنفيذ الأوامر . ولم يكن رجال الكنيسة أفضل حالاً، وهكذا فقد الموريسكيون حبهم لديننا، وفقدوا صبرهم على معالجة ذلك"(٢٦).

يُعرف عن مؤلف الكتاب "بيريث دى ايتا" أنه كانت له صلة بالأغنيات الشعبية القديمة والجديدة، وكان يصدق أية أخبار يراها مطبوعة . كان يخلط بين الحقيقة التاريخية والخيال الشعرى، ويلغى الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال. وقد تخلى المؤلف تمامًا عن الدقة مما أدى إلى خلط الوقائع التاريخية ونسب إلى شخصيات معينة ما فعلته شخصيات أخرى، فمثلا يذكر أن الملك أبا الحسن قد أسر فى معركة أليسانة ، والصحيح أن الذى أسر هو أبو عبد الله الصغير(٢٧).

ويقول أيضًا إن الملك محمد بن الأحمر قُتل على يد الملك بدرو فى اشبيلية والصحيح أنه قتل على يد الرئيس أبى سعيد(٢٨).

يرى المؤلف أن هناك تعارضًا بين الإسلام والنُبل، ففى أثناء وصفه لمعركة وقعت بين قائد موريسكى (مالك العباس) والسيد مانويل دى ليون، يقول القائد المسلم "رغم أنى مسلم فأنا من أصل نبيل(٢٩) .

ويرى المؤلف خطأً أن الصلاة الإسلامية يصاحبها كثير من التصفيق وهذا يدل على جهل المؤلف بشعائر الاسلام، ويذكر أيضاً أن المسلمين يعبدون

محمداً[٣٠].

ويمثل المسلم عند المؤلف الوضاعة فيذكر أن التصرفات والأخبار الزائفة لا تخرج سوى من المسلمين، لأن عقيدتهم ضعيفة واتجاهاتهم متطرفة ، ثم يبرز صدق دينه ومليكه ، فيذكر أن مثل هذه الأشياء وغيرها لا يمكن أن تصدر من الملوك المسيحيين ومن يقوم بخدمتهم، والسبب فى ذلك هو اتباعهم عقيدة حسنة[٣١].

ينقل المؤلف رأى معاصر – دون أن يفنده – انه من عادة المسلمين اتخاذ ست أو سبع نساء، وعليه أن يبحث عن امرأة أخرى، ويترك تلك، فقد لوّث سمعتها للغاية[٣٢].

٣- كتاب "**حرب غرناطة**" لـــ أورتادو دى مندوثا Hurtado de Mendoza:

كان مؤلف "حرب غرناطة"، كبيراً فى السن – كان عمره ٦٥ عاما– وهو مشارك فى الحرب، فكانت مشاركته بالتالى غير فعالة، ولكن تلقيه للأخبار عن قرب من شهود عيان ومن تقارير رسمية، ومن أحاديث الناس فى مدينة غرناطة، جعلته موضوعيا فى ذكر الأحداث[٣٣]، فقد أثنى المؤلف على بطولات قام بها ثوار مسلمون، وانتقد أخطاء أخلاقية وقع فيها جيش الملك الكاثوليكى، بل وانتقد فى عنف بعض كبار رجال الدولة، لقمعهم الموريسكيين وطمع جنودهم وحرصهم على نهب ممتلكات الموريسكيين، بجانب فساد القادة العسكريين، وكان يرى أن الأحداث لم يكن من الممكن أن تأخذ مساراً آخر غير الذى أخذته. كان المؤلف يكتب ما يمليه عليه ضميره، ولهذا ظل الكتاب حبيس الأدراج حتى تغيرت الظروف فتمكن ورثته من نشره رغم وفاة مؤلفه عام (١٥٧٥م)[٣٤].

أطلق المؤلف على الموريسكيين الثائرين المختبئين فى المناطق الجبلية "منفيون"، "رجال الجبل"، "قاطعوا طريق"، ويصفهم أيضاً بإنهم "المتمردون من المسيحيين الجدد"[٣٥].

٤- كتاب لويس ديل مارمول Luis del Marmol بعنوان "**ثورة الموريسكيين ومعاقبتهم**" [٣٦]، والذى نقده الكثير من المستعربين حديثا، ولكن يمتاز

كتابه بإحتوائه على كثير من وثائق ثورة البُشرَات، ومنها خطابات مولاى عبد الله (سلطان الموريسكيين فى ثورة البُشرَات). ولكن كتابات مارمول لا تميل إلى توجيه النقد إلى الموظفين الملكيين.

يقول مارمول عن القرارات التى أعقبت ثورة الموريسكيين "فى الحقيقة كانت قرارات صدرت من فوق لاجتثاث الشعب الموريسكى من هذه البلاد"، ويعقب المستعرب خوليو كارو باروخا على قوله هذا "إنه تصريح يصدر عن رجل شارع"[٣٧].

*** ومن مصادر التأريخ للثورة الموريسكية:**

محاضر محاكم التفتيش

تختلف محكمة التفتيش عن محكمة التفتيش البابوية، من حيث إن أعضاء المحكمة الإسبانية يعينهم الملك لا البابا، وعليه فإنهم موظفون فى الدولة ويخضعون لسياساتها[٣٨].

نظر الموظفون الملكيون الإسبان إلى الأمور من حيث هى حسنة أو سيئة، وعلى هذا الأساس كانت تستند النصوص التى كُتبت عن طرد الموريسكيين : أثنار وبليدا وغيرهما. فمثلا عندما يتحدث الراهب خيرونيمو باوتستا (ت١٦٢٩م) عن شرعية قرارات محاكم التفتيش، يقول إن الكنيسة هى مملكة يسوع وإن مملكة الشيطان يشكلها الملحدون والمرتدون "الذئاب والأسود والدببة والثعالب والحيوانات الشريرة من المرتدين والكافرين واليهود والمسلمين والأشخاص الضارين بقطيع المؤمنين بالله وبالكنيسة المقدسة"[٣٩].

كان العامل الاقتصادى أحد الدوافع التى كانت وراء مطاردة محاكم التفتيش للمسلمين والرغبة فى تنصيرهم : كلما زاد عدد المسيحيين كلما زادت التبرعات للكنيسة . يمكننا أن نضيف هنا أن محكمة التفتيش كان تمويلها ذاتيا ، أى إن مرتبات أعضائها كانت تستقطع من الغرامات التى تفرضها على المتهمين ومن الأموال المصادرة . أى إن محكمة التفتيش لم يكن من مصلحتها أن تتوقف عن

إثارة القضايا[٤٠].

لا يمكن الاعتماد على ملفات محاكم التفتيش فى معرفة الشعائر الإسلامية التى كان يمارسها الموريسكيون نظرًا لعدم دقة الوصف ، ولأن المحكمة كانت تخلط أحياناً بين الشعائر الإسلامية والشعائر اليهودية والخرافات، وتنسب كل ذلك إلى الإسلام. وتحفل المحاضر باتهامات لا تمت للإسلام بصلة[٤١].

هناك أقوال الموريسكيين التى أدلوا بها أمام المسئولين المسيحيين، وهى موثقة فى ملفات محاكم التفتيش. ولكن لا يمكن للباحث أن يطمئن إلى هذه الأقوال، لأن كثيرًا من الموريسكيين يعترفون بها بعد تعرضهم للتعذيب[٤٢].

يذكر فرانيثكو مولاى – أحد أعيان الموريسكيين – فى مذكرته إلى محكمة غرناطة "عندما قامت الثورة فى البيازين لم تكن ضد الملك، بل تأييداً لتوقيعه الذى نكنّ له الاحترام كشئ مقدس. قبل أن يجف مداد الحبر نُقضت بنود المعاهدة"، أى اعتبر الموريسكيون ما حدث من انتهاك لإتفاقية تسليم غرناطة سببا لثورة البيازين[٤٣].

تعرضت بقايا المخطوطات التى كانت فى حوزة محاكم التفتيش الغرناطية إلى الحريق عام (١٥٨٥م)[٤٤]. ولابد من الإشارة إلى مدى اعتناء الغرب بأرشيفهم ، فحديثا تم تصنيف دار محفوظات كونيكا، التى تعد أحد أهم أرشيفات محاكم التفتيش بإسبانيا، بطريقة جيدة وتم وضعها بشكل لائق فى القصر الأسقفى الكونيكى[٤٥].

*** ومن مصادر التأريخ للثورة الموريسكية:**

محاضر اجتماعات المجلس البلدى:

كلمة محضر تعنى الوثيقة التى تسجل المناقشات والقرارات التى نتجت عن اجتماع المجلس البلدى، وهى وثيقة حررها كاتب المجلس. كانت الوثيقة تحرر أثناء مداخلات الأعضاء، ويسجل فيها الأقوال المهمة. كانت الوثيقة تُحرر فى سجل مخصص لذلك تجنبا لأى تزييف . إن تحرير الوثائق على يد كاتب يُضفى عليها طابع الأمانة فهو يسجل المناقشات والقرارات التى أُتخذت والاعتراضات فى

الجلسة[٤٦]، وهناك عدة أسباب تجعل من يتصدى للتأريخ للثورة الموريسكية يعتمد على هذه المحاضر:

١- توجد نصوص كاملة فيها لوثائق قد لا توجد فى مصادر أخرى.

٢- خلال الاجتماعات تُذكر تفاصيل معينة لا توجد فى مصادر أخرى.

٣- سمحت لنا القرارات البلدية برؤية محلية للمشكلة الموريسكية توضح جوانب جديدة منها.

فمثلا محاضر بلدية مالقة Malaga، فى غمار الثورة التى قام بها الموريسكيون، كان رئيس البلدية أحد القادة العسكريين خلال الثورة، ويرد بها التحذيرات الشفوية التى صدرت عن المرشدين، والقوات التى أُرسلت إلى قادة الحصون، بل وأن الخطابات الواردة من ألمرية تكتسب أهمية خاصة، فهى تصف الوضع هناك، وبعض هذه الرسائل منقولة بالنص، والبعض الآخر يُذكر بصورة موجزة فى محاضر الاجتماعات[٤٧]. بعض هذه الوثائق لضروريتها ، والخشية من اختفائها من الأرشيف ، سُجلت فى هذه المحاضر. وهذه المحاضر موجودة فى أرشيفات بلديات مالقة وبيرا Vera، وبأرشيف كاتدرائيات ألمرية ومالقة[٤٨].

ومن أجل تأريخ موضوعى لهذه الحركات والثورات الموريسكية، لابد أن يستعين الباحث بالمصادر الموريسكية، وهى محور المبحث التالى:

- **المصادر الموريسكية:**

الأدب الأعجمى "الألخميادو ***Aljamiado***" هو كل ما كتبه المدجنون والموريسكيون، وهو باللغة الإسبانية ولكن بحروف عربية.

يعود القسط الأعظم من المخطوطات الموريسكية الأعجمية إلى القرن السادس عشر، وينقل لنا فى الدرجة الأولى لوحة من ثقافة الموريسكيين الدينية فى وسط بيئة مسيحية. فمعظم ما كتبه هؤلاء يدور فى معظمه حول شرح معنى آية أو حديث نبوى أو شعيرة من شعائر الإسلام. حتى الجزء القليل الذى يبرز فيه إبداع

المؤلف يدور حول الدين الإسلامى، بشكل أو آخر ، إذ نجد فى القصة أو فى القصيدة إشارة إلى آية أو حديث أو مبدأ فقهى إسلامى[٤٩]. وغالبية **الأدب الأعجمى (الألخميادو)** لم يكن سوى ترجمة لأصول عربية، وينصح بعض الباحثين بالرجوع إلى أصولها العربية[٥٠].

تأثرت بعض الموضوعات الدينية فى الألخميادو بأفكار نصرانية، كما إن بعض الكتاب الموريسكيين تأثروا بالأدب الإسبانى المعاصر لهم، وأحدهم كان معروفًا بنقده لأعمال لوبى دى فيجا Lope de Vega الشاعر الإسبانى[٥١].

كان الموريسكيون يحتفظون بنصوصهم بعناية كبيرة، بالرغم من المخاطر الجسيمة التى يتعرضون لها لو كشف أمرها، وكان من قبيل المخاطرة أن يكتب المؤلف أو الناسخ الموريسكى إسمه فى صدر المخطوطة الموريسكية، لما تحظره محاكم التفتيش من حظر ممارسة شعائر الدين الإسلامى[٥٢].

ويعد أهم اكتشاف لها ما تم اكتشافه فى مدينة ثيودادريال بقشتالة، حيث عثر على تجويف بأحد الجدران، وفيه ١٤ حزمة من الأوراق سلمت إلى ترجمان، فدرسها ووضع لها فهرسا، وتبين أن بعضها مكتوب اللغة العربية، والبعض الآخر بلغة الأعجمية، وكان تصنيفها كالآتى:

١- نسخ متعددة من القرآن الكريم.

٢- كتب دينية وأحاديث نبوية.

٣- كتب فى الفقه والتشريع والنظام الاجتماعى الإسلامى.

٤- كتب فى الثقافة العلمية والكتب الطبية[٥٣].

وقد يرجع غلبة الكتب الدينية على المخطوطات المكتشفة إلى حرص الموريسكيون على التمسك بدينهم ومظاهره، وتدل هذه الفهرسة على عدم تدوين الموريسكيين ما يحدث فى الاحتجاجات والثورات.

وكما سبق الذكر أن معظم كتابات الموريسكيين فى المجال الدينى، فنجد

كتاب "المغازى" الذى سُلط عليه الضوء فى الآونة الأخيرة، ونشره صلاح فضل، ترك الحديث عن الفروسية الموريسكية وتحدث عن الغزوات الأولى فى الإسلام.

ونجد هذا أيضًا فى المخطوطات التى لم تنشر بعد:

مثال:

- المخطوطة رقم ٤٩٣٥ بالمكتبة الوطنية بمدريد تنبأ بأن سلطان تركيا سيسترد الأندلس من الكفار.
- المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بالمكتبة الوطنية تتحدث عن شعائر الإسلام وفقًا للمذهب الحنفى
- المخطوطات أرقام ٤٩٨٣، ٦٠٦١، ٥٣٨٣ ، ٣٩٨٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد تتحدث عن رؤيا شيوخ ورجال دين[٥٤].

ولوجود حرب ضروس ضد المخطوطات العربية والموريسكية مارستها السلطات الرسمية فى إسبانيا فى القرن١٩ [٥٥]. فقد أولى العلماء الإسبان فى القرن ١٩ فحسب عنايتهم ببحث النصوص الموريسكية وتحليلها ، بعد عدة قرون من الإهمال[٥٦].

وتنتشر المخطوطات الأعجمية (الألخميادو) فى أرشيفات أوربا عامةً وإسبانيا خاصةً، مثل جمعية تطوير الدراسات بمكتبة مركز الدراسات التاريخية، والمكتبة الوطنية ، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية فى إسبانيا، ومكتبة باريس الوطنية.

ولأن الكُتّاب العرب لم يهتموا - إلا حديثا وبطريقة لا تزال محدودة- بالقضية الموريسكية، برز الكُتّاب الإسبان فى مجال الدراسات الموريسكية، ولهذا كان لابد من إلقاء الضوء على الدراسات الإسبانية الحديثة.

الدراسات الإسبانية الحديثة:

ترى كتابات إسبانية قديمة - مثل قول المؤرخ خوان مانويل - إن الحرب

بين المسيحيين والمسلمين قد امتدت حتى وضع المسيحيون أيديهم على الأراضى التى كان المسلمون قد استولوا عليها من قبل. ولم تكن الحرب قائمة بسبب الدين أو المذهب الذى يعتنقونه. فالمسيح لم يأمر أبداً بقتل أحد أو ظلمه بسبب دينه. ولم يجبر أحدًا على الدخول فى دينه، بل يدخل دينه من يريد بكل إرادته[٥٧].

بينما يتبنى بعض المؤرخين الأوربيين المعاصرين وجهة نظر معينة، فهم لا يعترضون على تنصير المسلمين فى حد ذاته وإنما يعترضون على الوسيلة التى اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق ذلك خلال القرن ١٦ [٥٨].

ومن أجل قراءة صحيحة لرؤية المؤرخين الإسبان المعاصرين للقضية الموريسكية، ومنها الثورة والاحتجاجات، نذكر أقوال بعض المؤرخين:

يذكر فرانثيسكو ماركيث بيانوبيا إن عملية التأريخ للقضية الموريسكية قد وقعت فى ثلاثة أخطاء، عندما زعمت أن هناك خرافات ثلاثة : خرافة الإجماع على كراهية الإسبان للطائفة الموريسكية، وخرافة الموريسكى الرافض للاندماج ، ثم الادعاء بإلصاق صفة التآمر الدائم بالموريسكيين، ويرجع هذا إلى استقاء المؤرخين لمعلوماتهم من مصادر رسمية "مسمومة"، وأغفلوا أصول الأدب، والذى تنطلق من خلاله الأصوات المنشقة، إضافةً إلى تيار فكرى مناهض. ويدعو ماركيث إلى قراءة جديدة لتلك المصادر الأدبية تستخلص منها معانى جديدة[٥٩].

يرى ماركيث بيانوبيا أن تحليل ظروف القهر التى تعرض لها الموريسكيون يكفى لإقناعنا بأنهم قدموا رد الفعل الأكثر حسمًا بالنسبة لهم، وأنه لم يكن أمامهم إلا تلك "التصرفات المريبة". ورغم وجود نشاط تآمرى بالفعل، فإن ذلك لا يعنى إطلاقًا أن كل موريسكى كان خائنًا ، ولا يعنى أن إسبانيا فى عام ١٦٠٩ كانت معرضة لتهديد واضح بسبب تواجد الموريسكيين بها. وأن اللجوء إلى السلاح أو إلى التآمر مع أطراف خارجية كان يمثل بالنسبة لهم رد فعل على نقض إسبانيا المسيحية العهود المقطوعة معهم والتى كانت توفر لهم الحريات الدينية. ويؤكد ماركيث بيانوبيا أن تآمر الموريسكيين لم يكن يمثل كل جوانب حياتهم، وإن ما

أشيع عن تآمرهم لا علاقة له بواقع الأحداث، فقد استُخدم التآمر كدعاية ضد الموريسكيين، وطورها أنصار عملية طرد الموريسكيين. ورغم إدراك الملك فيليبى الثانى صعوبة الغزو التركى لإسبانيا تماماً، فإنه حرص على الحديث عنه لإثارة حمية سلطات الأقاليم، أو الحصول على تبرعات من النواب(٦٠).

ويعترف ماركيث بيانوبيا بأن أسطورة التآمر لا تزال تعيش بيننا. إن الجريمة التى نُسبت إلى الموريسكيين فى قرار الطرد (١٦٠٩م) تؤثر حتى الآن فى كل الدراسات التى أجريت حول الموريسكيين تقريباً، رغم أن هذا الأسلوب ينتمى إلى عام (١٦١٠م) وليس القرن العشرين(٦١).

يذكر المؤرخ خوليو كارو باروخا فى كتابه "مسلمو مملكة غرناطة"، أن بعض المصادر التى يعتمد عليها فى تأريخه للقضية الموريسكية لا يمكن الاستناد إليها لأنها لا تتمتع بالمصداقية، ومنها مصادر لم يقصد أصحابها سوى المبالغة والسخرية من المسلمين. ويرى أن كل ما يُكتب عن الموريسكيين (دون مراعاة البُعد الدينى) ستكون مؤلفات تفتقر إلى عنصر أساسى. وأن الموريسكيى – فى ثورة البُشرَات – لم يحركهم الدين فى حد ذاته، بل روح العصبية(٦٢).

وعن ثورة البُشرَات، يقول خوليو باروخا، كان هناك عنصر ثالث فى حرب البُشرَات، يثير الفزع دائماً وهو مجموعة "الشجعان"، لقد بقيت هذه الكلمة فى اللغة الإسبانية ، ولكن بمعنى مهمل أو انسان بمقدوره أن يعمل والقيام بدور مفيد، ولكنه أخلد إلى الكسل، لكن الشباب الشجعان الغرناطيين لا يشبهون الكسالى غالبًا، كان "الشجاع" عضواً فى فصيلة، حيث كان فى غرناطة لكل حي قائد وراية، وكان القائد يجمع شباب الحى للحرب. وفى البيازين وقت الثورة استعد هؤلاء الشباب للتوجه إلى ميدان الحرب(٦٣).

يقول ميغيل بوينس إيبارا إن الموريسكيين هم مجموعة من الناس تشكل جزءًا من المجتمع الإسبانى خلال القرنين ١٦، ١٧، وليس هم مجموعة سياسية أو عدوا عسكريًا أو مجموعة تشكل تهديدًا مباشرًا لحكمَ العائلة الملكية. إن عظمة الموريسكيين – فى اطار أهميتهم المحدودة – تكمن أيضًا فى أنه من الممكن

اعتبارهم جزءًا مرفوضًا من المجتمع الذين كانوا يعيشون فيه، على أنهم مجموعة بشرية تدافع عن الامبراطورية العثمانية المعادية للإمبراطورية الإسبانية فى البحر المتوسط، فى كونهم خصما محتملا فى حالة زحف الإسلام إلى أوربا ، فى أنهم عامل يقوض الأسس الاقتصادية وأسس تقسيم السُلطة فى شبه الجزيرة . إن الموريسكيين أقلية ليس لها تاريخ قومى بعد اختفاء السلطة الإسلامية فى إسبانيا ، ذلك لأنها عاشت بين وطن استوعبها ، وفى فترة وجيزة جدًا كانت لهذه المجموعة مميزات وجدت فى جبال البُشَرَات ، ولم توجد فى حى البيازين الغرناطى. خلال هذه السنوات التى اختفت فيها ضغوط الأغلبية كان تاريخ الموريسكيين عبارة عن تاريخ مجتمعى ريفى يسير وفق فصول السنة الزراعية أكثر مما يسير وفق أفكار الثورة أو وفق التعاليم الدينية ، ولم يكن للصفة الدينية دور واضح إلا خلال ثورة البُشَرَات، فيما عدا هذا الفاصل الزمنى الذى برزت فيه زعامات للأقلية الموريسكية فى أماكن محددة، كانت الأقلية بلا قيادة، وكانت لها خواص إقليمية محددة(٦٤).

ونجد كتابا حديثا بعنوان "مسلمو فالنسيا فى عهد فرناندو وإيسابيل: بين التعايش والحملة الصليبية". وهو اعتراف حديث بأن ما مارسه الملكان اتجاه الموريسكيين يعد حملة صليبية.

الهوامش:

ألقى البحث فى المؤتمر السابع لدار الكتب المصرية، "الأرشيف والثورة" (ديسمبر ٢٠١١م). ويشكر الباحث أ.د/ عبادة كحيلة الأستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة، أ.د/ جمال عبد الرحمن الأستاذ بكلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر، لمساهمتهما فى مراجعة البحث وإسداء النصائح لإخراجه بصورته الحالية.

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، الجزء السابع: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٥٦.

(٢) صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٩، ص١٣. جدير بالذكر أن الوثائق الخاصة بالنصف الأول من القرن ١٦ تطلق على الموريسكيين صفة "المتنصرين الجدد ذوى الأصل المسلم". مرثيديس غارثيا أرينال، الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٧.

(٣) أنظر عنها، كتاب "شتات أهل الأندلس"، مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة: محمد فكرى عبد السميع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١١٨، وكتابها، الموريسكيون الأندلسيون، ص١١٣.

(٤) عبادة كحيلة، المُغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٢٧٦.

(٥) المصدر السابق، ص٢٧٨- ٢٨٠.

(٦) من المصادر الإسلامية التى تحدثت عن الثورات الموريسكية ضد الاضطهاد والتنصير الإسبانى لهم، ما قاله المؤرخ المصرى محمد بن إياس، فيقول فى حوادث سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) "وفيه جاءت الأخبار من المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس، ووضعوا فيها بالسيف بالمسلمين، وقالوا من دخل ديننا تركناه، ومن لم يدخل قتلناه، فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفًا على أنفسهم من القتل، ثم ثار عليهم المسلمون ثانيًا وانتصفوا عليهم بعض شئ، واستمر الحرب ثائرًا بينهم، والأمر لله تعالى فى ذلك"، ويقصد هنا ثورة ربض البيازين بغرناطة. محمد بن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ج٥.

ويلاحظ أن موقف الدول الإسلامية مما كان يحدث فى إسبانيا من تنصير واضطهاد، لا يختلف عن عدم اهتمام المؤرخين العرب بالقضية الموريسكية، فقد أرسل الموريسكيون إلى السلطان المملوكى الغورى (٩٠٦- ٩٢٢هـ/ ١٠٥١- ١٥١٦م) بالقاهرة يصفون حالهم ويطلبون عونه، لكن فرناندو أرسل بدوره إلى السلطان نفسه، يدعى عكس ما يدعيه هؤلاء، ولم يستطع السلطان أن يفعل شيئًا للموريسكيين، خاصّة مع إنشغاله بالصراع مع السلطان العثمانى، والذى كان موقفه لنصرة مسلمى إسبانيا دون مستوى الحدث. عبادة كحيلة، المُغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب،

ص٢٧٦.
(٧) يقول محمد عبد الله عنان عن هذه الإشكالية "أن المراجع الإسلامية تقف بنا عند أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)، ولا نكاد نظفر بعد ذلك، خلال القرن التاسع الهجرى، وهو بالنسبة لمملكة غرناطة، عصر الانحلال والسقوط النهائى، بأية مراجع إسلامية ذات شأن"، "أما عن مأساة الموريسكيين، فلسنا نظفر من الرواية الإسلامية إلا بأقوال وشذور يسيرة، معظمها أيضاً مما نقل إلينا المقرى فى كتابيه (نفح الطيب، أزهار الرياض)، ولهذا كان جل اعتمادنا فى استعراض هذه المرحلة الأخيرة، من حياة الأمة الأندلسية، على المصادر الغربية، والإسبانية بنوع خاص"، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، ج٧ ، ص٣- ٤.
وقد تعرضت الكتب الإسلامية لعدة حرائق عبر الفترة الموريسكية، فقد أمر الكاردينال "خيمينيث" عام (١٤٩٩م) بجمع الكتب العربية من أهالى غرناطة وأرباضها، وصفت أكداسا فى ميدان باب الرملة، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب العلوم والآداب، وأُضرمت فيها النيران فيها جميعًا ، ولم يستثن منها سوى ٣٠٠ من كتب الطب والعلوم الطبيعية (لاحظ أصناف الكتب، وهذا دليل على إدراك الأوربيين لمدى النهضة الإسلامية فى هذه العلوم حينذاك)، حُملت إلى قلعة عبد السلام، وتتروراح التقديرات فى عدد الكتب المبادة، وربما بلغت – حسب التقدير العام – ١٢٥ ألف كتاب. وبالطبع منها كتب تاريخية أو غيرها تصف أحوال المسلمين بعد استيلاء الملكين الكاثوليكيين على غرناطة. وقد أدت أفعال الكاردينال الإسبانى فى غرناطة من حرق المكتبات العربية والتنصير الجماعى الإجبارى، إلى ثورة البيازين.
وهناك أمر الملكة "خوانا" عام (١٥١١م) التى تلزم فيه جميع الموريسكيين فى غرناطة بتسليم سائر الكتب العربية التى لديهم، فى جميع المجالات، إلى قاضى الجهة، وذلك لكى يفحصها، وتحجز منها كتب الدين والسنة والتراث، وقد يرخص بعد ذلك بحيازة غيرها. وفى منتصف القرن (١٦م) صدر قرار جديد بوجوب التسليم الفورى لجميع الكتب العربية لمحاكم التفتيش. صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية، ص٢٣، ٢٤.
(٨) بيريث دى ايتا، الحروب الأهلية فى غرناطة، ترجمة: مروة محمد ابراهيم، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص١٢
(٩) فرانثيسكو ماركيث بيانويبا، القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، ترجمة: عائشة محمود سليم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٨.
(١٠) المصدر السابق، ص٨.
(١١)المصدر السابق، ص٩.
(١٢) أورتادو دى مندوثا، حرب غرناطة، ترجمة: إيمان عبد الحليم، سلوى محمود، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٧.

(١٣) مرثيديس غارثيا، الموريسكيون الأندلسيون، ص٢٠١

(١٤) مجموعة من المتخصصين، دراسات أندلسية، ص٢٤٣. يقول أحد المؤرخين المعاصرين للفترة الموريسكية، "إن محاولة إحصاء خيانة الموريسكيين هى بمثابة محاولة إحصاء عدد رمال البحر أو قطرات المطر أو أيام القرن .. وكانوا قد أعدوا العُدة لخيانتهم الكبرى فى عيد القديس خوان عام (١٦١٠م) وحددوا أسماء الملوك فى إسبانيا". مجموعة من المتخصصين ، دراسات أندلسية وموريسكية، ص٢٥٦.

(١٥) مجموعة من المتخصصين، دراسات أندلسية، ص160.

(١٦) خوليو كارو باروخا، مسلمو مملكة غرناطة، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٩٦.

(١٧) صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية، ص٨٥.

(١٨) ميكيل دى إيبالثا، الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٢٨.

(١٩) فرانثيسكو ماركيث، القضية الموريسكية، ص١٠٨

(٢٠) مجموعة من المتخصصين ، دراسات أندلسية وموريسكية، ص١٦٥ – ١٦٦

(٢١) المصدر السابق، ص١٦٦

(٢٢) المصدر السابق، ص167

(٢٣) المصدر السابق، ص168

(٢٤) المصدر السابق، ص١٨٤- ١٨٦

(٢٥) بيريث دى ايتا، الحروب الأهلية فى غرناطة، ص١٠.

(٢٦) مرثيديس غارثيا، الموريسكيون الأندلسيون، ص٣٩ .

(٢٧) بيريث دى ايتا، الحروب الأهلية فى غرناطة، ص١٠- ١٢

(٢٨) المصدر السابق، ص٢٣.

(٢٩) المصدر السابق، ص١٢٩.

(٣٠) المصدر السابق ص ٢٥٠.

(٣١) المصدر السابق، ص٣٠٠.

(٣٢) المصدر السابق، ص٣٨٤.

(٣٣) يقول المؤلف "لقد شهدت أنا جانباً من هذه الحرب، أما الجزء الآخر فقد أخذته عن أولئك الأشخاص الذين شاركوا فيها بأجسادهم وفكرهم". ولهذا ينقل المؤلف بطريقة سريعة أحداث وانجازات المحاربين، ويتمكن بمهارة من رسم ملامح شخصياتهم ومقصادهم، وانطلاقاً من ذلك تمكن من الوصول إلى الأسباب المؤدية للحرب، وقام بتحليلها حتى توصل إلى أن الأحداث لم

يكن من الممكن أن تأخذ مساراً آخر غير الذى أخذته. وقد اعتمد المؤلف فى كتابه على عدد من الكتّاب ومنهم مؤرخ عربى لم يذكر اسمه بإنه أكثر الكتّاب مصداقية بين العرب، أورتادو دى مندوثا ، حرب غرناطة، ص١٦، ١٠١.

(٣٤) أورتادو دى مندوثا ، حرب غرناطة، ص١٠ - ١٢.

(٣٥) المصدر السابق، ص٢٥، ٣٧.

(٣٦) Luis del Marmol Carvajal : Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos de Granada

(٣٧) خوليو باروخا، مسلمو مملكة غرناطة، ص ١٥٦، ٢٧٠.

(٣٨) مرثيديس غارثيا أرينال، محاكم التفتيش والموريسكيون، ترجمة: خالد عباس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص١٠

(٣٩) خوليو كارو باروخا، مسلمو مملكة غرناطة، ص٢٨

(٤٠) دولورس برامون، المسلمون واليهود فى مملكة بلنسية، ترجمة: رانيا محمد محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٩.

(٤١) مرثيديس غارثيا، محاكم التفتيش والموريسكيون، ص٦٥، ميكيل دى إيبالثا، الموريسكيون فى إسبانيا، ص١٢٩.

(٤٢) ميكيل دى إيبالثا، الموريسكيون فى إسبانيا، ص٢٨

(٤٣) مرثيديس غارثيا، الموريسكيون الأندلسيون، ص٥٤. ويقول نونييث الموريسكى - فى الفقرة التى حذفها مارمول فى كتابه - "إننا نسير كل يوم إلى أسوأ. إن الظلم الواقع بنا يزداد كل يوم فى كل شئ، وبكافة السُبل ، سواء بسبب ذلك الذى ذكرته بشأن اجراءات السلطة المدنية أو بسبب اجراءات السلطة الكنسية. إن هذا واضح وليست هناك حاجة للاستعلام عنه".

(٤٤) فرانثيسكو ماركيث، القضية الموريسكية، ص١١٢

(٤٥) مرثيديس غارثيا، محاكم التفتيش والموريسكيون، ص١٥. جدير بالذكر أن كثيرًا من وثائق محاكم التفتيش غير منشورة.

(٤٦) مجموعة من المتخصصين، دراسات أندلسية وموريسكية، ص١٩٢.

(٤٧) المصدر السابق، ص١٩٢ -١٩٣.

(٤٨) المصدر السابق، ص١٩٥، ٢١٠.

(٤٩) صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية، ص ٤٣، بدرو لونغاس، حياة الموريسكيين الدينية، ترجمة جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠، ص٧.

(٥٠) مجموعة من المتخصصين، دراسات موريسكية، ص١١.

(٥١) عبادة كحيلة، المُغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب، ص٢٨٠.

(٥٢) صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية ، ص٤٩، مجموعة من المتخصصين، دراسات موريسكية، ص١٠٤.

(٥٣) صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية ، ص٤٩.

(٥٤) مجموعة من المتخصصين، دراسات موريسكية، ص١١٣.

(٥٥) فرانثيسكو ماركيث، القضية الموريسكية ، ص١١.

(٥٦) صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية، ص٥١.

(٥٧) فرانثيسكو ماركيث، القضية الموريسكية، ص١١٢. وخوان مانويل هو كاتب إسبانى من العصور الوسطى، ينتمي لعائلة ملكية، من كتبه: "كتاب الدول"، فى تنظيم الدولة.

(٥٨) خوليو باروخا، مسلمو مملكة غرناطة، ص١٢.

(٥٩) مرثيديس غارثيا أرينال، شتات أهل الأندلس، ص٢٤.

(٦٠) مجموعة من المتخصصين ، دراسات موريسكية، ص ٢٤٣، ٢٥٢. ويذكر صلاح فضل أن قوى الدولة والسياسة الضاغطة على الموريسكيين، والتى كانت تعمل تحت ستار الدين المسيحى، لم تكن إلا نموذجا جديدا لعصور الإقطاع والظلم، حيث يعتبر تحالف أجهزة محاكم التفتيش مع الملوك والنبلاء والقادة العسكريين بدوعى الحمية الدينية والقومية أهم مظاهر للممارسات الإقطاعية. فلم يتعرض الموريسكيون فقط للظلم، فقد ذاقت بقية قطاعات الشعب المسيحى المسالم بدورها صنوف الاضطهاد والعنف، ولهذا رفضت خروج الموريسكيين حقيقةً عن الإسلام، وعاشوا فى احترام مع الأقلية الصامدة، وأخذت تضمد جراحها، بل وعكف بعض القساوسة على تأليف مجلد ضخم عن حقائق ومظاهر الدين الإسلامى عند الموريسكيين، لم يعتمد فيه إلا على مصادر تراثهم الذى خلفوه. صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية، ص٢٦.

(٦١) مجموعة من المتخصصين ، دراسات أندلسية وموريسكية، ص٢٥٢.

(٦٢) خوليو باروخا، مسلمو مملكة غرناطة، ص١٣، ٢٧ ، ١٩٦.

(٦٣) المصدر السابق، ١٦٨.

(٦٤) مرثيديس غارثيا أرينال، الموريسكيون الأندلسيون، ص١٤.

" المساعدة الفنية الأمريكية فى ضوء برنامج النقطة الرابعة" (٢٠ يناير ١٩٤٩ - ٣٠ يونيو ١٩٥٥)

د. صباح أحمد البياع
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة عين شمس

تعد الولايات المتحدة الأمريكية ترسانة ضخمة من الإمكانيات الاقتصادية الهائلة، ومن ثم فقد لعبت دوراً هاماً ورئيسياً فى تقديم المساعدات الخارجية التى تتمثل فى انتقال البضائع والنقد والأرصدة والقروض بالإضافة إلى المساعدة الفنية من دولة إلى أخرى. ولعل قلق الولايات المتحدة من تطور الأحوال السياسية وزيادة التوسع السوفيتى كان السبب الرئيسى الذى دفع الكونجرس للموافقة على قوانين متتالية ترمى إلى انعاش أوربا وإعادة بنائها والدفاع عنها مثل قانون المعونة الخارجية عام ١٩٤٨.

لقد خصص الرئيس ترومان جانباً كبيراً من خطابه لتولى الرئاسة ٢٠ يناير عام ١٩٤٩ للمشاكل والشئون الخارجية، حيث كانت قد صادفته مشاكل على درجة كبيرة من الأهمية فى العالم، وبدت ملحة لإعطاء اهتمام عاجل لتقوية التحالفات والدفاعات فى غرب أوربا، التى تم إصلاحها بالمساعدات التى حث عليها مشروع مارشال([١])، وبإنشاء قوة للتوازن الصناعى بين الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتي([٢]). وأعلن ترومان عن برنامج النقطة الرابعة([٣]) كأساس للسياسة الخارجية الأمريكية وقتئذ، وتتمثل تلك السياسة فيما يلي:

أولاً: الاستمرار فى التأييد المطلق للأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة، والاستمرار فى البحث عن طرق لتقوية سلطاتها وزيادة تأثيرها.

ثانياً: الاستمرار فى برنامج الإصلاح الاقتصادى العالمي.

ثالثاً: تقوية الشعوب المحبة للحرية والسلام (التى تعادى الكتلة الشيوعية) ضد مخاطر العدوان.

رابعاً: القيام ببرنامج جرئ وجديد، يهدف إلى الاستفادة من ثمرات التقدم العلمى للولايات المتحدة وتطورها الصناعى فى تحسين ونمو الدول النامية(٤).

تحدث الرئيس عن مقترحه بوصفه " برنامجا جديداً وجريئاً " وهو ربما يكون ولا شك جريئاً، بمعنى ما يتضمنه من شجاعة وبعد نظر هى موطن الهجوم عليه وموطن الترويج له. أما كونه جديداً فلا، لأن الفكرة كانت مألوفة للكثيرين داخل الخارجية الأمريكية وغيرها فى هيئات رسمية أخرى. كانت الفكرة معروفة قبل قبول الرئيس لها وإدراجه إياها ضمن نقاط خطاب تقلده للرئاسة، هذا فضلاً عن أن الأمم المتحدة كانت منشغلة فى فترة ما، فى مشروع تقديم المعونة الفنية للكثير من المناطق النامية فيما يتعلق بمجالات الزراعة والصحة وغيرها(٥).

كما أن ميثاق الأمم المتحدة كان قد تضمن بالفعل فى مادته الخامسة والخمسون هدف "رفع مستويات المعيشة، والتوظيف الكامل، وشروط التنمية، والتقدم الاقتصادى والاجتماعى".علاوة على ذلك، فإن المجلس الاجتماعى والاقتصادى والجمعية العامة، قد اهتمتا بمشكلة كيفية تعزيز التنمية الاقتصادية للدول النامية، والذى كان واحداً من الأهداف الرئيسية للأمم المتحدة (٦).

فلم تكن مزاولة البرنامج –إذاً– أمراً جديداً، كما لم يكن جديداً على الولايات المتحدة، فقد كانت طرفاً فى برنامج المعونة المقدمة للأمريكيين خلال عدة سنوات تحت مظلة الشئون الأمريكية الداخلية، والمنظمة المعنية بالأمريكتين، واللجنة الكاريبية ... وغير ذلك من منظمات، وهكذا فليس دقيقاً أن يصف" ترومان" البرنامج بالجديد(٧).

وتحدث ترومان فى خطابه عن طموحاته وآماله بالنسبة للمستقبل وإمكانية تطوير العالم والذى هو هدف الأمم المتحدة، وبرنامج الإنعاش الأوروبي، والمقاييس الأخرى التى تهدف إلى حياة أفضل فى كل أنحاء العالم، كما تحدث عن

الحالة التى يعيشها سكان العالم قائلاً: "إن أكثر من نصف سكان العالم يعيشون فى ظروف تعيسة فغذائهم غير كاف، وهم ضحايا الأمراض، وحياتهم الاقتصادية بدائية وراكدة، وفقرهم يشكل عائقاً وتهديداً لكل من الدول النامية والمتقدمة.ولأول مرة فى التاريخ تمتلك البشرية المعرفة والمهارة لرفع المعاناة عن هذه الشعوب، والولايات المتحدة هى الدولة المتفوقة بين الدول فى التطور الصناعى والفنى والعلمي، حيث إن الموارد المادية التى يمكن أن تقدمها لمساعدة الشعوب الأخرى محدودة، ولكن الموارد المتعددة فى مجال المعرفة الفنية فى نمو مستمر لا ينضب..."(٨).

ورأى جون بادوJon S.Badeau–أستاذ الإدارة الحكومية بجامعة كولومبيا ومدير معهد الدراسات الشرقية– أن التطورات العلمية والفنية فى البلاد النامية والحديثة الاستقلال أصبحت شغل السياسة الخارجية الأمريكية الشاغل.وهذا أمر لا يدعو إلى العجب فى عصر سيطرت فيه على عقول الناس فكرتان أساسيتان: أما الأولى: فهى أن الفقر والتأخر والمرض لا يمكن أن تكون نصيباً مقدراً على الكادحين فى كل بقاع الأرض. وأما الفكرة الثانية: فهى أن المجتمع وأنماطه الاقتصادية من صنع الإنسان أولاً وأخيراً، وإذا كان هناك فقر أو جهل فليس مرده إلى إرادة الله بل إلى إرادة الإنسان نفسه.إن الإنسان الذى صنع المجتمع قادر على إعادة تشكيله بطريقة أفضل(٩).

تشمل المساعدة الفنية التى تقدمها الولايات المتحدة بذل النصح أو الإرشاد الفني، وذلك بإيفادها للدولة الطالبة الخبراء الفنيين، أو القيام بتدريب الخبراء الأجانب سواء فى الخارج أو باستقدامهم إلى الولايات المتحدة، أو بتزويدها بالمطبوعات والمعلومات الفنية ومهمات وأدوات الإيضاح، وتشمل المعونة الفنية أيضاً دفع مرتبات الخبراء ونفقات سفرهم وثمن المواد والمهمات اللازمة لشرح وتوضيح الوسائل الفنية المراد تطبيقها، والمصانع النموذجية والمهمات التعليمية. هذا ولا تدخل فى نطاق المساعدة الفنية المهمات الرئيسية التى تستخدم فى أغراض التقدم والاستثمار الاقتصادى الفعلى (١٠). ومن ثم فقد قدم هذا البرنامج أخصائيون

أمريكيون فى الزراعة والتربية والتعليم والصحة العامة والإسكان وغيرها والمساعدة والمشورة لدول فى جميع أنحاء آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية.

كان برنامج النقطة الرابعة يهدف إلى تغطية مشروعات متنوعة مثل تحسين المحاصيل ومكافحة أمراض النبات ومكافحة آفاتها، وتحسين الثروة الحيوانية، وتوسيع أماكن صيد الأسماك، وفى مجال المساعدات الطبية من أجل استئصال أمراض الملاريا والكوليرا والتيفود والبرى بري، والجدرى والانكلستوما بل والحد منها، وتنمية الموارد المائية، والصرف الصحى والرى والاستصلاح الزراعي، وفى مجال التنمية الصناعية والتعدين واستخلاص المعادن من فلزاتها، ومجالات تدريب القوى العاملة والنقل والتعليم (١١).

جاء رد السياسة الخارجية الأمريكية على انخفاض مستوى المعيشة والسعى نحو الحصول على حياة أفضل بالإعلان عن "النقطة الرابعة".وقد بدأ البرنامج مجرد بيان لتحقيق هدف معين، ولكنه تحول فيما بعد إلى برنامج محدد. ومنح الكونجرس سلطة تقديم المعونة الفنية للمناطق النامية، تلك المعونة التى سوف تساعد هذه الدول على استخدام العمالة ورأس المال ومواردها الطبيعية أفضل استخدام. ولن تحدث التنمية بدون استثمار فعلى لرأس المال. ومن ثم يجب على الدول النامية استقبال رأس مال إضافى من الخارج، والذى يقع بالفعل على عاتق الولايات المتحدة (١٢).

١- أهداف المساعدة الفنية :

يكمن هدف النقطة الرابعة فى"مساعدة الشعوب فى المناطق النامية من خلال جهودهم فى تنمية مواردهم وأعمالهم وأحوالهم المعيشية عن طريق تشجيع تبادل المعرفة والمهارات وتدفق رأس المال للدول التى تستهدف تحسين أوضاعها بإحداث تأثير ومساهمة فعالة للمعونة الفنية ورأس المال من أجل رفع مستوى المعيشة، وإيجاد مصادر جديدة للثروة، وزيادة الإنتاج والقوة الشرائية" (١٣).

اختلفت وجهات النظر الخاصة بأهداف النقطة الرابعة، فقد رأى البعض أنها

وسيلة لنشر المشاريع الفردية، أما البعض الآخر فرأى أنها سلاح موجه ضد الإتحاد السوفيتي. أما رجال الدولة (المسئولون) فأكدوا أن الأهداف أوسع نطاقاً من كل ذلك.ويبدو أن النقطة الرابعة نمت فى أحضان الإنسانية وكان هدفها الأول رفع مستوى المعيشة فى المناطق النامية، أما الحالة الصحية فمن المفترض أن يتم الاهتمام بها عن طريق الموارد البيئية اللازمة لإيجاد الحرية الشخصية، والفرص المناسبة، وكرامة الفرد ([١٤]).

رأى البعض أن برنامج النقطة الرابعة جهد من الولايات المتحدة لسد بعض مشكلاتها الاقتصادية الرئيسية.فقد تزامن طرح مناقشة مشروع قانون التوسع الاقتصادى لعام ١٩٤٩ مع انطلاق خطاب تقلد الرئيس الأمريكي، وموافقة الكونجرس لمشروع القانون الذى طالب بتوفير مبلغ ٣٠٠ بليون دولار قيمة السلع والخدمات للخمس سنوات المقبلة. كانت الحاجة إلى المواد الخام والمواد الإستراتيجية تحديداً كما يتطلبها هذا النشاط الموسع قابلة للتغطية التامة فقط بواسطة استيراد هذه المواد من الخارج. يجب أن يجد رأس المال الأمريكى مجالات جديدة لأنشطته حال تغطية تلك الحاجات. لقد واجهت الاستثمارات الأمريكية كافة أنواع العقبات فى الخارج بدءاً من عقبات متمثلة فى لوائح حكومية صغيرة وضيقة الأفق إلى عقبة التأميم الكلى الشامل الذى كانت تقوم به بعض الحكومات ([١٥]).

وقد نشرت صحيفة الوول ستريت – وهى إحدى الصحف المالية الأمريكية الهامة– فى عددها الصادر بتاريخ ١٢ مايو ١٩٥٠ مقالاً يتضمن معارضة سافرة لمشروع المعونة الفنية الأمريكية "النقطة الرابعة" جاء فيه: "إن الغرض من النقطة الرابعة هو تحقيق الإستقرار السياسى فى الدول غير الشيوعية، والاحتفاظ بمستوى عال للصادرات الأمريكية، فإذا تركنا الناحية السياسية جانباً، فإن الضمانات التى تقدمها حكومة الولايات المتحدة للاستثمارات الأجنبية والأموال التى ستنفق فى هذا المشروع إن هى إلا بمثابة إعانات تقدمها الحكومة الأمريكية، ويتحملها دافعو الضرائب الأمريكيون"([١٦]).

ورأى البعض أنه يجب النظر إلى النقطة الرابعة فى ضوء السياق الاقتصادى والسياسى والنفسى والذى يهتم بإرادة واحتياجات ومشاعر الشعوب النامية، فيجب النظر إلى هذه الشعوب ليس كأرقام احصائية ولكن ككائنات بشرية مثلنا "أى مثل الأمريكيين"...كما يجب أن نبدأ من خلال رؤية مشاكلهم على النحو الذى تراه هذه الشعوب عن طريق اكتشاف الطريقة التى يمكن أن نتأقلم بها معهم...وبالنسبة لقوتنا الحالية، فيمكن أن تكون أداة قوية للمساعدة فى بناء مستقبل أفضل، كما يمكن أن تكون أيضاً أداة لفشلنا.والدول النامية تحتاج إلى ايجاد طريق لاستغلال مواردهم لصالحهم، وتنويع اقتصادياتهم وتخطيط وتنفيذ برامج رشيدة للتصنيع ومزجها مع بقية الاقتصادالعالمى (١٧).

وهكذا رأى البعض أن النقطة الرابعة كادت أن تسهم إسهاماً مباشراً فى توسيع حجم الاستثمار العالمى والإنتاج العالمى والتجارة العالمية، وهذه الأمور تجعل من السهل حل الكثير من المشكلات الاقتصادية الأمريكية. كما تساعد أيضاً فى إشباع رغبة معنوية عميقة لدى الأمريكيين الذين طالما شعروا بالحاجة إلى تقاسم مالديهم من نعمة مع بنى جنسهم، بل والحاجة فى تقاسم كارثتهم إذا لزم الأمر، ولكن كانت رغبتهم أكثر إلحاحاً فى مساعدة الناس على مساعدة أنفسهم.وهذا الأمر أساسى فى فلسفة النقطة الرابعة، كما أنها تساعد فى تحقيق السلام العالمى من خلال تحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى الكثير من المناطق المحرومة(١٨).

إذاً فالنقطة الرابعة ماهى إلا الخطوة الأخيرة فى خط طويل من مسار أنشطة الولايات المتحدة بغية تقوية السلام وتعميمه فى العالم من خلال مواجهة الظروف الاقتصادية التى تعد إرهاصات لغياب الاستقرار الاجتماعى والسياسي. كما أن النقطة الرابعة تبنى الإنتاج داخل الدول النامية بفتح فرص الاستثمار بواسطة الدول المصدرة لرأس المال، وبذلك فهى تدعم معدلاتها الخاصة بالتوظيف، لأنها تخلق أسواقاً تصديرية. وبذلك تعمل على تحسين توازن الاقتصادالعالمى، إذ تعزز الأمم المتحدة وتحدث مزيداً من التفاهم الدولى والتعاون، فتستطيع النقطة الرابعة أن تسهم

إسهاماً متعدد الجوانب فى تطوير الأوضاع الاقتصادية والصحية فى ربوع العالم، وبناءً عليه فى إقامة السلام ([19]).

ومن ثم فـــ لبرنامج النقطة الرابعة أهداف عديدة ومتنوعة قد تكون ظاهرية من أجل جذب الدول الراغبة فى التقدم إليها كالأهداف الإنسانية، وبعضها يهدف إلى تحقيق المصلحة الأمريكية فى المقام الأول وهى الأهداف السياسية والاقتصادية والتى تتمثل فيما يلي:

أولاً: الأهداف الإنسانية :

- **مساعدة الشعوب الحرة فى العالم "الدول النامية" على رفع مستوى معيشتها([20]):**

يكمن هدف برنامج النقطة الرابعة على حد قول ترومان فى "توجيه المساعدة للشعوب الحرة فى العالم، من خلال جهودهم الخاصة، لإنتاج المزيد من الغذاء، والكساء، ومواد البناء، بل والمزيد من الطاقة الميكانيكية للتخفيف من أعبائهم..."([21]) واستمر قائلا: "نحن ندعو الشعوب والدول الأخرى أن تصب مصادرها التكنولوجية فى هذا الصدد، بل ونرحب بإسهاماتهم بكل حرارة. فهذا المشروع، يجب أن يكون مشروعاً تعاونياً تشارك فيه كافة الدول من خلال الأمم المتحدة، ووكالاتها المتخصصة، ومن ثم يجب أن يكون المشروع جهداً عالمياً من أجل تحقيق السلام والرخاء والحرية...فهذا البرنامج يمكن أن يزيد من قوة النشاط الصناعى فى الدول الأخرى، ورفع مستوى معيشتهم...". والديمقراطية وحدها يمكن أن تمد القوة الحيوية لكى تحرك شعوب العالم نحو العمل الظافر، ليس فقط ضد الظالمين من البشر، ولكن أيضاً ضد أعدائها القدامى: الجوع والفقر والبؤس واليأس، وبمساعدة الله سوف يصبح مستقبل الإنسانية أكيداً فى عالم العدالة والانسجام والسلام"([22]).

كما أوضح الرئيس أيضاً "أننا سوف نكون قادرين على العمل مع كل دولة ترغب جدياً فى الدخول فى نظام تعاونى مع بقية دول العالم من أجل هذا

الهدف، ومع كل دولة ترغب فى مساعدة الدول الأخرى من أجل تقدمها..."(٢٣).

ويتبين من خطاب ترومان استعداد الولايات المتحدة الأمريكية لمد يد العون للشعوب المتأخرة "النامية" إغراءً لها بأن تولى وجهها شطر الغرب ومبادئه.ومصداقاً لهذا، صرح ترومان فى خطابه بأنه "لا مجال فى مشروعاتنا لاستغلال الشعوب للمنفعة الأجنبية".كما أبان أتشيسون D. Acheson – وزير الخارجية آنذاك– غايات النقطة الرابعة بقوله "إنها مساعدة الفرد على الاحتفاظ بالحرية والكرامة"(٢٤).

ورأى أتشيسون أيضاً "أن الشئ الجوهرى بالنسبة له هو استخدام وسائل مادية لتحقيق أهداف غير مادية، لأن الأهداف المادية فى حد ذاتها لا تصنع حياة أفضل أو حياة كاملة، ولكن بهذه الوسائل يستطيع البشر الحصول على الحرية، ليس فقط الحرية من الضغط الذى يمارسه هؤلاء الأشخاص الآخرين الذين يعرقلون الحصول على تلك الحرية، ولكن المساعدة فى صراع الإنسان منذ قديم الأزل للحصول على لقمة عيشه...فهذا هو هدف البرنامج"(٢٥).

ورأى جون بادو أن الهدف من تقديم المعونة الفنية هو مساعدة الدول النامية – وبصفة خاصة الشرق الأوسط – فى الاعتماد على نفسها فى عملية التطوير الفني.ونظراً لضعف موارد تلك البلاد فإن أقلية ضئيلة منها هى التى تستطيع أن تفى بمطالب الجماهير ورغبتها فى التقدم السريع.وأكد البعض أيضاً أن وجود الأسس الدينية والروحية داخل الأمة الأمريكية هى التى تدعم الأهداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتقودها نحو تحقيق أهدافها العامة من أجل الحرية والسعادة لشعوبها، وإعطاء الأمل للملايين الذين يسعون لنيل الحرية والسعادة (٢٦).

كما ورد فى تقرير عن التنمية الاقتصادية – نشره المجلس الدولى الإستشارى للتنمية تحت رئاسة مستر نلسون روكفيلر Mr. Nelson Rockefeller وهو التقرير المعروف بـ"شركاء فى التنمية"–أنه من المعتقد أن تقوية اقتصاديات الدول النامية وتحسين أحوال معيشتهم ورفع مستوياتهم المعيشية

لابد وأن يعتبر من أهداف تعبئتنا الدفاعية الخاصة بنا"([٢٧]).

وأكد أتشيسون قائلا: "إن التقنية الحديثة لا تعطينا أدوات الحياة المثلى فحسب، بل أيضاً وسيلة التواصل الضخمة ووسائل التعليم التى يمكننا من خلالها بث هذه المعرفة (بالتقنية الجديدة) وبذلك –أى بإعطاء هذه الدول وسائل الاتصال والتعليم– فإننا نساعدهم فى تحسين تربتهم الزراعية ومياههم وموارد أراضيهم الزراعية... ليس ذلك فحسب، بل نساعدهم فى إيجاد الثقافة التى تناسبهم وتشبع حاجاتهم، بل وتلبى طموحاتهم فى حكومة مسئولة وأقرب إلى النيابية ..."([٢٨]).

كذلك ذكر أتشيسون أيضاً: " وفى ضوء برنامج النقطة الرابعة، وكافة الأنشطة الأخرى التى تؤثر إيجابياً على تلك المناطق النامية، نسعى فى تشجيع ومساعدة حكومات هذه الدول على تناول طموحات الشعوب تناولاً فعالاً ومسئولاً، وفى ضوء تأثيرنا وخلال ما نقدمه من معونات فى إطار تطوير المؤسسات النيابية، فإننا إذاً سنكون عاملين لمصالحنا الكلية ولمصالح السلام العالمى ..."([٢٩]).

وهكذا كان على الولايات المتحدة أن توفر للشعوب التى لم تستكمل بعد نهضتها (الدول النامية) فوائد ثرواتها الفنية من الناحية العلمية والصناعية، حتى تساعدها على تحقيق ماتتطلع إليه من أمانى الحياة الطيبة الكريمة، وذلك بالتعاون مع الدول الأخرى عن طريق تشجيع الاستثمار فى المناطق التى تحتاج إلى تنمية مواردها المختلفة.

كما رأى مستر هنرى جارلاند بينيت Mr. Bennett – مدير إدارة التعاون الفني– أن برنامج النقطة الرابعة "بسيط وواقعى وذاتى العون ويهدف فى الأساس إلى مساعدة الشعوب الأخرى فى تزويد إنتاجها الغذائي، وفى تحسين أحوالهم الصحية ونظمهم التعليمية". وأعرب أتشيسون"أنه يجب أن ينظر إلى برنامج النقطة الرابعة على أنه علاج مقترح طويل المدى سوف يؤتى ثماره بعد عدد من السنوات"([٣٠]).

كما أكد جون بادو أن فكرة التطور الفني قد أصبحت لها أهمية تعادل الأهمية

التى كانت لفكرة الحرية أيام النضال من أجل الاستقلال . لقد أصبح التقدم الفنى إذا أمنية من الأمانى القومية ورمزاً للعزة والسيادة الوطنية، ويرى الأحرار فى كل البلاد النامية أن لا حرية مع التأخر. وأن الحرية التى تعتمد على الخبرات الأجنبية لا معنى لها... فالدول النامية التى أضحى التطور الفنى يشغل حيزا كبيراً من تفكيرها باتت تطالب المجتمع الدولى بمطالب جديدة. لقد كانت تطالب فى الماضى بحقها فى الحرية والاستقلال أما الآن فإنها تطالب بحقها فى التطور العلمى والمساعدات الفنية.ولم تعد المعونات الفنية والعلمية والصناعية مجرد مساعدات مجانية تقدمها الدول الغنية طواعية واختياراً، بل غدت حقوقاً تلتزم بها وتؤديها كأعضاء فى المجتمع الدولي(٣١).

ثانياً: الأهداف السياسية:

- **مواجهة التهديد السوفيتي:**

ظل صانعوا السياسة الأمريكية مقتنعين أنه بدون دفاع عسكرى كاف ضد الأهداف التوسعية السوفيتية التى يخشى منها:" فإن التقدم الاقتصادى والاجتماعى سيكون بطيئاً وغير أكيد وأن (أخطار) الشرق الأوسط سوف تكون مجالاً مباشراً للسيطرة الشيوعية من الداخل.وكان التقدم الاقتصادى فى الشرق الأوسط ينظر إليه من قبل ترومان باعتباره "الوجه الآخر لاستعادة أوروبا لقواتها".وقد كان من المعتقد أن المعونة التى يتم تقديمها من أجل الزراعة والصحة والخدمات التعليمية هى أداة هامة فى النضال ضد الشيوعية وكأسلوب جذاب لزيادة مستوى الاستثمار الخاص واستيراد المنتجات والتكنولوجيا الأمريكية(٣٢).

أكد أتشيسون النقاط الجوهرية فى البرنامج قائلاً: "إن محبة الإنسانية ليست الدافع لنا فى مواصلة البرنامج، وإنما هو الاهتمام الذاتى الراسخ العزم بهذا البرنامج، والاقتناع بأن دولاً أخرى سوف تتعاون معنا بمزيد من الثقة إذا قلنا بصراحة سبب اتخاذنا للبرنامج، كما أنه ليس المقصود هو أن ندك ذلك التهديد السوفيتي...فهذه مسألة تذكر من باب النتيجة الفرعية للبرنامج الذى من ورائه

مقصد أكثر ثباتاً وأهمية، حتى أننا كنا سنواصل تنفيذه ولو لم يكن هناك أمامنا تهديد سوفيتي، وأخيراً أقول انه وإن كان لبرنامج النقطة الرابعة حقاً تأثير قوى فى إيجاد الأسواق داخل الدول النامية، وتوفير مصادر المواد الخام فيها، فهذا ليس المقصد الرئيسى من وراء هذا البرنامج !!فالنقطة الرابعة فكرة سياسية وفلسفية فى جوهرها..."(٣٣).

وقد رأى ميلو بيركينزMilo Perkins– المساعد السابق لوزير الزراعة والمدير التنفيذى لمجلس الإدارة الاقتصادى أثناء الحرب –"أن المهمة التى يتحدث عنها هى مهمة طويلة المدى، ولكى نتحرك فى تفعيلها وانجاحها فلابد أن نتمكن من زيادة القوة بالنسبة للغرب مقارنة بقوة الكتلة الشيوعية السوفيتية ... بل نتمكن من تحقيق عالم غربى قوى يستطيع استقطاب بعض الدول الغربية منا والتى تدور فى فلك السوفيت ..."(٣٤).

كما أكد إيريك أ. جونستونEric A. Johnston– رئيس مجلس الإدارة الاستثمارية للتنمية الدولية – على أنه لابد من أن تدار المعركة الحقيقية ضد الشيوعية ولابد أن تسفر عن هزيمتها قائلاً: "لابد أن نلقى العدو، ونحن نعلم أنه هو الذى اختار فى كل بقعة من بقاع العالم الحر: فى القرى والحضر، فى المزارع والمصانع، السعى نحو الاستعباد...فكلما نراه يسعى لتجميد المفهوم الديمقراطي، فيجب من جانبنا – أن نعطيه النضارة والازدهار وأينما نراه يستخدم تكتيك الاختراق السرى فيجب إتباع تكتيك التعاون الصريح"(٣٥).

كما رأى جون بادو "أن اهتمام الغرب بالاستقرار واستتباب الأمن واحتواء السوفيت فى المنطقة العربية لن يتحقق إلا بتقدم هذه البلاد تقدماً يساعدها على التغلب على المشاكل الاجتماعية وعلى رفع مستوى المعيشة بين سكانها. كما رأى أنه إذا رفض الغرب تقديم المعونة لهذه الدول فليس أمامها إلا أن تلجأ إلى خصوم الولايات المتحدة حتي ولو أدى ذلك إلى الانتقاص من استقلالها القومي.وعلى ذلك فالواجب يقتضينا بألاً نجعل هذه الدول تلقى بنفسها فى أحضان خصومنا كنتيجة للضغط الناشئ عن الرغبة فى التقدم والتطور"(٣٦).

لعل هذه الآراء توضح تماماً أن المقصود من هذا البرنامج هو مواجهة الشيوعية السوفيتية فى كل مكان فى العالم، وتنفيذ سياسة الاحتواء التى دعا إليها جورج كينان الخبير الأمريكى فى الشئون السوفيتية منذ عام ١٩٤٦، ومن ثم فقد دعا ترومان إلى برنامجه الذى كان يهدف بالدرجة الأولى إلى مواجهة الشيوعية والعمل على نشر الاقتصاد الرأسمالى بإغراء الدول المحبة للسلام (والمعادية للشيوعية) على اتباعه.

- **الحفاظ على مصالح وأمن الولايات المتحدة:**

كانت تصريحات الساسة الأمريكيين إبان الفترة ١٩٤٩-١٩٥٣ تعكس قلقاً على جوانب الأمن الخاصة بالتنمية الاقتصادية حيث حذر أتشيسون قائلاً: "إن كتلاً ضخمة من الشعوب لن تقنع بنصف رغيف من الخبز". كما أطلق ترومان تصريحاً مماثلاً لذلك التصريح فى خطاب ألقاه أمام الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٤٩ جاء فيه "لن نستطيع تحقيق السلام الدائم والرخاء فى العالم إلا عندما يرتفع مستوى المعيشة داخل الدول النامية".ومن ثم فقد كانت سياسة الولايات المتحدة تنظر إلى التنمية الاقتصادية باعتبارها قضية تتعلق باعتبارات الأمن القومى ذات المدلولات الواسعة ([٣٧]).

كما أبلغ أتشيسون الكونجرس بأن العمل من أجل التنمية الدولية إجراء أمنى حيث قال:"وباعتباره إجراءًا أمنياً فهو سلاح أساسى لسياستنا الخارجية لأن أمننا العسكرى والاقتصادى يعتمد اعتماداً جوهرياً على الأمن الاقتصادى للشعوب الأخرى"([٣٨]).

وأكد صناع السياسة الأمريكية على أنه "لن نستطيع الجزم بأن التنمية الاقتصادية تؤول بالضرورة إلى قيام الديمقراطية، ولكننا متأكدون بأن أى فشل من جانبنا فى العمل من أجل توسيع التجارة ومساعدة المناطق النامية فى تحقيق مطامحها المعلقة معناه تأكيد خسارة قطاعات كبيرة ذات أهمية بالنسبة لأمن الولايات المتحدة".وكانت المناطق النامية ذات أهمية بالنسبة للأمن القومى الأمريكى

من حيث كونها مصادر فعالة لتموين المواد الخام الإستراتيجية ([٣٩]).

وهكذا تتضح السياسة الأمريكية الراغبة فى استغلال ثروات الدول النامية وخاصة المواد الخام اللازمة للصناعات المختلفة، كما أنها ستكون سوقاً لتصريف الإنتاج الأمريكى وبالتالى الحفاظ على أمن الولايات المتحدة اقتصادياً، بل وسياسياً عن طريق تطبيق النظام الأمريكى داخل هذه الدول.

إن الولايات المتحدة تقدم المعونات والمساعدات الفنية، بغض النظر عن أى اعتبار للنظام السياسى أو الاقتصادى السائد فى الدولة التى تتلقى المعونة، لأن الحكومات فى الشرق الأوسط كانت تواجه موجة عارمة من التطلعات الشعبية التى تنادى بمزيد من التقدم وبتحسين مستوى المعيشة، وإن فشل أى حكومة من حكومات المنطقة فى تحقيق مطالب الجماهير قد يؤدى إلى تهديد موقف تلك الحكومة تهديداً خطيراً ويفتح الباب للدعاية الضارة بالمصالح الأمريكية ([٤٠]).

وهكذا كانت الولايات المتحدة تقدم مساعدات للدول النامية كدول الشرق الأوسط مستغلة التوتر السياسى والضعف الاقتصادى ورغبة الجماهير العارمة فى تحسين مستوى المعيشة وتحقيق التقدم، فهذه هى أفضل الظروف للتدخل وتحقيق المصلحة الأمريكية .

وقد اعتمدت التنمية فى ظل النقطة الرابعة على وجود الديمقراطية، فليس من المتوقع أن تمنح الولايات المتحدة المساعدة للدول التى يكون النجاح فيها محفوفاً بالمخاطر نتيجة عدم وجود الديمقراطية. وهذاالإعتقاد ربما يعمل على تشجيع عناصر المعارضة داخل الدول النامية، أو يؤدى إلى الإصلاح السياسى أو الثورة، ولا يمكن وضع قائمة بأسماء هذه الدول، لأنها ربما توجد فى أى جزء من العالم([٤١]).

إن تحقيق الاستقرار الاقتصادى والاجتماعى والسياسي، وكذلك نشر السلام غالباً ما كان يتم إعلانه من قبل المسئولين كهدف أساسى لبرنامج المساعدة الفنية، وبالتأكيد فهو هدف جوهرى لابد من تحقيقه بأسرع مايمكن.وما إن تم إعلان

برنامج النقطة الرابعة كأساس للسياسة الخارجية حتى وجدت الديمقراطية الغربية وسيلة قوية من أجل تحقيق الاستقرار ونشر السلام (٤٢).

ثالثاً : الأهداف الاقتصادية:

- **زيادة حجم التجارة الخارجية**

وكانت الحاجة ماسة إلى برنامج النقطة الرابعة من أجل توفير الصحة والغذاء والتعليم للدول النامية. وكان على الدول المتقدمة حديثاً أن تشارك فى زيادة حجم التجارة الخارجية عن طريق التنمية الاقتصادية وتحقيق الاستقرار السياسي، ومن ثم فالنقطة الرابعة لها دور تكاملى فى السياسة الخارجية الأمريكية على النطاق الاقتصادى، وكانت تسهم فى تحقيق الأهداف المتنوعة التى تعمل على تقوية البرنامج (٤٣).

أوضح أتشيسون أن الهدف من البرنامج ليس السيطرة أو الهيمنة على الشعوب الأخرى قائلا: "لا يحمل مفهومنا للنقطة الرابعة أى شئ من الإمبريالية. إننا لا نقترح أى هيمنة على شعب آخر أو استغلال مقدراته أو فرض تغيير طرائق حياته.إن الفكرتين اللتين توجهان النقطة الرابعة هما:أولاً: التعاون الذى يسعى إليه ويقدم بحرية.ثانياً: مساعدة أولئك الراغبين فى مساعدة أنفسهم.كما صرح أتشيسون أيضاً:"نستطيع الآن – من خلال النقطة الرابعة – مساعدة الناس فى المناطق النامية على السير نحو التقدم، نساعدهم أن يتعايشوا مع مبادئ الحرية التى منحتنا الازدهار وفقاً لاحتياجاتهم وبحسب ظروفهم ..."(٤٤).

وأكد نفس الفكرة إيريك أ. جونستون– فى إحدى خطبه التى ألقاها أمام المؤتمر الوطنى لدول التنمية الاقتصادية والاجتماعية الدولية – قائلاً: "أود أن أقول للحكومة بأن لا مجال فى هذا البرنامج لأية امبريالية اقتصادية، كما أنه لا مجال فيه لأية بيروقراطية غربية"(٤٥).

كما رأى إيريك أ. جونستون أيضاً ضرورة العمل الوطنى المتضافر من أجل حماية فكرة النقطة الرابعة قائلا: "إن الوسيلة الأمثل فى تعبئة مبادرتنا ومهارتنا،

من خلال برنامج تم تخطيطه من أجل جلب القوة الاقتصادية الأكبر، والأمن السياسى الأكثر استقراراً، إلى تلك الدول الواقعة ضمن مدار قيادتنا... لن يمكننا أداء هذه المهمة إلا إذا استطعنا حشد وتضافر كافة القوى فى مجتمعنا للإسهام فى تحقيق تلك المهمة على أتم وجه"(٤٦).

وعلى الرغم من أن ترومان قد أكد فى خطابه أنه "لم يعد للحركة الاستعمارية القديمة (استغلال خيرات الدول الأجنبية)، مكان فى برامجنا" كما أوضح فى خطابه للكونجرس عام ١٩٥٠ أن " هذا البرنامج هو فى مصلحة جميع الشعوب، وليس هناك عامل مشترك بينه وبين الإمبريالية القديمة والإمبريالية الجديدة من قبل الشيوعيين"!!، إلا انه لا يعنى أن الولايات المتحدة لا تواجه مشكلة إيجاد منفذ لطاقاتها، وإلا فليس ثمة شك فى أنها لكى تزداد تقدماً فيما وراء المدى الذى بلغته، فلابد لها من العثور على قنوات ومنافذ فعالة لطاقاتها الضخمة وإمكانياتها الهائلة (٤٧).

وقد ذكرت صحيفة الوول ستريت فى عددها الصادر بتاريخ ١٢مايو ١٩٥٠ " أنه من المسلم به أن الولايات المتحدة ستستفيد بشتى الطرق من ارتفاع مستوى الإنتاج وزيادة التجارة الدولية".ومن ثم فإن البرنامج سيساهم فى تحقيق الرخاء لدول العالم الغربى ككل عن طريق المساعدة فى رفع مستويات الدخل والتوظيف الأمريكى (٤٨).

- **تشجيع الاستثمار الأمريكى :**

كان من أهم الأهداف أيضاً تشجيع الاستثمار الأمريكى حيث أكد أتشيسون على ضرورة تشجيع الاستثمار الخاص مع المؤسسات قائلاً: "إذا لم يتوافر المناخ الملائم والمشجع للاستثمار بالخارج فلن نحقق مظاهر تنمية داخل الدول المتخلفة كما نسعى ونرجو، فإذا ظل المناخ كله غير مرحب بالاستثمار الأجنبى فى الدولة فإذاً لن يصل رأس المال هناك سواء كان خاصاً أم حكومياً. فلابد من توافر مناخ يرحب بتبادل الأفكار والأشخاص. وإذا كانت النظرة فى بعض بقاع العالم – إلى

الأجانب- نظرة ارتياب وأنهم أعداء، إذاً فلن يكون هناك المناخ اللازم لمواصلة المقاصد التى نريدها هناك.فلابد من وجود روح للصداقة من جانب أولئك الذين نحاول مساعدتهم، ووجود الرغبة من جانبنا فى أن نشكل عوناً وفائدة لهم ..."(٤٩).

وتمثلت مسئولية التنمية الاقتصادية أساساً على عاتق الدول المنتفعة وهو مبدأ صحيح وجزء لا يتجزأ من المفهوم الرئيسى للنقطة الرابعة الذى يقول إن التنمية الاقتصادية المنتظرة من وراء برنامج التعاون الاقتصادى لابد أن يمول برأس مال خاص فى الأساس.وهنا يختلف برنامج النقطة الرابعة عن غيره من برامج المساعدة الخارجية الأخرى لأنه أكد على التمويل الخاص الناتج عن الرغبة فى تقليل عبء الضرائب – كلما أمكن- عن كاهل الأمريكيين. كذلك إعطاء الأولوية لاحترام التقاليد من أجل تحقيق الأهداف السياسية(٥٠).

وأكد ذلك رأى إيريك أ.جونستون بضرورة تأييد الاستثمار الأمريكى داخل الدول النامية بأية وسيلة، سواءً عن طريق عقد المعاهدات أو الإقناع الدبلوماسي، أو بأية آلية من آليات العمل فى البرنامج، كاللجان المشتركة التى تم إنشاؤها من أجل التنمية الدولية أو بأية وسيلة أخرى متاحة. واقترح فكرة الشراكة بين رأس المال الأمريكى ورأس المال الأجنبى لأن مثل هذه الشراكة من وجهة نظره هى مفتاح النجاح للاستثمار الأمريكى بالخارج، وهى التى سوف تدفع الأمريكيين فى طريق النقطة الرابعة ونحو أمن أكبر للأمريكيين وغيرهم من شعوب العالم الحر(٥١).

كما اقترح جونستون أيضاً أنه "من الممكن إرسال مئات من الأمريكيين المهرة ذوى الأمزجة المتزنة إلى داخل الدول النامية ضمن دول العالم الحر بهدف معين هو تقديم يد العون والمساعدة، ومن ثم ستكون فرصة طيبة لمئات من القادة فى تلك المدن والمراكز خارج حدودنا فى أن يتعلموا التقنيات والأساليب الحديثة، كما يرون بأعينهم كيف يعمل النظام الأمريكي" (٥٢).

وقد أبرقت وزارة الخارجية الأمريكية لكافة البعثات المختصة بالولايات

المتحدة قائلة: "لقد أضحى من الجلى أن نجاح برنامج النقطة الرابعة فى البلاد المفتقرة إلى العون يتوقف إلى حد كبير على ازدياد استثمار رؤوس الأموال المحلية، والرأى منعقد فى الإدارة التنفيذية على وجوب توجيه القسط الأوفر من الجهود فى برنامج النقطة الرابعة نحو هذا الهدف. فاستثمار الأموال الخاصة الواردة من الدول المصدرة للأموال وبخاصة الواردة من الولايات المتحدة ذات فائدة مزدوجة فى تزويد التقدم الصناعى بوسائل المعونة الفنية والإدارية، مع ما فى ذلك من طيب الأثر لموقف الدولار العالمي" (٥٣).

وفى أواخر ١٩٤٩- وعلى ضوء أقوال ترومان العلنية والمقاصد العملية- فسر الرئيس برنامجه "النقطة الرابعة" بأنه يعني: أولاً: توسيع المساعدات الفنية التى بدأتها الولايات المتحدة فعلياً للدول النامية.ثانياً: تشجيع حكومة الولايات المتحدة لعملية تدفق استثمار رأس المال الأمريكى الخاص داخل هذه الدول.وأكد ذلك فى خطابه للكونجرس فى ٢٤ يونيو ١٩٤٩ قائلاً: " ان كل الدول المعنية بالبرنامج يجب أن تعمل معاً لتحقيق الشروط المواتية لتدفق رأس المال الخاص، وتحقيقاً لهذه الغاية نحن نعقد اتفاقيات مع الدول الأخرى لحماية المستثمر الأمريكى من المعاملة التمييزية والتى لا مبرر لها فى ظل قوانين الدولة التى استثمر فيها"(٥٤).

لقد ذكرت صحيفة الوول ستريت أنه "مامن شك فى أنه توجد مناطق غير متقدمة اقتصادياً فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، ومن الممكن النهوض بهذه المناطق وزيادة الإنتاج والرخاء فيها عن طريق انسياب رؤوس الأموال الأمريكية إليها " كما ذكرت أيضاً " إذا عوملت الاستثمارات الأجنبية معاملة عادلة وإذا ما نجح الاقتراح الخاص بقبول الولايات المتحدة الوفاء بأثمان صادراتها وأرباح استثماراتها فى الخارج عن طريق زيادة الواردات إليها، فإن كل الظروف تدل على أن الاستثمارات الأمريكية ستنساب إلى الخارج بالشروط العملية المعقولة وستؤدى الرسالة المطلوبة منها"(٥٥).

جدير بالذكر أن كل هذه الآراء والأفكار التى تدعم الاستثمار الأمريكى ماهى

إلا تعبيراً عن ماهية السياسة الخارجية الأمريكية آنذاك والتى كانت تعمل جاهدة على تشجيع وتدعيم الرأسمالية الأمريكية فى كل مكان فى العالم وبصفة خاصة فى الدول الفقيرة التى من الممكن أن تقع تحت براثن الشيوعية وأفكارها المعادية للرأسمالية خاصة وأن هذه الدول تعانى ظروفاً اقتصادية صعبة يمكن أن توجهها نحو الكتلة الشيوعية (الإتحاد السوفيتى والدول الدائرة فى فلكه)، وهذا مالم تكن تسمح به الولايات المتحدة الأمريكية فى ظل الحرب الباردة.

وفى عام ١٩٥٠طالب الرئيس ترومان بإعداد تقرير حول السياسة الاقتصادية الخارجية والذى عرف بتقرير جراى جاء فيه:"أن الركود الاقتصادى والتوتر السياسى والفقر المدقع داخل معظم الدول النامية يمثل تهديداً متزايداً لسائر دول العالم الحر، وأن الحاجة إلى التنمية الاقتصادية والتقدم فى هذه الدول إذاً صارت أكثر إلحاحاً يوماً بعد يوم ليس فقط بالنسبة لتلك الدول النامية، بل أكثر إلحاحاً أيضاً لأمن الدول الحرة وإزدهارها جميعاً" ومن ثم فإن توسيع حجم الاستثمار بين الولايات المتحدة والدول الأخرى سيعمل على الإستقرار السياسى العالمى، ويقلل الحاجة إلى المنح الإستثنائية " ([٥٦]).

وقد صرح ترومان أمام الكونجرس فى يناير عام ١٩٥٠ قائلاً:" إن مساعداتنا الاقتصادية والفنية سيتم منحها – من الآن فصاعداً – فقط إلى الحكومات الوطنية التى تطلبها، والتى تعتمد على حسن النية للسياسات اللازمة لجعل المساعدات فعالة، بل والاستفادة الكاملة من مواردها".كما أكد هنرى بينيت– رئيس برنامج النقطة الرابعة – "أنه كلما استطاع الإنسان الحصول على انتاجه الخاص بنفسه، كلما كان لديه حافزاً أكثر، فعلى سبيل المثال إذا ما تخلى الفلاح المستأجر عن ٣/٤ انتاجه كإيجار، فلن يعمل بجد واجتهاد مثلما يعمل إذا ما تخلى عن ١/٤ الإنتاج فقط".كما ذكر الجنرال أيزنهاور فى موضع آخر:"إذا كان القلب غير موجود، فليس هناك فائدة من المحاولة "([٥٧]).

كان هدف الولايات المتحدة الرئيسى مواجهة الشيوعية وزيادة الصادرات الأمريكية إلى الدول النامية بمحاولة الشركات الأمريكية أن تقبض يدها على شتى

الأمور فى البلاد الأجنبية، بل لن تستغل أموالها فى البلاد التى تجد فيها صعوبات لا يمكن التغلب عليها كالضرائب العالية المجحفة والتشريعات العمالية المميزة وعدم تحويل العملات...وغيرها(٥٨).

مما لاشك فيه أن هذه الأهداف كانت غامضة وغير محددة المعالم، فلا الكونجرس ولا الرئيس حاولا توضيح " الأحوال الضرورية " اللازمة لتحقيق التقدم الاقتصادى أو رفع مستويات المعيشة، كذلك لم يحاولا أبداً بلورة الأهداف الدقيقة التى صمم البرنامج من أجل تحقيقها(٥٩).

وقد اقترح برنامج النقطة الرابعة نوعين من المساعدة من أجل تعزيز التنمية الاقتصادية للدول النامية.الأول:المساعدة الفنية والتى يمكن أن يتوافر من خلالها الصناعة الأمريكية والتقنيات العلمية من أجل استغلال الإنتاجية للموارد الاقتصادية لهذه الدول ؛ النوع الثانى:المساعدة المالية والتى تحتوى على حركة رأس المال من الولايات المتحدة لهذه الدول من أجل الاستثمار(٦٠).

٢- مبادئ المساعدة الفنية وشروطها

تتمثل مبادئ تقديم المساعدة الفنية للدول النامية فى النقاط التالية:

١. لا تمد المعونة إلى أية دولة ما لم تتقدم بطلبها والاتفاق مع الحكومات صاحبة الشأن، فالولايات المتحدة لديها برنامج المساعدة الفنية الذى يتم تنفيذه من خلال عقد اتفاقيات ثنائية مع الدول النامية الراغبة فى المساعدة. وقد ذكر وندال كليلاند(٦١)– مدير قسم بحوث الشرق الأدنى وافريقيا فى وزارة الخارجية – قائلا: "يشترط دائماً أن تبادر الدول بالمطالبة، ولا تنتظر من الولايات المتحدة أن تفرض عونها على دولة راغبة عنه".

٢. لا تمنح المساعدة إلا إذا قررت الولايات المتحدة صلاحية المشروع المطلوب المساهمة فى تنفيذه ببذل المعونة الفنية، ويجب أن تتصل أسباب المشروع بالنمو و الاستغلال الاقتصادى(٦٢).

٣. إذا كانت البلاد الطالبة للعون تفتقر إلى المساعدة الفنية اللازمة لوضع برنامج

استثمار منسق، فلها أن تطلب هذه المساعدة. والمقصود بالبرنامج المنسق هو الذى تراعى فيه مقدرة البلد المحلية على تحمل النفقات المباشرة والثانوية فى المراحل الأولى، ونفقات الصيانة طوال حياة المشروع، أو الحصول على مورد خارجى لتمويله إذا لم تكن المالية المحلية تفى بالغرض المنشود.

٤. لن تعتبر تقديم المعونة الفنية وسيلة للتدخل الأجنبى فى شئون الدولة الطالبة سواءً سياسياً أو إقتصادياً(٦٣).

٥. ينبغى إعداد برنامج أكثر جرأة فى شراء مواد إستراتيجية من الدول المتعاونة مع الولايات المتحدة، فإلى جانب الأهمية العسكرية لتلك المواد فإن الاقتصاد الأمريكى يحتاج فى نموه لكل من عناصر الرصاص والقصدير والزنك والنحاس والمنجنيز ... وغيرها. وهى التى ينتجها العالم، وقد تبيعه بعض الدول للولايات المتحدة، فلابد من التأكيد للدول التى تبرم إتفاقيات استثمارية مع الولايات المتحدة أنها سوف تقيم لهم سوقاً ثابتة لهذه المواد الرئيسية (٦٤).

٦. لا بد أن يكون لأى دولة ترغب فى التعاون البعيد مع الولايات المتحدة أن يكون لها الحق فى السوق الأمريكية لمنتجاتها الذاتية. ومن ثم لا بد من تخفيض التعريفات الجمركية من أجل هذه الدول التى ترغب فى التعاون على أساس النشاط التجارى التنافسي.

٧. ضرورة أن تعرض الحكومة الأمريكية على رجال الأعمال الأمريكيين بيع تأمين نشاطهم الاستثمارى داخل الدول الأجنبية. وقد يشمل التأمين ضد أخطار معينة غير عادية مثل العجز عن تحويل الأرباح التى تم تكوينها فعلياً داخل دولة أجنبية إلى دولارات، فضلاً عن التأمين ضد أخطار المصادرة(٦٥).

٨. فى حالة إذا ما قررت الولايات المتحدة صلاحية الطلب وأحقيته ارتبطت بالدولة المطالبة بإتفاقية ثنائية ينص فيها على إلتزام الطرفين، و نصيبهما من النفقات، فتلتزم الولايات المتحدة بتقديم المعونة الفنية، أما نصيب الدولة

الأخرى فيختلف تبعاً لمواردها وطبيعة المشروع ([66]).

٩. حرص الدول المقدمة للمعونة على رؤية خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية، مستغلة لكل جوانب التنمية إستغلالاً وافياً للموارد الداخلية الموفورة فى كل المجالات ومايتصل بها من مجالات أخرى.

١٠. عدم إستخدام المعونات الدولية فى مشروعات واهية، وليس فى برامج إصلاحية واسعة التصور وجريئة التنفيذ وفى برامج تنموية ضخمة، أو إستخدامها فى مشروعات غير جديرة بالثقة ([67]).وهكذا كانت شروط المعونة تدعى عدم التدخل فى شئون الدول على الرغم من أنها كانت تطالبها بتقديم تقارير وافية عن مواردها المختلفة من أجل خطط التنمية بل واستغلال هذه الموارد .فكيف لا يعد هذا تدخلاً سافراً فى شئونها.

١١. أن يكون إصلاح الأراضى والإصلاح الضريبى والإدارى على قائمة الشروط. كذلك ضرورة التأمين ضد المصادرة دون توفير تعويض فورى كاف. وضرورة بذل الجهود من أجل توفير الضمانات المعقولة فى حالة حصول عدم قابلية أو إمكانية للتمويل.

١٢. المطالبة بعمل جدول للأولويات والعمليات الداخلية المخطط لها فى ميدان التنمية ([68]).

١٣. يجب على الخبراء الذين يوفدون إلى بلد معين أن يمتنعوا عن القيام بأى نشاط سياسى أو تجارى أو أى نشاط خارج نطاق المهمة التى أوفدوا من أجلها.

١٤. يجب أن توجه العناية والاحترام للسيادة الوطنية والتشريع الوطنى فى البلاد التى لم تستكمل نموها الاقتصادى، وأن تراعى الظروف الاجتماعية التى تؤثر تأثيراً مباشراً على التنمية الاقتصادية.

١٥. تقوم الدولة المطالبة بنشر ما يمكن إذاعته من البيانات المتعلقة بنتائج تقديم المساعدة الفنية والتجارب التى حصلت عليها منها، حتى يمكن للدول الأخرى

والهيئات الدولية التى تقدم المعونة الفنية أن تستفيد منها (٦٩).

ورأى أتشيسون أن برنامج النقطة الرابعة لا بد وأن تراعى فيه حدود الطاقة الاستيعابية للدولة وحدود رغبتها فى مواصلة البرنامج داخلها، فالمال ليس السبيل الصحيح الذى تنظر إليه، وإن كان أساسياً وضرورياً من أجل بلوغ الأهداف المرجوة من البرنامج (٧٠).

كما كانت الدول المقدمة للمعونات تحرص على أن تكون الضمانات التى وضعتها الدول المنتفعة بتلك المعونات ألاَّ تعتبر من قبيل الموقف المستغل وإنما تصاغ فى النهاية كبرنامج طويل الأجل. وتهتم كذلك الدول المقدمة للمعونات بأن يفهم أن الغرض من هذا البرنامج هو تحسين الأحوال العامة الحياتية لكافة الشعوب الذى يقطن تلك المناطق المصابة بالتأخر، وألا يقتصر تحسين أحوالها على فئة ضئيلة معينة أو حتى أغلبية ضمن إجمالى السكان (٧١).

ويرى البعض أن هناك شروطاً أخرى يجب اتباعها عند تطبيق المشروع، وتتمثل فيمايلى:

١. إتباع سياسة تعنى بالاستثمار الأجنبى على اعتبار أن الأمة الأمريكية هى أمة الاستثمار الحر التنافسي. وبالتالى لا بد أن تعلن الولايات المتحدة عن مصالحها الذاتية إعلاناً صريحاً بأن المساعدة قائمة على الاعتماد بشكل أساسى على رأس المال الخاص.أى تشجيع الفرد على الدخول فى النشاط التجارى التنافسى مع أدنى حد ممكن من تدخل الحكومة.

٢. ينبغى إجراء المفاوضات مع الدول التى تماثل الأمريكيين فى الفكر، والتى تضمن لرأس المال الأمريكى الخاص عدالة المعاملة عندما يتوجه إلى الخارج. أى أن يلاقى رجال الأعمال التابعين لهم حسن المعاملة عندما يعملون فى دولة أخرى بالخارج، والعكس عندما تأتى جنسيات أخرى للعمل فى الولايات المتحدة(٧٢).

٣. ينبغى تقديم أكبر قدر ممكن من المساعدة التقنية إلى الدول الأخرى وبما يمكنهم

إستيعابه. فبعد إبرام الاتفاقيات الاستثمارية مباشرة لا بد من إقامة البعثات التى من شأنها أن تراجع موارد تلك الدول والفرص المتاحة فيها لتنفيذ التنمية الصناعية والزراعية. ولا بد أن تتكون هذه البعثات من عناصر حكومية وعناصر النشاط التجارى وأن تكون منتمية إلى الولايات المتحدة، وإلى الدولة المستقبلة لها.

٤. الائتمان الحكومى والذى يعمل على توسيع الفرصة للاستثمار الخاص سواء لمواطنى الولايات المتحدة أو للمواطنين الآخرين فى الدول المنتفعة بالقروض، فهذه التسهيلات التى تقدمها هذه القروض الحكومية لا بد وأنها ستساعد كافة المؤسسات التجارية داخل الدولة المنتفعة بهذه القروض فى تحقيق الإزدهار، ومن ثم اكتساب أموال الضرائب اللازمة لسداد تلك الائتمانات(٧٣).

وقد ذكر الدكتور كليلاند: "إن المشورة التى يمكن للولايات المتحدة تقديمها ذات مجال واسع فمنها مشورة فى الشئون الصحية والاجتماعية كمشروع الضمان الاجتماعى المصري، ومنها مشورة فى شئون الزراعة والهندسة وتنظيم المرور وإنشاء السدود والجسور وتدريب الشباب على الأعمال الفنية وغيرها، ومتى تلقت الحكومة الأمريكية طلباً من احدى الحكومات بادرت ببحثه ثم إحالته إلى الوزارة أو المصلحة المختصة لتنتدب من لدنها الخبراء الذين يساعدون الحكومة الأجنبية فى أعمالها وتدفع نفقات هؤلاء الخبراء ونفقات الانتقال والتدريب من اعتماد المساعدة الفنية"(٧٤).

وقد ذكر جون بادو أن أفكاراً معينة كانت تدور فى خلد زعماء الشعوب التى تطالب بحقها فى المساعدة الفنية، فهم يرون: أولاً: أن هذه المساعدة هى بمثابة تعويض لشعوبهم عن عمليات الاستغلال والاستنزاف التى تعرضت لها مواردهم على يد الاستعمار الأجنبى فى الماضي.ثانياً: أن الدول التى نالت حظاً وافراً من التقدم ملزمة من الناحية الأدبية بتقديم خبراتها الفنية للدول التى تناضل من أجل التقدم. ثالثاً: إنهم يعتبرون التطور الفنى ضرورة لا بد منها لتثبيت الاستقلال ونيل الحرية والسيادة الحقة.ويردد هؤلاء الزعماء أن الاستقلال السياسى فى العصر

الحديث يستند أولاً وأخيراً على النواحى الاقتصادية والعلمية والفنية. وكنتيجة منطقية لهذا التفكير فإن الدول النامية لا تستجدى المعونة الفنية من المجتمع الدولي؛ بل تطالب بها كحق مشروع (٧٥).

وقد ذكر الدكتور وندال كليلاند قائلاً : "المقرر أن يبدأ تنفيذ مشروع المساعدة الفنية فى يوم أول يوليو سنة١٩٥٠، وعلى كل دولة راغبة فى الانتفاع بهذا المشروع أن تقدم طلباً إلى الحكومة الأمريكية تبين فيه ما يعوزها من عون فنى – اقتصادى أو اجتماعي– لتنفيذ المشروعات الإصلاحية التى تعدها، وعلى الحكومة الأمريكية أن تختار الخبراء الذين يقدمون المشورة والعون لهذه الدول" (٧٦).

لقد وقع على عاتق الأمم المتحدة إقامة بعض المشاريع المتعددة الجوانب، والمفيدة لكلا الجانبين من خلال عقد إتفاقيات أيضاً مع الولايات المتحدة والدول الأخرى.كما قدرت وزارة الخارجية الأمريكية أن النقطة الرابعة تتطلب حوالى ٣،٠٠٠من الفنيين لمدة سنة كاملة لبدء البرنامج ...علاوة على ذلك فقد يكون بعض هؤلاء الفنيين من المبتدئين، والعلماء، والفنيين المحترفين "المهنيين"، ومع ذلك كان الطلب على ذوى المهارات العالية من الفنيين التابعين للولايات المتحدة عادة ماكان يتم فرضه على البرامج الاقتصادية والعسكرية والتعليمية الراغبة بالفعل فى التقدم(٧٧).

٣- إرهاصات النقطة الرابعة:

لقد تقدمت الولايات المتحدة إلى الكونجرس فى مستهل عام ١٩٥٠ بطلب الموافقة على إعتماد مبلغ ٤٥ مليون دولار للإنفاق على برنامج المعونة الفنية التى تعتزم الولايات المتحدة تقديمها للدول الأقل تقدماً خلال العام الأول للبرنامج، وحددت مدى لهذا العمل قدرته بخمسة أعوام، ونصت لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ على أن ينتهى أجل المشروع فى يوم ٣٠ يونيو عام ١٩٥٥، غير أن خلافاً بدأ بين مجلس الشيوخ ومجلس النواب، ففى الوقت الذى وافق فيه مجلس الشيوخ على الاعتماد المطلوب بأكمله، رأى مجلس النواب تخفيضه إلى ٢٥ مليوناً فقط.كما اختلف بينهما الرأى فى الضمانات التى اقترحتها الحكومة

للاستثمارات الأمريكية فى تلك الدول (٧٨).

اتضحت كراهية الكونجرس لتخصيص أموال للفرع التنفيذى حتى يقوم هو بدوره فى توزيعها على الأجانب. كما اتضحت فى مواقف الكونجرس إزاء الانفاق على برامج المعونة المتنوعة وإداراتها. ولقد اتضح الموقف التشريعى السائد من خلال ما أعلنه السيناتور كوناللي Connelly– رئيس لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ – حينما أعلن قائلاً: "إننا إن عاجلاً أو أجلاً لا بد أن نتخلص من هذا البرنامج الاقتصادى، فلن يمكننا مواصلة المساندة لدول من جميع أنحاء العالم بصدقات ومنح لا لشئ إلا لأننا نحبهم، أو لأى سبب آخر" كما قال كونللى أثناء جلسات الاستماع لمشروع قانون الأمن المشترك:"ها هو الجمهور المتشابك، وقد وصل به الضجر منتهاه من هذا البرنامج برمته" (٧٩).

كما اتضحت رغبة الكونجرس فى قصر المعونة الخارجية على القروض فى البيان الذى ألقاه النائب جون.م.فوريس– زعيم الاتجاه المطالب بالقروض بديلاً عن المنح– قائلاً: "لا أستطيع أن أتصور أن أى مواطن يمثل الولايات المتحدة ويفكر فى المشكلة يقول إن ما نحتاج إليه هو القروض طويلة الأجل بحيث نسترد أموالنا أثناء مرور السنين، أما الواردات الصناعية الكثيرة فلا حاجة لنا إليها بل هذه الواردات مما تتنافس مع منتجاتنا، بل وتدمر نظامنا الصناعى الخاص. إن ما نحتاجه هو مواد خام تمثل عجزاً عندنا"(٨٠).

وقد رأى عضو مجلس الشيوخ جونسون ضرورة التوسع فى اعتمادات النقطة الرابعة للقيام باستغلال الموارد الطبيعية فى البلاد الأقل تقدماً، وأن أوربا لن تستطيع استعادة نشاطها الاقتصادى إلا بتوثيق علاقاتها التجارية مع افريقيا وبلدان الشرق الأوسط والأقصى كما كانت عليه الحال قبل الحرب، وأن مجهودات تشجيع صادرات بلدان غرب أوربا للسوق الأمريكى للحصول على الدولارات لإصلاح حالة الميزان التجارى لتلك الدول سوف لا تأتى بالثمرة المطلوبة إلا إذا اقترنت أيضاً بتوثيق علاقات أوربا الاقتصادية مع افريقيا والشرقين الأوسط والأقصى، وهنا يأتى الدور الذى تلعبه المساعدات الفنية (٨١).

وهكذا فقد دعا عدم إتفاق وجهات النظر إلى تشكيل لجنة مشتركة من المجلسين لبحث الموضوع والاتفاق على رأى موحد بشأنه، وقد أسفرت قرارات هذه اللجنة عن حل وسط يتلخص فى الموافقة على إعتماد مبلغ قدره ٣٥ مليون دولار لهذا الغرض، وجعل الضمانات التى تقدمها الولايات المتحدة لرؤوس الأموال المستثمرة مقصورة على الاستثمارات الموجودة أو التى توجد فى الدول المنتفعة بمشروع مارشال دون غيرها، وفى حالات التأميم أو المصادرة أو الاستيلاء فقط([٨٢]).

وبالفعل وقع الرئيس ترومان الاعتماد الخاص بالمعونة الفنية فى حدود مبلغ ٣٥ مليون دولار لبرنامج النقطة الرابعة فى عامه الأول الذى يبدأ فى أول يوليه سنة ١٩٥٠، وتم تقسيم هذا المبلغ بين المعهد الخاص بشئون أمريكا اللاتينية، وهو المعهد الذى كان يقوم بتنفيذ مشروعات الإصلاح بدول أمريكا الجنوبية، والإدارة الخاصة بالمشروع بوزارة الخارجية، ومن المعتقد أن يكون نصيب الأول حوالى عشرة مليون دولار للإستمرار فى تقديم المعونة لأمريكا اللاتينية، والثانى "الأمم المتحدة"حوالى ٣ مليون دولار، والباقى وقدره ١٢ مليون دولار تقريبًا تحت تصرف الإدارة الخاصة بالمشروع بوزارة الخارجية الأمريكية للصرف على النواحى الأخرى من المعونة الفنية([٨٣]).

والجدول الآتى يوضح توزيع مبلغ المعونة وقدره ٣٥ مليون دولار على الجهات المختصة بتنفيذ برنامج النقطة الرابعة فى الدول النامية :-

الجهة الموجه إليها المعونة	المبلغ المقرر
المعهد الخاص بشئون أمريكا اللاتينية	١٠ مليون دولار
الأمم المتحدة	١٣ مليون دولار
الإدارة الخاصة بالمشروع بوزارة الخارجية	١٢ مليون دولار
الإجمـــــــــالي	**٣٥ مليون دولار**

إن الاتجاه الجديد الذى بدأت تأخذ به سياسة الولايات المتحدة بالنسبة لبرنامج النقطة الرابعة الخاص بالمساعدات الفنية يتجه نحو إعطاء أهمية أكبر للدول المرتبطة إقتصادياً وحربياً بالولايات المتحدة أو التى تهتم الولايات المتحدة بسلامة مركزها الاقتصادى.أما الدول الأقل أهمية من هذه الناحية، والتى اعتادت الولايات المتحدة منحها بعض المساعدات الفنية فى الزراعة أو الصحة أو غير ذلك، فإن اتجاه النظام الجديد هو أن يترك أمر تدبير وتوجيه هذه المسائل إلى مؤسسات وهيئات خاصة لها دراية بالسير قدماً فى هذه النواحي، ويمكن أن يترك لها هذا المجال فلديها الخبرة المطلوبة والأموال اللازمة، وإن كانت الحكومة الأمريكية قد تعاونها وتستكمل تدبير ما قد تحتاجه من زيادة فى مصروفاتها(٨٤).

كان المسئولون فى الحكومة الأمريكية يفكرون فى إنشاء إدارة خاصة بالمساعدات الفنية فى وزارة الخارجية(٨٥)تنفيذاً لبرنامج النقطة الرابعة، وذلك على غرار الإدارة الخاصة ببلدان أمريكا اللاتينية بالوزارة نفسها. ومن أهم المشروعات التى قامت بها البرنامج الصحى فى شيلي، برنامج التعليم فى جواتيمالا، والبرنامج الزراعى فى باراجواي. وبذلك كانت المجالات الأساسية للتنمية الاقتصادية تكمن فى الزراعة، الصحة العامة، والتعليم، والإتصالات، والخدمات الاجتماعية والدينية. وقامت العديد من المنظمات الأخرى مثل الشركات الصناعية والمؤسسات والجامعات ووزارة الزراعة الأمريكية بإعداد مشروعات المساعدة التقنية.وبالفعل تمت اضافة مجالات أخرى مثل النقل والتسويق والصناعة والتدريب الإدارى والحكومى والعمل والسكن والتنمية المجتمعية والخطط الاقتصادية(٨٦).

اتخذت حكومة الولايات المتحدة أولى خطواتها بعد الإعلان عن برنامج النقطة الرابعة بأن قامت بتأسيس المنظمات الإدارية واالاستشارية التى يناط بها تنفيذ توجه الرئيس الأمريكي. فقامت اللجنة االاستشارية للمساعدات الفنية بجمع المعلومات اللازمة للمشروع، ثم انشاء إدارة التعاون الفنى التابعة لوزارة الخارجية(٨٧).

أصدر الكونجرس قانون المساعدات الخارجية الاقتصادية لعام ١٩٥٠ والذى

ينص فى إحدى فقراته على العمل من أجل التنمية الدولية أى الأساس التشريعى لبرنامج النقطة الرابعة، وينص القانون على مسئولية الرئيس عن توفير التنسيق العام بين كافة الأعمال التى تجرى فى ظل البرنامج، والمقصود بها الأعمال التى تقوم بها جهات ومنظمات حكومية أو غير حكومية، كذلك وضع الترتيبات اللازمة لعقد الاتفاقيات بين الولايات المتحدة والدولة التى تطلب المعونة الاقتصادية، والاجتماعية، وتتلقاها فى ظل نصوص هذا القانون(٨٨).

وفى الثامن من سبتمبر عام ١٩٥٠ أصدر الرئيس ترومان أمراً تنفيذياً يقضى بأن يتولى وزير الخارجية الأمريكى مسئولية التنسيق العام لكافة أنشطة النقطة الرابعة مع مسئولية التنسيق بينها وبين السياسات العامة والبرامج العامة التى تتبعها الولايات المتحدة، وهيئة الأمم المتحدة، ومنظمة الدول الأمريكية ... وغير ذلك من جهات رسمية معنية. وتعيين المسئول عن إدارة برنامج النقطة الرابعة رئيساً لهيئة التعاون الفنى التى إنقسمت إلى قسمين:قسم البرمجة والمشروعات، وقسم التحليل الاقتصادى والسياسي. كما تم تأسيس هيئة إستشارية مدنية وهى مجلس الإدارة الاستشارى للتنمية الدولية، وكان يرأسها السيد نلسون.أ. روكفيلر(٨٩).

وتم تفعيل دور التنسيق أيضاً من خلال المسئول عن إدارة شئون المساعدات الفنية أو رئيس بعثات النقطة الرابعة التى تربطها حلقة وصل بالسفارة أو بعثة دبلوماسية داخل الدولة المنتفعة بالمعونة.ويتولى هذا المسئول الإشراف على كافة العمليات التى تقوم بها حكومة الولايات المتحدة، والتنسيق فيما بينها داخل تلك الدول المنتفعة، كذلك يقوم بالعمل كإستشارى ومسئول ثان فى مجال التمثيل الدبلوماسي. كما أبدت هيئة الأمم ووكالاتها المتخصصة إهتماماً بالغاً بهذا الهدف العالمى البناء بأن أعلنت مشاركتها الفعلية سواءً مادياً أو فنياً(٩٠).

وفى ظل برنامج النقطة الرابعة كان هناك عدد من الهيئات التى تتمثل فى أنه كان هناك إنقسام فيما بين إدارة التعاون الاقتصادى وإدارة التعاون الفني، وهيئة للتنسيق السياسى العام وهى المجلس الوزارى الاستشارى لشئون التعاون الفنى

والذى يتم فيه تمثيل كافة الجهات الحكومية المعنية، أما الصلاحيات المالية فكانت فى أيدى إدارة المساعدة الفنية بالخارجية الأمريكية عن طريق الرقابة على المخصصات النقدية الرئيسية، وتضم مرحلة التخطيط، والسفارات ورؤساء المهمات المعنيين فى المجال الميداني، والخارجية الأمريكية بواشنطن، كما تضم المكاتب التى تمثل حلقات الوصل مع الهيئات الإقليمية والدولية المعنية، وأحيانا الهيئات غير الحكومية أيضاً([٩١]).

كان من المقرر أن يتم تقسيم المبلغ المخصص للإدارة الخاصة بالمشروع بوزارة الخارجية الأمريكية وقدره ١٢ مليون دولار تقريباً على الوجه الآتي:

- ✓ ٢ مليون دولار للدول العربية.
- ✓ ٢ مليون دولار لافريقيا، دون أن يشمل ذلك إتحاد جنوب افريقيا، على أن يكون نصيب الحبشة كبيراً بالنسبة لباقى مناطق افريقيا.
- ✓ ٣ مليون دولار للهند وباكستان وبورما وسيلان وأفغانستان.
- ✓ ٥ مليون دولار لمنطقة الشرق الأقصى ([٩٢]).

والجدول التالى يوضح توزيع مبلغ الـ ١٢ مليون دولار المخصص للمعونة الفنية بوزارة الخارجية الأمريكية :-

جهة توزيع المعونة	المبلغ المقرر
الدول العربية	٢مليون دولار
افريقيا	٢مليون دولار
الهند- باكستان- بورما- سيلان- أفغانستان	٣مليون دولار
الشرق الأقصى	٥مليون دولار
الإجمالي	**١٢مليون دولار**

وقد استبعدت تركيا من بلدان الشرق الأوسط لأنها من بين الدول المنتفعة

بمشروع مارشال، أما إيران فسيكون نصيبها بالقدر الذى سيتبقى من المبلغ المخصص للدول العربية فى حالة إذا ما تبقى رصيد ما، وذلك لانتفاعها بمشروع السبع سنوات، أما إسرائيل(٩٣) فقد إستبعدت وذلك لحصولها على قرض من بنك التصدير والإستيراد قدره ١٠٠ مليون دولار، كذلك عبرت الدول العربية عن إستيائها لأن الولايات المتحدة أضافت إلى قائمتها إسرائيل، وبالتالى فالبيانات التى طلبت من هذه الدول عن مطالبها كانت ضئيلة(٩٤). ويتضح مما سبق الدعم الأمريكى الكبير لإسرائيل ومدى تأثير اللوبى الصهيونى على القرار الأمريكى، وذلك اذا ما قارنا حجم المساعدة المقدمة للدول العربية بتلك التى قدمت لإسرائيل فالفرق كبير جداً.

وقد صرح مستر ويلارد ثورب Willard L.Thorp مساعد وزير الخارجية الأمريكية للشئون الاقتصادية بأن المعدل السنوى لاستثمارات أمريكا بالأسواق الخارجية يبلغ ملايين الدولارات، وأنه يمكن الاتجاه بتلك الاستثمارات والمساعدات الفنية إلى ميادين جديدة مثل استراليا حيث المجال واسع للبدء بمشاريع إنتاجية مختلفة، وإلى ميادين أخرى كافريقيا والشرقين الأوسط والأقصى وأمريكا اللاتينية، حيث يمكن وضع برامج خاصة على نطاق ضيق تلائم حالة تلك البلدان الاجتماعية إتقاء لحدوث رد فعل لتغييرات مفاجئة فى نظم قائمة منذ مئات السنين، وكان هذا لا يمنع من التوسع فى الاستثمار فى الموارد الطبيعية فى تلك البلدان مثل موارد البترول والمعادن والمطاط وإنشاء الصناعات الجديدة فهذه هى أمثل الطرق للنهوض ورفع مستوى المعيشة.كما صرح أيضاً:"أن برنامج النقطة الرابعة جهد حكومى واسع وموجه من جانب الخارجية الأمريكية وقائم على مفهومها الأساسى للسياسة الخارجية"(٩٥).

كما أكدت لجنة سياسة المواد Materials Policy Commission التابعة للرئيس والتى عرفت بلجنة بلاى Paley Commission على الأهمية الاقتصادية بعيدة المدى التى تتمتع بها المناطق النامية بالنسبة للازدهار الأمريكي. وكانت اللجنة تدرس مدى كفاية المواد، وخاصة المواد الصناعية فى سد احتياجات العالم

الحر للسنوات المقبلة.وأكدت اللجنة أيضاً على السرعة التى كانت الدول الصناعية تلتهم بها المواد الخام، ثم أوضحت بأنه مع كل ما تقدمه الولايات المتحدة من خلال قاعدة مصادرها وما تمتلكه من تقنية يبقى الطلب فى تزايد على المواد الخام.كما حددت المناطق التى يجب على الولايات المتحدة أن تسعى لزيادة وارداتها المعدنية، وتتمثل فى كندا وأمريكا اللاتينية وافريقيا والشرق الأدنى وجنوب شرق آسيا وجنوب آسيا(٩٦).

وذكر مستر موريس كوك –رئيس لجنة الموارد المائية بالولايات المتحدة– أثناء إلقائه لخطابه فى الاجتماع الختامى للمؤتمر الذى نظمته جامعة ديلاوير لبحث حالة العالم الاقتصادية، أنه يجدر بالولايات المتحدة التوسع فى اعتمادات النقطة الرابعة ورسم سياسة التعاون مع الدول الأخرى للنهوض باقتصادياتها، وأهاب بالفنيين وجوب التعاون وقبول العمل بالخارج والتضحية عن طيب خاطر.كما أشار مستر باول هوفمانMr. Paul Hoffman – رئيس إدارة التعاون الاقتصادى – من واقع خبرته بأن "المساعدة الفنية هى تلك المادة التى يمكن استيرادها ولا يمكن تصديرها"(٩٧).

وقد رأى ميلو بيركينز أن من أهم المعوقات التى كانت تقف حائلاً دون تنفيذ النقطة الرابعة فى الدول النامية ما يلي:

أولا: عدم إيمان مكتب العمل أو جهاز الإدارة فى أغلب الدول بمبدأ النشاط التجارى التنافسي، فرجال الأعمال يفضلون المؤسسات التجارية والصناعية المحكمة فى الأسعار، ويخشى قادة العمال من طرد العمال خارج وظائفهم مع ظهور آلات التقنية الحديثة.كما يؤمن أصحاب الأراضى بضرورة امتلاك أعداد ضخمة من العمالة الرخيصة.

ثانيا: الناحية السيكولوجية داخل الدول الأجنبية والتى تعنى اختلال الثقة فى الثقافة الأمريكية، والتى تسفر عن مستويات معيشية مرتفعة مع قدر كبير من الحرية الشخصية، والتى يرون أنها تفرز حالات مرتفعة من الطلاق، ويظهر فى

إطارها أشكال اللهو الرخيص وغيرها، وبالتالى يرى أنه لا ينبغى أن نفرض على الشعوب الأخرى المنهج والطريقة الأمريكية فى الحياة.

ثالثا: مشكلة النمو السكانى المتزايد داخل الدول النامية، فبينما كانت برامج المعونات أو المساعدات التقنية تقلل من معدل الوفاة فى هذه الدول، أصرت نسبة الزيادة السكانية على التصاعد، ومن ثم عملت الزيادة السكانية على الإبطاء من سرعة النمو الاقتصادى.ومن ثم الاحتياجات الكثيرة للدول النامية وسكانها، والتى لا يمكن تحقيقها من خلال المال فقط ([٩٨]).

وقد رأى البعض أنهم فى الولايات المتحدة لم يتعلموا كيفية التعايش فى احترام متبادل مع هؤلاء الذين يختلفون عنهم فى اللون، فعلى سبيل المثال كان البرنامج يهدف إلى جلب آلاف من الطلاب من الدول النامية إلى أمريكا، لمنحهم فرصة للعيش فى مناخ من الديمقراطية ؛ ولكن أدت تجارب هؤلاء ذوى البشرة الداكنة من الطلاب الأجانب إلى أنهم واجهوا التمييز العنصري، وبالتالى تغيرت فكرتهم عن الديمقراطية الأمريكية.أما ارسال الفنيين إلى الخارج، فلا يجب توفير الفنيين المؤهلين فقط، ولكن أيضاً الخالين من العدوى العنصرية، وإلا فليس هناك داع لإرسال هؤلاء الفنيين.وهكذا أصبحت مشكلة التمييز العنصرى ليست مجرد مشكلة أخلاقية أو اجتماعية فى الحياة الأمريكية، ولكنها أصبحت مشكلة سياسية من الدرجة الأولى فى صنع السياسة الأمريكية العالمية([٩٩]).

ذكر مقال وول ستريت الصادر عام ١٩٥٠ أن: "التدخل الحكومى سيكون حجر عثرة فى سبيل الهدف المرجو من البرنامج لأن مجرد التدخل الحكومى الأمريكى لدى الدول الأخرى ابتغاء تحقيق المعاملة العادلة للاستثمارات الأمريكية، سوف يخلق جواً من الشك والتخوف، مما قد يكون وراء هذا التدخل من أطماع ونوايا، ويضاف إلى ما تقدم أنه فى ظل النقطة الرابعة يخشى أن يكون انتقال رؤوس الأموال بين الحكومات دون الأفراد، وفى هذا مافيه من ارتباك لشئون التقدم والنهوض فى الخارج وإبعاد مشروعاتها من المؤسسات الخاصة لحساب الإشتراكية الحكومية"([١٠٠]).

وانتهى المقال بأن الوسيلة العملية التى تحل محل النقطة الرابعة هى الإعلان صراحة بأن حركة رؤوس الأموال الأمريكية إلى الخارج وشروط استثمارها سيترك أمرها لأصحاب الاستثمارات الخاصة أنفسهم.وأن الدول الأجنبية المستعدة لخلق الجو الملائم لهذه الاستثمارات ستكون لديها الفرصة للحصول على نصيبها المناسب من المدخرات الأمريكية السنوية([101]).

٤- أصداء برنامج المساعدة الفنية :

لقد أرسلت الولايات المتحدة بعثات صحية إلى ليبيريا وإيران وبيرو وباراجواى واليونان، ولقد تمكنت تلك البعثات من القضاء على الأوبئة الفتاكة فى تلك البلدان، ولقد أعدت الإدارة الصحية بالحكومة الأمريكية مشروعاً لتقديمه إلى وزارة الخارجية الأمريكية خاصاً بالمساعدات الصحية تحت نظام النقطة الرابعة، ويتلخص المشروع المذكور فى الإستعانة بثلاثمائة خبير صحى ورسم برامج لتقديم المساعدات الفنية فى الميادين الآتية، وهى على سبيل المثال لا الحصر:

١. بعثات حكومية لتقديم النصائح والإرشادات الصحية.
٢. مساعدات لتدعيم الإدارات الصحية.
٣. مساعدات لمحاربة الأمراض الفتاكة والوبائية.
٤. مساعدات فى نظام التغذية الصحي.
٥. مساعدات فى الأمومة والطفولة.
٦. مساعدات لمختلف المشروعات الصحية([102]).

كما تم تقديم مساعدات أخرى إلى فنزويلا حيث وفرت تنمية الموارد النفطية الأموال اللازمة لمزيد من التقدم فى مجال الصحة العامة والإسكان نتيجة الاستثمار الأمريكى فى مجال النفط الفنزويلى.كما اتفقت الهند مع الولايات المتحدة على تنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية والزراعية الهامة، وخصصت الولايات المتحدة لهذا الغرض مبلغ ١،٢٠٠،٠٠٠ دولار.كذلك بدأ برنامج النقطة الرابعة لمساعدة باكستان على تنمية مواردها من خلال ثمانية مشروعات منها انشاء مصانع للأسمدة، ومعاهد لتدريب الفلاحين على طرق

الزراعة الحديثة، وشراء الأجهزة الطبية والمعامل، إصلاح الطرق، واستخراج الأخشاب ...وغيرها(١٠٣).

وقد رأت وزارة الخارجية الأمريكية أن تبعث بالدكتور وندال كليلاند إلى بلدان الشرق الأوسط فى مهمة ظاهرها التفتيش على مكاتب المبعوثين الأمريكيين الثقافيين بالهيئات التمثيلية الأمريكية وجهودهم فى نشر الثقافة الأمريكية فى الخارج، وباطنها إيقاف الهيئات التمثيلية الأمريكية فى الخارج على تفصيلات مشروع النقطة الرابعة من برنامج الرئيس ترومان للدول الأقل تقدماً ثم الاتصال بحكومات الدول العربية عن طريق هيئات التمثيل الأمريكية فى الخارج لمعرفة ما استقر عليه رأيها بخصوص البرنامج التى ترى تنفيذه وتمويله من أموال المشروع(١٠٤).

كما كان الدكتور كليلاند مكلفاً بمهمة سياسية خلاف مهمته الاقتصادية وهى التحدث مع المسئولين فى مختلف الدول العربية بخصوص العلاقات بينها وبين الولايات المتحدة، حيث تريد الأخيرة الوقوف على حقيقة الاتجاهات فى سياسة الدول العربية نحوها، ولقد اختارت وزارة الخارجية الدكتور كليلاند بالذات نظراً للمكانة الممتازة التى كان يتمتع بها بين المسئولين فى البلدان العربية وعلى الأخص مصر (١٠٥).

وقد صرح جون بادو قائلاً :"إن المعونات المادية والفنية هى الدعامة التى تعزز مركزنا فى المنطقة وهى السند الذى تقوم عليه سياستنا الخارجية هناك، وتتجسد المعونات الأمريكية فى الشرق الأوسط فى البرامج التى تقدمها حكومة الولايات المتحدة، والبرامج التى تتعهدها بعض الهيئات الأمريكية الخاصة بتشجيع من حكومة الولايات المتحدة، ونحن نستعين بهذه المعونات لأنها تساعد الدبلوماسية الأمريكية فى الاعتماد على عامل أساسى فى إقامة مصالح مشتركة بيننا وبين دول المنطقة " (١٠٦).

وقد تم تشكيل بعثة للسفر إلى الشرق الأوسط بمجرد وصول الموافقة على

برنامج البعثة من الحكومات، وكانت مهمة البعثة محاولة السيطرة على الملاريا والتيفود وغيرهما من الأوبئة التى تعوق نمو الإنتاج، وكذلك إحلال الآلات البسيطة فى الصناعات التى تعتمد على الإنتاج اليدوى فى الزراعة، وتحسين وسائل التخزين للمواد الغذائية ومنع السوس والآفات المتعلقة بها (١٠٧).

كما أشار مستر ماك جى Mr. McGhee– مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشئون افريقيا والشرق الأدنى– فى خطابه الذى ألقاه بمؤتمر جمعية السياسة الخارجية بمدرج متحف الفن بواشنطن إلى أهمية المساعدات الفنية وأنها إحدى الوسائل الفعالة لإيجاد التفاهم بين الدول، وذكر فيما يختص ببلدان الشرق الأوسط أنه يمكن البدء حالاً بمشاريع إصلاح طرق الرى وزراعة الغابات وتمهيد الطرق، وذلك بعد الاتفاق مع تلك البلدان على سياسة إنشائية خاصة تتفق وظروفها (١٠٨).

كما صرح ماك جى أيضاً:"أنه لا يكفى مجرد صد الشيوعية فى الشرق الأوسط، بل من الضرورى مساعدة شعوب الشرق الأوسط على تحسين مستويات معيشتها ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية، واكتساب احترام النفس، واحتلال مكانها السليم بين دول العالم" (١٠٩).

وقد تم تقسيم المبالغ على دول الشرق الأوسط فى بداية عام ١٩٥١ كالتالى :مصر ٢٥٠,٠٠٠ دولار، العراق ٢٠٠,٠٠٠ دولار، السعودية ١٥٠,٠٠٠دولار، سوريا ١٥٠,٠٠٠ دولار، لبنان ١٠٠,٠٠٠ دولار، إسرائيل ١٠٠,٠٠٠ دولار، اليمن ٥٠,٠٠٠ دولار، الأردن ٥٠,٠٠٠ دولار(١١٠).

والجدول التالى يوضح المبالغ التى تم تقديمها للدول العربية واسرائيل كمساعدات فنية والتى بلغت مليون وخمسون الف دولار ومنها مائة الف دولار لإسرائيل من البنك الدولى:

الدولـــــــــــة	المبلغ المقرر
مصر	٢٥٠,٠٠٠ دولار
العراق	٢٠٠,٠٠٠ دولار
السعودية	١٥٠,٠٠٠ دولار
سوريا	١٥٠,٠٠٠ دولار
لبنان	١٠٠,٠٠٠ دولار
اسرائيل	١٠٠,٠٠٠ دولار
اليمن	٥٠,٠٠٠ دولار
الأردن	٥٠,٠٠٠ دولار
الإجمـــــــــــالي	**١,٥٠٠,٠٠٠ دولار**

لقد أصبح سكان الشرق الأوسط يعتبرون إقامة مصانع الصلب وبناء الصواريخ خطوات ضرورية لاستكمال استقلالهم، وعلى ذلك فقد أصبح لزاماً على الغرب أن يتعامل مع هذه المجتمعات الجديدة التى تصبو إلى الكفاية والسيطرة الفنية، كما أصبح للدول الجديدة الحق فى إدارة اقتصادها والسيطرة على تسويق بترولها وتشكيل نظامها الصناعى حتى ولو كان ذلك يعنى تأميم الممتلكات الأجنبية فيها([١١١]).

وسوف اكتفى بذكر مثال واحد فقط على تطبيق برنامج النقطة الرابعة فى احدى الدول النامية والعربية وهى مصر، لنرى كيف تم تقديم المساعدة الفنية إليها وماهى شروط تقديمها وكيف تم تنفيذها ونتائجها.

كان الرأى قد استقر فى وزارتى التجارة والتموين على تشكيل لجنة مشتركة من معظم الوزارات والمصالح المختلفة لبحث النقطة الرابعة فى مشروع ترومان والخاصة بمساعدة الدول المتأخرة اقتصادياً بمنحها المساعدة الفنية، وقد إقتصرت أبحاث اللجنة على بحث المشروعات الاقتصادية التى يمكن القيام بها لرفع مستوى المعيشة فى مصر وخاصة مشروعات إصلاح الأراضى الصحراوية

وطريقة تيسير استثمار الأموال الأمريكية والمساعدات الفنية التى تحتاج إليها هذه المشروعات([١١٢]).

وبالفعل تشكلت لجنة بوزارة الخارجية مثلت فيها وزارات المالية والاقتصاد الوطنى والتجارة والصناعة والتموين والمعارف والمواصلات والأشغال والشئون الاجتماعية، لبحث موضوع الاستفادة من المعونة الفنية، وأسفرت قرارات هذه اللجنة بتاريخ ٢٠ اغسطس عام ١٩٥٠ على أنه لا يوجد ما يمنع من قبول المعونة الفنية طبقاً للنقطة الرابعة من مشروع الرئيس ترومان فى الحدود الآتية:

١. أن تقتصر الاستفادة على المعونة الفنية فحسب، وأن يترك البت فى مسألة توظيف رؤوس الأموال الأجنبية فى مصر إلى ما بعد البت فى معاهدة الإقامة.
٢. ألا تخرج الاتفاقية التى تعقد مع الولايات المتحدة لتنظيم تقديم المعونة الفنية عن المبادئ الواردة فى قرارات الأمم المتحدة بخصوص المعونة الفنية وبصفة خاصة القرار رقم ٢٠٠ لسنة ١٩٤٨، والقرارين الصادرين فى الدورة الرابعة لاجتماع هيئة الأمم المتحدة بشأن المعونة العادية والمعونة الشاملة.
٣. أن تركز فى وزارة الاقتصاد الوطنى المشروعات التى تطلب من أجلها المعونة الفنية والطلبات المتعلقة بها([١١٣]).

وفى ١٥ يوليو ١٩٤٩ اتصل السفير المصرى محمد كامل عبد الرحيم بمستر ويلارد ثورب– مساعد وزير الخارجية للشئون الاقتصادية – ليتناقش معه بخصوص برنامج النقطة الرابعة وعلاقته بمصر، فأكد مستر ثورب مسئولية وزارة الخارجية عن تنمية البرنامج موضحاً للسفير المصرى أنه من المفترض أن تكون هناك مساعدة لرفع الكفاءة الإنتاجية للبلاد، ومن ثم رفع مستوى المعيشة، كما ذكر أن البرنامج "يجب أن يتكيف وظروف كل دولة على حده، وأنه إذا ما قدمت مصر تقريراً عن مواردها وحاجاتها للتنمية، مع مخططاتها للتنمية الاقتصادية، فإن

البرنامج سيتم تنفيذه بأقصى سرعة..."(١١٤).

جدير بالذكر أن مصر كانت تفضل مساعدة هيئة الأمم(١١٥) على برنامج النقطة الرابعة، حيث ذكر الأستاذ عبد العزيز زايد – مندوب مصر فى اللجنة الفنية التابعة لهيئة الثقافة الدولية– قائلا: "أنه يتعين على مع ترحيبى بالمساعدة الاقتصادية والفنية أن أذكر أن مصر تفضل برنامج هيئة الأمم المتحدة لأنه صادر عن هيئة دولية ليست لها مصالح خاصة بصرف النظر عن الهدف المشترك من المساعدة والمعونة"(١١٦).

كان قد تقرر تحديد مبلغ ٢٨,٠٠٠ جنيه مصرى لاشتراك مصر فى مشروع المعونة الفنية الموسع لهيئة الأمم المتحدة، وتأجيل البت فى اشتراك مصر فى برنامج النقطة الرابعة لمشروع ترومان، نظراً لأن اللجنة الفرعية كانت تدرس الشروط التى تقدم الحكومة الأمريكية بموجبها المعونة المالية، وقد دار جدل كبير فى اجتماع اللجنة الوزارية حيث رأى البعض أنه لا مانع من قبول الاشتراك فى مشروع المعونة الفنية لهيئة الأمم المتحدة، وفى حالة الاشتراك يجب اشتراط تناسب المعونة المقدمة لكل بلد مع عدد سكانها ومساحتها وثروتها القومية ومستوى المعيشة فيها(١١٧).

بينما رأى البعض الآخر ضرورة وضع برنامج شامل لما تفتقر إليه البلاد من مشروعات الإصلاح والتعمير وتنمية الثروة القومية ورفع مستوى المعيشة، كذلك يجب أن تشترط مصر أن تكون حصتها متمشية مع ما تستفيده من خبرة فنية، وأن تشترط أيضاً أن تدفع هذه الحصة بالعملة المصرية(١١٨).

كما ثار جدل كبير أيضاً حول مشروع النقطة الرابعة، ومشروع الاستفادة من الخبرة الفنية التى يمكن أن تقدمها هيئة الأمم والوكالات المختصة التابعة لها، وقد رأى الدكتور عبد المنعم الطناملي" أن الحكم الفصل فى هذين المشروعين يتوقف على مدى حاجة مصر إلى المعونة الفنية وإلى رؤوس الأموال الأجنبية، وأن مشروع النقطة الرابعة ذو صبغة سياسية، وأنه لا يخرج عن تدخل ونفوذ

المال الأمريكى الخاص فى مصر تحت ضمان الحكومة الأمريكية..."([١١٩]).

وأكد أحمد جلال الدين عبد الرازق بك أن حديث مستر كلاب عن نهضة مصر الصناعية وما تأمله من إنشاء صناعات جديدة على نطاق واسع وخاصة صناعة التعدين والصلب والحديد والأسمدة، قد تسبب المشاكل الكبرى لمصر من جراء منافستها لإنجلترا وفرنسا.كذلك رأى الدكتور توفيق يونس بك ضرورة تجريد مشروع النقطة الرابعة من أن يكون وسيلة للنفوذ السياسى أو الضغط الاقتصادى وهو ما لايمكن قبوله بحال. أما عبد الله أباظة بك فرأى أن مشروع النقطة الرابعة بسط للنفوذ المالى ثم السياسى لدولة واحدة، وقد يصبح من الصعب التخلص من هذا النفوذ الذى يخشى أن يمس تشريعات التمصير الضرورية لمصر([١٢٠]).

وبالفعل تلقت وزارة الخارجية المصرية من السفارة الأمريكية بالقاهرة مذكرة مؤرخة فى ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٠ تتضمن استعداد حكومة الولايات المتحدة لتلقى الطلبات الخاصة بالمعونة الفنية وتقديم أية مساعدة من أجل إعداد المشروعات المتعلقة بها([١٢١]).

وفى اجتماع اللجنة الوزارية الفرعية بديوان وزارة الخارجية بالإسكندرية الخميس الموافق ١٣ يوليو عام ١٩٥٠ قرر عبد الله فكرى أباظة بك عدم تأييد الانتفاع بالنقطة الرابعة نظراً لأن اللجنة وافقت على الانتفاع بمشروع هيئة الأمم المتحدة وبذلك توافرت لمصر فرصة الانتفاع بالمعونة الفنية أسوة بالأمم الأخرى على قدم المساواة، ولم تبق هناك حاجة إلى الانتفاع بالنقطة الرابعة، إضافة إلى أن المبالغ التى اعتمدتها أمريكا لمعاونة الدول المتخلفة إقتصادياً تحددت بمبلغ ٣٥ مليون دولار، خصت الدول العربية منها مليونى دولار وهو مبلغ من التفاهة بحيث لا يمكن أن ينهض مبرراً لتأكيد فكرة الانتفاع بالنقطة الرابعة مع ما فيها من عيوب([١٢٢]).

أما جلال الدين بك فقد أبدى أن الشروط الرسمية للنقطة الرابعة قد بينها له سفير مصر بواشنطن وتتلخص فيما يلي:

١. قبول النظر فى مشروع اتفاقية الإقامة.

٢. تحفيز المشروعات العامة التى ترغب الحكومة المصرية بالاستعانة بالخبرة الفنية فيها، مع تحديد طبيعة هذه الخبرة.وفى النهاية وافقت اللجنة على الاستفادة من برنامج المعونة الفنية طبقاً للنقطة الرابعة باتخاذ التدابير التى تمنع أى تدخل فى الشئون السياسية أو الاقتصادية، وأى مساس بالسيادة القومية على الحياة الاقتصادية([١٢٣]).

وقد وافق مجلس الوزراء بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩٥٠ على المذكرة التى رفعتها وزارة الزراعة بشأن قبول الاستفادة من برنامج المعونة الفنية طبقاً للنقطة الرابعة من مشروع ترومان، كما أن الحكومة المصرية وافقت على المساهمة فى برنامج هيئة الأمم المتحدة الموسع لتقديم المعونات الفنية بمبلغ ٢٨,٥٠٠ جنية، ومن ثم فإن المعونات الفنية سواء التى تقدم عن طريق النقطة الرابعة أو عن طريق برنامج هيئة الأمم المتحدة الموسع غير مقصورة على المسائل الصحية أو الاجتماعية، بل تتعلق بجميع المشروعات التى ترمى إلى تنمية البلاد اقتصادياً، وعلى ذلك كان على وزارة الزراعة إعداد المشروعات الخاصة بتنمية البلاد اقتصادياً إعداداً مفصلاً باللغة الإنجليزية، مع بيان ما تتحمله وزارة الزراعة من التزامات ونفقات وإرسال صورة إلى وزارة الاقتصاد الوطني([١٢٤]).

وبالفعل وافق البرلمان بمجلسيه على الاتفاق العام للتعاون الفنى طبقاً لبرنامج النقطة الرابعة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية والموقع فى ٥ مايو عام ١٩٥١ وصدر به القانون رقم ١٢٥ لسنة ١٩٥١، وكان على الوزارات الاتصال المباشر بالسلطات الأمريكية لطلب العون الفنى طبقاً لأحكام الاتفاق العام، وبمقتضى إتفاقات خاصة تبرم مباشرة بين هذه الوزارات وتلك السلطات مع إحاطة وزارة الخارجية علماً بكل اتفاق خاص يتم إبرامه([١٢٥]).

تم الاتفاق بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة المصرية بأن تتعاون كل منهما مع الأخرى مع تبادل الدراية الفنية والخبرة، وما يتصل بذلك من أوجه

النشاط الفنى التى ترمى إلى المساهمة فى تحقيق التنمية المتوازنة الكاملة لموارد مصر الاقتصادية وطاقتها الإنتاجية، وتحقيقاً لذلك تتعهد حكومة الولايات المتحدة بأن تقدم بالقدر الذى يتفق عليه فيما بعد خدمات الخبراء الفنيين وأن تدفع مرتباتهم ومكافآتهم، وكذلك نفقات انتقالهم من الولايات المتحدة وإليها، وبأن تدرب المصريين الذين ستختارهم الحكومة المصرية فى الولايات المتحدة، على أن يشمل ذلك نفقات تعليمهم وسفرهم ومعيشتهم فى الولايات المتحدة، وأن تقدم بالقدر الذى سيتفق عليه فيما بعد المعدات والموارد اللازمة لأداء عمل الخبراء على الوجه المنتج، والتى لا يمكن شراؤها إلا بدولارات الولايات المتحدة(١٢٦).

أما الحكومة المصرية فقد تعهدت بأن تقدم ما يلزم من التسهيلات المكتبية ومعدات المكاتب وأدواتها والسكرتيريين والمترجمين، وأن تدفع تكاليف الأراضى والمبانى والتحسينات والمواد المحلية والأيدى العاملة اللازمة لتأدية عمل الخبراء على الوجه المنتج، وأن تدفع نفقات انتقال الخبراء ومواصلاتهم داخل الأراضى المصرية، وكذلك نفقات المصريين الفنيين طبقاً لهذا الاتفاق إلى الولايات المتحدة ومنها، وأن تعين الفنيين الصالحين وغيرهم من الموظفين المصريين الآخرين ممن يتطلب المشروع تخصيصهم للعمل مع الفنيين الموفدين من الولايات المتحدة(١٢٧).

كذلك تعفى الحكومة المصرية جميع موظفى حكومة الولايات المتحدة الذين سيعينون فى مصر طبقاً لهذا الاتفاق وعائلاتهم من ضرائب الدخل وضرائب الضمان الاجتماعى بالنسبة للمرتبات والمكافآت التى تدفعها لهم حكومتهم، وتعفيهم أيضاً من العوائد الجمركية ورسوم الإستيراد على حاجياتهم وأمتعتهم الشخصية والمنزلية والمهنية، وتعفى أيضاً من الضرائب والعوائد الجمركية ورسوم الإستيراد على الموارد والمعدات التى ستدخلها فى مصر حكومة الولايات المتحدة وفقاً لهذا الاتفاق(١٢٨).

وقد أعرب مستر ماك جى عن امتنانه لقيام الحكومة المصرية بمساندة مشروع النقطة الرابعة، وذكر أنه شعر بأن المتدربين سوف يثبتون كفاءة حقيقية من أجل تقديم المساعدة الكاملة للحكومة المصرية، كما أجاب وزير الخارجية

المصرى محمد صلاح الدين بك بأن حكومته تعمل على تشجيع التقدم والتطور، وتقدر المساعدة التى تقدمها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لبلاده([١٢٩]).

وقد صدر مرسوم باسم ملك مصر والسودان "فاروق الأول" بالموافقة على الاتفاق العام([١٣٠]) للتعاون الفنى طبقاً لبرنامج النقطة الرابعة بين مصر والولايات المتحدة، وجاء فى المادة الأولى منه، أن يعمل اعتباراً من ١٥ أغسطس ١٩٥١ بالاتفاق العام للتعاون الفنى الموقع بالقاهرة فى ٥ مايو ١٩٥١ والمرفق نصه بهذا المرسوم، وتضمنت المادة الثانية أنه يجب على الوزراء تنفيذ هذا المرسوم كلٌّ فيما يخصه([١٣١]).

وفى ٢٢ ديسمبر ١٩٥١ تم إعداد مذكرة بشأن طلب الحكومة الأمريكية إدخال تعديل على الاتفاق العام الموقع بين مصر والولايات المتحدة فى ٥ مايو ١٩٥١ للتعاون الفنى طبقاً لبرنامج النقطة الرابعة، ويقضى هذا التعديل بإضافة فقرتين جديدتين إلى ديباجة الاتفاق يشار فيها إلى تبادل المعونة الفنية بين البلدين، مما يزيد أمن شعبيهما قوة وينمى مواردهما بما يكفل المحافظة على سلامتهما واستقلالهما.وأنه من أجل ذلك إتفق الطرفان على أن يعملا سوياً لنشر التفاهم وحسن النية فى المحيط الدولى والمحافظة على السلم العالمي.وهاتان الفقرتان المقترح إضافتيهما أضفيتا على الاتفاق، ومن ثم على المعونة الفنية المتبادلة بين مصر والولايات المتحدة صبغة سياسية محققة([١٣٢]).

وقد رأت الحكومة الأمريكية أن المهمة التى تؤديها فى ظل برنامج النقطة الرابعة يساندها ويكملها الدور الذى تؤديه الاستثمارات الأجنبية، وعلى الأخص الأمريكية فى الدول المنتفعة بهذا البرنامج([١٣٣]).

لقد استفادت مصر من هذا البرنامج من الناحية الصحية حيث أمكن القضاء على كثير من الأمراض المتوطنة التى ينقلها الذباب، كما نجحت التجارب التى قام بها الخبراء الصحيون للقضاء على هذه الحشرة، هذا فضلاً عن المساعدات الأخرى لتدريب العدد اللازم من الممرضات لرعاية طرق الصحة العمومية بين جمهور

المصريين، كما تيسر لمصر الحصول على جرارات للاستفادة بها فى استصلاح منطقة صحراوية شاسعة تقع غربى الإسكندرية يمكن الاستفادة بها كمراعى للأغنام والماشية، وتقدر المساحة التى كان من المؤمل إستصلاحها بثلاثة ملايين فدان،.كما تم إرسال مبعوثين إلى أمريكا وبلغ عدد من يدربون على الأعمال المختلفة فى شتى المعاهد الأمريكية بمائتى خبير (١٣٤).

كما قام خبراء الريف فى البعثة الأمريكية الموجودة بالقاهرة فى شتاء عامى ١٩٥٢-١٩٥٣ بترجمة مواد التعليم "الزراعى" الأمريكية إلى العربية من أجل توزيعها على الفلاحين المصريين.وفى عام ١٩٥٤ شاركت حكومة الولايات المتحدة الحكومة المصرية فى مشروع تحسين الخدمة الريفية المصرى-الأمريكى ؛ وهو مشروع إصلاح وإعادة توطين مساحة كبيرة من الأراضى.كذلك مشروع المراعى الصحراوية فى الصحراء الغربية، ومشروع تهجين القمح، ومشروعات الاقتصاد الحيوانى المتنوعة(١٣٥).

ومن ثم فقد كانت هذه البرامج جوهرية فى النقطة الرابعة، وقد خصصت حكومة الولايات المتحدة مبلغاً قليلاً نسبياً،١٥٠،٠٠٠دولار للسنة الأولى ؛ و١٠٠،٠٠٠دولار بعد ذلك، - كانت البرامج اكتفاءً ذاتياً - للاشتراك فى نقل المعرفة الأمريكية.وقد حظى الأمريكيون بنجاح ملحوظ فى معظم المشروعات المطابقة فى الإرشاد الزراعى فى الولايات المتحدة. وكان البرنامج مفهوماً لدى كل من الفنيين والجمهور الأمريكى بالخارج.كما كان أساسياً لتنمية العالم.وفى شتاء عام ١٩٥٥-١٩٥٦أصبح مشروع تحسين الخدمة الريفية المصرى- الأمريكى "مصرياً خالصاً" على نحو فعال، مما ترك الأمريكان يتساءلون "ما الدور الذى يمكن أن نلعبه فى هذا المشروع؟".وبنفس القدر من الأهمية لم ينجح البرنامج أبداً كنموذج للتعاون المصرى- الأمريكى أو مشروع لاستصلاح وإعادة توطين الأراضى(١٣٦).

كما أنه بموجب القانون رقم ٥١٦ لسنة ١٩٥٣ تم الاتفاق على إجراء برنامج تعاونى فى الصحة العامة بين الحكومة المصرية وحكومة الولايات المتحدة

الأمريكية فى ١٨ يونيه ١٩٥٣([١٣٧]).

كانت الحكومة الأمريكية تفضل المزيد من عدم التدخل " مبدأ دعه يعمل " من أجل تشجيع الاستثمار الخاص أكثر مما تفضله الحكومة المصرية.وقد فسر السفير المصرى ذلك إلى مجلة روزاليوسف قائلاً:" لقد سعى المستثمرون الأمريكان إلى الاستثمار فى مصر، تماماً، كما سعى المستثمرون المصريون"([١٣٨]).

وقد تم إنشاء المكتب الإقليمى لمنظمة الطيران المدنى الدولىInternational Civil Aviation Organization فى ٢٠ يناير عام ١٩٤٧، وكانت تشرف المنظمة على برنامج معونات فنية وفقاً لتوصيات الأمم المتحدة، وقد بدأ تنفيذ هذا البرنامج فى ٣٠ سبتمبر عام ١٩٥٢ بحضور ثلاثة خبراء، ثم حضر خبير رابع فى أول يناير ١٩٥٣.وقد أنشأت المصلحة بمعاونة هؤلاء الخبراء مدرسة لتعليم فنون الرقابة الجوية والاتصالات اللاسلكية وصيانة المعدات اللاسلكية، وبدأت الدراسة فعلاً فى قسم الرقابة الجوية من هذه المدرسة فى ١٦ مارس ١٩٥٣ وتخرج منها فوج أول مكون من تسعة من ضباط المراقبة فى ٢٩ مايو ١٩٥٣ ([١٣٩]).

كما اتصلت المصلحة فى أوائل عام ١٩٥٢ بالملحق الجوى بالسفارة الأمريكية بغرض الاستفادة من برنامج النقطة الرابعة، حيث وافقت الحكومة الأمريكية على قبول إيفاد بعثة من عشرة موظفين بالمصلحة، لكى يتخصص ثلاثة فى المعدات اللاسلكية، واثنان فى صناعة الطائرات والمحركات، وواحد فى تصميم المطارات، وواحد فى إنارة المطارات، وواحد فى عمليات الطيران، واثنان فى المراقبة الجوية ([١٤٠]).

كذلك اتفقت وزارة الأشغال العمومية التابعة للحكومة المصرية، مع إدارة التعاون الفنى التابعة لحكومة الولايات المتحدة على إعداد مشروع مشترك لعمل مساحة فوتوغرافية جوية لحوض الخزان العالى المقترح إنشائه جنوبى أسوان عن طريق إعداد خرائط طوبوغرافية للتثبت من إمكانية إقامة خزان عال جديد فى

وادى النيل جنوبى أسوان وذلك من الوجهات الطوبوغرافية والجيولوجية والهيدرولوجية والاقتصادية.وقدرت قيمة الاعتمادات الضرورية لإتمام المشروع بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دولار تقريباً بداية من تاريخ البدء بالعمل وحتى نهاية يوم ٣٠ يونيه ١٩٥٣([١٤١]).

وبناء على ذلك وافقت إدارة التعاون الفنى على إتمام الطيران الفوتوغرافى الذى يكفى لإعداد عشرة خرائط طوبوغرافية فى مصر، فضلاً عن أربعة خرائط مثلها فى السودان، كذلك الاتفاق بالطرق الدبلوماسية مع السودان المصري- الإنجليزى لمنع التصوير فى أراضيه الداخلة فى منطقة حوض الخزان العالى الجديد المقترح جنوبى أسوان، ومنح تصريح رسمى من الحكومة المصرية يسمح بالتصوير الجوى فى المناطق من أرض مصر والداخلة فى حوض الخزان المقترح.وتعاقدت الإدارة أيضاً مع شركة خاصة بالمساحة الفوتوغرافية الجوية لتضع خدماتها وتسهيلاتها فى خدمة الوزارة، مع توفير الفنيين المتخصصين([١٤٢]).

أما بالنسبة للوزارة فقامت بإعداد الخرائط المنشورة وغير المنشورة والصور الفوتوغرافية وأى بيانات أخرى متصلة بالموضوع، مما يسهل عملية التصوير الجوى وإعداد الخرائط المساحية الجوية، وتدبير وسائل النقل البرية والنهرية إلى المنطقة المراد رفعها.وكذلك وسائل الاتصال الأخرى، وتوفير وجبات غذائية وتسهيلات الإقامة بأسعار مناسبة فى أسوان، والتسهيلات اللازمة بمطارات ألماظة وأسوان ووادى حلفا، والمكاتب والأدوات المكتبية وتسهيلات تحميض وطبع الأفلام، وتوفير البنزين والزيوت والأكسجين اللازم لخدمة الطائرات ورجالها وتوريده بأسوان، وتوفير خدمات ومساعدات قسم المساحة الحربية وربما بعض المصالح الحكومية الأخرى مما قد يلزم لتحقيق جميع أهداف المشروع([١٤٣]).

وكان على الوزارة الالتزام منذ بدء العمل بهذا الاتفاق إلى نهاية يوم ٣٠ يونيه ١٩٥٤ بالاستمرار فى مباحثاتها الهندسية للتثبت من صلاحية المواقع المقترحة لإنشاءات السد المختلفة، وكذا الصلاحية الطوبوغرافية والجيولوجية للمساحة المقترحة للتخزين فضلاً عن اختيار أحسن تصميم للمشروع ومناقشة جميع

العوامل الطبيعية والاقتصادية التى تؤثر فى التقديرات المالية والمقاسات، وقدرت القيمة التقريبية للمصروفات والمساعدات الضرورية بمبلغ ٢٥,٠٠٠ جنيه بداية من تاريخ البدء بالعمل وحتى نهاية ٣٠ يونيه ١٩٥٣، هذا ويبدأ المشروع اعتباراً من تاريخ توقيعه وحتى نهاية ٣٠ يونيه ١٩٥٤ أو لمدة ثلاثة أشهر بعد إخطار أى الحكومتين للأخرى عن رغبتها فى إنهاء الاتفاق([١٤٤]).

وقد رأت وزارة المالية فيما يخص تكاليف البعثات التدريبية طبقاً لاتفاقية النقطة الرابعة أن لا تتكبد الحكومة أية نفقات خاصة بمن يوفدون فى بعثات تدريبية (من مصروفات إنتقال وغيرها) اكتفاءً بما تدفعه هذه الهيئات، على أن يطبق هذا النظام على جميع الوزارات والمصالح، وضرورة إبلاغ كل الهيئات بذلك([١٤٥]). وفى نهاية عام ١٩٥٦غطت عمليات النقطة الرابعة نحو ألفى مشروع من المشاريع المنتشرة فى أكثر من ٥٥ بلداً وإقليماً فى الخارج([١٤٦]).

- **رد فعل الإتحادالسوفيتى:**

لقد ندد المسئولون السوفيت ببرنامج النقطة الرابعة باعتباره صفحة جديدة فى سجل طويل وسيئ السمعة من التوسع الإمبريالى للولايات المتحدة، ودليل جديد على الإستعمار الأمريكى.وأصرت موسكو على أن البرنامج كانت له أبعاد خاصة بالتوسع الاستعمارى للولايات المتحدة من أجل السيطرة على العالم.وظهرت أول إشارة للنقطة الرابعة فى صحف موسكو فى ٢٢يناير- بعد خطاب ترومان بيومين- وتحدثت عن هدف حكومة الولايات المتحدة "لتقديم أقصى الفرص لاختراق رأس المال الأمريكى للدول المتأخرة"([١٤٧]).

ولخصت جريدة البرافدا Pravda السوفيتية فى مقال بعنوان "برنامج من أجل التوسع تحت ستار مكافحة الشيوعية"هجوم الكرملين على البرنامج، والذى اعتبر العنصر الثالث فى برامج السياسة الخارجية الأمريكية العدائية الموجهة نحو تشكيل الإمبراطورية الأمريكية العالمية.كما أوضح أن الهدف الأول للبرنامج هو توطيد دعائم الإستراتيجية لهذا التوسع عن طريق تشكيل نظام التكتلات السياسية والعسكرية والذى اعتبره الهدف الثانى، أما الهدف الثالث فهو اعداد برنامج جديد

وجرئ لتطوير الدول النامية.ورأى كاتب المقال أن المعنى الحقيقى للبرنامج هو ضرورة تغيير السياسة الأمريكية من أجل ايجاد نوع جديد من النشاط الاستعمارى للمناطق المتأخرة، وتأسيس برنامج للتوسع الأمريكى العالمى على أسس استعمارية قوية (١٤٨).

كما تحدثت جريدة النيو تايمز New Times فى مقال بعنوان " الخطة الأمريكية الجديدة للتوسع الاستعمارى"، وأخرى بعنوان" تنمية طبيعية لمشروع مارشال القديم "عن الرغبة الأمريكية للشركات الكبرى فى أن تستمد الأرباح من استغلال الشعوب الأخرى. وسخر كاتب المقال من أن هذا هو "قانون الاقتصاد الرأسمالى الذى لا يمكن أن يتغير". وماكان جديداً ومثيراً هو طموح الاحتكارات الأمريكية من أجل الاستيلاء على المستعمرات والدول النامية فى العالم جملة وتفصيلاً "(١٤٩).

وقد رأى الأمريكيون أنه لا عجب إذاً فى هجوم السوفيت اللاذع على هذا البرنامج.إذ لو نجح فسوف يقضى تماماً على أى منبت للشيوعية، وسوف يساعد مئات الملايين من الناس على التحرر الاقتصادى والاجتماعى ويساعدها فى طريق الكرامة الإنسانية.إذاً يعد برنامج النقطة الرابعة مرحلة من مراحل نضال الديمقراطية من أجل تأمين ذاتها ضد العدوان الذى تمارسه النفعية.هذا بينما نظر السوفيت إلى النقطة الرابعة بأكملها على أنها نوع من الإمبريالية الأمريكية العالمية، كما خشى السوفيت أيضاً من أن يؤدى إلى زيادة كميات المواد الخام، وعدد المناطق الاستراتيجية تحت السيطرة الأمريكية(١٥٠).

هاجم الإتحاد السوفيتى فى مارس عام ١٩٤٩ فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى التابع للأمم المتحدة برنامج الولايات المتحدة للمساعدة الاقتصادية والفنية للدول النامية متهماً إياه بعدم الوضوح فيما يتعلق بطبيعة وتوجيه وظروف وحجم المساعدات المقترحة للدول المتخلفة.واعتبر ممثلو الإتحاد السوفيتى أن البرنامج قد أساء إلى المفاهيم الاستعمارية التى جعلت منه برنامجاً ليس جريئاً ولا جديداً.وأن البرنامج فى أصله كان لسد متطلبات السياسة الداخلية للولايات المتحدة،

فقد كان ترومان يبحث عن طريقة من أجل تجنب أو على الأقل تأجيل الكساد الاقتصادى فى الداخل.كما أكدوا أنه من الواضح أن حكومة الولايات المتحدة كانت مهتمه فى المقام الأول بتقليل صفوف العاطلين عن العمل فى أمريكا ورفع مستوى معيشتهم.كما تم تفعيل البرنامج نتيجة للرغبة فى ايجاد منافذ جديدة وأكبر قدر من الأرباح للرأسماليين الأمريكيين، ومن أجل تأمين الشركات الأمريكية فى الدول النامية، وهى نفس الحقوق والإمتيازات التى كانت تتمتع بها الشركات المحلية([١٥١]).

تُرى ما مدى مشاركة الإتحاد السوفيتى والدول التابعة له فى برنامج النقطة الرابعة.لعل منح الكتلة السوفيتية ولو تأثير قليل فى إدارة النقطة الرابعة سيعمل بالتأكيد على زيادة المشاكل بالنسبة للولايات المتحدة والتى هى فى غنى عنها إذا ما كانت لها السيطرة الكاملة على البرنامج.ولكن عدداً قليلاً من أعضاء الكتلة السوفيتية كان يتبع الوكالات الخاصة التابعة للأمم المتحدة والتى تتعامل مع إدارة التنمية.فلا الإتحاد السوفيتى ولا حلفاؤه مرغوب فى مساعدتهم مالم يسمحوا بحرية الوصول إلى الفنيين التابعين للأمم المتحدة والمشاريع الخاصة للدول الخارجية.كما يجب عليهم تقديم كافة الحقائق الاقتصادية الضرورية المتاحة، والسماح أيضاً بالمراقبة الدولية على مشاريع التنمية المحلية.وبالتالى إذا ما شاركت دول الكتلة السوفيتية فى البرنامج، كان عليها الإسهام فى التعاون السياسى والاقتصادى العالمي([١٥٢]).

كما كان الإتحاد السوفيتى وفقاً لتأكيداته على استعداد لتقديم المساعدة من أجل التنمية الاقتصادية للدول الأخرى.وأشار بشكل خاص لكل من بلغاريا ورومانيا كمثال للدول المستفيدة بالفعل من البرنامج السوفيتى للمساعدة الفنية والمساعدة المالية.وعلى الرغم من نقص الفنيين المهرة فإن الإتحاد السوفيتى بالطبع كان يمكنه أن يرسل عدداً قليلاً من الفنيين للعمل بالخارج، فمن المعروف على سبيل المثال أن العديد من المهندسين السوفيت كانوا يعملون فى كوريا الشمالية. كذلك تم عمل مسح شامل "لموارد الطاقة فى العالم"والتى صدرت من قبل قوائم وزارة الخارجية فكان الإتحاد السوفيتى ثم الولايات المتحدة وكندا واتحاد جنوب افريقيا على قائمة الدول الـــــــ " قادرة على توفير كميات كبيرة من الطاقة إلى بقية العالم، كما كان يمكن

أن توفرها لنفسها فى فترة محددة من الزمن"([١٥٣]).

كان هناك هدف هام للنقطة الرابعة فى كونه برنامج عام لتحقيق الأمن الأمريكي، ومن ثم فإن الدول النامية الدائرة فى فلك السوفيت رفضت الانضمام لبرنامج التنمية الخاصة بالنقطة الرابعة، ولكن معظم شعوب الشرق الأوسط وآسيا وافريقيا وأمريكا الجنوبية ظلت بعيدة عن الصراع العالمى الكبير أيديولوجياً وسياسياً، وبذلك فإنه كان يقدم سلاحاً مؤثراً ضد التوتر السياسى والاضطراب الاجتماعى، ونشر الشمولية.وعلى المدى البعيد يقلل من التهديد بالحرب، ويساهم فى تحقيق السلام الحقيقى من خلال الأمم المتحدة ([١٥٤]).

٥- **نتائج النقطة الرابعة:**

كانت مساعدات النقطة الرابعة هو إجابة الغرب على التخوف من التوسع السوفيتي، ونُظر إلى السياسة الاقتصادية الخارجية، وبشكل لا يدعو إلى الدهشة، كأداة ملائمة بوجه خاص لظروف الحرب الباردة، وكانت الرابطة بين الاستقرار، والتى كانت بلاد مثل مصر فى أمس الحاجة إليه، وبين رأس المال الغربى رابطة لا يمكن تجاهلها. ولم يلتفت إلى التحذيرات التى صدرت عن جهات رسمية عن عدم ضرورة ذلك.وقد حذر جورج كينان الوثيق الصلة بتطور سياسة الحرب الباردة بأنه "يجب أن نكون على وعى بأن النمط المفضل المتفق عليه والقائل بأن المستويات المعيشية المنخفضة تسبب الشيوعية، بعكس المستويات المعيشية العالية، هى مقولة لم يثبت صحتها ومن الممكن ألا تكون سليمة"([١٥٥]).

وهكذا تعد المعونات الفنية سلاحاً فعالاً عندما لا يكون للوسائل السياسية الدبلوماسية أثر يذكر، وبالتالى فإن هذه المساعدات كثيراً ما تؤدى إلى تشابك المصالح وارتباطها، ولعل السد العالى الذى سيظل رمزاً حياً للصداقة العربية السوفيتية هو أبلغ مثل على ذلك، وتلجأ الولايات المتحدة إلى المعونة والتطوير الفنى فى المواقف التى يصعب فيها استمرار العلاقات السياسية والدبلوماسية، ولعل العلاقة بين أمريكا والجمهورية العربية المتحدة هى مثل واضح لهذا النوع من العلاقات، فالمصالح الأمريكية تقتضى استمرار العلاقات مع مصر باعتبارها أكبر

الدول العربية وأعظمها نفوذاً فى المنطقة ولكن كثيراً ما تتعارض السياسة المصرية مع سياسة الغرب أو تختلف عنها على أقل تقدير(١٥٦).

لقد غيرت المعونات الفنية من شخصية الشرق الأوسط، وبالتالى من نوع الدبلوماسية الواجب اتباعها فى هذه المنطقة، فسياسة الولايات المتحدة تعتبر الدليل الذى يحدد اتجاه سياسة الغرب كله. ففيما يختص بالمساعدات المادية والفنية فعندما سحبت أمريكا العرض الذى تقدمت به لتمويل السد العالى فى الجمهورية العربية المتحدة، سارعت كل من بريطانيا وإدارة البنك الدولى بإلغاء وعدهما بالمساعدة.كما نجحت برامج المساعدة والتطوير الفنى فى المساهمة فى نمو الاقتصاد القومى فى بلاد الشرق الأوسط، وبالتالى فى المحافظة على مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة، كما أبقت هذه السياسة باب الحوار مفتوحاً بين أمريكا وبين البلاد التى يصعب التفاهم معها(١٥٧).

وأخيراً فقد افتقر برنامج النقطة الرابعة إلى كل من اتساق التخطيط الطويل الأمد، واستمرارية العملية.فعلى الرغم من أنه كان يعد سلاحاً دائماً للسياسة الخارجية الأمريكية، إلا أنه كان يتم إقراره عاماً تلو عام.كما كانت تقدم المشاريع إلى الكونجرس ويتم إقرارها على أساس سنوى، ولذا فإن برمجة النقطة الرابعة كانت فى كثير من الأحيان مجزأة وغير متوازنة.كذلك شكل البرنامج عائقاً بسبب انعدام الاستقرار للأهداف المستقبلية، وعرقلته بسبب الشك فى اعتمادات الكونجرس.ومن ثم فإن النقطة الرابعة وبدافع من الرغبة فى إرضاء الحكومات المضيفة، غالباً ما كانت تحدد أنشطتها بالنسبة لهذه الحكومات فى " مجرد رفع مستوى الاقتصاديات المريضة " بدلاً من تقديم ما تحتاجه فعلاً(١٥٨).

وهكذا نال برنامج النقطة الرابعة للرئيس ترومان الكثير من الدعايا الأمريكية – والتى ركز عليها الرئيس من أجل ترسيخ دعائم الرأسمالية وتحقيق المزيد من السيطرة والهيمنة الأمريكية، والوقوف فى وجه الإتحاد السوفيتى ووقف المد الشيوعى فى دول العالم فى اطار الحرب الباردة – أكثر من كونه برنامجاً تنموياً للدول النامية.

الهوامش

1- لقد ساهم مشروع مارشال فى صد تيار الشيوعية وعدم وقوع دول غرب أوروبا فى هذا التيار، كما ساعد على تحقيق نوع من الإنعاش الاقتصادى لتلك الدول ووضع قاعدة اقتصادية تمكنت أوروبا بواسطتها من الدفاع عن نفسها ، ولكنه فى نفس الوقت ساهم فى إنقسام العالم إلى كتلتين متعاديتين متنافستين وزيادة رحى الحرب الباردة. للمزيد انظر: صباح أحمد البياع : مشروع الإنعاش الأوروبى يونيو ١٩٤٧، جامعة عين شمس ، القاهرة ٢٠١١.

2 -Patrick W. Rembert, and others, the American People a history since 1865, third ed., Vol.11, New York, 1965, p.554.

3-النقطة الرابعة: اتخذت اسمها من النقطة الأخيرة فى برنامج رباعى الجوانب من أجل إقرار السلام فى العالم.

4 -Commager H.S., Documents of American History, Seventh ed., New York, 1963, pp.558, 559.

5 -Kalijarvi Thorsten V.," Point four in the contemporary setting", in: the annals of the American Academy of political and social science, vol.268, Philadelphia, (Mar. 1950), p.1.

6 -Hakim George , " point four and the Middle East. A Middle East view ", in: Middle East Journal, vol.4, no.2 (Apr., 1950), p.183.

7 -Kalijarvi Thorsten V. , Op.Cit., P.1; Hakim George, op.cit. , p.183.

8 - Truman H.S., Memoirs" years of trial and hope", vol.2., New York, 1956, p.227

9- جون بادو : "المعونات العلمية والفنية وأثرها فى تطور السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط "، فى : مجلة الثقافة الأمريكية ، عدد خاص عن العلوم والتكنولوجيا الحديثة فى الشرق الأوسط ، العدد الأول ، المجلد الثالث ، مكتب الإستعلام الأمريكى ، القاهرة ، ربيع ١٩٦٦، ص٩٤،٩٣.

10- مذكرة مرفوعة إلى مجلس الوزراء بعنوان النقطة الرابعة فى مشروع ترومان الخاصة بالمساعدة الفنية لدول الشرق الأوسط اقتصادياً ، وثائق وزارة الخارجية المصرية: الأرشيف السرى الجديد، جزء ٢ سري، محفظة رقم ١٤٨٦، ملف رقم ١٥/٤/٤٥، د.ت.

11 -Kalijarvi Thorsten V., op.cit., pp.6, 7; Atwood Rollin S.,"The United States point four program. A Bilateral Approach", in: the annals of the American Academy of political and social science, vol.323, (May, 1959), p.36.

12 -The Yale law journal company, inc," point four : Are-Examination of Ends and Means" , in: the Yale law journal, vol.59, no.7, (June 1950) , pp.1277-1279.

13 -Memorandum Prepared in the Department of State, Washington, June 20,1950, U.S.·Department of stat, foreign relations of the united states 1950, vol.1.National security affairs, foreign economic policy, ed. By: Gleason. Everett and others, Government printing office, Washington, 1977, PP. 848-851.

14-The Yale law journal company,inc,op.cit.,pp.1280, 1281.

15 -Kalijarvi Thorsten V., Op.Cit., pp.1, 2.

16- مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية للبلاد التى لم تستكمل نهضتها طبقاً للنقطة الرابعة من مشروع ترومان ، ٢٣ ابريل ١٩٥٠، وزارة الخارجية المصرية : الإدارة الاقتصادية ، قسم الأبحاث ، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥.

17 -Isaacs Harold R.,"The political and psychological context of point four", in: the annals of the American Academy of political and social science, vol.270, (Jul., 1950), pp.53, 58.

18 -Hayes Jr. Samuel P.," Point four in United States foreign policy", in: the annals of the American Academy of political and social science, Philadelphia, (1950), p.35.

19 -Ibid., p.32

20- إن رفع مستوى المعيشة يعنى الاهتمام بالصحة ومكافحة الأمراض ، والغذاء ، والتعليم ، والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ...حيث استند البرنامج إلى الإيمان العميق بحق الأفراد فى تحقيق مستوى من الرضا والسعادة.وفى إطار البرنامج ليس هناك مستوى من التحصيل يجب أن يتحقق بل ضمان تحقيق الأهداف بسرعة وحيثما تسمح الظروف المحلية. للمزيد : انظر:

Bowels Gordon T., "point four and improved standards of living" in: the annals of the American Academy of political and social science, vol.268, (Mar., 1950), pp.140-147.

21 -Ferrell R.H., America in a divided world 1945-1972, university of south Carolina press, Columbia, 1975,pp.35,36.

22 -Acheson D., "Point 4 program for World economic progress, through co. Operative technical assistance", in: the Department of state Bulletin, vol.20, No.501, (February 6, 1949), p.156.; Truman H.S., Op.Cit., PP.227-229.

23 -Acheson D.,", Op.Cit., p.156.

24- فؤاد محمد شبل: السياسات الاقتصادية الدولية ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥، ص٤٧٠، انظر أيضا: Acheson D., Op.Cit., p.155.

25 -Hayes Jr. Samuel P.,op.cit., p.30; Acheson D., Op.Cit., p.155.

26-جون بادو: مرجع سابق ، ص٩٩.انظر أيضاً:

Atwood Rollin S.,Op.Cit, p.39.

27 -Baldwin David A., Economic development and American foreign policy, 1943-62, the university of Chicago press, Chicago, London, 1966, p.109.

28 -Acheson D.," What is point four ", in: the Department of State Bulletin, vol.26, No.658, (February 4, 1952), P.157.

29 -Ibid., p.158.

30. - Ibid.

31- جون بادو: مرجع سابق، ص٩٥.

32- جيفرى آرونسون: العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٤٦-١٩٥٦، ترجمة وتقديم: السيد أمين شلبى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٦٦، ص٢٧.

33 -Acheson D.," What is point four", pp.156, 157.

34 -Perkins Milo," what we can now do under point four ",in: Digest ,(January,1950), p.140.

35-Johnston Eric A., "Concerted national action to spearhead point four idea "in: the Department of state Bulletin, vol.26, No.672, (May12, 1952), p.751.

36- جون بادو: مرجع سابق، ص٩٩،١٠٠. ؛ انظر أيضاً:

Amuzegar Jahangir, "point four: performance and prospect" in: political Science Quarterly, vol.73, No.4, (Dec., 1958), pp.535-538.

37 -Baldwin David A., op.cit., pp.73, 74.

38 -Ibid., p.74.

39 -Ibid.

40- جون بادو: مرجع سابق، ص٩٩.

41 -Spitzer H.M.," the point four program an historical view " in: World Affairs , vol.112,no.3.,(fall, 1949), p.73.

42 -Tannous Afif I, "positive role of the social scientist in the point four program", in: the scientific monthly, vol.72, no.1,(Jan.1951), p.47.

43 -Thorp Willard l., "The objectives of point four", in: the annals of the American Academy of political and social science, Philadelphia, 1950, pp.23-26.

44 -Acheson D.," Point four a revolution against hunger, disease, and human misery", in: the Department of state Bulletin, vol.26, No.669, (April 21, 1952), pp.608, 609.

45 -Johnston Eric A., op.cit., p.748.

46 -Ibid.,p.747.

47 -Emerson Rupert," point four and Dependent areas " in: the annals of the American Academy of political and social science, vol.268,(Mar.1950),p.118.;Kalijavi Thorsten V., OP.Cit., p.4; Hakim George, Op.Cit., pp.191, 192.

48 -The Yale law journal company, inc, op.cit., p.1284 ;

انظر أيضاً: مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية ، وثيقة سابقة.

49 -Acheson D., "Point four a revolution", p.610.

50 -Acheson D.," What is point four", p.158; the Yale law journal company, Inc, op.cit. p.1279.

51 -Johnston Eric A., op.cit., pp.749, 750.

52 -Ibid., p.751.

53- موضوع عن : النقطة الرابعة فى مشروع ترومان الخاصة بالمساعدة الفنية لدول الشرق الأوسط اقتصادياً ، وثائق وزارة الخارجية المصرية : الأرشيف السرى الجديد، سرى جداً ، جزء ٤، محفظة رقم ١٤٧٠، ملف رقم ١٥/٤/٤٥، تحريراً فى سبتمبر ١٩٥٢.

54 -Hayes Jr. Samuel p., op.cit., p.27; Kalijarvi Thorsten V., op.cit., p.6;Truman H.S.,"the presidents Massage to the congress on 'point four legislation'", in: the annals of the American Academy of political and social science, vol.268, (Mar.1950),p.186.

55- مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية ، وثيقة سابقة.

56 -Kreps Theodore J.,"Point four and the domestic economy", in: the annals of the American Academy of political and social science, vol.268, (Mar., 1950), p.160; Baldwin David A., op.cit., p.108.

57 - Espy Willard R.,"Point four and the will to reform" in: Far Eastern Survey, vol.20, No.5, (Mar.7, 1951), p.45.

58- مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية: وثيقة سابقة.

59 -Amuzegar Jahangir, op.cit.,p.532

60 -Hakim George, Op.Cit., p.185.

61- وندال كليلاند: Wandal Cliland

شغل مكاناً ممتازاً بوزارة الخارجية الأمريكية ، وقد أسندت إليه وظيفة مدير قسم بحوث الشرق الأدنى وافريقيا فى وزارة الخارجية الأمريكية لإلمامه الدقيق بأحوال الشرق الأوسط بسبب إقامته الطويلة بهذه المنطقة وخاصة فى مصر حيث تدرج فى وظائف التدريس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وكانت عمادة الجامعة الحلقة الأخيرة من حلقات خدماته فى الشرق الأوسط .

62- ملخص المبادئ التى تقدم بموجبها المعونة الفنية ، وزارة الخارجية المصرية : الأرشيف السرى الجديد، جزء ٢ سري، محفظة ١٤٨٦، ملف رقم ١٥/٤/٤٥، د.ت ؛ ـــــ ، " مشروع المساعدة الفنية ومهمة الدكتور وندال كليلاند فى مصر" ، فى : المقطم ، ٢٦ يونيه ١٩٥٠، ص٦. انظر أيضاً:

Amuzegar Jahangir, op.cit., p.533; Hakim George,op.cit., p.185.

63- ملخص المبادئ التى تقدم بموجبها المعونة الفنية ، وثيقة سابقة .

64 –Perkins Milo , op.cit. ,pp.137, 138;

Amuzegar Jahangir, op.cit., p.534.

65 –Point Four General Agreement for Technical Cooperation Between ------------- -------- and the United State of America , U.S. Department of state ,op.cit. , pp.871- 873; Perkins Milo, op.cit. , pp.138, 139; Kreps Theodore J., op.cit., PP.160, 161.

66 - مذكرة مرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان وزارة الخارجية المصرية : الأرشيف السرى الجديد ، محفظة رقم ٢٦٥ ، ملف رقم ١٥\٤\٤٥ جـ١ ، ١٢ نوفمبر ١٩٥٠ ؛ ملخص المبادئ التى تقدم بموجبها المعونة الفنية ، وثيقة سابقة ؛

Memorandum Prepared in the Department of State, Washington, June 20, 1950, U.S. Department of state, op.cit., p.847.

67 –Mack J R . , Robert T ., Raising the worlds standard of living the coordination and effectiveness of point four , united Nations Technical Assistance , and related programs , the citadel press , New York , 1953 , pp.171,172.

68 –Ibid ., p. 172.

69- وزارة الخارجية المصرية : الأرشيف السرى الجديد ، محفظه رقم ٢٦٥ ، ملف رقم ١٥\٤\٤٥ ؛ محفظة رقم ١٤٨٦ ، ملف رقم ١٥\٤\٤٥ ، وثيقة سابقة . ؛ انظر أيضاً :

Lattimore Owen, “point four and the third countries”, in: the annals of the American Academy of political and social science, vol.270,(Jul.,1950),p.4.

70 –Acheson D.,"Point four, A Revolution “, p.612.

71 –Mack JR., Robert T., op. cit., p. 170; Atwood Rollin S., op.cit., p.35.

72 –Perkins Milo , op.cit.,pp.135,136.,The Yale law Journal company , inc ., op.cit.,pp.1317-1320

73 –Perkins Milo , op.cit.,pp.136, 137; Amuzegar Jahangir,op.cit., pp.540, 541.

74- ـــــــ ، " مشروع المساعدة الفنية ومهمة الدكتور وندال كليلاند فى مصر" ، مصدر سابق ، ص ٦.

75- جون بادو : مرجع سابق ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

76- ــــــــــــــ ، " مشروع المساعدة الفنية ومهمة الدكتور وندال كليلاند فى مصر" ، مصدر سابق ، ص ٦.

77 -Tannous Afif I ,op.cit.,p.43; Hanson Haldore," United States Organization for point four" in: annals of the American Academy of political and social science, vol.268,(Mar., 1950), p.44.

78- التقرير الأسبوعى للسفارة الملكية بواشنطن : بعنوان المعونة الفنية الأمريكية ، محفظه رقم ٢٦٥ ، ملف رقم ١٥\٤\١٤٥ جـ١ ؛ ــــــ ، " اقرار مشروع النقطة الرابعة فى لجنة الشيوخ للشئون الخارجية " فى : المقطم ، العدد ١٨٩٧٤ ، ١٥ ابريل ١٩٥٠ ، ص١

79 -Baldwin David A.,op.cit., p.106.

80 -Ibid.,pp.106, 107.

81- مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية ، وثيقة سابقة.

82-Memorandum Prepared in the Department of State, Washington,June20,1950,U.S.Department of state,op.cit.,pp.847,850;Truman H.S.,"the presidents massage",p.185;
التقرير الأسبوعى للسفارة الملكية بواشنطن ، وثيقة سابقة ؛ ــــــ ، " مشروع المساعدة الفنية ومهمة الدكتور وندال كليلاند فى مصر"، مصدر سابق ، ص ٦.

83- السفارة الملكية المصرية بواشنطن : مذكرة بشأن النقطة الرابعة من برنامج الرئيس ترومان لمساعدة الدول الأقل تقدماً ، وزيارة مستر وندال كليلاند المستشار بوزارة الخارجية الأمريكية لمصر والدول العربية ، ملف رقم ٢١١\٤\١١ ، تحريراً فى ٨ يونية سنة ١٩٥٠.

84- ملخص كتاب السفارة المصرية بواشنطن عن الاتجاه الجديد لسياسة الولايات المتحدة بالنسبة لبرنامج النقطة الرابعة ، محفظة رقم ٢٦٧، ملف رقم ١٥\٤\١٤٥ ج٥، د.ت.

85- المساعدات الفنية فى وزارة الخارجية:

كان يتم تقديم المعونة الفنية عن طريق حكومات الولايات المتحدة من خلال وكالاتها مثل إدارة الطيران المدنىCAA والتى كانت ترسل البعثات وتجرى عمليات مسح للأراضى فيما يتعلق بمشاكل تطوير الطيران ؛ أما معهد شئون البلدان الأمريكية والذى عرف باسم" Servicios " فكان يقدم مساعدات فى مجالات الصحة ، الصرف الصحى ، الغذاء ، والتعليم ، بالتعاون مع الحكومة المضيفة.أما وزارة الزراعة فتقدم النصح والإرشاد فى مجال الزراعة ، ووزارة الخارجية كانت ترتب عمليات تبادل الموظفين.كذلك المنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة ، وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى للإعمار والتنمية . أما منظمة الصحة العالمية فكانت ترسل فرق لعلاج مرض الملاريا ، ومنظمة العمل الدولية كانت تعمل على انشاء المدارس التدريبية المهنية ، ومنظمة الزراعة والأغذية كانت تعد لعمل "فهرس مركزى للأسهم الوراثية".أما المؤتمرات الدولية فتعمل على تبادل

وسائل التقنية القيمة مثل المؤتمر الأمريكى لحفظ الموارد القابلة للتجديد ، والمؤتمر الأمريكى لتخزين الحبوب. للمزيد انظر:

Ishee Tommy C.," the point four program and Latin America", in: World Affairs , vol.112,No.3,(fall,1949),pp.75,76;Atwood Rollin S.,op.cit.,pp.36-38.

86- مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية ، وثيقة سابقة. انظر أيضاً:

Memorandum by Mr. Louis J.Halle Jr., Special Adviser, Bureau of Inter-America Affairs, to the Deputy Assistance Secretary of State for Inter-American Affairs (Barber), Washington, May 18,1950,U.S. Department of state,op.cit.,p.857; Johnston Eric A.,Op.cit.,p.749;Atwood Rollin S.,op.cit.,pp.34,35.

87 –Mack JR., Robert T., op. cit., pp.164,165;Hayes,Jr.Samuel p.,"An Appraisal of point four ",in: the Academy of political Sience,vol.25,no.3,(May,1953)pp.31,32.

88 – Mack JR., Robert T., op. cit., p.166; Gardiner Arthur Z.,"Point four and the Arab World: An American view" in: Middle East Journal, vol.4, No.3, (Jul., 1950), p.297.

89 –Note added later: Appropriation in omnibus bill passed September 1950.,U.S. Department of state,op.cit.,p.852;Mack JR.Robert,op.cit.,pp.166,167;Hanson Haldore,Op.Cit.,pp.39,40.

90 – Tannous Afif I,Op.cit.,p.168;Mack JR., Robert T., op. cit.,p.167; Hanson Haldore,Op.Cit.,pp.38,42.

91 – Mack JR., Robert T., op. cit.,p.168; Hanson Haldore,Op.Cit.,p.39;Atwood Rollin S.,op.cit.,p.38.

92- السفارة الملكية المصرية بواشنطن : وثيقة سابقة.

93 – استفادت اسرائيل منذ عام ١٩٥١ من المعونة الفنية طبقاً لبرنامج النقطة الرابعة ، وفى عام ١٩٥٢ قدمت الولايات المتحدة الأمريكية ٧٣ مليون دولار لتوطين المهاجرين والنهوض العمرانى والاقتصادى.ومنذ عام ١٩٥٥ حصلت اسرائيل على مساعدات أمريكية طبقاً لبرنامج فائض الحاصلات الزراعية ...للمزيد انظر: ـــــــ ،" الدعم الأمريكى لإسرائيل فى المجال الاقتصادى ١٩٤٨-١٩٥٥" فى:موسوعة مقاتل من الصحراء. www.moqatel.com

94- مذكرة بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان الخاصة بالمساعدة الفنية لدول الشرق الأوسط اقتصادياً ، محفظة رقم ١٤٨٦ ، ملف رقم ١٥\٤\٤٥ ج١ ، تحريراً فى يوليو عام ١٩٥٠.

95- مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية: وثيقة سابقة.؛

Memorandum by the Chief of the Division of Organization (Gordon) to the Director of the Office of Management and Budget (Howell),Washington, May 31,1950,U.S. Department of state, op.cit., p.853.

96 -Baldwin David A, op.cit., p.75; Hayes JR. Samuel P.," An Appraisal of point four", pp.43, 44.

97- مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية: وثيقة سابقة.؛انظر أيضاً:

Gardiner Arthur Z.,op.cit., p.299

98 -Tannous Afif I, op.cit., p.47;Baldwin David A., op.cit., p.116.; Perkins Milo, op.cit., p.140.;Atwood Rollin S.,op.cit.,p.39.

99 -Isaacs Harold R.,op.cit., p.56.

100- . مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية ، وثيقة سابقة.

101- نفس الوثيقة.

102- نفس الوثيقة.

103- مذكرة إلى حضرة وكيل وزارة الخارجية المصرية ، بشأن الإفادة من برنامج النقطة الرابعة ، وثيقة سابقة؛ مذكرة من السفارة الملكية المصرية بكراتشى إلى حضرة وكيل وزارة الخارجية، بشأن مشروعات النقطة الرابعة فى باكستان ، محفظة رقم٢٦٦، ملف ١٥/٤/٤٥ جـ٤، كراتشى ٦ أكتوبر ١٩٥٢. ؛ انظر أيضاً :

The Acting Secretary of State to Certain Diplomatic and Consular Offices, Washington, September 12,1950,U. S .Department of state, op.cit, p.865; Johnston Eric A., op.cit., p.750.

104- مذكرة بشأن النقطة الرابعة من برنامج الرئيس ترومان ، زيارة مستر وندال كليلاند ، وثيقة سابقة.

105- نفس الوثيقة.

106- جون بادو: مرجع سابق ، ص٩٨،٩٧.

107- ———— ، " برنامج ترومان لمساعدة الشرق الأوسط والدول المتأخرة " فى : الأساس ، العدد٩١٧، ١٩٥٠/٥/٢٤، ص٢.

108- مذكرة بشأن المساعدة الفنية والمعونة المالية ، وثيقة سابقة.

109 - جيفرى آرونسون: واشنطن تخرج من الظل ، السياسة الأمريكية تجاه مصر ١٩٤٦-١٩٥٦، تقديم : محمد سيد أحمد ، ترجمة: سامى الرزاز، دار البيان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٧، ص٣٥ ؛

Hakim George,op.cit., p.189, 190.

110 -The Acting Secretary of State to Certain Diplomatic and Consular Offices,Washington,September,12,1950;U. S. Department of state, Foreign Relations of United State 1950, Vol.5. Near East, South Asia, and Africa, ed. by: Fredrick Aandahl, Government Printing Office, Washington, 1978, P.280.

111- جون بادو: مرجع سابق، ص٩٥.

112- ———— : " نقطة ترومان الرابعة ، تشكيل لجنة من مختلف الوزارات لبحثها "، فى : جريدة الأساس ، العدد٨٧٩ ، ٩ ابريل ١٩٥٠، ص٤.

113- وزراة الخارجية المصرية: الأرشيف السرى الجديد: مذكرة مرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن النقطة الرابعة ...، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ حـ١، ١٢ نوفمبر ١٩٥٠، وثيقة سابقة ؛ مذكرة مرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان الخاصة بالمساعدة الفنية لدول الشرق الأوسط إقتصادياً ، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جزء ٢ سرى ، ١٥ نوفمبر ١٩٥٠.

114 -Memorandum of conversation by Stuart D. Nelson of the Division of Near Eastern Affairs and Samuel P. , Hayes , Special Assistance to Mr. Thorp, U. S. Department of state, Foreign Relations, Vol.5. Near East, OP.Cit., P.279.

115- كانت الأمم المتحدة قد عقدت النية على عقد مؤتمر دولى فى ١٦ مايو عام ١٩٥٠، يقضى بإعداد برنامج شامل لتقديم المساعدات الفنية للإنعاش الاقتصادى فى البلاد المتخلفة.وقد وافقت الجمعية العامة بجلستها فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٤٩ على جميع الترتيبات والمبادئ الخاصة بتنفيذ هذا البرنامج ولكنها تركت للمؤتمر القادم بحث الناحية المالية وفقا للخطوات التالية:

أولاً: التحقق من قيمة مجموع الإشتراكات التى دفعتها الحكومات للشروع فى تنفيذ البرنامج خلال السنة الأولى .

ثانياً: الموافقة على قيمة إشتراك الهيئات المساهمة فى تنفيذ البرنامج وعلى الإجراءات المالية الأخرى والواردة فى قرارى المجلس الاقتصادى والاجتماعى والجمعية العامة.ووجهت الدعوة إلى جميع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة والدول الأعضاء فى الوكالات المتخصصة المشتركة فى البرنامج. انظر :

نشرة صحفية رقم٧٥ بمكتب الأمم المتحدة للأنباء بالشرق الأوسط ، مؤتمر الأمم المتحدة للمساعدة الفنية ، القاهرة ٢٧ ابريل ١٩٥٠.

116- ليك سكس (المراسل الخاص لوكالة الأنباء العربية) ، " مساعدة أمريكا للشرق الأوسط.مصر تفضل مساعدة هيئة الأمم" فى: جريدة الزمان ، العدد٥٨٤، ٢٩ سبتمبر ١٩٤٩، ص٤.

117- مذكرة بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان الخاصة بالمساعدة الفنية لدول الشرق الأوسط اقتصادياً ، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ حـ١، ٤ يوليو ١٩٥٠.

118- محضر الجلسة الأولى لإجتماع اللجنة الوزارية الفرعية للنظر فى النقطة الرابعة والمعونة الفنية لهيئة الأمم المتحدة ، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ حـ١، بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان ، ٢ مايو ١٩٥٠.

119- نفس الوثيقة.

120- نفس الوثيقة.

121- مذكرة للعرض على وكيل وزارة الخارجية بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان ، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جـ١، اكتوبر ١٩٥٠، مذكرة مرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن النقطة الرابعة ، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جزء ٢ سري، ١٥ نوفمبر ١٩٥٠، وثيقة سابقة.

122- محضر الجلسة الثانية لإجتماع اللجنة الوزارية رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جـ١، بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان ، ١٩ يوليو ١٩٥٠.

123- نفس الوثيقة.

124- مذكرة من وكيل الخارجية "جلال عبد الرازق"إلى حضرة وكيل وزارة الزراعة " مصلحة الإقتصاد الزراعى والتشريع"، بشأن النقطة الرابعة ، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جـ٢، ٧ يناير ١٩٥١.

125- مذكرة للعرض على الوكيل ، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جـ١، بشأن:النقطة الرابعة فى مشروع ترومان ، سبتمبر ١٩٥١.

126- مذكرة إلى رئيس مجلس الشيوخ من رئيس لجنة الخارجية المصرية حسين الجندى ، بشأن النقطة الرابعة ، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جـ٢، ١٨ يونيه ١٩٥١.

127- نفس الوثيقة.

128- نفس الوثيقة.

129 -Memorandum of Conversation by the Assistance Secretary of State for Near Eastern ,South Asian and African Affairs McGhee, Washington, October 19,1950, U. S. Department of state, Foreign Relations, Vol.5. Near East,op.cit., P.313.

130- لقد تعهدت حكومة الولايات المتحدة والحكومة المصرية بأن تتعاون كل منهما مع الأخرى على تبادل الدراية الفنية والخبرة وما يتصل بذلك من أوجة النشاط الفنى التى ترمى إلى المساهمة فى تحقيق التنمية المتوازنة الكاملة لموارد مصر الاقتصادية وطاقتها الإنتاجية ... للمزيد عن نص الإتفاق بين الدولتين ومواده .انظر :

مشروع قانون بالموافقة على الإتفاق العام للتعاون الفنى طبقا لبرنامج النقطة الرابعة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية الموقع فى ٥ مايو ١٩٥١، محفظة رقم٢٦٥، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جـ٢، ٤ يونيه ١٩٥١.

131- مرسوم بإصدار الإتفاق العام للتعاون الفنى طبقاً لبرنامج النقطة الرابعة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية الموقع بالقاهرة فى ٥ مايو ١٩٥١، محفظة رقم٢٦٦، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ جـ٤، بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان ، قصر عابدين ، ٨ يناير ١٩٥٣؛ ________ ، " مرسوم بإصدار الاتفاق العام للتعاون الفنى طبقاً لبرنامج النقطة الرابعة بين مصر والولايات المتحدة

الأمريكية الموقع بالقاهرة فى ٥ مايو سنة ١٩٥١" فى : الوقائع المصرية ، العدد الخامس ، ١٥ يناير ١٩٥٣، ص٣.

132- مذكرة من مستشار الدولة إلى حضرة وكيل وزارة الخارجية: بشأن تعديل ديباجة الإتفاق العام للتعاون الفنى بين مصر والولايات المتحدة ، محفظة رقم٢٦٧، ملف رقم ١٥/٤/٤٥، ٢٥ ديسمبر ١٩٥١.

133- مذكرة إلى حضرة وكيل وزارة الخارجية: بشأن تشجيع الإستثمارت الأمريكية فى الدول المنتفعة ببرنامج النقطة الرابعة للمعونة الفنية ، محفظة رقم٢٦٦، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ حـ٤، ٢٨ نوفمبر ١٩٥٢.؛ انظر أيضاً :

Gardiner Arthur Z,op.cit., p.301.

134- مذكرة من ممثل مصر الدائم لدى الأمم المتحدة إلى حضرة وكيل وزارة الخارجية ، بشأن النقطة الرابعة من مشروع ترومان ، محفظة رقم٢٦٦، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ حـ٤، نيويورك ١٥/١/١٩٥٣.

135-Alterman Jon B.,Egypt and American Foreign Assistance, 1952-1956, Hopes Dashed, First ed., Palgrave, Macmillan, 2002, pp.50, 63.

136- Ibid,pp.50,52

137- من رئيس الجمهورية إلى مجلس الدولة قسم التشريع: مشروع مرسوم بإصدار الاتفاق الخاص ببرنامج تعاونى فى الصحة العامة بين الحكومة المصرية وحكومة الولايات المتحدة الأمريكية الموقع بالقاهرة فى ١٨ يونيو ١٩٥٣، محفظة رقم٢٦٧، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ حـ٥، تحريراً فى ديسمبر ١٩٥٣.

138 -Alterman Jon B.,Op.cit., p.56.

139- من مدير عام الطيران المدنى إلى مدير إدارة الشئون المالية بوزارة الحربية والبحرية ، بشأن: إستفادة مصر من برامج المعونة الفنية ، محفظة رقم٢٦٦، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ حـ٤، ٤/٧/١٩٥٣.

140- نفس الوثيقة.

141- من مدير إدارة التعاون الفنى فى مصر إلى وزير الأشغال العمومية: إتفاق مشروع المساحة الفوتوغرافية الجوية بين وزارة الأشغال العمومية وإدارة التعاون الفنى ، محفظة رقم٢٦٦، ملف رقم ١٥/٤/٤٥ حـ ٤، تحريراً فى ١٩٥٣.

142- نفس الوثيقة.

143- نفس الوثيقة.

144- نفس الوثيقة.

145- من وكيل المالية والإقتصاد إلى وكيل وزارة الخارجية ، بشأن النقطة الرابعة فى مشروع ترومان ، محفظة رقم٢٦٧، ملف رقم ١٥/٤/٤٥حـ٥، يوليو ١٩٥٣.

146 -Amuzegar Jahangir, op.cit.,p.543.

147 -Yakobson Sergius, " Soviet Concepts of point four ",in: annals of the American Academy of political and social science, vol.268, (Mar.1950), p.129.

148 -Ibid .,pp.129, 130.

149 -Ibid .,p.130

150 -Kalijarvi Thorsten V.,Op.Cit.,p.7.;Emerson Rupert,Op.Cit.,p.112;Lattimore Owen,op.cit,p.2.

151 - Yakobson Sergius,op.cit.,P.131.

152 -The Yale law journal company, inc, op.cit., pp.1321, 1322.

153 -Yakobson Sergius,op.cit.,P.133.

154 -The Yale law journal company, inc, op.cit., p.1282.

155- جيفرى آرونسون: العلاقات المصرية الأمريكية ص٣٤؛جيفرى آرونسون:واشنطن تخرج من الظل، ص٤٣،٤٢.

156- جون بادو: مرجع سابق ص٩٨.

157- نفسه ص١٠٠،٩٧.

158 -Amuzegar Jahangir, op.cit.,p.543, 544.

الزراعة فى عمان فى عهد دولة اليعاربة
١٦٢٤- ١٧٤١

د. مجدى رشاد عبد الغنى
مدرس التاريخ الحديث
كلية الآداب – جامعة الفيوم

تمهيد:

المقومات الأساسية لقيام الزراعة فى عمان فى عهد دولة اليعاربة

أولا: الموقع الجغرافى:

تقع عمان فى الركن الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية بين دائرتى عرض ١٦،٤°، ٢٦،٢° شمال خط الاستواء، وهى بذلك تنتمى للمنطقة الحارة الجافة، فمعظم أراضيها تقع جغرافيا ضمن النطاق الصحراوى الذى يندر فيه سقوط الأمطار[١]، ولكن وجود بعض الظاهرات الجغرافية الأخرى من مرتفعات ومنخفضات وموارد مائية أتاح لها التغلب على الكثير من هذه المعوقات لإقامة الزراعة فيها.

ويعتبر الموقع الجغرافى لعمان وتنوع مظاهرها الطبيعية من أهم العوامل التى تدخلت فى تشكيل الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكانها.[٢]

وتعد عمان من أهم دول شبه الجزيرة العربية، فقد كانت خلال عصر دولة اليعاربة اسما يطلق على جميع المناطق الممتدة من شبه الجزيرة القطرية شمالا

حتى مياه المحيط الهندى وبحر العرب جنوبا وهو القطاع الذى يشتمل فى الوقت الحاضر على سلطنة عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة. [٣]

إضافة إلى امتلاكها أجزاء من الساحل الشرقى للقارة الأفريقية بعد أن لعبت دورا رئيسيا فى مطاردة القوات البرتغالية هناك. [٤]

ثانيا: السطح:

يعد السطح عامل من العوامل المحددة لاستخدام الأرض سواء فى أثره المباشر فى صورة انحدارات وارتفاعات، أو فى أثره غير المباشر الذى ينعكس على حالة المناخ وبالتالى على شكل الغطاء النباتى ونوع المحاصيل وكذلك طبيعة الأرض نفسها. [٥]

وعمان فى مجملها على شكل هضبة يصل متوسط ارتفاعها حوالى ٤٠٠٠ قدم تمتد موازية للساحل من الشمال إلى الجنوب[٦]، وتتباين التضاريس فى هذا النطاق بين الجبل والسهل والنجد، حيث تشكل الجبال نحو ١٥% من المساحة الكلية للبلاد[٧]، وتمتد هذه الجبال فى خط منحنى كالقوس مواز لساحل بحر العرب من أقصى الشمال الغربى عند رأس مسندم إلى أقصى الجنوب الشرقى عند رأس الحد، وتنقسم إلى قسمين: جبال الحجر الغربى تمتد من ممر القلدى حتى مسقط مسافة حوالى ١٦٠ ميلا تاركة سهل الشميلية والباطنة بينها وبين البحر، ويفصلها عن الحجر الشرقى وادى سمائل وتكون مرتفعات الحجر الغربى خط تقسيم المياه بين وديان الباطنة وارض الظاهرة إذ يخرج منها إلى الباطنة وديان عديدة قادمة من المرتفعات نحو البحر وهذه الأودية ابتداء من منطقة مسقط جنوبا نحو الشمال هى الطو، لاجال، معاول، بنى خروص، الفرا، بنى غافر، جمهور، الحواسنة، شافان، صرامى عاهن[٨]، اما إلى الداخل فينحدر منه وادى ضنك، والوادى الكبير ووادى تنوف، ويصل أقصى ارتفاع له فى الجنوب حيث يعرف باسم الجبل الأخضر الذى يمتد مسافة خمسين ميلا، وينحدر فجأة إلى وادى سمايل، ويبلغ أقصى اتساع للجبل

الأخضر عند قمة جبل شمس، الذى تبلغ ارتفاعها ٣٠٠٩م واتساعها يبلغ عرضه حوالى ٨٠ ك.م، وتتألف التربة فيه من مواد دقيقة من الطمى والصلصال ترسبت فى مواضع تشبه البحيرات، تنخفض عن قيعان الأحواض الجبلية بأكثر من ٢٠ مترا، وتمثل أخصب الأراضى الزراعية بها. [٩]

الجبل الأخضر غنى بزراعاته لكثرة ينابيعه وتجود به الفواكه وخاصة العنب، وينتسب سكان الجبل الأخضر تقريبا إلى قبيلتى بنى ريام والحبوس أما القرى العامة به هى بنى حبيب وسيق والشرايجة وكلها فى التلال أما قرى مصيرة ومعيدن ومسفاح فهى موجودة فى وادى معيدن، وتعتبر الشرايجة أهم وأكبر القرى السابقة. والأرض الزراعية فى هذه القرى عبارة عن مصاطب أو مدرجات يمكن ريها والمحاصيل التى تنتجها هى القمح والخضروات ولكن أغلب الزراعات منصب على أشجار الفاكهة وتغطى الكروم فى بعض الأماكن جوانب التلال وهى تنتج العنب الأسود والأبيض اللذان يستخدمان فى استخراج النبيذ، كما يزرع فيها الرمان والمشمش والخوخ والتين والتوت والبطيخ، وكذلك اللوز، والكزبرة. [١٠]

وتقع فى شرق جبال الحجر الغربى مدن الرستاق وهى التى اتخذها أئمة دولة اليعاربة مقرا لحكمهم ويسكنها قبيلة الميايحة وبنوهناء، وبنو عمر، ومدينة نخل وتشتهر بعيونها الحارة وقلعتها الكبيرة ويسكنها السلاميون وبنو حراص واليعاربة، اما العوابى فهى قرية كبيرة وسط التلال بين مدينة نخل والرستاق على ارتفاع ٦٠٠م ويسكن العوابى العبريون وبنو خروص وبنو غافر. [١١]

أما القسم الآخر من السلسلة الجبلية العمانية فهى جبال الحجر الشرقى والتى يفصلها وادى سمائل عن جبال الحجر الغربى، وتمتد هذه الجبال إلى مسافة ١٢٠ ميلا من وادى سمائل حتى سلسلة جبال خميس فى الجنوب شرقى وينحدر من الحجر الشرقى أودية مغلقة نحو البحر، ويتسم سهلها الساحلى بأنه ضيق حيث يقع فيه بعض مدنها مثل صور- طوى- قلهات وقريات. [١٢]

وفى أقصى الجنوب يمتد أقليم ظفار الجبلى الانكسارى وهو من صخر أركى يرجع تكوينه إلى هبوط خليج عدن وتتميز جوانبه بوفرة أمطارها الصيفية وبغنى مرعاها.

ثالثا: السهول:

أ-السهول الساحلية:

يعد السهل الساحلى الذى يطل على خليج عمان وبحر العرب أهم سهول عمان ويشكل ٣% من المساحة الكلية لعمان وأهم هذه السهول ما يعرف بسهل الباطنة (وسمى بهذا الاسم لانخفاضه عن أقليم الظاهرة خلف الجبال أو باطنة بمعنى المقدمة، والظاهرة فى الخلف وراء مرتفعات الحجر) الذى يمتد من دبا فى الشمال حتى مسقط فى الجنوب وهو ينحصر بين سلسلة جبال الحجر الغربى وخليج عمان بطول يبلغ حوالى ٢٥٠ ك.م وعرض يتراوح اتساعه ما بين ٢٠، ٣٠ ك.م ويبلغ أقصى اتساع له فى الوسط حيث يصل إلى ٥١ ك.م تقريبا بينما يضيق فى طرفيه الشمالى والشرقى، ويتكون هذا السهل من مجموعة من الارسابات من حصى ورمال خشنة متدرجة إلى ناعمة باتجاه الساحل وذلك من خلال ارسابات الأودية التى تصب فيها. [١٣]

ويعتمد الرى فى الباطنة على مياه الآبار ويتراوح وجودها على بعد ١٥-٢٠ قدم تحت سطح الأرض وهى من أهم مصادر المياه للزراعة فى سهل الباطنة إلى جانب مياه الأمطار، وتمثل هذه المنطقة نسبة ٥٥% من مساحة الأراضى الزراعية فى عمان فى الوقت الحالى[١٤]، وتشتهر الباطنة بنخيلها وتنتج الأرض بجانب النخيل زراعات اخرى كالخضروات والقمح والشعير والقطن وقصب السكر والفاكهة، ولكن السمة الرئيسية للزراعة هى زراعة النخيل الذى يعتبر أهم الموارد الرئيسية الزراعية لهذا الاقليم. [١٥] إلى جانب ذلك تزرع الفاكهة مثل المانجو والموز والرمان والتين والليمون والبطيخ والسفرجل والزيتون واللوز. [١٦]

والباطنة من المناطق المزدحمة بالسكان وبها أكبر القبائل العمانية منها يـال سعد،وبنى خروص، الحواسنة، والشرقيين، والنقبيون، وبعض العوامر، والـدروع وبنو كعب. (١٧)

أما السهل الساحلى الجنوبى فهو سهل جربيب الذى ينحصر بين الـساحل المطل على بحر العرب وبين جبال ظفار ويبلغ طوله حوالى ٥٠ ك.م وهو مسطح صخرى تترسب عليه طبقة طميية ويتخلله عدد من المجارى المائية والتى تمتد من الجبال إلى الشاطئ. (١٨)

أما السهل الداخلى والذى يعرف بمنطقة الظاهرة والتى تمتد إلى ١٠٠ ميل طولا ويبلغ أقصى اتساع لها ٥٠ ميلا عند الوادى الكبير وترتفع إلى حوالى ٩٠٠م عند مسكن، وحوالى ٤٠٠م قرب عبرى، ويجرى بها وديان هامة مثل وادى ضنك الذى يتجه نحو الربع الخالى، والوادى الكبير فى اتجـاه الجنـوب الغربـى إلـى عبرى(١٩)، وترتوى الظاهرة من ينابيع المياه التى تجرى فى قنوات تسمى الافلاج وتتجمع حول هذه الافلاج مدن ومجموعات من القـرى مثـل عبـرى وعراقـى والعينيين التى يسكنها بنى غافر وفى داخل الوادى الكبير توجد ينقل عاصمة قبيلة بنى على، ثم ضنك، وحفيت، البريمى وأهم الزراعات هى زراعة النخيل.(٢٠)

رابعا: الأودية:

تغذى الأمطار التى تسقط على جبال عمان وهضابها كثيرا من الأودية التى تسير مخترقة سهولها لتصب فى سواحلها، وعلى ضفاف هذه الأودية قامت المـدن والقرى العمانية وعلى مياهها الجوفية. اعتمد الانتاج الزراعى فى عمان واسـتمد منها مقوماته. ويعد وادى سمائل أكبر هذه الأودية على الاطلاق بل أهمها فهو يقع بين جبال الحجر الشرقى والغربى وينحدر شرقا نحو خليج عمان(٢١) يبلغ مـساحة وادى سمائل ١٦١٥ ك٢.م منها حوالى ١٣٥٩ ك٢.م، عبـارة عـن أرض جبليـة مرتفعة، ويختلف وادى سمائل عن الأودية الأخرى بسهل الباطنة، خاصة لأن قاع

هذا الوادى مملوء بالرواسب الفيضية الخشنة مما يجعل المياه تتسرب إلى باطن الأرض قبل ان تصل إلى الطبقات الدينا منها، فهو من المناطق الصالحة للزراعة، حيث تبلغ المساحة المزروعة منه حوالى ٢٠٠٠ هكتار (أى حوالى ٤٧٦٢ فدان) وقد تم تحويل المرتفعات التى على جوانبه إلى مدرجات حيث تروى من مياه الأفلاج المتفجرة على جوانبه.[٢٢]

وهذا الوادى غنى بزراعة النخيل إلى جانب الزراعات الأخرى مثل القمح والشعير والفاكهة، إلى جانب العديد من الأودية التى تنحدر نحو خليج عمان وخاصة تجاه منطقة الباطنة والتى تم ذكرها سابقا، وقد شكلت هذه الأودية أهمية خاصة، لأنها تعتبر مجارى مائية لمياه الأمطار، والتى مثلت تربة رسوبية آتية من المرتفعات العمانية، والتى من خلالها تم إنشاء عدد من المناطق الزراعية على جوانبها من خلال حفر ما يسمى بالافلاج الغيلية التى ساهمت فى استغلال مياه الأمطار لزراعة الأراضي حول هذه الأودية والتى شكلت أيضا مناطق استقرار للعديد من القبائل العمانية.

خامسا: التربة:

تعد التربة من عناصر البيئة الطبيعية التى لها أهمية كبيرة فى التأثير على الزراعة، حيث أن هناك علاقة وثيقة بين النبات والتربة[٢٣]، فأراضى عمان حديثة التكوين، حيث تتكون السهول الساحلية من الارسابات الغرينية التى انتقلت من سلاسل الجبال عن طريق الأودية، ومعظم التربة فى مناطق السهول الساحلية قوامها خشن، وتتضمن القليل من الطين فى بعض المناطق كما أن قدرتها على الاحتفاظ بالمياه محدودة والمناطق ذات التربة الرقيقة التى لا يوجد بها حصى تعتبر نادرة. وتتكون الأجزاء الداخلية من عمان من التربة الرسوبية ذات الحصى أو ذات المحتوى الصغير من الطين، أما فى الجبال فتوجد التربة الطينية والتى تحولت إلى مدرجات (أو ما يسمى بالزراعة المصطبية وهى مناطق تتميز بارتفاع سقوط

الأمطار فيها فتشكل التربة الطينية المائلة إلى اللون الأحمر ومن المناطق التى ينخفض فيها سقوط الأمطار يكون لونها أفتح وتكوينها حصوى مع قليل من المحتوى الطينى، وكلها صالحة للزراعة وتشكل أهمية قصوى لزراعة النباتات التى تحتاج إلى درجات حرارة معتدلة مثل الفاكهة. (٢٤)

ويمكن تقسيم التربة فى عمان إلى:

١- تربة طميية خصبة وتقع فى مناطق الباطنة – الداخلية – ظفار. وهى من أكثر مناطق عمان صالحة للزراعة.

٢- تربة رملية – واسعة الانتشار فى المنطقة الوسطى والشرقية.

٣- تربة طميية حصوية تنتشر فى مناطق عدة من مسندم وجزء من الباطنة – وظفار. (٢٥)

سادسا: المنـــاخ:

للمناخ دور رئيسى وتأثير واضح على المتغيرات البيئية المختلفة، وذلك من حيث اسهامه المباشر فى وفرة المياه المصدر الرئيسى للزراعة ودرجات الحرارة والرطوبة المؤثرة على الموارد الطبيعية وعلى الأنشطة البشرية كالزراعة والرعى.(٢٦)

ويتنوع مناخ عمان تبعا لتنوع تضاريسها فإن للموقع الجغرافى والبيئات الجغرافية الطبيعية ان كانت جبلية أو بحرية أو صحراوية تأثيرا كبيرا ومباشر على مناخ الدولة(٢٧)، وتقع عمان ضمن المنطقة المدارية التى تتميز بارتفاع درجات الحرارة، حيث تنقسم السنة فيها إلى فصلين الصيف والشتاء. إلا أن مناخ عمان يتأثر بعاملين مهمين: يتصل أولهما بالموقع الجغرافى العام الذى يضع تلك المساحة فى ظهر المسطح المائى لخليج عمان وهو مصدر الرطوبة طول العام. ويتصل الثانى بشكل التضاريس ووضع السلسلة الجبلية الممتدة عبر الأراضى العمانية

والتى تلعب دور رئيسى فى التنوع المناخى خاصة فى المناطق المرتفعة التى تقل فيها درجات الحرارة بشكل كبير مما يسمح بتنوع الانتاج الزراعى.[٢٨]

ويمثل أقليم عمان منطقة مناخية انتقالية بين اقليم الصحراء فى قلب شبة الجزيرة العربية وبين المنطقة البحرية لبحر العرب والمحيط الهندى، والأمطار فى عمان غير منتظمة ومن خصائصها أنها فجائية وتحدث سيولا وهى شتوية فى الشمال وموسمية صيفية فى ظفار.[٢٩]

سابعا : مصادر المياه:

تعتبر المياه من أهم العوامل الطبيعية التى تؤثر فى النشاط الزراعى – وتنقسم مصادر المياه فى عمان إلى :

١- **المياه السطحية:** ومنها مياه السيول والأودية وتعتبر الأمطار هى المورد الرئيسى لها، وهى التى تجرى فى اعقاب هطول الأمطار ولكنها عندما تحدث تكون فحائية وغزيرة وتجرف معها الكتل الحجرية والحصى والاتربة والرمال وتتوزع هذه الأودية فى معظم أنحاء عمان، ويصل عدد المأهول بالسكان منها حوالى ٥٢٧ واديا.[٣٠]

٢-**المياه الجوفية:** ومنها المياه الجوفية غير المتجددة والتى توجد فى الطبقات الجيولوجية العميقة وتعود إلى ملايين السنين وتوجد على أعماق تتراوح بين ٧٠٠- ١٥٠٠م .[٣١]

أما المياه الجوفية المتجددة فهى متعددة منها:

أ-العيون (الينابيع)

لعبت العيون فى المناطق الجافة دورا هاما فى تحديد أماكن الاستيطان القديمة حيث تستغل مياهها فى مجال الشرب والزراعة وكذلك للعلاج والاستشفاء.

يوجد فى عمان العديد من العيون المائية ينبع اغلبها من المناطق الجبلية

وتختلف هذه الينابيع من حيث وفرة مياهها ودرجة حرارتها وجودتها ومن أشهرها عين الكسفة بالرستاق التى تميزت باستراتيجية موقعها وبجودة مياهها الحارة وعين الثوارة بنخل التى تنفرد بموقعها الطبيعى الجميل إضافة إلى جودة مياهها الحـارة، وكثير من هذه العيون يعتمد عليها فى الزراعة والتى يبلغ عددها حوالى ٦٨ عـين ما بين باردة (٤٥) وحارة (٢٣) وأغلبها صالحة للشرب وعددها (٦٤) وقامـت عليها عملية الزراعة والاستيطان من حولها فساهمت كأحد أهـم مـصادر الميـاه للزراعة العمانية خلال فترة الدراسة[٣٢]، إلى جانب مئات العيون المنتـشرة بـين سفوح الجبال ولكن تأثيرات هذه الأخيرة ليست بقدر السابقة.[*]

ب-الآبــــــــار:

تستخدم الآبار فى أنحاء عمان للاستعمالات المنزلية والرعى إلـى جانـب استخدام مياهها فى الزراعة إلا أنها توجد بالقرب من الساحل، حيث تـشارك فـى تنظيمات زراعة الأراضى إلى حد كبير وخاصة فى منطقة الباطنة الداخلية، حيث توجد معظم الآبار فى القرى فى شكل يسمى [بالزيجرة]، وفيـه يوجـد زوج مـن الثيران أو الحمير يربطهما بالسطح حبل متصل بترس خشبى مثبت عموديا علـى ركيزة بأربع قوائم، أو ما يشبه ذلك فوق البئر ويتدلى دلو فى البئر ويرتفـع عنـد امتلائه بالماء، ليصب فى حوض، حيث تحمل قناة الماء إلى المزارع وهذا النظـام منتشر فى عمان الداخل والوسطى وخاصة فى زراعة المحاصيل الموسمية. [٣٣]

ج-الأفلاج:

تعتبر الأفلاج من أشهر الظواهر الطبيعية التى تتميز بها عمان وهو نظـام فريد للحصول على المياه الجوفية أو تجميع المياه السطحية بغرض الاستفادة منها.

وكلمة فلج تعنى الشق فى الارض والكلمة مشتقة من جذور سامية قديمـة تعنى انقسام الأرض[٣٤]، ويعرف الفلج بأنه قناة محفورة فى باطن الأرض أو على سطحها سواء كانت مغطاة أم مكشوفة لتجميع المياه الجوفية أو مياه العيون والينابيع

الطبيعية أو المياه السطحية أو اعتراض وتجميع مياه السيول بحيث يتم انتقال المياه المتجمعة من مواردها فى قناة الفلج طبيعيا بواسطة قوة الجاذبية الأرضية فقط فى اتجاه منطقة الاحتياج دون استعمال الالات لرفعها. (٣٥)

ويعرف الفلج بأنه اصطلاح شامل لنظام من أنظمة الرى ويمكن اطلاق الكلمة على نظام تقسيم المياه بين المساهمين وهذا هو المعنى فى عمان إذ أنه عبارة عن تنظيم معين لتوزيع المياه بين من لهم حقوق فيه.(٣٦)

ويعرفه البعض بأنه النهر الصغير للتشابه بينه وبين النهر الطبيعى من حيث الروافد التى تمده بالماء وكذلك الفروع التى تأخذ منه الماء.

ويمكن تعريف الفلج على ثلاثة أشكال هى:

١- الشكل الذى يتسم بعمل بشرى خالص وهو القناة المحفورة بواسطة الإنسان فى باطن الارض لامتصاص المخزون المائى وتجميعه واخراجه إلى سطح الارض.

٢- الشكل الذى ينبع فيه الماء من بين الصخور الجبلية تلقائيا إذا كان يسقى قرية زراعية وقد اطلق على هذا النوع افلاج العيون الطبيعية.

٣- الشكل الذى يتجمع فيه الماء فى بطون الأودية بعد سقوط الأمطار على المرتفعات الجبلية ثم يستغلها الناس لسقى مزروعاتهم عبر قناة مشقوقة. (٣٧)

وتعتبر الأفلاج فى عمان جزء أصيلا من نسيج الحياة الاجتماعية للمجتمع العمانى منذ القدم فهى مصدر الماء الذى قامت عليه الحياة والحضارة العمانية منذ أقدم العصور وحتى الان، لذلك فإن تاريخ الأفلاج فى عمان من حيث إنشائها والأحداث التى مرت بها هو جزء حيوى من التاريخ العمانى، فإنشاء القرى والمدن على امتداد عمان وعلى مر تاريخها كان يبدأ ببداية حفر الفلج وجريانه على سطح الارض، فهى التى حولت مساحات كبيرة فى عمان إلى

بقاع خضراء[٣٨]، وتختلف هذه الأفلاج فى طولها من ١ ك.م إلى ١٦ ك.م وقد كان للدولة محل الدراسة اهتمام كبير ببناء الافلاج التى تميزت بهـــا خريطـــة عمان الزراعية والسكانية وكان لها أثرها فى بناء القرى والمجتمعات حول هذه الافلاج وهذا ما سوف نوضحه فى ثنايا هذا البحث.

أنواع الافلاج: (*)

١-الافلاج الغيلية:

هى الافلاج الصغيرة التى تستمد مياهها من مياه (الغيل) وتعنى كلمة غيل المياه المتدفقة على سطح الوادى[٣٩]، أو من المياه السطحية بـــالقرب مـــن ســـطح الارض فى مجارى الأودية أو على سفوح الجبال ويسمى الفلج غيلى إذا كان يعتمد على ساعد (رافد) أو سواعد غيلية. [٤٠]

والافلاج الغيلية فى أغلبها قصيرة تأتى بالماء من الوادى مباشرة وهى فى أغلبها مكشوفة يتراوح عمقها ما بين ١-٤ متر وتتراوح اطوالها بين ٢٠٠ متر – ٢ ك.م، وهذا النوع من الافلاج كثيرة ومنتشرة فى كافة أرجاء عمان لكنها محدودة البقاء كثيرا لانها تتأثر بموسم الجفاف وبقاؤها مرهون بهطول الأمطار واســـتمرار تدفق جريان الماء فى بطن الوادى وهى تمثل حوالى ٢٠% من افلاج عمان. [٤١]

٢-الافلاج العينية :

هى تلك الافلاج التى تستمد مياهها من العيون والينابيع الطبيعيـــة وهـــى الافلاج التى لا دخل للانسان فيها، وتتميز هذه الافلاج بأنها دائمة الجريان طـــول العام، وتتراوح أهمية الافلاج العينية حسب نوعية مياهها فهى تتراوح بين الحـــارة والباردة، وبين العذبة الصالحة للشرب، والضاربة فى الملوحة والقلوية المخلوطـــة بمياه الأودية التى تصلح للزراعة، وهناك نوع آخر من العيون التى تغـــذى هـــذه الأفلاج تحتوى على نسب متفاوتة من الأملاح المعدنية وتصلح مياههـــا للتـــداوى والاستشفاء وتكمن أهمية هذه الافلاج بكثرة تدفق مياهها اليومى طول العام. [٤٢]

٣-الافلاج الداؤدية: (العادية)

وهى الأفلاج التى تستمد مياهها على عمق كبير من سطح الارض، وهى الافلاج التى يقوم الانسان بشقها وهى الأكثر انتشارا فى غالبية عمان بخاصة تلك المناطق الواقعة على سفوح الجبال ومجارى الأودية. وهى افلاج عميقة تصل إلى ٥٠م تحت سطح الارض وتمتد حتى ١٥ ك.م وتكون معظم اقسامها مغطاة وتصاريفها عالية نسبيا ولا تجف على مدار السنة وتتدفق مياهها عبر نفق يتجه نحو مجرى مفتوح ويتميز بنوع من الثبات فى مستوى مياهه إلى حد كبير وهذا ما يساعد على استقرار نوعية المحاصيل التى تزرع فى محيطه، ذلك أن ثبات كمية المياه لا يعرض المزروعات للخطر وتمثل نسبتها فى عمان إلى جانب الانواع الأخرى ٤٧,٦% من جملة الافلاج فى عمان. [٤٣]

وتذكر بعض النشرات الصادرة فى عمان أن عدد الافلاج التى كانت قائمة فى عمان كانت تصل إلى اكثر من احد عشر ألف فلج خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتى وصلت فى الوقت الحالى إلى ما يزيد قليلا عن ٤ آلاف فلج تجرى فيها المياه من منابعها. [٤٤]

وقد كان لدولة اليعاربة دور كبير فى تحسين وسائل الرى وتطويرها حيث قام أئمتها بإنشاء عدد كبير من الافلاج، بل قاموا بتطوير وتطهير ما كان موجودا من قبل بهدف تحسين الانتاج الزراعى وهذا ما سوف نعرض له لاحقا.

المقومات البشرية للزراعة فى عمان فى عهد دولة اليعاربة:

أ-الأوضاع السياسية وأثرها على الزراعة:

خضعت عمان قبل عصر اليعاربة لدولة بنى بنهان (١١٥٤- ١٦٢٤) وهى الفترة التى شهدت فى نهايتها مجئ الاحتلال البرتغالى الذى سيطر بدوره على السواحل العمانية المختلفة (١٥٠٧- ١٦٤٩) وخاصة فى قلهات وقريات - ومسقط وخورفكان وصحار. [٤٥]

وكان لهذا الاحتلال دوره فى ان قام بعزل المناطق الداخلية عن الساحل فتوقف تصدير الانتاج الزراعى مما أدى إلى بوار السلع الزراعية وكسادها، مما عزا بالفلاحين إلى إهمال الزراعة والبحث عن مورد آخر للمعيشة(٤٦)، فى الوقت الذى شهدت الأحوال الداخلية مزيدا من الانقسامات والنزاعات القبلية الأمر الذى أدى إلى تقسيم عمان إلى أكثر من عشر وحدات أو مناطق شبه مستقلة بعضها عن البعض الآخر تحميها سلطات قبلية مستقلة ذاتيا، فكان مالك بن أبى العرب يحكم الرستاق، وسلطان بن أبى العرب فى نخل، ومانع بين سنان العميرى فى سمائل، وعلى بن قطان الهلالى فى سمد الشأن ومحمد بن جفير فى عبرى، وبنو عزرة فى ازكى، وأهل العقر فى نزوى.

وكانت منح بيد اللغابرة، وحصن بهلا ودارست بيد سيف بن محمد الهنائى وبات بيد الجبور، حصن ينقل بيد ناصر بن قطان الهلالى وحصن لوى بيد سيف بن محمد بن جفير، وجلفار بيد العجمى ناصر الدين.(٤٧)

وقد أدى هذا الانقسام إلى زيادة النزاعات بين المناطق المختلفة، مما أثر بدوره على الانتاج الزراعى، إضافة إلى وضع القيود على تنقل السلع الغذائية والمحاصيل الزراعية من منطقة إلى أخرى بسبب فرض مزيد من الضرائب عليها الأمر الذى ساعد فى صعوبة تسويقها وامتناع العديد من المزارعين عن زراعتها مما ساعد فى تأخر الزراعة خلال تلك الفترة إذا أضفنا إلى ذلك صعوبة تصديرها إلى الخارج بسبب سيطرة قوى الاحتلال على السواحل العمانية الأمر الذى أدى إلى تدهور الزراعة العمانية قبل عصر اليعاربة.

ولكن عندما تولى الامام ناصر بن مرشد لعب دورا رئيسيا فى إعادة الوحدة بين أجزاء عمان الداخل المختلفة، حيث خاض عدة حروب مع باقى القبائل العمانية حتى وحد المنطقة الداخلية، ثم اعتمد اعتمادا رئيسيا على الانتاج الزراعى فى بناء دولته القوية، فكان الاستقرار السياسى أحد أهم المقومات البشرية الذى أثر

إيجابيا على الزراعة العمانية فى عصر دولة اليعاربة. [٤٨]

ب-الأيدى العاملة:

شكل النشاط الزراعى فى عمان تحديا دافعا للعمانيين لايجاد الطرق والبدائل للزراعة فى مناطق أغلبها ذات طابع صحراوى، وكانت الزراعة هى الدافع الأساسى لتوفير مصادر المياه باستخدام وسائل الرى كالافلاج وتحتاج إلى التعاون بين الجميع من أجل بنائها وتوسيع الرقعة الزراعية وكان هذا التحدى الكبير للانسان العمانى فى الاستقرار وتكوين المجتمعات فكانت حرفة الزراعة إلى جانب الرعى أحد أهم الأنشطة المتاحة للداخل العمانى خاصة فى ظل الاحتلال الاجنبى للسواحل العمانية، فنجد أنه مع بداية عصر اليعاربة وفرت الدولة الامكانات التى بدورها جذبت العديد من العمانيين للعمل فى هذا المجال بعد أن انهت العقبات التى تقف أمام تصدير هذه المنتجات، وانتشرت الزراعة فى أكثر الأماكن كمناطق السيول والوديان والواحات والجبال، حيث اهتم العمانيون بالزراعة اهتماما بالغا، وقاموا بتذليل الصعاب ومواجهة تحدى الجغرافيا ومتطلبات الاستقرار[٤٩]، وعندما اتسعت الرقعة الزراعية خاصة خلال عصر قوة الدولة اليعربية عهد الامام سيف بن سلطان الثانى، تم استقدام الرقيق من شرق افريقيا للعمل فى الانتاج الزراعى.

٣-السوق:

ساهم حكام دولة اليعاربة فى الاستقرار الداخلى لعمان مما ساهم فى انتقال السلع من منطقة إلى أخرى وهذا أدى إلى رواجها كما ساعد توسع الدولة فى الخارج إلى إقامة علاقات اقتصادية مع أغلب دول الخليج العربى خاصة بلاد فارس والدولة العثمانية والساحل الشرقى للقارة الأفريقية، وهذا بدوره فتح أسواقا جديدة امام السلع العمانية الزراعية، وخاصة التمور.

أئمة اليعاربة ودورهم فى التنمية الزراعية فى عمان

الإمام ناصر بن مرشد(*) (١٦٢٤ – ١٦٤٩). (٥٠)

هو أول أئمة دولة اليعاربة ومؤسس دولتهم، وإليه يرجع الفضل فى قيام الوحدة الداخلية فى عمان بعد أن خاض عدة معارك لضم الولايات العمانية بعد أن أتخذ من الرستاق مقرا لدولته، فقد استطاع ان يخلص الرستاق من بنى عمومته أبناء مالك بن أبى العرب وبدأ يعد العدة لتوحيد داخل عمان تحت سيادته حيث ضم نخل التى كان فيها عمه سلطان بن أبى العرب(٥١). ثم ضم إليه نزوى وازكى ومنح وإبراء.(٥٢)

ثم استولى على بهلا ثم سير جيشا إلى عبرى ثم اخضع سمائل وبعدها أرسل قواته إلى لوى لاخضاعها(٥٣)، ثم طرد قوات الفرس والبرتغال من ظفار. (٥٤)

وقد انتهج الامام الجديد سياسة جديدة قائمة على ضرورة نبذ الخلاف والانخراط فى طريق الوحدة الوطنية والالتفاف حول الحركة الأباضية فكان على الامام الجديد تحمل مهامه، خاصة وان روح العصبية القبلية كانت قد تجذرت طوال العهد النبهانى، كما جاء العامل الخارجى البرتغالى ليتوج انهيار التلاحم الداخلى، ولم يكن من سبيل إلى تحرير البلاد إلا بإعادة بناء التلاحم الاجتماعى وإعادة توحيد الوحدة الوطنية.(٥٥)

وكما اسلفنا فقد طبق الامام ناصر بن مرشد وبصورة شبة منظمة سياسة ثابتة وحازمة وقوية حيال القبائل المتمردة وقد اخضعها اخضاعا صارما، كما أخضع الممالك الصغيرة الشكلية القائمة فى المقاطعات والمناطق، وكانت سياسة التسامح والعفو تسير جنبا إلى جنب مع سياسة الحزم الذى اتخذها الامام. (٥٦)

وكان لابد له من إيجاد مصدر رئيسى للدخل فاتجهت انظاره إلى الزراعة التى تعتبر المورد الرئيسى التى اعتمدت عليه دولة اليعاربة فى وجودها حيث

كانت الصناعة متخلفة كما أن السواحل العمانية كانت محاصرة، ولم يجد أمامه سوى الزراعة التى على أساسها بنت دولة اليعاربة نهضتها ومن أهم أعمال الامام فى هذا المجال انه أزال الحواجز الجمركية بين مناطق عمان الداخلية المختلفة بعد أن كانت احد أهم العقبات أمام انتقال المنتجات الزراعية بينها، وكان يوصى ولاته على مناطق عمان المختلفة بضرورة تطهير الافلاج والاهتمام بالزراعة لتحسين أحوال الرعية(٥٧)، ففى رسالته إلى الشيخ ابى الحسن على بن احمد بن عمر بن عثمان بن عمر النزوى والى [لوى من مناطق الباطنة وما حولها وما يشتمل عليها من بلدان الباطنة، وحتى ديار الجدان والجو وناجوان ودما وما يشتمل على هذه القرى والبلدان وما بينهن من المزارع وجميع الأماكن] أن تأمر فى هذه القرى والبلدان باديهم وحاضرهم وعبدهم وحرهم صغيرهم وكبيرهم وغنيهم وفقيرهم بالعدل والمعروف وتنهاهم عن المنكر وان تعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله والأئمة المهتدين ومن ضمن ما جاء فى هذه الرسالة – "أن تجتهد كل الجهد فى إصلاح أهل ولايتك وإصلاح افلاجهم وعمارة مساجدهم والصفح عن مسيئهم والتجاوز عن سيئاتهم، وان تقبض زكواتهم من اغنيائهم بحقها وتجعلها فى اهلها من فقرائهم وضعفائهم بعدلها طيبة نفس معطيها إلا من وجب جبرة، ولا يخفى عليك فى التفحص عن فقرهم وضعيفهم من جميع أماكن ولاياتيك، وقد جعلت لك يا ابن الحسن ان تعامل على (صوافى) وهى الاراضى التى لا صاحب لها ولايتك بمزارعة او مقادة وقبض غوالها ووضعها فى موضعها ما وسعك ذلك(٥٨)، وكذلك رسالته إلى الوالى ابن سعيد صالح بن سعيد المعمرى واليه على صور وإبراء ما اشتمل عليها من القرى والأماكن وتحث هذه الرسالة أيضا على ضرورة الاهتمام بأرض هذه البلاد وإصلاح أحوال أهلها وضرورة معاملتهم معاملة حسنة ونفس الرسالة بعث بها إلى أبى عبد الله سليمان بن راشد بن عبد الله الكندى السمدى والى الصير وما حولها من البلدان والقرى. (٥٩)

وكانت الزراعة تمثل المورد الرئيسى الذى اعتمد عليه الامام ناصر بن

مرشد خلال حكمه لعمان فمنها يتم توفير الغذاء لأهل عمان، ومن الزكاة التى يجمعها ينفق على جيوشه التى استمرت تحارب فى داخلية عمان مدة ثمان سنوات حتى تحققت له الوحدة الداخلية، ثم بدأ صراعه مع القوات البرتغالية على الساحل منذ عام ١٦٣٤ بعد أن وقعت صور وقريات فى قبضة الامام. (٦٠)

وتشير المصادر إلى ان البلاد قد عمها العدل والخير وعاش السكان فى ظل حكمه ينعمون بخيرات البلاد الذى زاد مع استقرار الأوضاع السياسية فى عمان. (٦١)

ومن أهم المناطق التى حظيت باهتمام بالغ من قبل الامام ناصر بن مرشد منطقة عبرى، حيث نشر فيها عدة ولاة فى عدة اماكن منها الغبى – عبرى – بات وبنى فيها بعض الحصون مثل حصن وادى فداء، وقد قام احد عماله وهو العلامة ابراهيم بن سعيد العبرى حيث ضاعف هذا الوالى فلج الغبى ليماثل افلاج المنطقة وغرس كثيرا من الأشجار، وتولى حفر فلج البزيلى الذى يعد من أغزر أفلاج عمان فى ذلك العصر. (٦٢)

ومات الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ بعد ان وحد عمان ومحا آثار خمسة قرون من المرارة الوطنية واستعاد تقاليد الامامة وارجع تراثها وأرسى أسس الدولة اليعربية وعناصرها الرئيسية، وبفضله استطاع أن يفتح اسواقا جديدة لتجارة المنتجات العمانية مع الدولة العثمانية والسفن الهولندية فى الخليج فتحسنت احوال البلاد الاقتصادية مع نهاية ولايته ليزداد الاهتمام بالزراعة فى عهد خلفائه. (٦٣)

الامام سلطان بن سيف اليعربى ١٦٤٩- ١٦٧٩:

هو الامام سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب بن سلطان بن مالك بن أبى العرب، الذى تولى الامامة بعد الامام ناصر بن مرشد، حيث يعتبر من مؤسس دولة اليعاربة الأوائل لما بذله من جهد فى تثبيت أركانها، فقد صار على سياسة الامام ناصر بن مرشد فى توحيد الجبهة الداخلية العمانية، ثم حمل رأية الجهاد ضد

الوجود البرتغالى على السواحل العمانية، حتى استطاع ان يحرر عمان من السيطرة البرتغالية، والأكثر من ذلك تعقب البرتغاليين فى منطقة الخليج العربى، وسواحل الهند، والساحل الشرقى للقارة الأفريقية. (٦٤)

ويأتى نجاح الامام سلطان بن سيف خارجيا من خلال النتائج التى حققها فى الداخل فى ظل إدارة ناجحة وحدت المصالح القومية للدولة، وكانت الزراعة احدى ثمار هذا النجاح حيث ان متطلبات الزراعة أدت إلى تدفق الثروة من أجل انعاشها والمحافظة عليها، خاصة أن أنظمة الافلاج التى هى عماد الزراعة العمانية منذ زمن قديم كانت تحتاج إلى صيانة باهظة التكاليف، بارعة الأساليب، كما كانت فى حاجة ملحة إلى الإصلاح ومع تولى الامام سلطان بن سيف تبدأ الدولة الاهتمام بهذا الجانب الذى أدى إلى تطور الزراعة العمانية بشكل كبير. (٦٥)

وفى عهد هذا الامام بدأت عملية إنشاء افلاج جديدة بهدف زيادة المساحة الزراعية، فقد أحدث فلج البركة(٦٦)، بين ازكى ونزوى وهو الفلج الذى يطلق عليه الآن فلج (الخطمين) فعندما أراد الامام سلطان بن سيف اليعربى إنشاء بركة الموز وهى منطقة خصبة تصلح للزراعة أمر بشق الفلج وذلك لاستغلال المياه الدائمة الجريان فى وادى (المعيدن) وذلك لاحتوائه على معظم الأودية القادمة من الجبل الأخضر حيث استعان الامام بأهالى الجبل الأخضر وذلك لخبرتهم فى شق الافلاج فى ذلك الوقت.

وبدأ العمل بشق النفق المتعرج بداخل الوادى من أعلى بيت (الرديدة حاليا) وقبل اكتمال بناء الفلج حدثت حادثة ادت إلى مقتل سبعة أشخاص من الذين يعملون بالفلج وذلك أثر انهيار مواضع النفق أسفل احد (الفرض)(*)، ودفنوا أسفل الرمال مما أدى إلى فرار باقى الرجال إلى الجبل الأخضر فلحق بهم الامام بين قرية (المعيدن) ومكان يسمى (القصود) وهو يناديهم بأعلى صوته (يا أهل الجبل عودوا إلى العمل إنى أخدم لكم أما) وهو يرمى بذور السدر (شجر النبق) حيث نبتت منها

شجر السدر ويعرف حتى اليوم بسدر الإمام، وبعد مفاوضات وإلحاح الامام عليهم قالوا لا نعمل بالأجر وإنما نعمل بالمساهمة فوافقهم على أن يكون لهم سهم من الفلج وللدولة سهمان فعادوا إلى العمل وبعد ان انتهى العمل وجرى الفلج قام بتقسيم المياه على ما اتفق عليه ولذلك نجد فلج الخطمين مقسم إلى ثلاثة اجزاء جزء للمواطنين وجزءان للدولة. (٦٧)

وهذا الفلج يقع بالمنطقة الداخلية بولاية نزوى بنيابة بركة الموز ويبلغ أجمالى طوله من أم الفلج وحتى الشريعة(*) ما يقرب ٢٤٥٠م وهو ينبع من سفوح الجبل الأخضر ويتدفق فى قنوات على ضواحى المدينة ما يشبه الحلقة الدائرية ملتفاً حول المساحات الزراعية ويعتبر وادى المعيدين المغذى الرئيسى لهذا الفلج حيث توجد أم الفلج فى بطن الوادى ومن أهم ما يميز هذا الفلج طريقة تقسيم مياهه عند الشريعة إلى ثلاث قنوات حيث أن كمية المياه فى كل قسم من الأقسام الثلاثة متساوية فعند رمى ثلاثة كرات متساوية فى الحجم والوزن قبل نقطة الانقسام تذهب كل كرة فى قناة مما يدل على براعة التصميم الهندسى للفلج. (٦٨)

ويبلغ عمق أم الفلج حوالى ١٩م أما مساحة منطقة الاحتياج وهى مساحة الأرض التى يستفيد منها فى الزراعة من مياه الفلج فتبلغ حوالى ٩٧٦,٥٩٥م مربعا، أى حوالى ٢٣٢,٥ فدان تقريبا. (٦٩) وقد ساعد هذا الفلج على استقرار العديد من الأسر حول المنطقة المحيطة به وذلك للاستفادة منه بالزراعة، وبالتالى لعب هذا الفلج دور اجتماعيا إلى جانب زيادة الأرض الزراعية، وذلك بتحول بعض القبائل من مهنة الرعى والترحال إلى مهنة الزراعة القائمة على الاستقرار خاصة وأن هذا الفلج من الأنواع الداؤودية الدائمة الجريان والتى لا تتأثر بموسم الجفاف.(٧٠)

أما عن التنظيم الإدارى للفلج تشتمل إدارة الفلج على المدير (الوكيل) واثنين من العرفاء أحدهما لخدمة القنوات والآخر لخدمة السواقى، وهناك القابض

أو أمين الدفتر والدلال والبياد (مزارعون بأجر معلوم يقتطع أجرهم عادة من الغلة) ويقوم الوكيل بالإدارة الكاملة للفلج ويعتبر المدير التنفيذى للفلج، فهو المسئول عن تقسيم الماء والانفاق من ميزانية الفلج وهو الذى يحل النزاعات بين المزارعين والتصرف فى الحالات الطارئة والأنشطة الأخرى الموكلة إليه من قبل مالكى الفلج، أما العرفاء فهم رؤساء أعمال الفلج ويتبعون توجيهات الوكيل كما أنهم مسئولون عن توقيت الرى فى المزارع أما أمين الدفتر مهمته تنظيم الدخل الذى يأتى إلى الفلج من أسهم الماء الخاصة والأرض والمحاصيل المخصصة للفلج ومسئول عن إعطاء تقدير سنوى إلى مالكى الفلج، ويتم استئجار بعض أجزاء من ماء الفلج بشكل دورى إما أسبوعيا أو سنويا، اعتمادا على حجم الفلج، ودائما ما يختار مالكو الفلج الوكيل ويكون عادة من مواطنى القرية وينبغى أن يمتلك الوكيل شخصية محترمة وصادقة وأن يعرف القراءة والكتابة وأن يكون لديه القدرة على إجراء بعض العمليات الحسابية البسيطة، إضافة إلى مهارات اجتماعية تمكنه من الاتصال مع جميع الناس فى القرية. [٧١]

أما عن تقسيم مياه الفلج، فيقدر مدار الوقت الذى يجب أن يحصل المواطن معه على نصيبه من الماء على مقدار ما تستطيع أن تعيشه المزروعات من الأيام ونجد أن هذا الفلج يتكون من ٨٦٤ أثر (الأثر نصف ساعة) ويقسم كالتالى بيت المال ٣٠٩ أثر ونصف، الوقف ١٢٩ أثر، وقف لصالح الفلج ٩٦ أثر المواطنون ٣٣٠ أثراً ونصف[٧٢][*]، أما أهم الزراعات التى قامت على مياه هذا الفلج فهى زراعات النخيل حيث كانت ضوابط زراعته تقتضى مجموعة من الضوابط حيث تكون فى زراعات بيت المال المسافة بين النخلة والأخرى ٨م وفى زراعات العشيرة المسافة تكون ٦م، وأن تكون مسافة ٢ م بين كل قطعة أرض مرزوعة واخرى ولا يجوز الزراعة بين الضاحيتين ويمنع الرعى فى الأرض المزروعة، على أن تزرع اشجار الليمون بعيدا عن النخيل، أما أشجار المانجو والموز فتزرع بين أشجار النخيل. أما المراعى فقد خصص لها جانب من مياه الفلج حتى لا تؤثر

على التربة[٧٣]، وبهذا مثل هذا الفلج الذى أقامه الامام سلطان بن سيف إضافة جديدة للزراعة العمانية فى عصر دولة اليعاربة ليكون أحد ركائز النهضة الزراعية آنذاك.

ومن أهم الأفلاج التى أقامها الامام سلطان بن سيف اليعربى هو فلج الحمراء وهو من الافلاج الداؤوية بالمنطقة الداخلية وله اربعة سواعد رئيسية[٧٤]، وقد تزامن بناء هذا الفلج مع بناء فلج الخطمين ببركة الموز ويبلغ طوله حوالى ٥,٢٦ ك.م، وفى عهد الامام سلطان بن سيف جرى ماء هذا الفلج وبدأت الزراعة، وقسمت الأراضى الزراعية لسبع أسر كانت متواجدة آنذاك فى تلك المنطقة فأعطيت كل أسرة يوم كامل من ماء الفلج وتسمى (ردة) وكان فلج الحمراء من أهم افلاج عمان فى عهد هذا الامام. [٧٥] وكانت الأسر السبع المستفيدة من هذا الفلج هى أولاد مسعود، أولاد يعرب، أولاد مهنا، أولاد خلف، واسرة النعب، أولاد على، وأسرة الشرامحة.[٧٦]

وتوجد بعض الأعراف فى عملية توزيع المياه فى هذا الفلج مثل رمى القش أو ورق الشجر ويتبعه صاحب الماء ويزيده كل ٣٠ خطوة إلى أن يصل الماء وهذه الطريقة تستخدم لحساب كمية المياه بقناة الفلج ومن أهم المزروعات على مياه هذا الفلج النخيل إضافة إلى زراعة ألقت (البرسيم) والبر – الحلبة – الدنجو – العدس – الدخن – الثوم – البصل- الفجل – القرع – قصب السكر – الفلفل – الطماطم – جزر الفندال. وهذه من المزروعات الشتوية أما فى فصل الصيف يزرع فيه الذرة – اللوبيا – الجح (البطيخ) – الخيار – الليمون – المانجو – العنب- التين – السفرجل – البر). [٧٧].

ويتم تقسيم المياه أثناء النهار بما يسمى (بالمحاضرة) وفيها يتم تنصيب عمود من الخشب طويل فى قطعة أرض مستوية وتقسم إلى أجزاء او خطوط ويتم مراقبة ظل الشمس لذلك العمود جهة الغرب من طلوعها حتى منتصف النهار

عندما تنتصف الشمس فى وسط السماء ويسمى ذلك نصف النهار وبعده يتحرك ظل العمود باتجاه الشرق حتى غروب الشمس وهو موعد بدء المحاضرة الليلية عن طريق النجوم. (٧٨)

وقد اتبع الامام سلطان بن سيف سياسة جديدة صار على نهجه باقى الأئمة من بعده وهى سياسة مشاركة الجماعات المحلية فى أعمال إعادة البناء، بحيث لا يحصلون فحسب على النفوذ القبلى، وإنما أيضا على حيازات هامة فى عدد من المراكز الرئيسية فى الداخل حيث تحولت مناطق عديدة إلى مساحات خضراء بفضل هذه السياسة القائمة على التوسع فى بناء الافلاج عن طريق مشاركة القبائل القاطنة هذه المناطق مما أدى إلى زيادة الانتاج الزراعى وتحقيق الاستقرار. (٧٩)

وعن جهود الامام سلطان بن سيف فى مجال الزراعة يذكر لنا ابن زريق ان عمان اعتمرت وزهرت واستراحت الرعية فى عصره وتمت الثمار ورخصت الأسعار. (٨٠)

وقد استغل الامام سلطان بن سيف النجاحات التى تحققت لعمان فى الخارج بعد أن استطاع أن يهزم البرتغاليين فى ديو ١٦٧٦ البحرية ويستولى على بعض مدن الساحل الشرقى للقارة الافريقية ويحصل منها على العديد من الغنائم، فقد استغل كل ذلك فى التنمية الزراعية فى الداخل.(٨١)

وتؤكد المصادر العمانية على مدى الرخاء الذى كان فى عصره، فاستراحت الرعية، ويؤكدون على انه كان متواضعا غير محتجب عن الرعية، وكان يخرج على الناس فى الطريق بدون حراسة، ويجالسهم ويتحدث معهم فى امورهم الخاصة ولا يفرق بين كبير وصغير ولا حر ولا عبد. (٨٢)

واختلف المؤرخون حول تاريخ وفاته فالبعض يذهب انه توفى عام ١٠٥٩هـ(٨٣)، ولكن ذلك خطأ حيث يمثل هذا التاريخ بداية توليه السلطة لأنه يوافق عام ١٦٤٩، وذكر البعض انه توفى عام ١٠٧٩(٨٤)، ويذهب البعض أنه

توفى عام ١٠٩٠م[٨٥]، ويعتقد البعض أنه توفى عام ١٦٦٨[٨٦]، وآخر يرى انه توفى عام ١٦٨٨[٨٧]، ولكن المصادر القريبة من الحدث والتى أكد معظمها على ان تاريخ الوفاة يعود إلى عام ١٦٧٩ أو ١٦٨٠ وهو يوافق عام ١٠٩١ هجرية. [٨٨]

ثم خلفه فى السلطة على عمان ابنة بلعرب بن سلطان ١٦٨٠- ١٦٩٢ والذى عمر منطقة يبرن حيث بنى بها قلعة يبرن (جبرين) وعمق فلجها لرى واستصلاح أراضيها، حيث انتقل إليها ومعه العديد من القبائل العمانية حيث استوطنوا فى منطقة يبرن هذه وصار على عهد سابقيه فى الاهتمام بالزراعة حيث شهدت عمان فى عهده استقرار وازدهار ورخاء بسبب زيادة الانتاج الزراعى. [٨٩]

ولكن فى أواخر عهده ثار عليه أخوه سيف، وعندما عجز بلعرب عن حرب أخيه اجتمع أعيان عمان وبايعوه، وبعد أن نجح فى فرض سيطرته على القلاع الرئيسية فى عمان وحاصر أخاه بلعرب فى قلعة جبرين وبوفاة بلعرب أثناء الحصار انفرد سيف بن سلطان بحكم عمان.[٩٠]

-الإمام سيف بن سلطان ١٦٩٢ – ١٧١١ (قيد الارض)

وهو الامام سيف بن سلطان بن سيف ولقب بقيد الارض لضبطه الممالك وتقييده البلاد بعدله. [٩١]

وقد شهدت عمان فى عهد الامام سيف بن سلطان نهضة زراعية لم تشهدها من قبل حيث زادت مساحة الأرض الزراعية زيادة ملحوظة خاصة فى منطقة الباطنة التى تشتهر بعذوبة مائها وسهولة تفجره ووفرته وكثرة زراعته ونخلها، وعند هذا السهل الذى هو عبارة عن خط هلالى يبتدئ من بلدة خورفكان فى الشمال ويسير نحو الجنوب حتى ينتهى عند مسقط ويضم الفجيرة، الغرقة، اسود، شناص، صحار، الخابورة، بركاء، والرستاق ونخل، مطرح، وتكثر أشجار النخيل فى هذا السهل، كما تكثر فى سمائل وبهلا، ويزرع فيه الليمون والتين والعنب وجوز الهند والبطاطا والقمح والشعير والكثير من الخضروات[٩٢]، وخاصة وأن

منطقة الباطنة تعتمد اعتماداً رئيساً على مياه الآبار التى تنتشر فى ربوعها المختلفة، وقد اعتنى الامام سيف بحفر العديد من الآبار بها بهدف التنمية الزراعية وغرس فى قرية النعمان(*) وحدها التابعة لمنطقته بركاء بالباطنة حوالى ثلاثين الف نخلة من نوع المبسلى(**) ومن نبات النارجيل (جوز الهند) ستة آلاف فسلة. [٩٣]

وفى عهده ارتفع مستوى الكفاءة الزراعية بمساعدة القرى فى إعادة توزيع وصيانة الأفلاج، ففى عهده تم استحداث سبع عشر فلجا[٩٤]، ساهمت بصورة كبيرة فى زيادة المساحة الزراعية وزيادة الانتاج ومنها أفلاج المسفاة فى الرستاق، وفلج الكوثر فى الخدم، وفلج الصائغى وفلج الهوب، وأفلاج جعلان عند البدو[٩٥]. وفلج البزيلى من الظاهرة وفلج البرزمان[٩٦]، فى داخلية عمان، وفلج مسافة وادى السحتن[٩٧]، وفلج الملكى الذى كان له ثلاثمائة وستون رافدا[٩٨]. وهذا الفلج يقع فى ولاية ازكى وهو من الأنواع الداؤودية ويصل طوله إلى حوالى ١٤,٨٧٥م ومساحة منطقة الاحتياج فيه أكثر من ٥٤,٥ هكتار (أى حوالى ١٣٠ فدان من الأراضى الزراعية).[٩٩]

وظهر فى عهد الإمام سيف بن سلطان استثمار الدولة فى الأرض فقد صار على سياسة والدة فى مشاركة الجماعات المحلية فى أعمال إعادة البناء، وحث القبائل على مشاركة الدولة فى التنمية الزراعية التى منحتهم حيازات فى عدد من المراكز الرئيسية فى داخل عمان، وظهر هذا النشاط جليا حول منطقة الرستاق خاصة بعد إقامة فلج الصائغى وهو من الافلاج الداؤودية الذى ما زال جاريا حتى الآن ويمتاز بجريانه طول العام مما يسمح بالاستقرار حوله وهو يمر عبر قلعة الرستاق، وفلج مسافة الرستاق، كما استطاع من خلال إنشاء فلج الكوثر ان يعمر منطقة الحزم وتستقر فيها بعض القبائل العمانية وهو الفلج الذى بنى عليه ابنه سلطان بن سيف الثانى قلعة الحزم. [١٠٠]

وبالاضافة إلى ذلك فقد قام بتعمير قطعتين كبيرتين من الأراضى العمانية

على ساحل الباطنة فى كل من المصنعة وبركاء، واستولى فى المنـــاطق الداخليـــة على ممتلكات بنى لمك وبنى عدى وبعض الأراضى فى وادى السحتن، كما أصلح مسفاة فلج العبريين بالاشتراك مع أفراد تلك القبيلة، كما واصل إصلاح فلج بركـــة الموز الذى بناه والده، وواصل أعمال التجديد حتى وصلت إلى منطقة الشرقية فى فلج برزمان وحتى بلاد بنو حسن، وقد امتدت جهوده حتى ضنك وهى من المناطق الواقعة بالقرب من عبرى والبريمى (من خلال إقامة فلج البزيلى) والتى مثلت من أهم مراكز دولة اليعاربة فى عمان. (١٠١)

وقد بلغ ثراء حيازاته من الأرض حدا كبيرا حتى أنه كـــان يمتلـــك ثلثـــى حقوق المياه فى عمان، وقد أدى التداخل بين ممتلكاته الشخصية وممتلكات الدولـــة إلى صعوبة التفريق بين ملكيته الشخصية وملكية بيت مال المسلمين فى عهده لذلك لقب بقيد الأرض. (١٠٢)

واستطاع ان يحصل على فتوى بحق الامام فى ان يمنح الأرض المتروكة مدة مائة سنة فقام بتوزيع كميات كبيرة من هذه الأراضى على العديد من الفقـــراء بعد أن كانت هناك فتوى تحرم ذلك.(*) (١٠٣)

وقد أدى الازدهار العام للأرض إلى زيادة عملية الاستقرار وبدأ الكثير من جماعات البدو فى المناطق الهامشية يتصلون بالجماعـــات المحليـــة ذات المهـــارة الكبيرة من أجل استغلال الافلاج على طول الطريق من الظاهرة مثـــل قـــرى آل بوشميس وافلاج بنى قتاب إلى مستوطنات آل وهيبة على التخوم الشرقية والبادية، ومن بين الجماعات التى قامت بذلك، قبائل العـــوامر الـــذين بـــدأوا فـــى تطـــوير المستوطنات الرئيسة التى كانت مهجورة على طول مجرى المياه فى ازكى وبلدان العوامر، وكانت المهارات التى اكتسبوها فى هذه العملية هى التى أذاعت صـــيتهم باعتبارهم الخبراء البارزين فى العمل فى منابع هذه القنوات، بل ساهم الأفراد أيضا فى هذا البناء الهائل فى مجال الزراعة منهم حمير بن منير النبهانى الذى اعاد بناء

أفلاج القسوات فى ازكى.[١٠٤] كما عمر بئر النشاوة، والراضية والمنذرية وغرس فيها أشجار النخيل واستوطن بها بعض القبائل البدوية مما ساعد على قيام الزراعة فيها.[١٠٥]

ومن جهود الامام سيف بن سلطان فى المجال الزراعى ايضا أنه جلب إلى عمان بعض أنواع من النباتات التى لم تكن موجودة من قبل مثل الورس[١٠٦]، وهو نبات مثل نبات السمسم اشتهرت بلاد اليمن بزراعته ويتخذ ورقة للصباعة حيث كانت عمان قبل زراعته سوقا رائجا لهذا المنتج عبر تجار اليمن، وعندما رأى السلطان سيف بن سلطان حاجة البلد إليه قام بجلب بذوره من اليمن لزراعته فى عمان[١٠٧]، كما جلب إلى عمان الزعفران المهجن، والزعفران العادى من شرق أفريقيا. [١٠٨]

وتوسع الامام فى زراعة المحاصيل الهامة مثل القمح والشعير والحلبة والخضروات والفاكهة – كما اهتم بزراعة قصب السكر خاصة فى منطقة ازكى التى أصبحت مركزا لزراعة هذا المحصول وكان يشرف بنفسه على زراعة هذا المحصول، كما أهتم بزراعة الفواكهة خاصة الانبا (المانجو) التى شهدت فى عهده تطورا كبيرا. إلى جانب أشجار العطور والزهور. [١٠٩]

ولم يقتصر الأمر على النباتات فقط فقد جلب هذا الامام إلى عمان نشاطا جديدا دعم به الاقتصاد العمانى وهو تربية النحل الذى جلبه من الساحل الشرقى لافريقيا بغرض انتاج عسل النحل فى عمان. [١١٠]

ونظرا لزيادة المساحة الزراعية زادت الحاجة إلى الايدى العاملة الخارجية فجلب الامام عددا من العبيد للعمل لصالح بيت مال المسلمين والذى يمثله الامام حيث جلب ما يزيد على ١٧٠٠ من العبيد من الساحل الشرقى للقارة الافريقية للعمل فى مزارع الدولة خاصة فى منطقة الباطنة التى استصلح فيها الامام الكثير من الأراضى التى مثلت أهمية كبيرة فى الانتاج الزراعى لدولة اليعاربة[١١١]،

خاصة وان عمان قد عرفت العبيد منذ فترة زمنية طويلة، واستخدامهم بصفة خاصة فى مجال الزراعة واستصلاح الأراضى الذين عرفوا بـ (عبيد الباطنة) الذين عملوا فى استخراج المياه من الآبار، واستصلاح الأراضى البور وزراعة الأرض الصالحة للزراعة إضافة للعمل كخدم فى المنازل. (١١٢)

وتوسعت ممتلكات وأراضى هذا الامام حتى ذكر أنه استحوذ على ثلث أصول الأراضى فى عمان، وثلث آخر كان وقفا، والذى استولى عليه بحكم منصبه كوكيل، وهذا يعنى أن ثلثى الأراضى الزراعية فى تلك المنطقة كانت فى نطاق سيطرته وأن كان تتبع بيت المال اى خزانة الدولة. (١١٣)

وتولى من بعده الامام سلطان بن سيف الثانى الذى صار على نهج والده فى الاهتمام بالزراعة وفى ذلك يقول السالمى "انه عمر البلاد"(١١٤)، فواصل تعمير وتحصين "المراكز فى كافة إرجاء الدولة، ومن أهم اعماله تشييد قلعة الحزم الذى أصبحت مقر إقامته، وشملت خطته لتطوير تلك المنطقة تحويل مجرى السيول المنحدرة من الجبال بقناة تصل إلى الشاطئ، مما سهل الاستفادة من هذا التجمع المائى بزراعة مساحات واسعة من الأرض، ويذكر ويلكنسون ان عمان اصبحت مرتعا خصبا مثلما كان حالها أيام حكم الساسانين، وهى الفترة التى زال التمييز فيها بين الملكية الشخصية وبيت المال التابع للدولة ككيان. (١١٥)

وقد شهدت الدولة فى عهده تطورا كبيرا خاصة بعد ان وسع رقعتها بالاستيلاء على البحرين، وقشم ولارك وهرمز وبذلك امتدت املاك عمان إلى الساحل الشرقى للخليج العربى إلى جانب امتدادها الأفريقى. (١١٦)

وقد دخلت عمان عقب وفاة هذا الامام ١٧١٨ مرحلة اتسمت بتباين الآراء وانقسم الناس إلى فريقين، أحدهما يطالب بأحقية سيف بن سلطان بن الامام سلطان بن سيف وكان صبيا لم يبلغ الحلم ونادى بذلك اليعاربة وعامة الناس، أما الفريق الآخر وهم أهل العلم والخبرة الذين طالبوا بإمامة مهنا بن سلطان بن ماجد

اليعربى والذى كان موضع ثقة الامام المتوفى وزوجا لابنته، وأمام ضغط المنتمين للأسرة تم مبايعة الصبى سيف بن سلطان الثانى الذى شهد عصره كثيرا من الفتن والاضطرابات[١١٧]، أدخلت الدولة فى مرحلة يطلق عليها فى التاريخ العمانى مرحلة الحرب الأهلية بين القبائل العمانية والتى تمتد من بداية حكم الامام سيف بن سلطان الثانى حتى وفاته عام ١٧٤١ وهى الفترة التى شهدت غزوا فارسيا للأرض العمانية، وهى الفترة التى أذنت بزوال دولة اليعاربة ليبدأ عصرا جديدا فى عمان هو بداية دولة البوسعيد بحلول عام ١٧٤٤ عندما تمت البيعة للامام احمد بن سعيد مؤسس هذه الدولة.

١-أهم المنتجات الزراعية فى عمان خلال عصر دولة اليعاربة:

١-التمور[*] – وهى من أهم المنتجات وأكثرها شهرة وزراعة ويعتبر من المواد الأساسية لمعيشة السكان.

٢- القطن وهو نوعان أبيض وبنى والبنى يسمى خضريج ويفضله أهل البلاد، ويستعمل فى النسيج بكثرة.

٣-اللبان ويزرع بكثرة خاصة فى ظفار، حيث يعد مناخها هو العامل الأول والمباشر فى كون هذه المنطقة المنفردة بانتاج معظم إن لم يكن كل اللبان فى جنوب شبه الجزيرة العربية، ويرجع هذا إلى أن اقليم ظفار قد انفرد بمناخ فريد من نوعه فى شبه الجزيرة العربية قاطبة، حيث ينتشر الضباب والرذاذ المائى بسبب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى تهب على المنطقة، وينقسم أنواع اللبان من حيث الجودة إلى أربعة انواع وأجودها اللبان الحوجرى وتنمو أشجاره فى الأجزاء الشرقية فى ظفار، والنوع الثانى المعروف باسم النجدى وهو الذى تنمو شجرته فى منطقة نجد الواقعة إلى الشمال من مرتفعات ظفار الوسطى، اما النوع الثالث المسمى بالشزرى وتنمو أشجاره فى الجزء الغربى من النجد ومنطقة سقوط الأمطار أما النوع الرابع فيسمى بالشعبى وينبت اشجاره فى

السهول الساحلية والشعاب التى تصيبها الأمطار[١١٨]. ومتوسط ما تعطيه شجرة اللبان يتراوح بين عشرة كيلو جرامات- وعشرين كيلو جرام. اما متوسط ما تنتجه منطقة ظفار من اللبان يتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف طن من اللبان.[١١٩]

٤-جوز الهند (النارجيل) ادخلت زراعته فى منطقة الباطنة.

٥-قصب السكر: يزرع فى مناطق كثيرة فى عمان أما فى بركة الموز فانه ينمو على ارتفاع يصل إلى ٢٠٠٠ قدم. [١٢٠]

٦-السمسم: يستخرج منه الزيت التجارى ويزرع فى منطقة الباطنة.

٧-التبغ: ينمو فى منطقة الباطنة والظاهرة ويستعمله البلوش والفرس فقط فى عمان.

٨-ومن الحبوب : القمح والشعير والذرة.

إلى جانب الفواكه فهى متعددة منها. البطيخ والشمام، العنب ويزرع فى أودية الباطنة - والجوز ويزرع فى الجبل الأخضر وكذلك الفراولة والموالح والمشمش والموز وينمو بكثرة فى كثير من ارجاء عمان - كما يزرع فيها المنجروف ويكثر فى المناطق الساحلية إلا أنه يستعمل كخشب للوقود، والسدر وهو شجر صحراوى ينمو فى كل مكان فى عمان. [١٢١]

وهناك القت (البرسيم) الذى يزرع لعلف الحيوان ويزرع دائما بين أشجار النخيل بكميات كبيرة فى فصل الشتاء.

أساليب الزراعة:

أ-المدرجات الجبلية:

وخير تمثيل لها هى المدرجات الزراعية لمرتفعات الجبل الأخضر والتى تم استخدامها لزراعة أنواع تتناسب مع درجة الحرارة المنخفضة المختلفة عن السهول

العمانية حيث تتراوح ارتفاعاتها بين خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر مما يؤدى إلى زراعة الفواكه التى تحتاج إلى درجة حرارة معتدلة فى فصل الصيف والباردة فى فصل الشتاء. (١٢٢)

ب-السهول الداخلية والساحلية:

وهى تمثل غالبية الأرض الزراعية العمانية الخصبة الواقعة بين سفوح الجبال او على ضفاف الأودية خاصة منطقة الباطنة التى تحوى عددا من الأودية مثل وادى الجزى والبطحاء وصحم، الحواسنة ووادى بنى غافر، ووادى الرستاق – ووادى بنى خروص ووادى همام ووادى حتى. (١٢٣)

ج-أراضى البرارى والصحراء:

وهى التى تقع فى المناطق الصحراوية خلف الأراضى الزراعية الخصبة اى البعيدة عن مناطق الاستيطان، كالجبال والأودية الجافة والرمال الصحراوية وتنمو فى هذه الأراضى النباتات والحشائش البرية والصحراوية ومجموعات من أشجار السمر والسدر، وغالبا ما تستخدم هذه الأراضى للرعى. (١٢٤)

أثر السياسة الزراعية لدولة اليعاربة على المجتمع العمانى:

١-المبانى:

أما عن شكل المبانى التى يعيش فيها الفلاحون فكانت عبارة عن بيوت أو أكواخ صغيرة مبنية على الطراز الهندى بعضها من الحجارة والطين والبعض الآخر من سعف النخيل، ويبلغ ارتفاع معظم تلك البيوت من ثمانية إلى تسع أقدام ويبعد كل بيت عن الآخر مسافة حوالى عشرة رودات (والرود الواحد يساوى ٣,٧ من المتر) ويتراوح عدد البيوت بالقرب من الساحل فى المناطق التى تمارس الزراعة ما بين خمسين إلى ستين بيتا مثل منطقة خصب. (١٢٥)

أما فى المناطق البعيدة نسبيا عن الساحل حيث تتسع الأودية للنشاط

الزراعى تصل إلى أكثر من مئتى بيت يمارس أصحابها مهنة الزراعة مثل (بدية) حيث يزرع أهلها أشجار النخيل والتين والشمام والبطيخ ويذكر الرحالة الذى زار هذه المنطقة الساحلية عام ١٦٦٧ ان الاعتماد الرئيسى للحياة لدى هؤلاء السكان على الزراعة كأحد أهم مصادر الحياة نظرا لقلة التجارة على السواحل العمانية بسبب السياسة التى اتبعها ائمة عمان من رفع الرسوم الجمركية خوفا من ان تصبح الموانى العمانية مطمعا للقوات الانجليزية والبرتغالية، لذلك هجرها التجار إلى الموانئ الفارسية. (١٢٦)

ويصف لنا أحد الرحالة أحوال مدينة مسقط خلال عام ١٦٨٨ فيقول عن المنازل فى مدينة مسقط فكانت ايضا عبارة عن اكواخ تغطيها سعف النخيل إلا أنها انظف واجمل وأحلى من مثيلتها فى باقى مناطق الخليج العربى إلى جانب منازل مبنية من الحجر متسعة ذات تهوية كافية، إلى جانب وجود السوق ذات الشوارع المتسعة والمغطى فى أغلبة، حيث كانت الأسواق مزودة بالحرير النقى وأقمشة التيل إلى جانب ثمار المانجو الجميلة وانواع التمور الجيدة. (١٢٧)

ويستكمل انجلبرت كامبفر وصفه للأحوال فى مسقط حيث يتطرق إلى أهمية العملة المحمدية(*) بأنه قام بشراء زكيبة كاملة من الرطب (التمور) وهى أقصى ما يحمله انسان فقام بملء برميل كامل من الرطب وقد كلفه ذلك كله (١١ محمدية)(*)(١٢٨)

بما فيه ثمن الرطب وأجره الفرد من الأهالى، وكذلك عثرنا فى السوق على الليمون الحامض صغير الحجم وكانت كمية منه يبلغ ثمنها واحد محمدية إلى جانب البصل والثوم والموز والعنبر والتين- وورق الموز. (١٢٩)

ويصف لنا هذا الرحالة ملابس السكان فى عمان خلال القرن السابع عشر فهى عبارة عن جلباب فضفاض وطويل مصنوع من التيل وحزام حول الوسط وللجلباب اكمام طويلة وأحذيتهم عبارة عن نعال من الجلد مثبتة بحذق على أقدامهم

العارية بواسطة اشرطة من الجلد، وتلتف حول رؤوسهم عمامات من قماش طويل ابيض اللون تتدلى اطرافه من الرأس، وسيوفهم الطويلة للغاية يحملونها اما على ظهورهم او على اكتافهم بطريقة عشوائية وكثيرا ما يلبسون خنجرا على أجنابهم.(١٣٠)

كذلك لعبت سياسة دولة اليعاربة دورا بارزا فى استقرار عدد كبير من القبائل العربية الرحل فى عددا من المناطق خاصة ازكى ونزوى وعبرى ومنطقة الحمرا، وحول الأفلاج التى تم إنشائها فى العديد من المناطق العمانية المختلفة، خاصة أراضى البرارى، التى تم استصلاحها كما كان لليعاربة ايضا بعض المشاريع الجديدة الطموحة بالنسبة للمراكز التى اعادوا تطويرها مما كان من شأنه ان يحدث استيطاناً جديدا. (١٣١)

كذلك لجأت دولة اليعاربة إلى استخدام الرقيق فى الزراعة خاصة من الساحل الشرقى للقارة الافريقية(١٣٢)، للعمل فى استصلاح الأراضى وإقامة الأفلاج وتطهير قنوات الرعى وحفر الآبار، وكذلك فى زراعة بعض المحاصيل خاصة قصب السكر الذى يحتاج إلى أيدى عاملة كثيرة.(١٣٣)

كما تم الاستعانة بهم فى زراعة اشجار النخيل ورعايتها وخاصة خلال عهد الامام سيف بن سلطان الذى جلب منهم فى منطقة الباطنة وحدها حوالى ١٧٠٠ من الرقيق الأفريقى(١٣٤)، ويقدر بعض المؤرخين ان اليعاربة يستخدمون من الرقيق الأفريقى كل عام ما بين ٥٠٠ إلى ألف فى الأغراض الزراعية(١٣٥)، بينما يقدر الآخر عدد الرقيق الذى يمر عبر الأرض العمانية بحوالى ٥٠ ألف سنويا.(١٣٦)

كذلك ساعدت سياسة دولة اليعاربة الزراعية فى تدعيم القبلية لخلق ولاءات لأسرة اليعاربة بعد أن تم رفع بعض القبائل لتتولى بعض المناصب الرئيسية فى الدولة بعد أن منحت مساحات من الأراضى حول الأفلاج الجديدة، فأصبح لبعض

القبائل السيادة على مناطق بعينها داخل الأراضى العمانية. (١٣٧)

وقد تراكمت الثروات عند الشخصيات والأسر المقربة من أسرة اليعاربة إلى مدى لم يسمع به من قبل ذلك العهد، ونجد على سبيل المثال فى مدينة ازكى ان حمير بن منير النبهانى اعاد تشييد فلج قساوات الذى يروى حارات السدى والرجا، فى حين حصل المناذرة فى حارة اليمن المجاورة على حوالى ثلث أسهم فلج المالكى. (١٣٨)

وقد جلبت الممتلكات ايضا القوة الاقتصادية والسياسية لبعض القبائل والتى لعبت دورا فى خلق التوازنات السياسية اثناء حكم دولة اليعاربة فكانت هذه القبائل احد أهم القوى التى تعتمد عليها الدولة فى خلافاتها الداخلية، مثال ذلك فقد اصبح حمير بن منير النبهانى واليا على ازكى، وربما كان نفوذه فى الأجزاء اليمنية والريامية من القرية سبب بداية النهضة النبهانية، فأصبحت تميمة فى تحالف بنى ريام وفى مدة قصيرة اصبح واليا لميناء مسقط المهم، وبالمثل زادت ثروات العبريين بمساعدتهم اليعاربة فى بسط سلطانهم على منطقة عبرى وما جاورها، وكذلك قبيلة الحواسنة التى ساعدت اليعاربة فى طرد قبائل بنى لملك من غيزين والهاجريين على الجانب الشرقى من الوادى الكبير بالباطنة وتملكهم هذه الأراضى بموافقة الامام اليعربى حيث سيطر الحواسنة بذلك على تجارة النقل الرئيسية للمنطقة، كما كانت قبائل المناذرة أداة للقوة اليعربية فى السليف، حيث شيد الامام سلطان بن سيف الثانى قلعة تحكمت بقوة فى مداخل عبرى وساعدت المناذرة فى ذلك ضد الصواوفة (وهى المجموعة شبه البدوية التى كانت تمتلك تلك المنطقة من قبل. وهناك اسرة الغافريين من آل العطاب بقيادة محمد بن ناصر الغافرى الذى أصبح واليا للامام سلطان بن سيف الثانى على البحرين، واضيف للأسرة الكثير من الممتلكات وبهذا يتضح ان سياسة اسرة اليعاربة قد لعبت دورا كبيرا فى رفع بعض القبائل والتى اصبحت موالية لها وداعمة لوجودها واستمرارها فى الحكم بعد أن منحت الكثير من الأراضى، خاصة التى كانت ملكا للدولة، ثم لاقت كثير من

القبائل وخاصة التى كانت معارضة لاستمرار الأسرة اليعربية فى السلطة الكثيـــر من الاضطهاد والابعاد وانتزاع الأراضى منها مثـــل بنـــى لمـــك، والهجـــاريين، والأمبوسعيد والصواوفة، وهذا أثر بدوره على مستقبل استمرار دولة اليعاربة فـــى الحكم. (١٣٩)

وكان من آثار هذه السياسة الصراع الذى حدث بين القوى العمانية عقـــب وفاة الامام سلطان بن سيف الثانى ١٧١٨، حيث تحول الخلاف على الامامة إلـــى ثورة اجتماعية، إذ كانت طبقات ملاك الأراضى والتجار الأثرياء تستغل الطبقـــات الدنيا من الرقيق والفلاحين الذين تزايدت اعدادهم برجال القبائل الـــذين صـــودرت ممتلكاتهم أو همشوا(١٤٠)، وظهر داخل الأوساط العمانية، من يؤيد استمرار الأسرة اليعربية فى السلطة متمثلة فى ابن الامام سلطان بن سيف الثانى، وهو طفـــل فـــى الثانية عشر من عمره فى السلطة رغم اعتراض العلماء على ذلـــك ولكـــن اهـــل الرستاق والقبائل التى استفادت من وجود الأسرة فى السلطة أصرت على استمرار الامام الجديد(١٤١)، مما أدى إلى ظهور المعارضة التى قادتها قبائل الغافرية ضـــد الهناوية، مما أدى إلى قيام الحرب الأهلية فى عمان، والتـــى دمـــرت عـــددا مـــن المشروعات الزراعية التى كانت قائمة، وخاصة لدى النبهانيين فى عبرى وغيرها، وأدخل البلاد فى صراع استمر حتى عام ١٧٣٧(١٤٢)، بدخول القـــوات الفارســـية الأراضى العمانية، لتنتهى دولة اليعاربة عام ١٧٤١، وبداية دولـــة جديـــدة هـــى البوسعيد فى عمان. (١٤٣)

ويتضح من هذه الدراسة ان دولة اليعاربة اعتمـــدت بـــشكل كبيـــر علـــى الزراعة كأحد أهم المصادر الرئيسية لاقتصاد الدولة، ففى بداية تأسيـــسها كانـــت الدولة لا تمتلك اى مصدر آخر لاقتصادها بسبب احتلال البرتغال لسواحلها، وحتى بعد أن تم اجلاء الاحتلال تشير التقارير ان كثيراً من الـــدول الأوربيـــة وخاصـــة الهولندية والانجليزية كانت لا تحبذ التجارة مع مسقط بسبب الشروط القاسية التـــى وضعها ائمة دولة اليعاربة، خوفا من ان يسبب ذلك نفوذا لهذه الدول، لذلك اتجهت

دولة اليعاربة إلى استثمار اموالها فى زيادة المساحة الزراعية، والاهتمام بمـوارد الرى وخاصة زيادة الافلاج الداؤودية التى ساعدت على انشاء عدد مـن منـاطق الاستيطان فى داخل عمان، واعاد توزيع السكان بعد ان استقر عدد من القبائل حول هذه الافلاج لتنشأ بيئة زراعية قامت على التعاون بين الدولة وهذه القبائل شـكلت مركزا هاما لترسيخ حكم دولة اليعاربة، ولكن يعيب البعض على هذا النظام بأنـه رسخ مبدأ القبلية العمانية فرفع بعض القبائل على حساب البعض الآخر، بـل أنـه دعم القبائل التى تدين بالمذهب الأباضى على حساب القبائل الأخرى، وهذا ما أدى إلى زيادة التوتر بين الجانبين، وظهر ذلك جليا خلال الحرب الأهلية التى قامت فى نهاية دولة اليعاربة والتى أدت إلى تدمير عددا من الأفلاج وكثير مـن المـساحات المزروعة، ثم كانت النهاية بالتدخل الفارسى باحتلال اجزاء من عمان، لتنتهى دولة اليعاربة عام ١٧٤١، لتنشأ دولة أخرى هى دولة البوسعيد على يد الامام احمد بـن سعيد البوسعيدى والذى بويع بالامامة عام ١٧٤٤م.

الهوامش :

(١) طه عبد العليم رضوان : فى جغرافية العالم الاسلامى، جـ٢، ط٦، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٩٣، حمود بن عبد الله الوهيبى: أثر الموقع الجغرافى على السياسة الخارجية لسلطنة عمان، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، ١٩٩٨، ص ١٩٣.

(٢) محمود طه ابو العلا: الموسوعة الجغرافية للعالم الاسلامى، المجلد الثانى، الرياض، ١٤١٩هـ ص ١٢٣.

(٣) محمد متولى: حوض الخليج العربى، جـ٢، ط٦، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٥، ١٦.

(٤) صلاح الدين حافظ: صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقى، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة العدد ٤٩، الكويت، ١٩٨٢، ص ٤٠، ٤١.

(٥) وفيق محمد جمال الدين: بعض مظاهر جغرافية الانتاج الزراعى فى سلطنة عمان، رسائل جغرافية، الجمعية الجغرافية الكويتية العدد ٢٣٠، الكويت، ١٩٩٩، ص ٦.

(٦) محمود طه أبو العلا:جغرافية شبه الجزيرة العربية،جـ١،الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٣٩، ٤٠.

(7) John Townesend "Oman, the making of modern state", London, 1977, P. 14, 15.

(٨) محمد مرسى عبد الله: امارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣- ١٨١٨، ط١، المكتب المصرى الحديث، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢٣.

(٩) محمود عبد العزيز أبو العينين : جيومورفولوجية الأحواض الجبلية بالقطاع الشمالى للجبل الأخضر بسلطنة عمان، رسائل جغرافية العدد ٢٨٨، الجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت ٢٠٠٤، ص ص ٥، ٦ & محمد مرسى عبد الله، المرجع السابق، ص ٣١.

(١٠) لوريمر، ج.ج: دليل الخليج: القسم الجغرافى، جـ ٢، قطر، بدون، ص ٨١.

(١١) محمد مرسى عبد الله، المرجع السابق، ص ٣١.

(١٢) طه عبد العليم رضوان : فى جغرافية العالم الاسلامى، جـ٢، ص ٢٠٠ .

(١٣) سالم مبارك الحتروشى : تآكل الشواطئ فى ساحل الباطنة، سلطنة عمان، ندوة الجغرافيا والتخطيط البيئى ، الكويت، ١٩٩٨، ص ٤٤١- ٤٤٢.

& وفيق محمد جمال الدين ابراهيم : بعض مظاهر جغرافية الانتاج الزراعى فى عمان، ص ٧.
& محمود عبد العزيز أبو العينين : جيومورفولوجية اقليم سهل الباطنة بسلطنة عمان ، الجمعية الجغرافية الكويتية، رسائل جغرافية ، العدد ٣١٤، الكويت ٢٠٠٦، ص ٣، ٤.
& أحمد سالم صالح: اشكال التكوينات الرملية فى منطقة سهل الباطنة سلطنة عمان " دراسة جيومورفولوجية،الجمعية الجغرافية الكويتية، رسائل جغرافية العدد ١٦٨، الكويت، ١٩٩٤، ص ٧.
(14) Oman , A country study , P. 80.
(١٥) لوريمر : دليل الخليج ، القسم الجغرافى ، جـ١، ص ٣٥٩.
(١٦) لوريمر : دليل الخليج ، ص ٣٥٩.
(١٧) محمد مرسى عبد الله: إمارات الساحل العمانى وعمان والدولة السعودية الأولى، ص ٢٥.
(١٨) وفيق محمد جمال الدين ابراهيم : الافلاج فى سلطنة عمان، الجمعية الجغرافية الكويتية العدد ٣١٢، جامعة الكويت، ٢٠٠٦، ص ١٥.
& احمد سالم صالح : منطقة صلالة بجنوب سلطنة عمان، دراسة جيومورفولوجية مع إشارة لبعض الجوانب التطبيقية ، رسائل جغرافية ، العدد ١٥٠، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٩٩٢، ص ص ٦، ٧، ٨.
(١٩) محمد مرسى عبد الله : المرجع السابق، ص ٣٤.
(٢٠) محمد عبد الغنى سعودى: الوطن العربى، الأنجلو المصرية، القاهرة، ص ٢١٦، ٢١٧.
، محمد مرسى عبد الله ، المرجع السابق، ص ٣٥.
(٢١) أودية عمان: مركز أبحاث الفضاء اطلس الصور الفضائية ٢٠٠٢، جامعة بوسطن تحرير فاروق الباز، ص ١٥، محمد متولى، حوض الخليج العربى،ص ١٦، ١٧
(٢٢) محمود دياب راضى : العلاقة بين التساقط والجريان السطحى للمياه فى وادى سمائل بسلطنة عمان، الجمعية الجغرافية الكويتية، رسائل جغرافية: العدد ١٤١، الكويت، ١٩٩٢، ص ٧، ٨.
(٢٣) وفيق محمد جمال الدين: بعض مظاهر جغرافية الانتاج الزراعى فى عمان، ص ١٧.
(٢٤) وفيق محمد جمال الدين: بعض مظاهره ، جغرافية الزراعة لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربى، العدد ٣٢٣، جامعة الكويت، ٢٠٠٧، ص ١٣، ١٤.
(٢٥) قاسم الربداوى : السكان والموارد الاقتصادية فى سلطنة عمان، ط١، مكتبة نخل، سلطنة عمان ٢٠٠٧، ص ١٢٧- ١٢٨.
(٢٦) وفيق محمد جمال الدين : المرجع السابق، ص ٩.

(٢٧) صلاح الدين الشامى ، فؤاد محمد الصقار: جغرافية الوطن العربى الكبير، ط٣، المعارف بالاسكندرية، ١٩٧٥، ص ٢١٢، ٢١٣.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٢٩) قاسم الربداوى : المرجع السابق، ص ١٢٥، ١٢٦ .

(٣٠) وزارة الاقتصاد الوطنى، الكتاب الاحصائى السنوى، نشرة خاصة: سلطنة عمان، ٢٠٠٤، ص ١٧٨.

(٣١) قاسم الربداوى : المرجع السابق، ص ١٣١.

(٣٢) وزارة موارد المياه – دائرة المياه السطحية، عيون الماء فى سلطنة عمان إعداد محمد الشبعان وآخرون، عمان، ١٩٩٤، ص ٣.

(*) انظر الشكل رقم (١): خريطة موضع عليها العيون فى سلطنة عمان.

(٣٣) ولكنسون جى.رسى.: الافلاج ووسائل الرى فى عمان، ترجمة محمد امين عبد الله، ط٣، عمان ٢٠٠٣، ص ٤١.

(٣٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان : جـ٤، ص ٢٧١.

(٣٥) وزارة موارد المياه : احصائيات وقوائم الافلاج فى سلطنة عمان، سلطنة عمان، ٢٠٠٠، ص ١٥.

(٣٦) ولكنسون : الافلاج ووسائل الرى فى عمان، ص ٤٢.

& محمد على زرقة : الافلاج انظمة الرى وطرق التشغيل، ط٢، دار الجديد، الزرقاء ، الأردن، ١٩٩٨، ص ٢٣٩.

(٣٧) وفيق محمد جمال الدين ابراهيم : الافلاج فى سلطنة عمان، ص ٧.

(٣٨) وزارة موارد المياه : احصائيات الافلاج فى عمان، ص ١٨.

، محمد بن ناصر الحجرى : نظام الافلاج فى عمان ودوره فى التنمية، ط١، عمان ١٩٩٨، ص ٥٦- ٥٩.

(*) انظر الشكل رقم (٢) رسم تخطيطى لأشكال الأفلاج فى عمان.

(٣٩) عبد الله بن ناصر بن سليمان الحارثى : عمان فى عهد بنى بنهان ١١٥٤- ١٦٢٤م، جامعة السلطان قابوس ، مركز الدراسات العمانية، ط١، ٢٠٠٤، ص ٨٨.

(٤٠) وزارة موارد المياه : المصدر السابق، ص ١٦.

(٤١) عبد الله بن ناصر الحارثى : المرجع السابق، ص ٨٨.

(٤٢) وفيق محمد جمال الدين: الافلاج فى سلطنة عمان، ص ١٣.

(٤٣) وفيق محمد جمال الدين : بعض مظاهر جغرافية الزراعة لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ص ١٩.

(٤٤) خطوات على طريق التنمية . سلطنة عمان ١٩٨٨، ص ١٣٦.

(٤٥) وندل فيليبس، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط٥، عمان ٢٠٠٣، ص ٤٦.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٤٧) ابن رزيق: حميد بن محمد بن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر، محمد مرسى عبد الله، ط٥، عمان ٢٠٠١، ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٤٨) الازكوى: سرحان بن سعيد: كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، دراسة وتحقيق حسن محمد عبد الله البنابودة ، جـ٢، دار البارودى ، ص ٩٤٦، ص ٩٦٢.

، ابن قيصر عبد الله خلفان : سيرة الامام ناصر بن مرشد، تحقيق عبد المجيد حبيب القيسى، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان ، ١٩٧٧، ص ١٠- ١٥.

(٤٩) عبد الله بن على العليان : العمانيون وتحدى الجغرافيا، بدون، ص ٦١- ٦٥.

(*) هو الامام ناصر بن مرشد بن مالك بن أبي العرب من ولد نصر بن زهزان، أنظر: السالمى، نور الدين عبد الله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جـ٢، ص ٣.

(٥٠) ابن قيصر عبد الله بن خلفان: سيرة الامام ناصر بن مرشد، ص ١٣- ١٨.

(٥١) الازكوى، سرحان بن سعيد: كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، ص ٩٤٧.

(٥٢) السيابى، سالم بن حمود بن شامس: عمان عبر التاريخ، جـ٣، ط٤، سلطنة عمان، ٢٠٠١، ص ١٨٥- ١٨٦.

(٥٣) الازكوى: المرجع السابق، ص ٩٥٠- ٩٥٥.

(54) Miles S.B. The Countries and tribes of the Persian Gulf , vol.1 , London, 1919, P. 198.

(٥٥) حسين عبيد غانم غباش: عمان الديمقراطية الاسلامية، تقاليد الامامه والتاريخ السياسى ١٥٠٠- ١٩٧٠ ترجمة انطوان حمصى، دار الجديد، ط١، بيرون، ١٩٩٧، ص ١٠٦.

(٥٦) المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٥٧) السالمى، تحفة الأعيان، جـ٢، ص ١٤، ١٥.

(٥٨) السالمى، تحفة الأعيان، ص ٢٩، ٣٠، ٣١.

(٥٩) المصدر السابق، ص ٣٢، ٣٣.
، خالد ناصر الوسيمى: عمان بين الاستقلال والاحتلال دراسة فى التاريخ العمانى الحديث وعلاقاته الاقليمية والدولية: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٢، ص ١١٠- ١١١.
(٦٠) حسين غباش: عمان الديمقراطى الاسلامية، ص ١٠٩.
(٦١) ابن رزيق: الفتح المبين فى مسيرة السادة البوسعيدين، ص ٢٤٦، ٢٤٧.
(٦٢) سالم بن محمد بن احمد العبرى: عبرى الموقع والأهمية الاستراتيجية، عبرى عبر التاريخ: حصاد ندوة المنتدى الأدبى فى عبرى اكتوبر ١٩٩٩، ط١، سلطنة عمان، ٢٠٠٢، ص ٣٣، ٣٤.
(٦٣) حسين غباش، المرجع السابق، ص ١١٠.
(٦٤) مصطفى عقيل: التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢- ١٧٦٣، ص ١٢٥.
، طارق نافع الحمدانى: دور عرب عمان فى اقصاء البرتغاليين عن الخليج العربى، ص ٢٨١.
، احمد محمود المعمرى: عمان وشرقى افريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافى، سلطنة عمان، ص ١١.
(٦٥) وزارة التراث والثقافة: عمان وأمجادها البحرية، مطبعة النهضة، ص ٢٤، سلطنة عمان، ٢٠٠٥، ص ٤٧، ٤٨.
(٦٦) الازكوى: المصدر السابق، ص ٩٦٦ .
(*) الفرض: هو عبارة عن فتحة على هيئة ثقب رأسى يصل بين قناة الفلج المغطاة تحت الأرض وبين سطح الأرض ويتم من خلالها إجراء عمليات التنظيف وإزالة الكبس والصيانة والإصلاح والمتابعة الدورية، أنظر:وزارة موارد المياه، سلطنة عمان،إحصائيات الافلاج فى سلطنة عمان، ص ٥.
(٦٧) وزارة البلديات الاقليمية وموارد المياه: المشروع التجريبى لتوثيق الملكيات والاعراف والسنن والبيانات المتعلقة بالافلاج ، سلطنة عمان ٢٠٠٩، ص ١٩، ٢٠.
(*) الشريعة : هى أول مكان لظهور المياه على سطح الأرض أو بالقرب منه بالنسبة للفلج الداؤودية وهى أيضا مكان وصول الماء إلى منطقة الاحتياج أو القرية المستفيدة بالنسبة للأفلاج العينية والغيلية، أنظر: وزارة موارد المياه – إحصاء الافلاج، ص ٦، المصدر السابق.
(٦٨) المصدر السابق، ص ١٨.

(٦٩) المصدر السابق، ص ٢١.

(٧٠) بدر بن سالم العبرى: الافلاج العمانية ونظامها، حصاد ندوة الدراسات العمانيـــة، المجلـــد الثالث، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص ١١- ١٥,

، ولكنسون: الافلاج ووسائل الرى فى عمان ، ص ٩٠، ٩١.

(٧١) وزارة البلديات الاقليمية وموارد المياه: المشروع التجريبى لتوثيق الملكيـــات والاعـــراف والسنن والبيانات المتعلقة بالافلاج، ص ٥.

(٧٢) المصدر السابق، ص ٢٣.

(*)ويتضح من هذا التقسيم أن دورة المياه تتجاوز أكثر من ١٥ يوم لتصل إلى ١٨ يومـــا وهـــى اقصى درجة لاحتمال النبات للرى، مما يدل على ان التربة التى تتشكل منها بركة الموز هذه كثيفة تحتفظ بالماء لمدة أطول ويضيف بعض المؤرخين ان هذا دليلا على كثافة وخـــصوبة وجودة التربة التى لا تحتاج لمياه بصورة متقاربة وهى التى تسمى بالتربة الباردة ، انظـــر: بدر بن سالم العبرى: الافلاج العمانية ونظامها، ص ١٣.

(٧٣) وزارة البلديات الاقليمية، المصدر السابق، ص ٢٤.

(٧٤) وزارة موارد المياه: مشروع حصر الافلاج : احصائيات وقوائم الافلاج فى سلطنة عمان، عمان ٢٠٠٠، ص ٢٠٨.

(٧٥) بدر بن سالم العبرى : الافلاج العمانية ونظامها، ص ١٥.

(٧٦) المرجع السابق، ص ١٤، ١٥.

(٧٧) وزارة البلديات وموارد المياه ، المشروع التجريبى لتوثيق ملكيات الافلاج، ص ٤٩، ٥٠.

(٧٨) وزارة البلديات : المصدر السابق، ص ٢٢.

(٧٩) جى. ويكنسون: نشأة الافلاج فى عمان ، حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة التـــراث القومى والثقافة، ط٢، سلطنة عمان، نوفمبر ١٩٨٠، ص ١٢٧ المجلد الثامن.

(٨٠) ابن رزيق، حميد بن محمد: الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمـــان وزارة التـــراث، تحقيق عبد المنعم عامر – سلطنة عمان ١٩٨٤، ص ٢٤٨، ٢٥٦.

، المعولى : ابو سليمان محمد بن عامر بن راشد: قصص وأخبار جرت فى عمان تحقيق سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمى، ط١، عمان ٢٠٠٧، ص ٢٤١.

(81) Reader Bulland, Britain and the middle East, London , 1964, P. 26.

(82) Coupland, East Africa and its invaders from the Earlist time to the Death of seyyed said in 1850, P. 67.

(٨٣) المعولى: قصص وأخبار جرت فى عمان، ص ٢٤١.

(٨٤) المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٨٥) السيابى، سالم بن حمود بن شامس: عمان عبر التاريخ ، جـ٣، ط٤، عمان ٢٠٠١، ص ٢٤٦.

(٨٦) الازكوى: كشف الغمة ، ص ٩٦٦، البطاشى، سيف بن حمود، أتحاف الأعيان فى تاريخ بعض علماء عمان: ترتيب وتعليق سعيد بن محمد الهاشمى، ج٣، ط١، مسقط ٢٠٠١، ص ١٦٢، المعولى: محمد بن عبد الله بن سالم: ديوان المعولى وزارة التراث القومى والثقافة ، مسقط، ١٩٩٢، ١٠٥.

(87) Miles. S.B. The countries and tribes of the Persian Gulf vol. 1 ., London, 1919, P. 212.

(٨٨) غباش: عمان الديمقراطية الاسلامية، ص ١١٠.

(٨٩) السالمى : تحفة الأعيان، جـ٢، ص ٥٠.

(٩٠) وزارة الاعلام العمانية: عمان فى التاريخ – دار أميل للنشر ، ١٩٩٥، ص ٣٨٩.

(٩١) عبد العزيز عوض: دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث، دار الجبل بيروت، ١٩٩١، جـ٢، ص ٦٦.

، السالمى: تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان، جـ٢، ص ١٠٣، ١٠٤.

(٩٢) السالمى : المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٩٣) عائشة السيار: دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا من ١٦٢٤- ١٧٤١، ط٢، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٤٦- ١٤٧.

(*) قرية النعمان: هى احدى قرى ولاية بركاء تقع إلى الغرب منها على بعد ٤ ك.م وتبعد عن الطريق العام حوالى ٢ ك.م، وبها بيت النعمان الذى بناه الامام سيف بن سلطان، المعولى: قصص وأخبار جرت فى عمان، ص ٢٤٥.

(**) المبسلى: يعتبر هذا النوع من أجود أنواع التمور فى العالم، ومن اشهر تمور عمان، ويؤخذ عند نضجه ويغلى فى النار، ثم يترك فى الشمس، ويخزن ليصدر للخارج وخاصة الهند.

–ابى بشير محمد شيبه بن نور الدين عبد الله بن حميد السالمى: نهضة الأعيان بحرية عمان،ص ٧٠

(٩٤) المعولى: المصدر السابق، ص ٢٤٥- ٢٤٦، ولكن المعولى يذكر أنـــه زرع ثلاثـــة آلاف نخلة فقط ولكن السيابى، والسالمى، بن رزيق يذكرون انها ثلاثين الف نخلة، انظر الـــسيابى عمان عبر التاريخ، جـــ٤، ص ١٠، السالمى تحفة الأعيان، ص ١٠٨، ابن رزيـــق، الفـــتح المبين، ص ٢٥٩، دونالد هولى – عمان ونهضتها الحديثة، لندن، بدون ص ٣٨.

(95) skeet, jan , Muscat and Oman, London , 1974, P. 39

(٩٦) السالمى : تحفة الأعيان، ص ١٠٨، ١٠٩، وابن رزيق، ص ٢٥٩.

(٩٧) ابن رزيق: المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٩٨) السيابى : عمان عبر التاريخ، جـــ٤، ص ٩.

(٩٩) عائشة السيار: دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا، ص ١٤٧.

(١٠٠) وزارة موارد المياه : احصائيات وقوائم الافلاج فى سلطنة عمان، ص ٢٦.

(101) Wilkinson, J . The Imamate tradition of Oman, Cambridge univ. press, London, 1987, PP. 286- 287.

(102) Op.cit , P. 294- 295.

(١٠٣) ولكنسون: نشأة الافلاج فى عمان: حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الثامن وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ص ١٢٦ – ١٢٧.

(*) كانت هناك فتوى ترجع للقرن الحادى عشر الميلادى تحرم استغلال الأرض التى لـــيس لهـــا صاحب وتمنع استغلالها إلى الابد حتى للفقراء، ولكن جاء تفسير آخر لأحد الفقهـــاء وهـــو احمد بن مداد برفع الخطر الذى فرضه سابقيه على هذه الارض مما سمح باستغلالها ومـــنح الامام حق منح الارض المتروكة (الحرام) مائة سنة شريطة ان تـــشرف عليهـــا الحكومـــة عادلة ولكن ليس من حقه منح تمليكها ، حتى إذا ظهر لها مالكون عادت إليهم.

(١٠٤) انظر : Wilknson, Op.cit , P. 203 , 204.

د.جى.ويلكنسون: نشأة الافلاج فى عمان، ص ١٢٨.

(١٠٥) ويلكنسون: نشأة الأفلاج فى عمان، ص ١٢٩.

(١٠٦) ابن رزيق حميد بن محمد: الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر ائمة عمان، ص ٢٧٢.

، الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيدين، ص ٢٥٩.

، المعولى: قصص وأخبار جرت فى عمان، ص ٢٤٦.

(١٠٧) السالمى : تحفة الأعيان، ص ١٠٨.

(١٠٨) ابن رزيق: الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان، ص ٢٧٢- ٢٧٥.

(109)Wilkinson, Op.cit, P. 295.

(١١٠) وزارة الاعلام. عمان فى التاريخ، ص ٣٩٠.

(111)Ibid, P. 296.

(١١٢) المعولى : قصص وأخبار جرت فى عمان، ٢٤٦، ابن رزيق الفتح المبين، ص ٢٥٩. الشعاع الشائع، ص ٢٧٥، ٢٧٦.

(١١٣) حسن خميس اللواتى: اضواء على المجتمع العمانى فى القرنين الرابع والخامس الهجرى، دراسة لفئات المجتمع، ص ٣٢٠- ٣٢١.

(114)Wilkinson, Op.cit, P. 296.

(١١٥) السالمى : تحفة الأعيان، ص ١١٩.

(116)Wilkinson, Op.cit , 297.

انظر ابن رزيق الصحيفة القحطانية، ص ١٤٥.

(١١٧) حسين عبيد غباش: عمان الديمقراطية الاسلامية، ص ١١٧.

(١١٨) وزارة الاعلام: عمان فى التاريخ، ص ٣٩٠- ٣٩١.

(*) التمور: تعتبر أشجار النخيل من أهم الأشجار المنتجة فى عمان على الاطلاق وتتعدد اصنافها وجودتها من منطقة إلى أخرى وتعتبر سهول الداخلية والوسطى والشرقية والظاهرة من أفضل المناطق إنتاجا ونوعية ويعود ذلك إلى الظروف المناخية الملائمة لنموها وانتاجها كما ان التربة الجيدة الطينية العامل المهم لتلك الجودة، ويصل عدد الأصناف إلى مائتى صنف اهمها: دموس- خمرى - الخينزى - الخلاص- والزبد - مبسلى - حنظل - وبرنى - وبرشى - مزناج- ونغال - الصلالى - الفرص - الخصاب وغيرها.

انظر محمد بن عبد الله السالمى: نهضة الأعيان ، ص ٧٠، عبد الله الحارثى، ص ١١٦. ومحمود متولى: جغرافية الخليج، ص ٢٦٦- ٢٦٧.

(١١٩) عبد القادر الغسانى: ارض اللبان فى سلطنة عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومى والثقافة - سلطنة عمان، ط٢، المجلد الأول، ١٩٨٠، ص ص ١٦٧- ١٧٧.

(١٢٠) المرجع السابق، ص ١٩١.

(121)Miles, S.B. The countries and tribes of the Perisan Gulf , vol, 2. P. 122.

(122)Miles. Op.cit , P. 123.

(١٢٣) عبد الله بن ناصر بن سليمان الحارثى: عمان فى عهد بنى نبهان، ص ١٠٢.

(124)Miles , op.cit , P 87- 88

وأغلب هذه الأودية كتب باسم القبائل التى تسكن فيها، فقد زار الباحث اغلب هذه الأودية حيث لوحظ أن اغلب من يسكنها ينتمون إلى اسم القبيلة التى سمى بها هذا الوادى مثل وادى بنى غافر، وادى بنى خروص وادى الحواسنة وادى بنى همام (الباحث).

(١٢٥) عبد الله الحارثى: المرجع السابق، ص ١٠٢.

(126)Slot , B.J . The Arabs of the Gulf 1602- 1784, an alternative approach to the, early History of the Arab Gulf states and the Arab peoples of the Gulf mainly basedan sources of the Dutch East indiacompany 1993, P. 165- 166.

(127)Op.cit , PP. 167- 168.

(١٢٨) جى. وايز جربر: مسقط فى عام ١٦٨٨ (تقارير ورسومات انجلبرت كامبفر) العدد رقم ٥٧ يوليو ١٩٨٤ تراثنا – وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان ، مطابع سجل العرب، القاهرة، ص ١٦.

& روبين بيدويل : عمان فى صفحات التاريخ، ترجمة محمد امين عبد الله، تراثنا العدد، ط٢، وزارة التراث، سلطنة عمان ١٩٨٥، ص ٢٣.

(*)العملة التى كانت مستخدمة فى ذلك الوقت هى (المحمدية) وتصنع من الفضة.

(١٢٩) ابن رزيق: الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر ائمة عمان، ص ٩٢.

(١٣٠) جى. وايز جرير: المصدر السابق، ص ١٧.

(١٣١) المصدر السابق، ص ٢٠.

(132) Wilkinson, Imamate trading of Oman , p. 219- 220.

وانظر ولكنسون : نشأة الافلاج فى عمان، ص ١٣٠، ١٣١.

(133)Thomes Vernet , slave trade and slavery on the swahili coast 1500-1750, slavery Islam and dispora, Behnaz A. Mirzai , ismael musah, mantana , 2009, P. 53- 54.

(134)Reda Bhacher trade and Empire in Muscat and Zanzibar , the roots of British domination, London , 1994, P. 13- 15.

(135)Patricia , Risso , Oman and Muscat: An Early modern History, new York, 1986, pp. 13, 22,Wilkinson, Imamate tradition of Oman, P 220-221.

(136)Thomes vernet, op.cit , P. 54.

(١٣٧) جان جاك بيربس: الخليج العربى تعريف نجده هاجر. سعيد الغز – بيروت، ١٩٥٩، ص ١٩٦.

(138)Reda Bhacher, Op.cit , p. 16.
(139) Wilkinson, op.cit , P. 217 , 218.
(140) Wilkinson, op.cit , P. 218- 219.

وانظر ولكنسون : نشأة الافلاج فى عمان، ص ١٣٠- ١٣١.

(141) Wilkinson, op.cit, P 220- 221.

(١٤٢) فاطمة الطراونة : دور القبيلة فى السلطة، سلطنة عمان نموذجا جامعة النيـــرا، ٢٠٠٩، ص ١٣.

(143) Oman,A country study , Federal Research Division,Kessinger publishing, P. 91, 92.

(١٤٤) لوريمر : دليل الخليج، جـــ٢، تاريخ، ص ٦٤٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع العربية:

١. ابن رزيق: حميد بن محمد بن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر، محمد مرسى عبد الله، ط٥، عمان ٢٠٠١.

٢. ــــــــــــــ: الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة التراث، سلطنة عمان ١٩٨٤.

٣. ــــــــــــــ: الصحيفة القحطانية، بدون.

٤. ابن قيصر عبد الله خلفان: سيرة الامام ناصر بن مرشد، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسى، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٧٧.

٥. ابى بشير محمد شيبه "بن نور الدين عبد الله بن حميد السالمى: نهضة الأعيان بحرية عمان، بدون.

٦. أحمد سالم صالح: أشكال التكوينات الرملية فى منطقة سهل الباطنة سلطنة عمان، "دراسة جيومورفولوجية"، الجمعية الجغرافية الكويتية، رسائل جغرافية العدد ١٦٨، الكويت، ١٩٩٤.

٧. ــــــــــــــ: منطقة صلالة بجنوب سلطنة عمان، دراسة جيمورفولوجية مع إشارة لبعض الجوانب التطبيقية، رسائل جغرافية، العدد ١٥٠، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٩٩٢.

٨. احمد محمود المعمرى: عمان وشرقى افريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافى، سلطنة عمان.

٩. الازكوى: سرحان بن سعيد: كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة دراسة وتحقيق حسن محمد عبد الله البنابودة، جـ٢، دار البارودى.

١٠. البطاشي: سيف بن حمود: أتحاف الأعيان فى تاريخ بعض علماء العرب، ترتيب وتعليق سعيد بن محمد الهاشمى، جـ٣، ط١، عمان ٢٠٠١.

١١. السالمى : نور الدين عبد الله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جـ ١، ٢، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، ١٩٩٧.

١٢. السيابى، سالم بن حمود بن شامس: عمان عبر التاريخ، جـ٣، ط٤، سلطنة عمان ٢٠٠١.

١٣. المعولى : ابو سليمان محمد بن عامر بن راشد: قصص وأخبار جرت فى عمان تحقيق سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي، ط١، عمان ٢٠٠٧.

١٤. ــــــــــــ : ديوان المعولى: وزارة التراث والثقافة، عمان، ١٩٩٢.

١٥. أودية عمان: مركز أبحاث الفضاء اطلس الصور الفضائية، جامعة بوسطن ٢٠٠٢، تحرير فاروق الباز.

١٦. بدر بن سالم العبرى: الافلاج العمانية ونظامها، حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠.

١٧. جى. وايزجرير: مسقط فى عام ١٦٨٨، تقارير ورسومات انجلبرت كامبفر، العدد رقم ٥٧ يوليو ١٩٨٤، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٤.

١٨. حسن خميس اللواتى: اضواء على المجتمع العمانى فى القرنين الرابع والخامس الهجرى، دراسة لفئات المجتمع.

١٩. حسين عبيد غانم غباش: عمان الديمقراطية الاسلامية، تقاليد الامامه والتاريخ السياسى ١٥٠٠- ١٩٧٠ ترجمة انطوان حمصى، دار الجديد، ط١، بيروت، ١٩٩٧.

٢٠. حمود بن عبد الله الوهيبى: أثر الموقع الجغرافى على السياسة الخارجية

لسلطنة عمان، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، ١٩٩٨.

٢١. خالد ناصر الوسيمى: عمان بين الاستقلال والاحتلال دراسة فى التاريخ العمانى الحديث وعلاقاته الاقليمية والدولية: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٢.

٢٢. خطوات على طريق التنمية . سلطنة عمان ١٩٨٨.

٢٣. روبين بيدويل : عمان فى صفحات التاريخ، ترجمة محمد امين عبد الله، تراثنا العدد ٧، ط٢، وزارة التراث، سلطنة عمان ١٩٨٥.

٢٤. سالم بن محمد بن احمد العبرى: عبرى الموقع والأهمية الاستراتيجية عبرى عبر التاريخ: حصاد ندوة المنتدى الأدبى فى عبرى اكتوبر ١٩٩٩، ط١، سلطنة عمان، ٢٠٠٢.

٢٥. سالم مبارك الحتروشى : تآكل الشواطئ فى ساحل الباطنة، سلطنة عمان، ندوة الجغرافيا والتخطيط البيئى، الكويت، ١٩٩٨.

٢٦. صلاح الدين الشامى، فؤاد محمد الصقار: جغرافية الوطن العربى الكبير، ط٣، المعارف بالاسكندرية، ١٩٧٥.

٢٧. صلاح الدين حافظ: صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقى، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة العدد ٤٩، الكويت، ١٩٨٢.

٢٨. طارق نافع الحمدانى: دور عرب عمان فى اقصاء البرتغاليين عن الخليج العربى.

٢٩. طه عبد العليم رضوان : فى جغرافية العالم الاسلامى، جـ٢، ط٦، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٨.

٣٠. عائشة السيار: دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا من ١٦٢٤- ١٧٤١،

ط٢، القاهرة، ١٩٧٣.

٣١. عبد العزيز عوض: دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث، دار الجبـل، جـ٢، بيروت، ١٩٩١.

٣٢. عبد القادر الغسانى: ارض اللبان فى سلطنة عمان، حصاد نـدوة الدراسـات العمانية، وزارة التراث القومى والثقافة، ط٢، المجلد الأول، سلطنة عمـان، ١٩٨٠.

٣٣. عبد الله بن على العليان : العمانيون وتحدى الجغرافيا، بدون.

٣٤. عبد الله بن ناصر بن سليمان الحارثى : عمان فى عهد بنى نبهـان ١١٥٤-١٦٢٤م، جامعة السلطان قابوس، مركز الدراسات العمانية، ط١، ٢٠٠٤.

٣٥. قاسم الريداوى : السكان والموارد الاقتصادية فى سلطنة عمان، ط١، مكتبـة نخل، عمان ٢٠٠٧

٣٦. لوريمر، ج.ج: دليل الخليج، القسم الجغرافى، جـ٢، قطر، بدون.

٣٧. محمد عبد الغنى سعودى: الوطن العربى، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٣٨. محمد على زرقة : الافلاج انظمة الرى وطرق التشغيل، ط٢، دار الجديـد- الزرقاء- الأردن، ١٩٩٨.

٣٩. محمد متولى: حوض الخليج العربـى، جـ٢، ط ٦، الانجلـو المـصرية، القاهرة، ١٩٨١.

٤٠. محمد مرسى عبد الله: امارات الساحل وعمان والدولـة الـسعودية الأولـى ١٧٩٣- ١٨١٨، ط١، المكتب المصرى الحديث، القاهرة، ١٩٧٨.

٤١. محمد ناصر الحجرى : نظام الافلاج فى عمـان ودوره فـى التنميـة، ط١، عمان ١٩٩٨.

٤٢. محمود دياب راضى : العلاقة بين التساقط والجريان السطحى للمياه فى وادى سمائل بسلطنة عمان، الجمعية الجغرافية الكويتية، رسائل جغرافية: العدد ١٤١، الكويت، ١٩٩٢.

٤٣. محمود طه ابو العلا: الموسوعة الجغرافية للعالم الاسلامى، المجلد الثانى، الرياض، ١٤١٩هـ.

٤٤. محمود طه ابو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية، جـ١، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٦.

٤٥. محمود عبد العزيز أبو العينين : جيومورفولوجية الأحواض الجبلية بالقطاع الشمالى للجبل الأخضر بسلطنة عمان، رسائل جغرافية، العدد ٢٨٨، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ٢٠٠٤.

٤٦. مصطفى عقيل: التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢- ١٧٦٣.

٤٧. وزارة الاعلام العمانية: عمان فى التاريخ – دار أمُيل للنشر، بيروت، ١٩٩٥.

٤٨. وزارة الاقتصاد الوطنى، الكتاب الاحصائى السنوى، نشرة خاصة، سلطنة عمان، ٢٠٠٤.

٤٩. وزارة البلديات الاقليمية وموارد المياه: المشروع التجريبى لتوثيق الملكيات والاعراف والسفن والبيانات المتعلقة بالافلاج، سلطنة عمان ٢٠٠٩.

٥٠. وزارة التراث والثقافة: عمان وأمجادها البحرية، مطبعة النهضة، سلطنة عمان، ٢٠٠٥.

٥١. وزارة موارد المياه: دائرة المياه السطحية، عيون الماء فى سلطنة عمان إعداد محمد الشبعان وآخرون، عمان، ١٩٩٤.

٥٢. ________: احصائيات وقوائم الافلاج فى سلطنة عمان، سلطنة عمان،

سلطنة عمان، ٢٠٠٠.

٥٣. وفيق محمد جمال الدين إبراهيم : بعض مظاهر جغرافيـة الزراعـة لـدول مجلس التعاون لدول الخليج العربى، العدد ٣٢٣، جامعة الكويت، ٢٠٠٧.

٥٤. ________: الأفلاج فى سلطنة عمان، الجمعية الجغرافية الكويتية العدد ٣١٢، جامعة الكويت، ٢٠٠٦.

٥٥. وفيق محمد جمال الدين إبراهيم: بعض مظاهر جغرافية الانتاج الزراعى فى سلطنة عمان، رسائل جغرافية، الجمعية الجغرافيـة الكويتيـة العـدد ٢٣٠، الكويت، ١٩٩٩.

٥٦. ولكنسون : جى.رسى: الافلاج ووسائل الرى فى عمان، ترجمة محمد امـين عبد الله، ط ٣، عمان ٢٠٠٣.

٥٧. وندل فيليبس، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط٥، عمان ٢٠٠٣.

٥٨. ياقوت الحموى : معجم البلدان : جـ٤، بدون.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

1. Coupland, East Africa and its invaders from the Earlist time to the Death of seyyed said in 1850.
2. John Townesend "Oman, the making of modern state", London, 1977.
3. Miles, S.B. The countries and tribes of the persian Gulf, vol.1.
4. Oman, A country study, Federal Research, Division, Kissinger publishing.
5. Patricia , Risso , Oman and Muscat: An Early modern

History, new York, 1986.

6. Reader Bulland, Britain and the middle East, London , 1964.
7. Reda Bhacher trade and Empire in Muscat and Zanzibar, the roots of British domination, London , 1994.
8. Skeet, Jan , Muscat and Oman, London , 1974.
9. Slot , B.J . The Arabs of the Gulf 1602- 1784, an alternative approach to the early History of the Arab Gulf states and the Arab peoples of the Gulf mainly based on sources of the Dutch East India company 1993.
10. Thomes Vernet , slave trade and slavery an the Swahili coast 1500- 1750, slavery Islam and dispora, Behanz A. Mirzai , Ismael musah, montana , 2009.
11. Wilkinson, J . The Imamate tradition of Oman Cambridge univ. press, London, 1987.

المعتقد الديني والأيديولوجيا وأثرهما في كتابة تاريخ اليهود في العصر الفارسي؛ دراسة نقدية

د. أحمد عبد المقصود

كلية الآداب - جامعة القاهرة

مدخل:

يتفق كثير من الباحثين على أنه لا يوجد تاريخ يخلو من أهداف وراء كتابته، ويتفقون كذلك على أن التاريخ ليس مجرد سلسلة من الحقائق المجردة المرتبة ترتيبا تاريخيا؛ لأن المؤرخ لا يروي كل شئ يصادفه، فعملية القص التي يقوم بها المؤرخ هي عملية انتقائية؛ حيث يقوم باختيار الأحداث التي تسهم في صناعة التاريخ حسب مفاهيمه، أو ربما يختلقها، ولهذا كانت أغلب الكتابات التاريخية - إن لم يكن كلها - تحمل في طياتها أيديولوجيات وأهداف خاصة، حتى تلك التي دونها مؤرخو العصر الحديث.

في هذا المعنى يقول *م. ى. فينلي* M. I. Finley "**إن دراسة التاريخ وكتابته هي باختصار شكل من أشكال الأيديولوجيا**".[1] وتقول *يائيرا أميت* "**إن الأيديولوجيا جزء من التاريخ**".[2] ويقر *وايتلام* بأن إعادة بناء التاريخ - الماضي أو الحاضر، سواء كان مكتوبا أو شفاهيا - هو عمل سياسي بالدرجة الأولى؛ لأن عملية امتلاك الماضي هي جزء من سياسة الحاضر.[3]

وقد كان المؤرخون القدامى الذين دونوا أحداث التاريخ الإسرائيلي القديم متشبعين بالأيديولوجيا طوال الوقت، وكان الهدف الدائم والثابت لديهم هو التركيز على رعاية يهوه واصطفائه لجماعة بني إسرائيل، ومن هنا كان من الطبعي أن

تنعكس أهدافهم هذه على كتابتهم للتاريخ. ولم يكن ذلك شأن المؤرخين القدامى وحدهم؛ فقد انتقلت هذه الظاهرة إلى أكثر مؤرخي العصر الحديث ممن كتبوا عن تاريخ إسرائيل القديم فجاء جانب كبير من أعمالهم متشبعا بالروح نفسها التي كتب بها المؤرخ الإسرائيلي القديم.

ولما كان العصر الفارسي (٥٣٩ – ٣٣٣ ق.م.) أحد أهم الفترات في تاريخ الديانة اليهودية؛ إذ يعد هذا العصر عصر تأسيس الديانة اليهودية؛ فكثير من الباحثين تحدثوا عن أن أسفار التوراة الخمسة وأغلب أسفار الأنبياء، وبعض أسفار المكتوبات تعود إلى هذه الفترة، وقد اعتمد هؤلاء الباحثون على ما ذكره سفر عزرا من أن عزرا قام بقراءة التوراة على مسامع بني إسرائيل، وهذا يعني – طبقا لمن تبنى هذه الرؤية – أن صلب الديانة اليهودية يعود للعصر الفارسي. وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا العصر يكون هو النواة التي قام عليها كل ما يتعلق بتاريخ بني إسرائيل وديانتهم. ولأن هذه الرؤية أصبحت محل انتقاد واسع من كثير من الباحثين المعاصرين كان من الضروري دراستها للتعرف على ما يمكن الوثوق فيه وما يجب نقده ورفضه.

في ضوء ما سبق تعالج الدراسة نقطتين أساسيتين:

الأولى: علاقة السياسة واللاهوت بالتاريخ الإسرائيلي القديم وكتابته.

نعالج فيها أثر الدين في الاكتشافات الأثرية وفي وصف التاريخ الإسرائيلي القديم، وأثر الصهيونية في بناء هذا التاريخ، وتزييف المكتشفات الأثرية.

الثانية: رؤية نقدية في تاريخ اليهود في العصر الفارسي

نتعرض فيها لمصادر تاريخ هذه الفترة، ونقد اتجاهات التأريخ الحديث لها.

١ – علاقة السياسة واللاهوت بالتاريخ الإسرائيلي القديم وكتابته

انعكست الأهمية الدينية والسياسية لفلسطين على نتائج البحث التاريخي، وعلى دراسة تاريخ الشعوب التي سكنتها قديما أو حديثا؛ فالمكانة الدينية والصراع

عليها كانا عاملين أساسيين في توجيه هذه الدراسات. ويمكن رصد ذلك على النحو الآتي

أ - *أثر الدين والأيديولوجيا في الاكتشافات الأثرية وفي وصف التاريخ الإسرائيلي القديم.*

دار جدال كبير بين الباحثين في الآونة الأخيرة حول دور المعتقد الديني في البحث التاريخي، والسعي إلى إثبات مصداقية نص العهد القديم؛ ومن ذلك ما أثاره *توماس تومسون* في "الدورية الاسكندنافية لدراسة العهد القديم Scandinavian Journal of the Old Testament" تحت عنوان "دور المعتقدات في البحث التاريخي The Role of faith in Historical Research" يتحدث فيه عن أن أكثر الجهود التي تثبت التاريخ الإسرائيلي القديم تنطلق من فرضيات دينية بضرورة صحة رواية العهد القديم. وميز *تومسون* بين نوعين من الباحثين – من يسلم بمصداقية رواية العهد القديم التاريخية ويسعى لإثباتها، ومن يتحرر من يتحرر من هذه المسلمات – طبقا لتوظيف المعتقدات في الدراسة، وعلى هذا الأساس كان هناك ما يعرف بالتاريخ الموضوعي والتاريخ الديني.(٤)

وقد استتبع ذلك ردا من ج. ب. *كوفود* J. B. Kofoed ببحث في الدورية ذاتها بعنوان "الرد على: دور المعتقدات في البحث التاريخي The Role of Faith in Historical Research; A Rejoinder" حيث رفض ما ذهب إليه تومسون والرافضون لمصداقية روايات العهد القديم التاريخية.(٥) ومن ذلك أيضا ما تحدث عنه *ل. جرابه* L. Grabbe في بحثه "هل العهد القديم صحيح فعلا؟ نظرة على كتاب *ت. ل. تومسون* العهد القديم في التاريخ Hat die Bibel doch recht? A Review of T.L. Thompson's The Bible in History."؛ حيث رفض *جرابه* ما طرحه *تومسون* في كتابه "العهد القديم في التاريخ" وأشار إلى أن *تومسون* كان انتقائيا في تعامله مع المصادر القديمة حسبما يثبت وجهة نظره،(٦) كذلك ما كتبه تومسون في رده على جرابه تحت عنوان "ليستر جرابه والدفاع عن التاريخ Lester grabbe and

"Historiography; An Apologia" تحدث فيه *تومسون* عن أن رفض جرابه لما تحدث عنه *تومسون* في أبحاثه لم يكن نابعا من موضوعية، بل هو دفاع عن روايات العهد القديم التاريخية.[٧] وهذه المواقف تظهر أننا أمام اتهامات متبادلة بالانتقائية في التعامل مع علم الآثار فيما يرتبط بتاريخ فلسطين.[٨] وصلت لحد اتهام أعمال مدرسة الحد الأدنى minimalist بالتضليل، وفساد المنطق، والتشبع بالأيديولوجية.[٩]

ما سبق يثبت أننا أمام تحكيم الأيديولوجيا أو اللاهوت في التعامل مع هذا التاريخ وأحداثه. يدل على ذلك قول إ. رايت E. Right "إن علم الآثار لا يؤكد صحة النص، بل يؤكد فقط على ما ذهبنا إليه في تفسيرنا للنص".[١٠] وما الجدال الدائر بشأن التمسك بأن تكون دراسة آثار فلسطين تحت مسمى "آثار العهد القديمBiblical Archaeology" والإبقاء على هذه التسمية، أو ضرورة التخلي عنها باستخدام تسمية تتجنب تدخل العامل الديني في البحث الأثري كأن تكون "آثار الشرق الأدنىNear Eastern Archaeology" أو "آثار سوريا وفلسطين Syro Palestinian Archaeology"[١١] ما ذلك إلا دليل على وجود هذا الشعور، ومحاولة من الساعين لاستبدال التسمية لجعل هذا العلم بعيدا عن تأثير الدين، أو على الأقل جعل الأمر يبدو كذلك.

يضاف لما سبق أن بعض المؤسسات التي كانت تبحث في آثار فلسطين كانت تمول جزئيا أو كليا من مؤسسات دينية غربية. وبعض التنقيبات الأثرية كان ينفق عليها بشكل كامل أحيانا من بعض المتدينين مسيحيين أو يهود؛ فالمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية ASOR وهي أولى المؤسسات التي عملت في هذا المجال كانت تمول جزئيا من مؤسسات كنسية غربية، وكانت عملية التنقيب في تل بيت مرسيم كلها تجري بتمويل من أصوليين غربيين مسيحيين ويهود.[١٢]

ويؤكد هذا الطرح أيضا أن كثيرا من الجمعيات الآثارية التي تأسست للبحث في آثار فلسطين نشأت نشأة دينية أو دعمت من الكنائس الغربية: مثل "المدرسة

التوراتية للقديس إيتين"، "والمعهد الإنجيلي الألماني لعلم الآثار القديمة للأرض المقدسة"(١٣)

يلاحظ أيضا أن كبار الباحثين في مجال علم آثار فلسطين كانوا أصحاب عاطفة دينية قوية، أو لهم خلفيات دينية؛ فأولبرايت وتلامذته كانوا مسلمين بالروايات التوراتية عن تاريخ بني إسرائيل وسعوا لإثباتها من خلال الاكتشافات الأثرية، وأصبحوا داعمين بقوة للصهيونية ومزاعمها بحق اليهود في أرض فلسطين.(١٤) وكان بعضهم رجال دين؛ فقد كان *نيلسون جلوك* N. Glueck أحد علماء الآثار في فلسطين والذي ترأس كلية الاتحاد العبري HUC حتى وفاته عام ١٩٧١ يعمل حاخاما،(١٥) والذي أعلن أنه "**يمكن الاطمئنان بشكل قاطع أنه لم يحدث قط أن تعارض كشف أثري مع معلومة قدمها العهد القديم**"، وهو نفس الموقف الذي اتخذه *ج. ب. فري* J. P. Free حين أكد على أن العهد القديم دقيق في كل شيء، وهو ما عبر عنه في كتابه "علم الآثار وتاريخ العهد القديم Archaeology and Bible History" إذ بين أنه كان يسعى "**للوصول إلى كتاب مصدق للكتاب المقدس وأن يكون هذا الكتاب موثقا**".(١٦)

كذلك كان *إرنست رايت* أحد أشهر علماء الآثار المتخصصين في آثار فلسطين راهبا، وكذلك، *جون برايت*، *د. ن. فريدمان*، *ر. إ. براون*، ر. ديفو الذي كان يبدأ تنقيبه بتراتيل دينية.. وأمثال هؤلاء كثير، حتى إن الأمر وصل للحد الذي أصبح فيه تاريخ إسرائيل القديم حكرا على كليات الدين واللاهوت وليس أقسام التاريخ طبقا لوصف *كيث وايتلام*.(١٧) ورغم أن بعض هؤلاء العلماء حرصوا على إنكار تأثير الدين على أعمالهم؛ مثلما حاول إرنست رايت في بحث له بعنوان "علم الآثار والعهد القديم Archaeology and the Old Testament" التأكيد على أن الانشغال الأكبر لعلم الآثار في فلسطين هو تجنب التأثر بالدين، والاجتهاد في الإجابة عن الأسئلة التاريخية والثقافية.(١٨) لكن هذا القول لم ينف حقيقة تأثر هؤلاء العلماء بالدين وكذلك النتائج التي توصلوا إليها، ولذلك فإن الخلفية الدينية لكثير من علماء الآثار الذين عملوا في فلسطين والنتائج التي توصلوا إليها أدت لوصفهم بأنهم

كانوا يمسكون المعول في إحدى اليدين، والكتاب المقدس في اليد الأخرى.

وتحفظنا هنا ليس على تدين هؤلاء الباحثين من عدمه، وليس مرتبطا بخلفياتهم الكهنوتية واللاهوتية، بل على أن تتبني نتائج أبحاثهم على هذه الخلفية، وأن تكون خلفياتهم الدينية مسلمات تؤثر في صحة البحث الأثري، وهو ما حدث فعليا.

فأولبرايت وسيروس جوردون، *وجون برايت* وتلاميذهم كانوا يؤمنون بكل وضوح بأن العهد القديم يحكي تاريخا حقيقيا، وأن كل ما جاء بداية من عصر الآباء وصولا إلى ما تحدث عنه عزرا عن أوضاع يهود فلسطين خلال العصر الفارسي كان حقيقيا.(١٩)

ويقول *أولبرايت* صراحة إنه رغم استطاعة علم الآثار توضيح تاريخ فلسطين القديمة فإنه – أي علم الآثار – "**لا يمكنه أن يوضح معجزة عقيدة اليهود أو المسيحيين، ولكن علم الآثار يمكنه أن يقدم مساعدة كبيرة في جعل المعجزة مفهومة عقليا للشخص النابه الذي لم تغش بصره النظرة المادية العالمية**"(٢٠) وهذا يعني توظيف علم الآثار في إطار ديني يبدأ بمسلمات على عكس المفترض في البحث الأكاديمي، وهذا ما نبه إليه ج. و. آلستروم G. W. Ahlström حين بين أن عملية إقحام النص الديني في علم الآثار تمت بشكل واسع؛ وأنه في أكثر الحالات كانت الروايات التوراتية تستخدم في تفسير الاكتشافات الأثرية وليس العكس.(٢١) وهذا كله أدى لتباين واضح في مواقف الباحثين بين القبول التام للروايات التاريخية التي يقصها العهد القديم، أو الرفض الكلي لها، أو الرفض الجزئي، كما أدى لطرح العديد من الأسئلة التي لم تكن تطرح من قبل حول إمكانية كتابة تاريخ إسرائيل القديمة.

ففي دراسة أعدها *ل. جرابه* بعنوان "هل يمكن كتابة تاريخ إسرائيل؟ Can A History of Israel be written?" أكد فيها على أن جانبا كبيرا من أوضاع المجتمعات القديمة، بما فيها كثير مما يرتبط بالدين لا يوجد دليل أثري عليه،

وأكثرها يعتمد على معلومات مستمدة من العهد القديم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.[٢٢]

كما تحدث روبرت ب. *كارول* R. P. Carroll عن أن التاريخ لا يقدم دليلا على ما رواه كتاب العهد القديم عن قصة بني إسرائيل؛ إذ يصمت دون أن يقدم شيئا، أما استخدام المصادر فوق النصية والمحتملة كعلم الآثار لإثبات صحة نص العهد القديم،[٢٣] أو افتراض صحته التاريخية ما لم يثبت غير ذلك، فإن هذا خداع ولا ينتج إلا تاريخا زائفا. ولذلك فإن *كارول* يرى أن ما يقدمه العهد القديم من تاريخ هو "**نسيج من الخيال** tissue of fiction".[٢٤] بل إن *دافيد سبيرلنج* يقول صراحة "**لا يوجد شيء تاريخي في التوراة**".[٢٥] كما أنه من الصعوبة بمكان تأكيد أي حدث في تاريخ بني إسرائيل القديم الممتد من سفر التكوين حتى سفري الملوك، بالإضافة لسفري أخبار الأيام من أي مصدر آخر غير العهد القديم.[٢٦] وقد أعلن *فيليب ر. دافيز* P. R. Davies أن أدب العهد القديم لم يأت من "إسرائيل" وليس نتاج حياة حقيقية، فهو في الأساس اختلاق كاتب جالس على كرسي الكتابة، فنحن أمام أدب أنتج هوية وهمية.[٢٧]

من ذلك أيضا ما تحدث عنه *ج. إ. بارنهارت* J. E. Barnhart من اختلاق لأكثر الروايات الواردة في أسفار صموئيل والملوك التي تحكي عن شاؤل وداود وسليمان؛ حتى إنه يرى أن محرري هذه النصوص كانوا على وعي بما يختلقونه.[٢٨]

كذلك تحدث *تشارلز إيزبل* C. Isbell عن قلة عدد باحثي العهد القديم الذين مازالوا يعتقدون في المصداقية الكاملة في العهد القديم كوثيقة تاريخية. وأن العبارة المتكررة "وبقية أعمال .... مدونة في سفر ...." تبرهن على أن مدوني النص لم يكونوا يقصدون كتابة تاريخ؛ فقد أدركوا أنهم لم يسجلوا العديد من الحقائق التي يحتاج المؤرخون لمعرفتها، وسبب ذلك أن الأنبياء المحررين – حسب تعبيره – كانوا يقدمون تقييما أخلاقيا عن كل ملك وليس تاريخا لحياته وأعماله، مما يعني أن

ما احتواه العهد القديم من تاريخ ليس مكتملا. طبقا لهذه الرؤية فإن هؤلاء المحررين وجدوا أن الحقائق التاريخية لا تتناسب مع رؤية الأنبياء عن طاعة الرب؛ ومن ثم رأوا استبعادها. ومن الممكن أن نفترض أيضا أن ما ضمنوه من معلومات ربما كان به كثير من الخلل.(٢٩)

أما *نيل لامكه* N. P. Lamche، و ج. جاربيني G. Garbini وآخرون من أتباع المدرسة التعديلية revisionist فرأوا أن أغلب العهد القديم من إنتاج كهنة أورشليم الذين عاشوا في العصر اليوناني.(٣٠) وقد لاقت هذه الرؤية رفضا كبيرا في الأوساط العلمية وفي الدوريات المحكمة، وأصبح أتباع المدرسة التعديلية، أو المبالغين في عدم تاريخية أحداث العهد القديم minimalist يتهمون بأنهم غير أمناء، وبأن عملهم يشوه التاريخ، وبأنهم معادون للسامية، وأنهم أصحاب توجهات ماركسية، وأتباع أحزاب يسارية، بل وصل الأمر إلى حد رفض نعتهم بأنهم يهود أو مسيحيون.(٣١) ويشير هذا الأمر إلى مدى تأثير الانتماء الديني على البحث؛ فالوصول إلى نتيجة تخالف نص العهد القديم قد يعني بهذا الشكل الإبعاد من الدين كله.

ويرد *إيزبل* أسباب الجدال بين أصحاب الموقفين المتطرفين قبولا أو رفضا للروايات التاريخية في العهد القديم إلى التطرف في الإيمان بشيء بعينه؛ فإذا كان من الطبعي أن يؤمن الباحثون بشيء ما للبدء في عملهم؛ كالإيمان بنص العهد القديم، أو بجدوى منهج معين أو دليل، أو بتفسير نص ما، فإن المشكلة تبدأ حين يأخذ ذلك الإيمان منحى متطرفا فيُعمي عن أي دليل لمجرد أنه ضد ما يحاول الباحث إثباته.(٣٢)

وقد يؤدي هذا الإيمان إلى مناداة بعض المتمسكين بصحة الروايات التاريخية للعهد القديم بضرورة التسليم بهذه الروايات إلى أن يثبت العكس،(٣٣) ويعتبر *يان بروفان* I. Provan أن مبدأ التحقق من الرواية مبدأ مبالغ فيه وغير عملي إذ أنه يعرض النص المقدس للخطر.(٣٤)

بمنطق مشابه يتخوف *و. ديفر* W. G. Dever من ضياع الحقيقة نتيجة الشك المتزايد في روايات العهد القديم، ويتعجب *ديفر* من منطق المدرسة التعديلية أو هذا الجيل من العلماء الذين لا يثقون في روايات العهد القديم minimalist ويعتقدون بأن أغلب ما توصل إليه من أرخوا لتاريخ بني إسرائيل قائم على الأيديولوجية، ويتساءل *ديفر* ما "العالم الحقيقي" إن لم تكن هناك حقائق؟ وإذا كان كل شيء خاضعا للأيديولوجيات من وجهة نظر هؤلاء الباحثين، فما الذي يجعل أيديولوجيتهم أفضل من أيديولوجيات غيرهم؟.[٣٥]

في نفس الإطار انتقد *أ. ه. ميلارد* A. H. Millard موقف الرافضين لروايات العهد القديم التاريخية بأن هؤلاء الباحثين رفضوا هذه الروايات لأنها كتبت لأغراض دينية بينما كان لديهم شغف كبير بقبول روايات الشرق الأدنى القديم على الرغم من أن العامل الديني كان بارزا فيها بوضوح أيضا.[٣٦]

لكن المنطق الذي يتحدث به *ديفر* ينطوي على خطأ منهجي واضح من وجهة نظر الباحث؛ إذ أن الرغبة في الإيمان بشيء ما والتسليم بأنه حقيقة قد يدفع للقبول بروايات ضعيفة أو دون سند حقيقي، وهذا لن يوصل إلى "العالم الحقيقي" الذي تحدث عنه *ديفر*، وأفضل مثال على ذلك هو حالة التاريخ الإسرائيلي القديم. فالتسليم بمبدأ صحة الرواية إلى أن يثبت العكس، أو الإبقاء على الرواية التاريخية للعهد القديم والتسليم بصحتها خوفا من ضياع الحقيقة طبقا لقول *ديفر* يمثل خطورة حقيقية في مجال البحث في التاريخ الإسرائيلي القديم. وانتقاد هذه الرؤية ينبع في الأساس من أن علم الآثار أثبت عدم صحة العديد من الروايات التاريخية داخل العهد القديم؛ ومن ثم يكون التسليم بصحة غيرها من الروايات أمرا غير مقبول، خاصة إذا كانت كتابة تاريخ بني إسرائيل قد تمت وفق المنهج نفسه وبنفس الأسلوب والأدوات. وحسب وصف *د. هنيج* D. Henige فإن التسليم بالرواية إلى أن يثبت العكس هو طرح ساذج.[٣٧]

نتيجة لهذا الجدال المحتدم أصبحت عملية كتابة تاريخ إسرائيل المستند إلى

تراث العهد القديم أمرا محل شك، كما أن السؤال عن إمكانية كتابة مثل هذا التاريخ أصبح مجالا للتشويق بين الباحثين،[٣٨] في ظل آراء متباينة على هذا النحو تقودها أيديولوجيات أصحابها.

ب – *أثر الصهيونية في بناء التاريخ الإسرائيلي القديم، وتزييف الآثار*

لم يكن العامل الديني أو الأيديولوجي وحده هو المؤثر في كتابة التاريخ الإسرائيلي القديم؛ فقد أثرت الصهيونية في كتابة هذا التاريخ. ورغم أن الصهيونية هي في النهاية واحدة من الأيديولوجيات، فضلا عن الرابط القوي بينها وبين العامل الديني، إلا أننا رأينا أن نفرد لها مساحة خاصة نبين من خلالها كيف انعكست الرغبة في احتلال فلسطين على كتابة هذا التاريخ، وكيف كانت توجهات علماء الآثار عاملا مهما في توجيه البحث الأثري، وفي طريقة قراءة المكتشفات الأثرية، أو ربما تزييفها.

هناك موقف صارخ يظهر إلى أي درجة كانت الصهيونية عاملا مهما في قبول الرواية التاريخية وإن كانت ضعيفة طالما كانت في صالح الصهيونية؛ ويبدو هذا الموقف واضحا في تمييز *أحاد هعام*[٣٩] بين الحقيقة الأثرية والحقيقة التاريخية؛ وطبقا لرأيه فإن "**غياب الحقيقة الأثرية لا يؤثر على الحقيقة التاريخية، فلو أثبت علم الآثار مثلا أن شخصية موسى ليست شخصية حقيقية فإن هذا لن ينقص شيئا من حقيقة وجوده التاريخي كمثال ونموذج تأثرنا به آلاف السنين**".[٤٠] ورغم البعد الفلسفي لمقولة *أحاد هعام* إلا أنها تعكس بوضوح إلى أي مدى يمكن أن يكون التحيز لإثبات ما تحدث عنه العهد القديم طالما كان في صالح الصهيونية الحديثة؛ فما ينطبق على موسى ينطبق على داود وسليمان وعزرا ونحميا وما ارتبط بهم من مرويات يتم التعامل معها على أنها حقائق تاريخية.

ورغم ما قاله *فيليب كينج* P. J. King "**لا ينبغي أبدا دمج علم الآثار بالسياسة؛ فإذا اجتمعا لحق الضرر بعلم الآثار**"؛[٤١] إذ يصبح علم الآثار تابعا لتفوق النص الأدبي، ويكون على علم الآثار في هذه الحالة أن يقدم الدليل الأثري

الذي يثبت صدق النص، ويكون ذلك بالطبع سببا في ظهور المشكلات العلمية، وهو ما بات متكررا في هذا المجال.[٤٢] ورغم السؤال الذي طرحه *و. ديفر* W. Dever بقوله: "**هل يمكن تجاوز الأيديولوجيات القديمة والحديثة التي تؤثر في كتابة التاريخ؟**"[٤٣] إلا أن تجربة علماء الآثار في فلسطين تثبت عكس ذلك تماما، وإذا كان كينج يقصد أن تهيمن الموضوعية على علم الآثار فإن الواقع لم يكن كذلك؛ وهذا يتضح من خلال التأثر بالنص الديني، ومحاولة إثبات مصداقيته وإن تطلب الأمر ليّ الحقائق، أو من خلال دعم الصهيونية بإثبات تاريخية روايات العهد القديم وهذا يتضح تماما في أكثر أعمال علماء الآثار الذين نقبوا في فلسطين. فكثير من علماء الآثار كما يعترف *إيلون* لم يكونوا ينقبون عن الآثار لمجرد الوصول إلى المعرفة، بل لتأكيد جذور إسرائيل.[٤٤]

وقد خصص *ن. أ. سيلبرمان* N. A. Silberman كتابا كاملا للموضوع يتضح من عنوانه "الحفر من أجل الرب والوطن Digging for God and Country" إلى أي مدى اندمجت السياسة واللاهوت في علم الآثار.[٤٥]

هناك أيضا سؤال طرحه بعض الباحثين الغربيين؛ هو هل كان الوضع السياسي في فلسطين في بدايات القرن الماضي يسمح بأن يكون عالم آثار مثل *أولبرايت* أو غيره مستقلين عن هذا الوضع في فلسطين؟ في هذا الإطار يتساءل *سليبرمان*: هل كان من الممكن لباحث مثل *أولبرايت* أن يجري أبحاثه في مجتمع ممزق نتيجة الصراع (كفلسطين في عشرينيات القرن الماضي) دون أن يشارك بقصد أو بدون قصد في الصراع الدائر؟ وهل كان من الممكن أن يقدم تصورا عن الماضي منفصلا عن التفسير السياسي الحديث؟ مع الوضع في الاعتبار خلفية *أولبرايت* القومية والدينية ووضعه الاقتصادي.[٤٦] وقد أثار *ب. و. لونج* B. O. Long مسألة أن أبحاث *أولبرايت* الأثرية كانت تنطلق من ثقته العميقة في نصوص العهد القديم حول يهوه وتميز بني إسرائيل.[٤٧]

المقصود هنا أن عددا كبيرا من علماء الآثار كان هدفهم إيجاد الشرعية

للاحتلال الصهيوني لفلسطين بالاستناد إلى روايات العهد القديم عن أصل بني إسرائيل وربط ذلك بتأسيس وطن قومي لهم، وتضمن ذلك بالطبع توظيف علم الخرائط لاستبدال الأسماء العبرية لمدن وقرى فلسطين بالأسماء العربية القائمة فعليا.(٤٨) ويعد ج. أ. سميث G. A. Smith رائدا في هذا المجال بعمله الذي جاء في مجلدين "الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة The Historical Geography of the holy Land" وصدر في بدايات القرن الماضي.(٤٩)

يشير *ج. بلينكنسوب* J. Blenkinsopp أيضا إلى أن العامل السياسي كان ظاهرا منذ حملة نابوليون على مصر، وأن الحركات القومية ومنها الصهيونية جندت علماء الآثار في مشروع استعادة تاريخ إسرائيل القومي، بل وإلى اختراعه إذا اقتضى الأمر.(٥٠) حتى أن هناك من تحدث عن تزييف بعض المكتشفات وهذا ما ألمح إليه *ب. بيكينج* B. Becking في موقفه من نقش تل دان؛ حيث اعتبره مزيفا.(٥١)

في إطار عمليات تزوير الآثار لإثبات التاريخ الإسرائيلي القديم هناك وقائع كثيرة؛ إذ يتحدث *ل. جرابه* عن أن عمليات التزوير طالت بشكل خاص الأختام؛ فالعديد من هذه الأختام هي في الأصل مزورة. ومؤخرا أصبح هناك حديث عن تزوير النقوش مثل الحديث عن تزييف نقش يهوآش. وهناك جدال حول مدى صحة نقوش أخرى مثل نقش تل دان. ونحن الآن نكتشف أن عددا من المكتشفات التي وظفت كدليل على صدق الرواية التوراتية، وبناء التاريخ الإسرائيلي القديم يثبت الآن تزييفها؛ ومثال ذلك أن أختام برخيا بن نيرياهو المشهورة التي قيل إنها تخص كاتب النبي إرميا هي أختام مشكوك في صحتها حاليا، وكان أول هذه الأختام قد نشره المؤرخ الإسرائيلي *أفيجاد* عام ١٩٧٨ وقال إنه لا يوجد ما يدعو للشك في صحة هذه الأختام الأصيلة، ثم بعضها نشره مؤرخان آخران هما *دويتش وهيلتزر* في عام ١٩٩٤، ثم *شانكس* عام ١٩٩٦.(٥٢)

لكن ثمة مسألة تبرز هنا؛ فبفرض أن علم الآثار أثبت أحقية بني إسرائيل في

الجزء الأكبر من فلسطين خلال التاريخ القديم، وتم استبعاد الكنعانيين والفلسطينيين وإسكات تاريخهما وإهماله، فما الذي يجعل يهود العصر الحديث هم ورثة هؤلاء القدماء في ظل تغيرات أنثروبولوجية واضحة تجعل من الصعوبة بمكان الربط بين بني إسرائيل قديما ويهود العصر الحديث.(٥٣)

٢ – قراءة نقدية لتاريخ اليهود في العصر الفارسي

أ - المصادر التاريخية

يعد العصر الفارسي أكثر العصور الذي تقل فيه المعلومات عن تاريخ بني إسرائيل، كما أن هذا العصر هو أكثر العصور فقرا في المواد الأثرية المكتشفة.(٥٤)

وقد رصد ليستر جرابه عددا من المشاكل المتعلقة بالتأريخ للعصر الفارسي عامة ولأوضاع اليهود في هذا العصر خاصة؛ ومن بين هذه المشكلات: قلة ما بقي من وثائق يمكن الاعتماد عليها سواء كانت تخص الإمبراطورية الفارسية نفسها أو للخاضعين إليها، أدى ذلك إلى وجود فجوات كبيرة لغياب المصادر، وما بقي من مصادر يصعب بناء تاريخ مترابط بالاعتماد عليه. المشكلة الثانية تتعلق بأن أكثر الروايات عن هذا العصر كانت باليونانية أو اللاتينية، إضافة إلى أنها كانت تقدم تاريخ هذه الفترة من خلال رؤية هلينية أو رومانية. ومن بين الأسباب كذلك أن العصر الفارسي كان أقل أهمية عند الباحثين من عصور أخرى خاصة عند الدارسين لتاريخ فلسطين وآثارها، وهذه الأسباب أدت لقلة الدراسات عن اليهود خلال العصر الفارسي مقارنة بغيره من العصور.(٥٥)

كان من بين المحاولات التي سعى من خلالها المؤرخون لهذا العصر أن يثبتوا الوجود اليهودي في فلسطين خلال العصر الفارسي، اعتمادهم على اكتشاف بعض النقوش، أو أعداد من الأختام التي نقش عليها بعض الأسماء متضمنة اللاحقة (يا، أو يو) معتبرين أن هذه اللاحقة إشارة ليهوه إله بني إسرائيل. كان من الواضح تحريك الأيدولوجيات وتوظيفها في قراءة هذه الاكتشافات وتفسيرها حين اعتبروا أن هذه اللاحقة تعبير عن أسماء من ينتمي لبني إسرائيل، رغم أن الأمر لم يكن

بالضرورة كذلك؛ فقد أشار ت. *تومسون* إلى اكتشاف أسماء بهذه النهايات في أكثر من موضع مثل عجرود في شمال سيناء، وفي شمال مدينة حماة في سوريا، وفي مدينة جبيل طبقا لإشارات فيلون السكندري، إضافة لما عثر عليه في فلسطين.[٥٦] كذلك تحتفظ بعض الكتابات المصرية القديمة باسم يهوه كاسم مكان في سوريا، وهناك من يتحدث عن انتشار الاسم في سعير وفي فاران جنوبي فلسطين، وفي مدين طبقا لنصوص مصرية تعود للقرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م.، كما أنه كان معروفا في سوريا منذ بدايات القرن الرابع عشر ق.م.، وفي القرن الثامن ق.م. نجد أميرين ينتهي اسمهما بالنهاية *ياو*، وقد أول الباحثون ذلك بأن الآراميين عبدوا إلها يسمى يهوه.[٥٧] وهذا يعني أن العثور على أسماء متضمنة لاحقة تعبر عن اسم يهوه ليس دليلا بالضرورة على أنه خاص ببني إسرائيل.

يشار كذلك إلى أن الفرس أو اليونان لم يتركوا أي معلومات ترتبط باليهود في هذا العصر، وهو أمر منطقي إلى حد كبير؛ فمن ناحية لم تكن الأمم والإمبراطوريات الكبيرة لتلتفت كثيرا إلى الجماعات الصغيرة، أو الأقاليم البعيدة عن المركز إلا في حالات محدودة. ومن ناحية أخرى فإن أكثر الأعمال التاريخية الخاصة بهذا العصر لم يكتبها الفرس، بل كتب أكثرها على أيدي المؤرخين اليونان؛ بداية من هيرودوت في القرن الخامس ق.م. ثم زينوفون واكتزياس وهيكاتيوس في منتصف القرن الرابع ق.م. وأواخره، وصولا إلى تيودور الصقلي في القرن الأول ق.م. وهؤلاء انصب جل اهتمامهم على تسجيل الأحداث المرتبطة بالأمم الكبرى التي أسست حضارات قوية في الشرق الأدنى القديم؛ فتحدثوا عن مصر وبابل وأشور وفارس وعيلام وميديا.

من الضروري كذلك أن نذكر أن أيا من المؤرخين القدامى لم يكن عنده دراية كافية بتاريخ فلسطين القديم؛ وأغلب ما كانوا يكتبونه عن فلسطين هو ما كان شائعا في أيامهم بين اليهود، ويتحدث *جرابه* عن أن التعبير "يهوذا وأورشليم" الذي استخدمه المؤرخ اليوناني هيكاتيوس (أواخر القرن الرابع ق.م.) الذي وصلنا بعض ما كتبه عن طريق تيودور الصقلي (القرن الأول ق.م.) هو نفسه التعبير الذي شاع

عند عزرا ونحميا (عزرا ٤: ٦، ٥: ١.. نحميا ١: ٢، ٧: ٦، ١٣: ١٦).[٥٨] لكن من الضروري أن نضع في الاعتبار أن تعبير "يهوذا وأورشليم" ربما يكون تعبير تيودور الصقلي، وليس هيكاتيوس نفسه كما ذهب *جرابه*؛ إذ أن أعمال هيكاتيوس فقدت ولم يتبق منها إلا ما نقله تيودور الصقلي. يضاف إلى ذلك أن ما كتبه هيكاتيوس كان مرتبطا بعادات اليهود الدينية، ولم يترك لنا شيئا تاريخيا عن اليهود. فقد نقل تيودور الصقلي وصف هيكاتيوس عن اليهود بأنهم "**جزء من الشعب السوري، وأنهم يقدمون قرابين بطرق تختلف عما اعتاد عليه اليونان.. ولما كان اليهود فلاسفة فقد ناقشوا مسألة الألوهية، وهم يشاهدون النجوم ليلا، وكانوا أول من قدم قرابين حيوانية**". ويرد الباحثون عمل هيكاتيوس الذي تضمن هذه المقولات إلى عام ٣٠٠ ق.م. تقريبا، وهذا أقدم ذكر لليهود لدى المؤرخين اليونان، مع ملاحظة أن العبارات المذكورة لا تقدم شيئا يذكر عن تاريخ اليهود، بل فقط عن بعض عاداتهم طبقا لما نقله تيودور عن هيكاتيوس.[٥٩] أي أن مؤرخي العصر الفارسي وأغلبهم من اليونانيين (هيرودوت، زينوفون، اكتزياس، هيكاتيوس..) لم يذكر أحدهم أسماء قادة اليهود في العصر الفارسي (نحميا وعزرا أو غيرهم).

إن الغالبية العظمى من أخبار اليهود خلال العصر الفارسي وردت إلينا عبر سفري عزرا ونحميا. وترتبط ثقتنا في المعلومات التي قدمها السفران بمدى مطابقتهما للمصادر التي اعتمدا عليها؛ لأن قيمة السفرين التاريخية ليست أكبر من قيمة المصادر التي يعتمدان عليها، فالثقة في المصادر تدفع للثقة في العمل نفسه. وإذا انتقلنا من التنظير إلى الواقع العملي فسوف نجد أن سفر عزرا يبدأ بالإشارة إلى مرسوم كوروش بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين، وهذا المرسوم في صورته تلك محل شك كبير؛ إذ أن مرسوم كوروش الحقيقي كما أورده ج. ب. *بريتشارد* J. B. Pritchard يذكر أن كوروش سمح بهجرة سكان المدن التي دمرها البابليون من قبل كأشور، وسوسة، وأكد ... وغيرها، وسمح بإعادة معابد آلهة هذه المدن التي دمرها البابليون،[٦٠] إلا أن المرسوم لا يذكر أي شيء عن اليهود أو بني إسرائيل، وليس فيه أي ذكر عن أي اسم من أسماء أحد من اليهود مطلقا، ولم يذكر

شيئا عن فلسطين كذلك.

وبغض النظر عن اختلاف الباحثين حول مصداقية رواية سفر عزرا عن أمر كوروش ببناء الهيكل بالتأييد أو الرفض، إلا أن ما يهمنا هنا هو أن قصة الأمر بإعادة بناء هيكل أورشليم، أو بناء أسوارها لا ذكر لها مطلقا سوى في سفري عزرا ونحميا، ولا توجد أية مصادر فارسية تدعمها. كما أننا لا نعرف سببا لتأجيل البدء في بناء الهيكل حتى العام الثاني من حكم داريوش (٥٢٠ ق.م.) رغم أن كوروش كان قد أصدر أمر إعادة البناء قبل ذلك بكثير طبقا لسفر عزرا ١: ٢ – ٣ **"هكذا قال كوروش ملك فارس: جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتا في أورشليم التي في يهوذا .. من منكم يصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل".**[٦١]

يضاف إلى ذلك أيضا أن اللغة الآرامية كانت اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية، رغم اكتشاف نصوص رسمية تخص الإمبراطورية الفارسية كتبت بلغات أخرى كالأكدية والعيلامية والفارسية القديمة، وهذه كانت استثناء.[٦٢] ومع ذلك جاء المرسوم المشار إليه في الإصحاح الأول من سفر عزرا بالعبرية، ثم تكرر المرسوم في الإصحاح السادس بمعلومات مغايرة للمعلومات التي وردت في الإصحاح الأول لكنها كتبت هذه المرة بالآرامية. والمرسوم بصورتيه لم يعثر على أي نقوش تدعمه، هذا بجانب الاختلاف الواضح بين صورتي المرسوم المذكور.

هناك أيضا ملاحظة تتعلق بغلبة الروح اليهودية على هذا المرسوم المزعوم الذي أشار إليه سفر عزرا؛ حيث كتب المرسوم بلغة لاهوتية يهودية واضحة. والسؤال هنا ما احتمالية أن يكتب مسئول فارسي مثل هذا الخطاب اللاهوتي اليهودي؟ إن هذا يدفع للقول بأن هذا المرسوم الذي ورد في عزرا ١، ٦ هو اختلاق من كاتب السفر لدعم رؤيته اللاهوتية، وأنه من الصعب الوثوق في هذا المرسوم.[٦٣] وإذا كان أمر المرسوم كذلك – وهو المصدر الذي اعتمد عليه كاتب السفر – فإنه بالطبع يلقي ظلاله على مدى إمكانية قبول السفر كوثيقة

تاريخية. وإذا كان السفران يقدمان معلومات محل شك؛ كالقول بأن عزرا ونحميا كانا من القيادات الكبيرة في البلاط الملكي الفارسي، إضافة للتناقضات الكبيرة فيهما - كما سنبين لاحقا - فإن هذا قد يدل على أن السفرين هما عمل أيديولوجي قصد منه إبراز الهدف اللاهوتي؛ إذ يؤكد السفران بوضوح على رسالة محددة هي أن الرب يتصرف بالنيابة عن شعبه ليعبر لهم عن رحمته بهم. أما التاريخ فكان هدفا ثانويا، وكاتبو السفرين أو محرروهما لم يكونوا يكتبون كمؤرخين.(٦٤)

هناك أسفار أخرى تتحدث عن أوضاع اليهود خلال العصر الفارسي، أو تعطي فقط بعض الإشارات؛ كسفر إستير وبعض أسفار الأنبياء مثل زكريا وحجي وإشعيا (٥٦ - ٦٦)، وملاخي. وبالنسبة لسفر إستير فإن الغالبية العظمى من الباحثين ترفض اعتبار السفر قصة تاريخية حقيقية، ويرون أن القصة كلها كتبت لترويج عيد البوريم ذي الأصل الوثني، كما أن كثيرا من علماء اليهود والمسيحيين الأوائل رفضوا السفر أيضا لأسباب كثيرة؛ كعدم ذكر اسم يهوه على الإطلاق، وعدم ذكر أمور كثيرة ذات صلة بالديانة اليهودية كالشريعة، والعهد، والاختيار، والهيكل، وأورشليم، والقرابين... الخ. وهذه الأمور وغيرها لم تذكر سوى في النسخة اليونانية للسفر وهي الجزء غير القانوني منه.(٦٥)

أما بالنسبة لما جاء في أسفار الأنبياء المنسوبين لهذا العصر؛ الذين ذكرناهم سابقا فلا يعدو ما جاء فيها أن يكون نبوءات، أو إشارات محدودة لبعض شخصيات هذه الفترة ممن وردت أسماؤهم في سفري عزرا ونحميا، وهذه الإشارات لا يمكن أن يبنى عليها تصور تاريخي موثوق. ويقر *ل. جرابه* بأنه ليس من الضروري قبول كل ما جاء في سفري زكريا (١ - ٨)، وحجي، ويقر كذلك بأننا حتى لو سلمنا بكل ما ورد في هذه الأسفار فإن هذا لن يؤدي إلا كتابة كسرات محدودة للغاية عن تاريخ اليهود في هذه الفترة.(٦٦)

ب - *رؤية نقدية على اتجاهات تأريخ هذه الفترة*

وضع عالم اللاهوت والاجتماع *إرنست ترولتش* E. Troeltsch ثلاثة مبادئ

مهمة في عملية البحث التاريخي، وهذه المبادئ تبناها من بعده الباحث الأمريكي *فان هارفي* V. Harvey؛ وأول هذه المبادئ مبدأ الاستقلال ويقصد به التحرر من التراث، وهذا المبدأ خلافي؛ إذ من الصعب أن يستقل المفسر عن كل التراث. أما المبدأ الثاني فهو مبدأ التناظر أو القياس؛ إذ أن فهم السياق القديم لنص ما يتطلب إجراء مشابهة أو قياس ملائم بين المواقف القديمة والحديثة، وهذا القياس أو المشابهة تنبني على الفرضية التي يقدمها النقد التاريخي بأن النصوص إنتاج بشري، وأن الطبيعة البشرية لم تتغير تغيرا حادا عبر العصور، وهذا المبدأ أيضا محل جدال؛ إذ يتحفظ كثير من باحثي العهد القديم على قراءة النص التوراتي في ضوء المواقف الحديثة. أما المبدأ الثالث والأخير فهو مبدأ النقد؛ وهو مبدأ منطقي إذ أن أي طرح يظل احتماليا وليس نهائيا؛ حيث إن نتائج اليوم قد تسقط باكتشافات الغد.(٦٧)

هذه المبادئ الثلاثة تكاد تنطبق بشكل أو بآخر على طرق دراسة أوضاع اليهود خلال العصر الفارسي؛ فنحن أمام ثلاثة اتجاهات في التعامل مع موضوع العودة من بابل وإعادة بناء الهيكل؛ إذ يقبل الاتجاه الأول الرواية كاملة، وربما يربط بعض هؤلاء بينها وبين نشأة الكيان الصهيوني في العصر الحديث، أو يناقشون قضايا فرعية داخل الإطار العام للرواية التوراتية عن هذا العصر تعكس قبولا لتلك الروايات.

الاتجاه الثاني يقبل فكرة إعادة بناء الهيكل لكنه يرى أن السماح ببنائه لم يكن لليهود المستقرين في بابل، بل لليهود الذين بقوا في فلسطين، وأن هجرة اليهود إلى فلسطين لم تبدأ فعليا إلا في عصر داريوش الأول. أما الاتجاه الأخير فيرفض تماما وقوع الغزو البابلي وما ارتبط به من نقل جماعي لسكان يهوذا من فلسطين إلى بابل، ومن ثم يرفض فكرة الهجرة، أو ما يسميه اليهود بالعودة، وهذا الاتجاه بدأ منذ بدايات القرن الماضي على يد *تشارلز توري* C. C. Torrey.(٦٨) وبينما يبدو أصحاب الاتجاهين الأول والأخير على طرفي نقيض في قبول النص أو رفضه، فإن أصحاب الاتجاه الثاني يقفون موقفا وسطا بقبول بعض أجزاء الرواية القديمة أو

أغلبها، ورفض أجزاء أخرى، أو تفسيرها تفسيرا يتناسب مع الواقع التاريخي لتلك الفترة حسب وجهة نظرهم.

ويسلم كثير من الباحثين ممن يدرسون أعمال عزرا ونحميا بصحة رواية السفرين عن أوضاع اليهود خلال العصر الفارسي وأحداثه، دون نقاش في مدى صدق الرواية التاريخية التي يرويها السفران؛ في هذا الصدد ناقش *ي. شابير* J. Schaper إن كان دور المجموعة التي كونها عزرا (عزرا ٨: ٣٣) وكذلك المجموعة التي كونها نحميا (١٣: ١٣) هو نفس الدور، وإن كانت المهمة التي كانت ملقاة عليهم هي جمع القرابين والعشور التي تقدم لغرض ديني فقط، أم كانت مهمتها أيضا جمع الضرائب من أجل إرسالها للإمبراطورية الفارسية.[٦٩] فقد افترض *شابير* أن الرواية صحيحة في السفرين وعلى هذا الأساس بنى فرضيته.

يسلم ر. ي. ليتمان R. J. Littman أيضا بحقيقة روايات سفر عزرا عن طريق افتراض أن ما قام به الفرس بسماحهم لعزرا بالهجرة إلى أورشليم وتحسين أوضاع اليهود فيها كان لتحقيق هدفين في وقت واحد؛ الأول لتهدئة الإقليم كله، والآخر الاستفادة من ولاء اليهود لمواجهة خطر الأثينيين في مصر.[٧٠] وهذه النظرية لا تستند مطلقا إلى سند تاريخي أو أثري، كما أنها أغفلت حقيقة أن سفري عزرا ونحميا لم يشيرا مطلقا لأي نوع من المواجهات خاضها الفرس في مصر.

هذا التسليم نجده كذلك في ما طرحه *و. أوسفالد* W. Oswald حين تحدث عن موقف عزرا ونحميا من الزواج المختلط ليصل إلى فرضية بحثه بأن القوانين التي اهتمت بنقاء المنتمين لجماعة أو شعب ما من الناحية العرقية هي قوانين وجدت لها نظير في بلاد النهرين وفي اليونان وأن هذه القوانين لم تكن مبنية على أساس ديني، بل عرقي.[٧١] وهذا يعني أن *أوسفالد* كان مسلما بأن ما قام به عزرا ونحميا من مقاومة الزواج من الأجنبيات كان حقيقيا وبناء على ذلك بنى فرضيته تلك.

تكرر ذلك أيضا عند عدد من المؤرخين ممن سلموا بوجود هجرات كبيرة ليهود بابل إلى فلسطين، وهؤلاء أشاروا إلى أن هجرات يهود بابل إلى فلسطين

كانت بدافع الخوف نتيجة الثورات العارمة التي نشبت ضد الإمبراطورية الفارسية في عهد داريوش، وقد قاد هذه الثورات نبوخذنصر الثالث (٥٢٢ ق.م.)، ثم نبوخذنصر الرابع (٥٢١ ق.م.) والتي قمعتها السلطات الفارسية بوحشية شديدة، كما كانت الأزمة الاقتصادية التي نشأت نتيجة هذه الثورات دافعا آخر لهذه الهجرات أيضا.(٧٢)

ما طرحه ب. *فري* P. Frei يأتي أيضا في السياق ذاته؛ إذ يتساءل حول معنى الفقرة ٧: ٢٦ من سفر عزرا التي تقول "**وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلا بالموت أو بالنفي..**" عما إذا كانت ***شريعة إلهك*** هي نفسها ***شريعة الملك*** أم أنهما مختلفتان؛ بحيث نصبح أمام شريعتين إحداهما التوراة، والأخرى تشريع الملك الذي يعطي للتوراة وضعا قانونيا.(٧٣) ويتكرر ذلك أيضا عند *ي. أهروني* י. אהרוני حين ذكر بأن إتمام عملية بناء الهيكل الثاني بموافقة السلطات الفارسية يدل على أن اليهود لم يشاركوا في التمرد الذي حدث في هذه الفترة من شعوب المنطقة السورية الفلسطينية ضد الفرس،(٧٤) وهذا يعكس مدى التسليم بصحة روايات السفرين وقبوله فكرة بناء الهيكل دون أي نقاش وهو ما تكرر كثيرا عند باحثين آخرين. بل إن المبالغة وصلت إلى حد القول بأن نحميا كان من الموظفين الكبار في بلاط الملك الفارسي أرتحشستا،(٧٥) اعتمادا على ما ذكره سفر نحميا بأنه كان ساقيا للملك، فكيف يمكن أن ينظر لساقي الملك على أنه أحد الموظفين الكبار في الدولة.

هناك أيضا من بنى رواية تاريخ هذه الفترة كلها على سفري عزرا ونحميا؛ فقد تحدث *إرنست رايت* بوضوح عن أنه ليس هناك ما يدعو للشك في روايات السفر، وطبقا لذلك اعتبر أن عدد اليهود في فلسطين في عام ٤٤٠ ق.م. يقدر بخمسين ألفا معتمدا على نحميا ٧: ٦٦ – ٦٨، كما اعتمد في سرد تاريخ وأوضاع اليهود في العصر الفارسي على السفر في أغلب الحالات، فضلا عن تطويع علم الآثار من أجل إثبات صحة روايات السفر.(٧٦)

بل إن بعض الباحثين العرب وقع في الفخ ذاته؛ إذ أشار الباحث العراقي مؤيد سعيد إلى أن الحريات التي تمتع بها يهود بابل وامتدت خلال العصر الفارسي جعلت لليهود دورا مهما في توسيع فكرة المصارف التي نشأت في بابل في القرن السابع ق.م. كما أنهم أثروا في رفع أسعار الفائدة من ١٠ % أيام نبوخذنصر إلى ٢٠ % في زمن كوروش، حتى وصلت إلى ٤٠ % أيام دارا (داريوش).[٧٧] وذهب *مصطفى عبد العليم، وسيد راشد* إلى أنه لا شك في تعيين زروبابل بن شالتئيل واليا على يهوذا من قبل السلطات الفارسية في العام الثاني لحكم الملك داريوش،[٧٨] رغم أن هذه المعلومة ليس هناك ما يدعمها سوى العهد القديم فقط. ومثل هذه الروايات وما شابهها لا سند أثري أو تاريخي لها سوى الاعتماد على روايات بعض الباحثين الغربيين، أو ما انفرد العهد القديم بذكره.

وتؤكد *ماري دوجلاس* M. Douglas على وجود شبه اتفاق على أن عصر الهيكل الثاني غير موثق بطريقة جيدة، وأن أكثر ما نعرفه عن وضع اليهود في فلسطين في العصر الفارسي يعود أغلبه إلى سفري عزرا ونحميا، وأن هناك مشاكل ضخمة في التعامل مع السفرين على أنهما يقدمان تاريخا صحيحا، هذا إن كان من الممكن الوثوق فيهما من الأصل.[٧٩]

وهناك رأي قوي بين الباحثين يقول بأن دوافع كتابة سفري عزرا ونحميا لم تكن نقل الحقيقة التاريخية وإنما عرض الفكرة، بمعنى حديث السفرين لما كان يفترض أن يكون قد وقع فعليا.[٨٠] والمشكلة أننا لا نملك أي معلومات عن تاريخ فلسطين خلال فترة السيطرة الفارسية سوى ما قدمه سفرا عزرا ونحميا، ويضاف إلى ذلك ما ذكره هيرودوت من أن فلسطين كانت جزءا من مقاطعة عبر النهر الفارسية، وأي حديث عما يعرف بمقاطعة يهوذا المستقلة لا مرجع له سوى سفري عزرا ونحميا.[٨١]

هناك أمر آخر يشكك في المعلومات التي تحدث عنها السفران؛ فإذا كان المسلك المعتاد عند الفرس هو تعيين ولاة لهم على الأقاليم المهزومة من أبنائها

الموالين بما يسهل من سيطرتهم على هذه الأقاليم، ومثال ذلك ما فعلوه في فينيقيا وقبرص، فلماذا إذن يستعين الفرس بعزرا أو نحميا وهما من خارج فلسطين.[٨٢] وإن قيل إنهما ينتميان ليهود بابل فهذا يخالف حقيقة الفاصل الزمني الذي لا يقل بأي حال عن قرن كامل من الغزو البابلي وتاريخ السماح لعزرا أو نحميا بالهجرة، بل ربما يزيد عن ذلك.

ويشير *جرابه* إلى إعادة تحرير الروايات الأصلية لسفر نحميا، مما جعلها محل جدل، ومع ذلك فإن روايات نحميا يمكن الاعتماد عليها أكثر من تلك الخاصة بشخص عزرا إن كان عزرا موجودا من الأصل.[٨٣]

يؤكد *بلينكنسوب* كذلك على أن مفهوم الأرض الخالية الذي روجه سفرا عزرا ونحميا مفهوم أسطوري، وهو ذاته ما ذهب إليه *بارستاد* Barstad حين استخدم تعبير "أسطورة الأرض الخالية the myth of the empty land".[٨٤] وقد سعى مبتكرو هذا المفهوم قديما لجعله يظهر وكأنه ينتمي لنخبة اليهود التي عاشت خلال العصر الفارسي، في حين أنه يعود في الحقيقة إلى ما قبل الاجتياح الإغريقي في عصر الإسكندر أو بعده بقليل، أي خلال العصر الهليني الذي شهد اهتمام شعوب مختلفة بالجانب القومي والأصل العرقي.[٨٥]

إضافة لما سبق يشتمل سفر عزرا على تناقضات واضحة؛ منها أن عزرا يظهر في الإصحاح السابع كصاحب سلطة على كل إقليم غرب نهر الفرات الفارسي، بينما أفعاله في الإصحاحات ٨ – ١٠ لا تظهره كشخص قوي، بل شخص ضعيف يحتاج الآخرين ليقترحوا عليه ماذا يفعل، والتناقض الآخر يتمثل في مرسوم كوروش الذي ورد في صورتين مختلفتين كما أشرنا سابقا.

هناك فجوة زمنية نجدها في رواية سفر عزرا عن الأحداث؛ فالجزء الأول من سفر عزرا (عزرا ١ – ٦) يحكي عن الفترة من سماح كورش بالهجرة وحتى بناء الهيكل (٥٣٩ – ٥١٦ ق.م.)، ثم تأتي فجوة تقدر بحوالي ٥٨ سنة مع بداية الرواية في الجزء الثاني؛ إذ يبدأ الإصحاح السابع بالحديث عن انتقال عزرا إلى

فلسطين في السنة السابعة للملك أرتحشستا أي عام ٤٥٨ ق.م.[٨٦] وتثير هذه الفجوة قضية مهمة تتعلق بمدى مصداقية السفر وبالتالي مدى مصداقية رواياته. وإذا كان يمكن النظر إلى القسم الأول من السفر على أنه ذكريات يرويها عزرا، فكيف يمكن النظر إلى الجزء الثاني؟ وما الذي يجعلنا نصدق أن هذه الذكريات تعود إلى القرن الخامس ق.م. وليس بعد ذلك بكثير؟!

هناك أمر آخر يرتبط بتحديد زمن عزرا يبرز من خلاله تناقض واضح يجعل هذه المسألة محل جدل كبير؛ فبينما يحدد سفر عزرا بداية مهمته بالسنة السابعة للملك أرتحشستا أي عام ٤٥٨ق . م ، ويشير سفر نحميا إلى قدوم نحميا في العام العشرين للملك نفسه أي عام ٤٤٥؛ فهذا يعني أن عزرا الذي جاء إلى فلسطين بناء على أمر الملك أرتحشستا ليعلم الناس الشريعة لم يقم بالقراءة العلنية لهذه الشريعة إلا بعد ثلاث عشر سنة على الأقل لأن ذلك تم في وجود نحميا. يضاف إلى ذلك أن سفر عزرا يتحدث عن وجود كثير من الناس في أورشليم، بينما تحدث نحميا عن أنها كانت خالية من السكان، وقد دعت هذه الأسباب وغيرها بعض الباحثين للتأريخ لقدوم عزرا بوقت متأخر سواء كان ذلك في العام ٣٧ من حكم أرتحشستا الأول أي عام ٤٢٨، أو في السنة السابعة كما حدد السفر بالفعل لكن ليس في حكم أرتحشستا الأول بل الثاني فيكون قدومه في عام ٣٩٧.[٨٧]

يلاحظ أيضا أن عزرا لا يصور في التراث اللاحق على أنه من جمع الشريعة وحفظها من الضياع؛ ففي سفر بن سيرا ٤٩: ١١ – ١٣ نجد أن الشخصيات الرئيسية خلال العصر الفارسي هي يشوع، و زروبابل، ونحميا، وفي المكابيين الثاني ٢: ١٣ نحميا هو جامع الكتابات المقدسة، وفي الحالتين لا يرد ذكر عزرا من الأصل، وهذا خلاف الصورة التي جاءت في سفر عزرا؛ إذ جعلته الشخصية الرئيسية.[٨٨] وهذا يجعلنا نطرح سؤالا: أليس من الغريب أن الشخصية الرئيسية في عصر ما بعد الغزو البابلي لأورشليم – أي عزرا – ليس معروفا لكاتب سفر بن سيرا الذي سجل في نهاية سفره أهم الشخصيات في تاريخ اليهود منذ حنوخ وصولا إلى الكاهن شمعون الذي عاش في القرن الثاني ق.م. مع الوضع

في الاعتبار أنه ذكر نحميا أيضا (بن سيرا ٤٤ – ٥٠)، يضاف إلى ذلك أن يوسيفوس يرى أن نحميا هو من أعاد بناء أسوار أورشليم وأعاد تعميرها للسكن من جديد.(٨٩)

وعلى هذا يمكن الوصول إلى نتيجة محتملة بقوة بأن شخصية عزرا لم تكن موجودة من الأصل، وأنها بهذا المعنى شخصية أسطورية من اختلاق مؤلف السفر، وهذه النتيجة وصل إليها منذ ما يزيد على قرن كامل كل من إرنست رينان E. renan، و تيودور نولدكه T. Nöldeke، وألفريد لويزي A. Loisy.(٩٠) فقد ذهب رينان إلى أن شخصية عزرا شخصية خيالية من اختلاق الكهنة الذين أرادوا مواجهة تفوق نحميا ومكانته لأن نحميا لم يكن حريصا على الطقوس الدينية وكان متحررا من قبضة الكهنة.(٩١) ورغم أن كلام رينان يفيد بأن نحميا كان شخصية حقيقية طبقا لقوله، إلا أننا ننظر إلى سفر نحميا بتحفظ كبير، فليس معنى ورود اسم نحميا في كتابات يوسيفوس أو سفر بن سيرا أن شخصيته حقيقية، أو على الأقل أن ما نسب إليه من أعمال حقيقي. والسؤال الذي يطرح نفسه أيضا كيف يذكر سفر نحميا شخصية عزرا وأغلب الظن أن عزرا ليس شخصية حقيقية؟ ألا يمكن أن يكون سفر نحميا قد حرر في وقت متأخر، ربما في عصر المكابيين أو بعده؟ فقد كان عصر المكابيين عصر إحساس متنام بالقومية، وكانت هذه الفترة مناسبة لكتابة كثير من أسفار العهد القديم، واختلاق العديد من الشخصيات لتنمية الرغبة في مقاومة السلطات اليونانية سواء في عصر يهوذا المكابي، أو يوحنان هيركانوس.

إن روايات سفر عزرا لا تعتمد على أي سند تاريخي؛ وهي شكل من أشكال الدعاية اليهودية التي اختلقتها العقلية اليهودية القديمة. ولعل من بين الأدلة على ذلك أن عزرا الذي صوره السفر على أنه من جمع شريعة موسى وحفظها من الضياع لا نجد له أي ذكر في سفر يشوع بن سيرا، ولا في سفر المكابيين الثاني، وأسفار العهد الجديد لا تذكره مطلقا.(٩٢) فكيف لشخص بهذه الأهمية أن يهمل ذكره على هذا النحو؟ ألا يشير ذلك إلى أننا ربما نكون أمام شخصية مختلقة من الأصل؟

هناك أمر آخر يزيد من شكنا في رواية سفري عزرا ونحميا عن أوضاع اليهود في العصر الفارسي؛ إذ يوحي السفران بأن عزرا ونحميا قد نجحا في إعادة بني إسرائيل إلى عبادة يهوه، والتغلب على المعتقدات الغريبة التي ارتبطت بالزواج من الأجنبيات. لكن الاكتشافات الأثرية تشير إلى خلاف ذلك؛ فقد أوضح *أيزاك دي هولستر* I. De Hulster أن الاكتشافات التي جرت في مدينة داود (حيث بنى داود قصره في أورشليم وحيث أسس عاصمته) بين عامي ١٩٧٨-١٩٨٥ واكتشف فيها أجزاء واحد وخمسين تمثالا صغيرا تعود للعصر الفارسي وتمثل عددا من الآلهة كانت مستخدمة في يهوذا خلال العصر الفارسي، ومما يرجح أن تكون هذه التماثيل لآلهة أن الوصايا العشر حرمت بوضوح نحت التماثيل حتى لا تصبح مدخلا لعبادة وثنية.[٩٣]

هناك أيضا ما قد يبرهن على أن الجماعة اليهودية في فلسطين خلال العصر الفارسي كانت ممزقة، وأن عدد اليهود كان محدودا للغاية، كما أنهم كانوا في غاية الفقر طوال هذا العصر. وتسلط الأدلة الأثرية الخاصة بالعملات الضوء على الوضع الاقتصادي والاجتماعي لهذه الجماعات خلال العصر الفارسي؛ حيث تعددت عملات الجماعات المجاورة وكانت أكثر بكثير مما كان عند يهود فلسطين، وهذا يمكن تفسيره بأنه دليل على صغر حجم الجالية اليهودية في فلسطين في العصر الفارسي وضعفهم مقارنة بجيرانهم.[٩٤] وإذا كان الأمر على هذا النحو فكيف يمكن إذن قبول روايات سفري عزرا ونحميا في ظل معلومات توحي بغلبة اليهود في فلسطين دون معطيات حقيقية تؤكد ذلك، بل معطيات تثبت العكس. حتى أن تومسون ذهب إلى أن من نقل أو أعيد إلى فلسطين لم يكونوا إسرائيليين، لكن الروايات التوراتية اعتبرتهم كذلك، ونظر المهاجرون إلى أنفسهم بأنهم من بني إسرائيل.[٩٥] بل إنهم سمحوا لأنفسهم بإسكات صوت الشعوب الأخرى في فلسطين وإلغاء وجودها حسبما نفهم من سفري عزرا ونحميا.[٩٦]

يثير بعض الباحثين الغربيين كذلك سؤالا يتعلق بأسباب سماح كوروش بهجرة يهود بابل إلى فلسطين، فإذا لم يكن هناك أي دليل على أن أحدا في إدارة

الدولة الفارسية لم يقرأ التوراة، التي لم تكن قد دونت نهائيا بعد، فكيف يمكن أن يتعاطفوا مع يهود بابل بالسماح لهم بالهجرة إلى فلسطين؟ خاصة وأن القصص - التي ربما كانت تنتقل شفاهة - التي كانت تتحدث عن أحقية بني إسرائيل في الأرض تدور حول شخصيات لم تكن تنتمي في الأصل إلى فلسطين بل إلى بلاد الرافدين أو إلى مصر؛ فإبراهيم ولد هناك ثم بدأ في التنقل من مكان لآخر، ويعقوب انتقل إلى مصر حيث استقر فيها أحفاده قرابة أربعة قرون قبل أن يعودوا إلى فلسطين. فكيف لمثل هذه القصص أن تدعم مطلبهم بالاستحواذ على فلسطين؟.[٩٧]

نتيجة لما ذكرناه ولأسباب أخرى ذهب *فيليب ر. دافيز* إلى أن قصة السبي والعودة لم تعد تتناسب مع أي حقيقة تاريخية، وهذه الرؤية أصبحت شائعة عند كثير من الباحثين.[٩٨] وربما كانت الأسباب التي دعت مؤرخي بني إسرائيل القدامى لاختلاق سفر إستير الذي يروي قصة بطلة خرافية لبعث العامل القومي بين بني إسرائيل، هي نفسها الأسباب التي دعتهم لاختلاق روايات سفري عزرا ونحميا.

بل قد تكون أسباب ذلك المؤرخ القديم وأهدافه في اختلاق هذه الروايات هي نفسها الأسباب التي دعت لقبول هذه الروايات من قبل مؤرخي العصر الحديث؛ فالتشابه الكبير بين النظرية التي قامت عليها الصهيونية في العصر الحديث بدعوتها لاسترجاع فلسطين - الأرض التي لا صاحب لها حسب دعاوى الصهيونية - وبين الفكرة ذاتها في سفري عزرا ونحميا هي الدافع الأساس وراء تسليم دارسي العهد القديم، والباحثين في التاريخ الإسرائيلي القديم بصحة روايات عزرا ونحميا. بل إن روايات عزرا ونحميا كانت نموذجا اتبعته الصهيونية في عملياتها الاستيطانية في العصر الحديث. ولذلك وقف كثير من مؤيدي الصهيونية ضد من يرفضون فكرة عودة اليهود من الأساس على يد كورش والذين يشككون في وجود قرار لكورش يسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين؛ وأكد هؤلاء على وجود أصل لهذا القرار وإن اختلف مضمونه عما جاء في سفر عزرا.[٩٩] في هذا الصدد يرى *أولبريت* أن مذكرات عزرا كتبت بيد عزرا نفسه، وأن كل الاعتراضات المادية للرأي القائل

بأن مذكرات عزرا ليست أصلية ثبت عدم صحتها، أو في الطريق لدحضها بواسطة الاكتشافات الأثرية الحديثة.(١٠٠) وقد أشرنا من قبل إلى أن الاكتشافات المتتابعة تثبت كل يوم أن زمن كتابة سفر عزرا متأخر، وتشكك في روايات السفر.

نتيجة لما سبق اختلف الباحثون في تاريخ كتابة السفرين اختلافا كبيرا؛ فقد ذهب بعض من يربطون بين السفرين إلى أنه نظرا لما يخبرنا به السفر من أن نهاية دور نحميا كان حوالي عام ٤٣٢ ق.م. فإن تاريخ كتابة السفرين قد يعود إلى منتصف القرن الرابع ق.م.، أو آخره طبقا لبعض الباحثين.(١٠١) ويرى *إ. ج. وليامسون* E. G. Williamson أن تاريخ كتابة سفر عزرا ونحميا يعود إلى الفترة من ٤٠٠ إلى ٣٠٠ ق.م.(١٠٢) وهناك من يرى أن تأليف السفرين كان في النصف الأول من القرن الرابع ق.م.(١٠٣) أما *جاربيني* Garbini فينسب كتابة مذكرات نحميا إلى العصر الهليني، أما شخصية عزرا فاعتبرها شخصية وهمية غير موجودة من الأصل.(١٠٤) ويرى جاربيني أن سفر عزرا كتب في نهاية القرن الرابع ق.م. لهدف أيديولوجي واضح هو التأكيد على مكانة هيكل أورشليم ضد المعبد الذي بناه الإسكندر الأكبر لليهود على جبل جريزيم، وأن الخطابات المرسلة من ملوك الفرس (كوروش، أرتحشستا، وداريوش) والتي ألبست ثوبا تاريخيا هي خطابات مختلقة.(١٠٥) وربط آخرون بين أسفار أخبار الأيام الأول والثاني وعزرا ونحميا باعتبارها ذات أسلوب واحد، وهؤلاء رأوا أن كتابة مجموعة هذه الأسفار تعود إلى عام ٣٠٠ ق.م. أو بعده.(١٠٦)

ويشير *أ. روفا* א. רופא إلى أن كاتب سفري عزرا ونحميا كان بعيدا عن الأحداث، ولم يكن لديه مواد تراثية كافية أو مصادر يستعين بها، وأن ما أتيح له كان عبارة عن معلومات محدودة من مصادر قديمة، كما أنه لم يكن مطلعا على التراث الشفوي. وتشير الأسماء الواردة في السفرين – طبقا لرأي روفا – إلى أن الكاتب ربما عاش بعد عصر كوروش بمائتي سنة أي أنه عاش في عصر الإسكندر الأكبر واستيلائه على أغلب الشرق الأدنى القديم عام ٣٣٢ ق.م. ويؤكد روفا صراحة أن سفري عزرا ونحميا لا يمكن الوثوق فيهما كمؤلف تاريخي.(١٠٧)

وإذا سلمنا بما ذهب إليه *أ. روفا* من أن كاتب سفري عزرا ونحميا قد استعان بسفري حجي وزكريا كأحد المصادر التي أعانته في عمله.(١٠٨) فإن هذا يعني أن تاريخ كتابة السفرين لم يكن في القرن الرابع ق.م. بل بعد ذلك بكثير؛ إذ ليس هناك ما يثبت وجود سفري حجي وزكريا في نسختهما النهائية في ذلك الوقت.

من الباحثين من يتحدث عن تاريخ أكثر تأخرا لكتابة سفر عزرا؛ إذ يذهب *سافراي* Safrai إلى ذلك معتمدا على أن الحج إلى أورشليم المشار إليه في سفر عزرا ١: ٣ كان سمة خاصة بعصر الحشمونيين وما بعده؛ أي أنه يعود للقرن الثاني ق.م. وما بعده.(١٠٩) يتفق ذلك مع ما ذهب إليه سبينوزا منذ قرون؛ فقد رأى أن كتابة أسفار عزرا ونحميا وإستير ودانيال دونت بعد أن أعاد يهوذا المكابي ممارسة الطقوس وقام بتطهير الهيكل بمدة طويلة.(١١٠)

السؤال الذي يبرز هنا هو هل من الممكن بناء تاريخ عن أوضاع اليهود خلال هذه الفترة في ظل هذه المعلومات المتضاربة والمتناقضة، وفي ظل الآراء المتباينة التي تدفع بقوة في التشكك في المصدر الأساس الذي يغطي أحداث هذا العصر الخاصة بيهود فلسطين؛ والإجابة عن ذلك ليست سهلة في ظل تغليبنا للرأي القائل بتأخر كتابة السفرين، وفي ظل تأخر تحريرهما. فسفر نحميا يذكر في مطلعه عبارة "**كلام نحميا بن حكليا: حدث في شهر كسلو في السنة العشرين**" (نحميا ١: ١)، دون أن يحدد أي سنة عشرين يقصد! وكان من الطبعي أن تجيب العبارة نفسها عن ذلك، إلا أن الإجابة جاءت في بداية الإصحاح الثاني "**في السنة العشرين لأرتحشستا الملك**" (٢: ١). وهذا التحديد في الإصحاح الثاني يدل على إعادة تحرير، ولا يدفعنا للتأكد من أنها كانت السنة العشرين لأرتحشستا بالفعل، فربما قصد محرر الإصحاح الأول شيئا غير ذلك. وهذا التحرير المتأخر – حسب اعتقادنا – يجعل مسألة الوثوق فيما يذكره الكاتب محل شك كبير.

إن تحديد كتابة تاريخ السفرين مسألة مهمة نظرا لتأثيرها في معرفة أوضاع اليهود خلال العصر الفارسي. ويعتقد الباحث أن كتابة السفرين لم تكن في القرن

الرابع أو الثالث أو حتى الثاني ق.م. فمن المحتمل أن كتابة سفري عزرا ونحميا تعود إلى القرن الأول ق.م. في الوقت الذي كانت تسيطر فيه على مملكة يهودية الصغيرة أسرة هيرود؛ وهي أسرة أدومية متهودة حكمت هذه المملكة اليهودية الصغيرة في القرن الأول ق.م. بتفويض من الإمبراطورية الرومانية، بحيث تكون كتابة السفرين لمقاومة الزواج من الأجنبيات، ومحاولة تجنب فساد عرقي متوقع أو واقع يسيء إلى الجماعة المقدسة، ويدنس مقدسات اليهود، لكن ربما لم تكن لدى الكاتب الجرأة للتصريح بذلك، فلجأ لانتحال القصة حتى لا يصدر السفر وكأنه رفض لما يقرره قادة المملكة المتهودون.

أما بالنسبة لأوضاع اليهود خلال العصر الفارسي نفسه فإن الكتابات التي تعود لملوك الفرس في عصر الدولة الأخمينية تشير إلى أن الفرس أبقوا على التقسيم الإداري لمنطقة سوريا وفلسطين كما كانت عليه أيام سيطرة الأشوريين والبابليين، مع منحهم حريات داخلية كبيرة واستقلالا دينيا وقوميا للبلدان الخاضعة لهم، وكانت إدارة كل بلد من خلال حاكم فارسي يلقب بـ ستراب.[١١١] وربما حصل اليهود كغيرهم على بعض من هذه الحريات على المستوى الديني، دون أن يكون هناك ما يدعمها من مصادر سوى بعض المراسيم التي صدرت عن ملوك الفرس بمنح الحريات الدينية لكثير من الشعوب الكبرى ممن خضعت للإمبراطورية الفارسية.

الخاتمة

توصلت الدراسة لعدد من النتائج منها:

- أن عملية البحث عن تاريخ بني إسرائيل كانت دائما مرتبطة بالأيدولوجيا والعاطفة الدينية، ونادرا ما تمكن الباحثون من تجنب هذا الارتباط.
- أن كثيرا من المؤسسات التي تخصصت لدراسة تاريخ فلسطين القديم كانت مؤسسات دينية، أو تمول من مؤسسات دينية – جزئيا أو كليا – وأن عددا كبيرا من علماء الآثار الذين نقبوا عن الآثار في فلسطين كانوا في الأصل رجال دين؛ مسيحيين أو يهود، تدفعهم العاطفة الدينية بقوة لإثبات صحة الرواية التاريخية

للعهد القديم، وتوجه أبحاثهم لقراءة الآثار المكتشفة وفقا لهذه الرغبات وإن خالفت الحقيقة، بل وصل الأمر إلى تزييف القطع الأثرية من أجل هذا الغرض. ونتيجة لذلك أصبح علم الآثار تابعا لتفوق النص الأدبي، وكان على هذا العلم أن يقدم الدليل الأثري الذي يثبت صدق النص.

- أوضحت الدراسة كذلك أن عددا كبيرا من هؤلاء الباحثين كانوا مؤيدين للصهيونية وادعاءاتها، وهذا كان له دوره في عمليات البحث كذلك بتوجيه دراساتهم لإثبات إسرائيل القديمة من أجل التمهيد لإنشاء الوطن القومي الذي كانت تنادي به الصهيونية من خلال احتلال فلسطين، في ظل غفلة من العالم العربي عن دور علم الآثار وعلم التاريخ في القضايا الكبرى.
- ظهور جيل من الباحثين يرفض الرواية التوراتية، ويقدم رؤية مغايرة تماما للرؤية التقليدية المتأثرة بالدين، لكن هذا الجيل من الباحثين كانت له أيديولوجياته أيضا، لكنهم مع ذلك حاولوا التحرر من مسألة التسليم بالنص؛ فجاءت نتائج أبحاثهم تتفق في كثير من الأحيان مع الرؤية العربية.
- أثبتت الدراسة أن تأريخ أحداث العصر الفارسي تم على أيدي المؤرخين اليونان، وأن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا شيئا ذي قيمة تاريخية حول اليهود خلال العصر الفارسي باستثناء معلومات محدودة للغاية حول بعض عاداتهم، وهذا المعلومات تعود لأواخر القرن الرابع ق.م.، كما أن أحدا من المؤرخين القدماء لهذا العصر لم يذكر اسم أي شخصية من الشخصيات اليهودية التي يحكي عنها العهد القديم.
- أن المصدر الوحيد لهذا العصر هو ما جاء في سفري عزرا ونحميا، وقد أكدت الدراسة على أن المصادر الفارسية لا تذكر مطلقا أي شيء عما جاء من معلومات في السفرين، وأن المرسوم الذي أصدره كوروش متضمنا منح حريات دينية للأقاليم الخاضعة إليه لم يتضمن أي إشارة لليهود، ولم يتحدث مطلقا عن منحهم حق العودة كما جاء في سفر عزرا. كذلك كان التناقض الكبير داخل السفر الواحد، وبين السفرين دافعا لعدم قبول ما جاء فيهما من روايات.

- كانت هناك أسفار أخرى تعطي بعض المعلومات عن أوضاع اليهود خلال هذا العصر، لكن هذه المعلومات كانت محدودة القيمة؛ مثلما الحال في أسفار زكريا وحجي...، أو ربما كانت أسفارا محل شك، ولا يقبل الباحثون صحتها مثلما الحال في سفر إستير.
- أوضحت الدراسة أيضا أن قبول الرواية في سفري عزرا ونحميا من قبل بعض الباحثين أصحاب الأيديولوجيات الصهيونية كان لتوافق ما جاء في السفرين مع الادعاءات الصهيونية الحديثة، وأن بعض ما تضمناه من مفاهيم كان يسير وفق هذا النسق؛ كمفهوم الأرض الخالية، وهو مفهوم مرفوض قديما أو حديثا.
- عرضت الدراسة للآراء المختلفة حول زمن تأليف سفري عزرا ونحميا؛ وأغلب هذه الآراء كان يرد تأليفهما إلى وقت متأخر (منتصف القرن الرابع ق.م.، أو آخره، أو القرن الثالث، أو إلى عصر المكابيين في القرن الثاني ق.م.) ورأى الباحث أن تأليف السفرين يعود إلى عصر حكم أسرة هيرود - ذات الأصول الأدومية - في القرن الأول ق.م. وأن السفر انتحل لمقاومة الزواج من الأجنبيات، ومحاولة تجنب الفساد العرقي المتوقع أو الواقع، وتجنب تدنيس مقدسات اليهود.

الهوامش :

(1) M. I. Finley: Ancient History; Evidence and Models. New York, Viking 1986. p. 4.

(٢) י. אמית: היסטוריה ואידיאולוגיה במקרא. הוצאת משרד הביטחון, ת"א 1997, עמ' 91.

(٣) كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة؛ إسكات التاريخ الفلسطيني. ترجمة: سحر الهنيدي. عالم المعرفة ٢٤٩. الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٩٩٩. ص. ٤١، ٤٧.

(4) T. L. Thompson: *The Role of faith in Historical Research*. SJOT. 19/1, 2005. pp. 111-134.

(5) J. B. Kofoed: *The Role of faith in Historical Research; A Rejoinder*. SJOT. 21/2, 2007. pp. 275-298.

(6) L. L. Grabbe: *Hat die Bibel doch recht? A Review of T.L. Thompson's The Bible in History*. SJOT. 14/1, 2000. pp. 117-140.

(7) T. L. Thompson: *Lester Grabbe and Historiography; An Apologia*. SJOT. 14/1, 2000. pp. 140-161.

(8) W. G. Dever: *Histories and Nonhistories of Ancient Israel*. BASOR. No. 316. 1999. p. 92.

(9) J. Barr: History and Ideology in the Old Testament. Oxford University Press, New York 2000. p. 72.

(10) T. W. Davies: Shifting Sands, the Rise and Fall of Biblical Archaeology. Oxford University Press, New York 2004. p. 140.

(١١) يمكن الرجوع لجانب من هذا الجدال في:

- J. C. H. Laughlin: Archaeology and the Bible. Routledge, London 2000. pp. 10-12.

تجدر الإشارة أيضا إلى أن مصطلح آثار العهد القديم استخدم عنوانا لعدد من الدراسات المشهورة سواء تلك التي تعود إلى منتصف القرن العشرين وقبله، أو ما كتب مؤخرا، من هذه الدراسات:

- G. E. right: biblical Archaeology. The Westminster Press, Philadelphia 1960.
- E. H. Cline: Biblical Archaeology, A Very Short Introduction. Oxford University Press, Oxford 2009.

ومن ذلك أيضا: تخصيص دوريات بنفس الاسم مثل "The Biblical Archaeologist" التي تصدرها "المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية ASOR"

هذا فضلا عن توظيف المصطلح نفسه داخل الدراسات والمؤلفات المتعلقة بمجال البحث في آثار فلسطين القديمة.

(12) T. W. Davies: p. 125.

(١٣) أحمد محمود هويدي: معالم تاريخ الشعوب العربية القديمة. القاهرة ـــ دار الثقافة العربية ٢٠٠٣. ص ٢٦.

(14) J. J. Collins: *The Politics of Biblical Interpretation*. In: Biblical and Near Eastern Essays. Ed. C. McCarthy & J. F. Healey. JSOTSup. 375. T & T Clark, London 2004. p. 200.

(15) E. B. Smith: *Bible, Archaeology, and the Social Sciences.* In: The Hebrew Bible: new insights and scholarship. Ed. F. E. Greenspahn, New York University Press 2008. P. 25.

(16) T. W. Davies: pp. 125, 126-127.

(١٧) وايتلام: ص. ٢٧.

انظر أيضا:

- T. W. Davies: p. 131.

(18) Ibid: p. 124.

(19) G. A. Rendsburg: *Israel Without the Bible.* In: The Hebrew Bible: new insights and scholarship. Ed. F. E. Greenspahn, New York University Press 2008. P. 3.

(٢٠) و. ف. أولبريت: آثار فلسطين. ترجمة: زكي اسكندر، محمد عبد القادر. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٩٧١. ص. ٢٤٩.

(21) G. W. Ahlström: *The Role of Archaeological and Literary Remains in Reconstructing Israel's History.* In: The Fabric of History, Text, Artifact and Israel's Past. Ed. Diana V. Edelman. JSOTSup. 127, Sheffield 1991. P. 121.

(22) L. L. Grabbe: *Are Historians of Ancient Palestine Fellow Creatures or Different Animals?. In:* Can a History of Israel be written?. Ed. L. L. Grabbe. JSOTSup. 245, Sheffield Academic Press. Sheffield 1997. pp. 24, 35.

(٢٣) يقصد بالمصادر فوق النصية تفسير النص سواء كان اكتشافا أثريا أو أي نص آخر؛ حيث يكون معنى النص احتماليا إلا أنه يتم ترجيح معنى بعينه يتوافق مع ما يريده الباحث، وهذا تم بصورة واسعة في التعامل مع آثار فلسطين نتيجة ميول وأهواء الباحثين التي كانت مرتبطة بالصهيونية، أو بالمؤسسات الدينية التي تمول أبحاثهم.

(24) R. P. Carroll: *Madonna of Silences: Clio and the Bible. In:* Can a History of Israel be written?. Ed. L. L. Grabbe. JSOTSup. 245, Sheffield Academic Press. Sheffield 1997. pp. 93, 102.

(25) C. Isbell: *Minimalism; the Debate Continues, Part 2.* Jewish Bible Quarterly. 32/4, 2004. p. 212.

(26) P. R. Davies: *Method and Madness: Some Remarks on Doing History with the Bible.* JBL. Vol. 114, No. 4, 1995. p. 702.

(27) P. R. Davies: In search of Ancient Israel. JSOTSup 148, 2nd ed. Sheffield 1995. P. 154.

(28) J. E. Barnhart: *Acknowledged Fabrication in 1 and 2 Samuel and 1 Kings 1-2.* SJOT. 20/2, 2006. pp. 231-236.

(29) Isbell: pp. 143-144.

(30) P. N. Lemche: *Ideology and the History of Ancient Israel.* SJOT. 14/2, 2000. P. 165.

- G. Garbini: Myth and History in the Bible. JSOTSup. 362. Sheffield Academic Press. Sheffield 2003. P. 100.

(31) P. N. Lemche: *Ideology and the History of Ancient Israel.* pp. 167 - 170.

(32) Isbell: p. 144.

(33) Rendsburg: pp. 6 - 7.

(34) D. Henige: *In Good Company; Problematic Sources and Biblical Historicity*. JSOT. 30/1, 2005. pp. 29-30.

(35) W. G. Dever: Did God Have a Wife? Archaeology and Folk Religion in Ancient Israel. W. B. Eerdmans publishing, Michigan 2005. p. 83.

(36) Henige: p. 30.

(37) Ibid: p. 31.

(38) T. L. Thompson: *An Introduction; Can a History of Ancient Jerusalem and Palestine be written?*. In: Jerusalem in Ancient History and Tradition. Ed. T. L. Thompson. JSOTSup. 381. T & T Clark International, London. 2003. p. 1.

(٣٩) أحاد هعام (١٨٥٦ - ١٩٢٧) هو رائد الصهيونية الروحية التي كانت تنادي بأن تكون فلسطين مركزا روحيا يؤثر إيجابيا على اليهود في أنحاء العالم.

(٤٠) אמית: עמ' 90.

(41) J. Blenkinsopp: *The Bible, Archaeology and Politics; or The Empty Land Revisited*. JSOT. 27/2, 2002. p. 169.

(42) P. R. Davies: *The Society of Biblical Israel*. In: Second Temple Studies, 2. Temple Community in the Persian Period. Ed. T. C. Eskenazi & K. H. Richards. JSOTSup. 175. Sheffield Academic Press. Sheffield 1994. pp. 24-25.

(43) Dever: *Histories and Nonhistories of Ancient Israel*. p. 90.

(٤٤)[1] - وايتلام: ص. ٣١٢.

(45) N. A. Silberman: Digging for God and Country. New York. Alfred A. Knopf. 1982.

(46) Collins: p. 202.

(47) W. Brueggmann: Theology of the Old Testament. Fortress Press, Minneapolis 1997. p. 24.

- B. W. Anderson: Understanding the Old Testament. Prentice – Hall, New Jersey 1957. p. 14.

(48) J. Blenkinsopp: *The Bible, Archaeology and Politics; or The Empty Land Revisited*. JSOT. 27/2, 2002. pp. 171-172.

(49) G. A. Smith: The Historical Geography of the holy Land. 7th ed. Armstrong and son, New York 1901.

(50) Blenkinsopp: p. 170.

(51) B. Bicking: *Inscribed Seals as Evidence for Biblical Israel? Jeremiah 40: 7-41: 15 par example. In:* Can a History of Israel be written?. Ed. L. L. Grabbe. JSOTSup. 245, Sheffield 1997. p. 68.

(52)[1] - L. L. Grabbe: Ancient Israel, What Do We Know and How Do We Know It?. T & T Clark, New York 2007. p. 17.

(٥٣) ناقش جمال حمدان هذه المسألة بتوسع؛ حيث ركز على العلاقة الأنثروبولوجية بين بني إسرائيل ويهود العصر الحديث. ورصدت الدراسة عددا كبيرا من نقاط الاختلاف بين الصفات الخلقية لشعوب المنطقة السورية

الفلسطينية قديما – ومنهم بنو إسرائيل – وبين يهود العصر الحديث تجعل من الصعوبة بمكان اعتبار هؤلاء اليهود امتدادا لبني إسرائيل. لمزيد من التفاصيل راجع:

جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيا. دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٧.

(54) G. Garbini: *Hebrew Literature in the Persian Period.* In: Second Temple Studies 2. Temple Community in the Persian Period. Ed. T. C. Eskenazi & K. H. Richards. JSOTSup. 175. Sheffield Academic Press. Sheffield 1994. P. 183.

(55) L. L. Grabbe: A History of the Jews and Judaism in the Second Temple Period, Vol. 1. T & T Clark, New York 2004. p. 17.

(٥٦)ت. ل. تومسون: أسفار العهد القديم في التاريخ، اختلاق الماضي. ترجمة: عبد الوهاب علوب. المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة ٢٠٠٠. ص. ٢٩٨ – ٢٩٩.

(57) H. O. Thompson: *YAHWEH*, in: The Anchor Bible Dictionary. Ed. D. N. Freedman. Doubleday New York 1992.

- K. V. Toorn: *Yahweh.* In: Dictionary of Deities and Demons in the Bible. Ed. K. Van Der Toorn, B. Becking & P. W. Der Horst. 2nd ed. Brill, Leiden 1999. p. 911.

(58) Blenkinsopp: pp. 175-176.

(59) O. Murray & M. Stern: *Hecataeus of Abdera and Theophrastus on Jews and Egyptians.* The Journal of Egyptian Archaeology. Vol. 59, 1973. pp. 159 - 161.

(60) J. B. Pritchard: Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. 3rd ed. Princeton University Press, New Jersey 1969. p. 316.

(61) A. Kuhrt: The Persian Empire, A Corpus of Sources from the Achaemenid Period. Vol. 1, Routledge, New York 2007. p. 85.

(62) L. L. Grabbe: Ezra - Nehemiah. Routledge, New York 1998. p. 124.

(63) Ibid: p. 125.

(64) Ibid: p. 122.

لمزيد من التفاصيل عن ذلك؛ راجع:

(65) C. A. Moore: *Esther, Book of*, in: The Anchor Bible Dictionary. Ed. D. N. Freedman. Doubleday New York 1992.

(66) L. L. Grabbe: An Introduction to Second Temple Judaism. T & T Clark, New York 2010. p. 3.

(67) Collins: pp. 196-197.

(٦٨)ש. יפת: עם וארץ בתקופת שיבת ציון. מן: מחקרים בתולדות ישראל בתקופת הבית השני. מרכז זלמן שזר, ירושלים תשנ"ו. עמ' 128.

(69) J. Schaper: *The Temple Treasury Committee in the Times of Nehemiah and Ezra.* Vetus Testamentum. 47/2, 1997. pp. 200-206.

(70) R. J. Littman: *Athens, Persia and the Book of Ezra.* Transactions of the American Philological Association. Vol. 125, 1995. p. 252.

(71) W. Oswald: *Foreign Marriages and Citizenship in Persian Period Judah.* Journal of Hebrew Scriptures. 12/6, 2012. pp. 1-17.

(72) E. Stern: *The Persian Empire and the Political and Social History of Palestine in the Persian Period*. In: The Cambridge History of Judaism, Vol. 1. Ed. W. D. Davies & L. Finkelstein. Cambridge University Press, New York 1984. P. 72.

(73) P. Frei: Persain Imperial Authorization; A Summary. In: Persia and Torah, the Theory of Imperial Authorization of the Pentateuch. Ed. J. W. Watts, SBL Symposium Series 17, Atlanta 2001. p. 12.

(٧٤) י. אהרוני: ארץ ישראל בתקופת המקרא, גיאוגראפיה היסטורית. הוצאת יד יצחק בן צבי, ירושלים תשמ"ח. עמ' 316 – 317.

(٧٥) א. שטרן & ח. תדמור: שלטון פרס (538 – 332 לפני הספירה). מן: ההיסטוריה של ארץ ישראל. כרך שני. הוצאת כתר, ירושלים 1998. עמ' 228.

(76) G. E. right: pp. 130. 132 – 136.

(٧٧) مؤيد سعيد: العراق خلال عصور الاحتلال "الأخميني، السلوقي، الفرثي الساساني" من: العراق في التاريخ. بغداد ـــ دار الحرية للطباعة ١٩٨٣. ص. ٢٤٥.

(٧٨) مصطفى كمال عبد العليم، سيد فرج راشد: اليهود في العالم القديم. دمشق - دار القلم ١٩٩٥. ص. ١٧٧.

(79) M. Douglas: *Responding to Ezra; the Priests and the Foreign Wives*. Biblical Interpretation 10/1, 2002. p. 1.

(٨٠) زياد منى: مقدمة في تاريخ فلسطين القديم. بيروت - بيسان ٢٠٠٠. ص. ١٠٢.

(٨١) السابق: ص. ١٠٣.

(٨٢) السابق: ص. ١٠٥.

(83)[1] - Grabbe: *Are Historians of Ancient Palestine Fellow Creatures or Different Animals?*. p. 35.

(84)[1] - Blenkinsopp: p. 187.

- Dever: Did God Have a Wife? Archaeology and Folk Religion in Ancient Israel. P. 293.

(85) Blenkinsopp: p. 187.

(٨٦) מ. הלצר & מ. קוכמן & א. רפפורט & י. אבישור: עולם התנ"ך, דניאל, עזרא ונחמיה. הוצאת דברי הימים, ת"א 2002. עמ' 113.

(87) D. Marcus: *Ezra*. In: Encyclopaedia Judaica. Vol. 2, 2nd ed. Keter Pub. New York 2007. p. 652.

انظر أيضا:

א. רופא: מבוא לספרות ההיסטורית שבמקרא. הוצאת כרמל, ירושלים 2001, עמ' 70.

(88) Grabbe: An Introduction to Second Temple Judaism. p. 4.

(89) Garbini: Myth and History in the Bible. P. 103.

(90) Ibid: pp. 103-105.

(91) J. Blenkinsopp: *Footnotes to the Rescript of Artaxerxes*. In: The Historian and the Bible. Ed. P. R. Davies & D. V. Edelman. T & T Clark, New York 2010. P. 151.

(92) Grabbe: Ezra - Nehemiah. p. 150.

(93) I. De Hulster: *Figurines from Persian Period Jerusalem*. ZAW. 124/1, 2012. pp. 73-88.

(94) J. U. Ro: *The Theological Concept of YHWH's Punitive Justice in the Hebrew Bible; Historical Development in the Context of the Judean Community in the Persian Period.* Vetus Testamentum 61/3, 2011. pp. 420-421.

(٩٥) تومسون: ص. ٢٨٩.

(96) P. R. Davies: *Exile? What Exile? Whose Exile?*. In: Leading Captivity Captive. Ed. L. L. Grabbe: Sheffield Academic Press, Sheffield 1998. p. 135.

(97) Isbell: p. 145.

(98) Barr: p. 98.

(٩٩) הלצר & קוכמן & רפפורט & אבישור: עמ' 114.

(١٠٠) أولبريت: ص. ٢١٨.

(101) P. R. Bedford: *Diaspora; Homeland Relations in Ezra-Nehemiah.* Vetus Testamentum. 52/2, 2002. p. 148.

(102) E. G. M. Williamson: Ezra and Nehemiah. Sheffield Academic Press, Sheffield 1996. p. 46.

(١٠٣) [1] – יפת: עמ' 136.

(104) Barr: pp. 92, 99.

(105) Garbini: P. 101.

(106) A. D. H. Mayes: *Historiography in the Old Testament.* In: The Biblical World, Vol. 1. Ed. J. Barton. Routledge, New York 2002. P. 79.

(١٠٧) רופא: עמ' 68 – 71.

(١٠٨) שם: עמ' 71.

(109) M. D. Knowles: *Pilgrimage to Jerusalem in the Persian Period.* In: Approaching Yehud, New Approaches to the Study of the Persian Period. Ed. J. L. Berquist. Society of Biblical Literature. Atlanta 2007. P. 7.

(١١٠) باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة. ترجمة: حسن حنفي. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – القاهرة ١٩٧١. ص. ٣٢٠.

(١١١) אהרוני: עמ' 315.

المصادر والمراجع

١ - المصادر والمراجع العربية:

- الكتاب المقدس. القاهرة - دار الكتاب المقدس، ١٩٨٣.
- أحمد محمود هويدي: معالم تاريخ الشعوب العربية القديمة. القاهرة ــ دار الثقافة العربية ٢٠٠٣.
- أولبريت، و. ف.: آثار فلسطين. ترجمة: زكي اسكندر، محمد عبد القادر. القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧١.
- باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة. ترجمة: حسن حنفي. القاهرة - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١.
- تومسون، ت. ل.: أسفار العهد القديم في التاريخ، اختلاق الماضي. ترجمة: عبد الوهاب علوب. القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠.
- جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيا. القاهرة - دار الكاتب العربي ١٩٦٧.
- زياد منى: مقدمة في تاريخ فلسطين القديم. بيروت - بيسان ٢٠٠٠.
- كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة؛ إسكات التاريخ الفلسطيني. ترجمة: سحر الهنيدي. عالم المعرفة ٢٤٩. الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٩٩٩.
- مصطفى كمال عبد العليم، سيد فرج راشد: اليهود في العالم القديم. دمشق - دار القلم ١٩٩٥.
- مؤيد سعيد: العراق خلال عصور الاحتلال "الأخميني، السلوقي، الفرثي الساساني" من: العراق في التاريخ. بغداد ــ دار الحرية للطباعة ١٩٨٣.

٢ - المصادر والمراجع العبرية

- א. אבן שושן: המלון החדש. הוצאת קרית ספר, ירושלים, 1979.
- י. אהרוני: ארץ ישראל בתקופת המקרא, גיאוגראפיה היסטורית. הוצאת יד יצחק בן צבי, ירושלים תשמ"ח.

- י. אמית: היסטוריה ואידיאולוגיה במקרא. הוצאת משרד הביטחון, ת"א 1997.
- מ. הלצר & מ. קוכמן & א. רפפורט & י. אבישור: עולם התנ"ך, דניאל, עזרא ונחמיה. הוצאת דברי הימים, ת"א 2002.
- ש. יפת: עם וארץ בתקופת שיבת ציון. מן: מחקרים בתולדות ישראל בתקופת הבית השני. מרכז זלמן שזר, ירושלים, תשנ"ו.
- א. רופא: מבוא לספרות ההיסטורית שבמקרא. הוצאת כרמל, ירושלים 2001.
- א. שטרן & ח. תדמור: שלטון פרס (538 – 332 לפני הספירה). מן: ההיסטוריה של ארץ ישראל. כרך שני. הוצאת כתר, ירושלים 1998.
- ש. שרירא: מבוא לכתבי הקודש. הוצאת מבואות, ירושלים, תשכ"ד.

٣ – المصادر والمراجع الأجنبية

- Ahlström, G. W.: *The Role of Archaeological and Literary Remains in Reconstructing Israel's* History. In: The Fabric of History, Text, Artifact and Israel's Past. Ed. Diana V. Edelman. JSOTSup. 127, Sheffield 1991.
- Anderson, B. W.: Understanding the Old Testament. Prentice – Hall, New Jersey 1957.
- Barnhart, J. E.: *Acknowledged Fabrication in 1 and 2 Samuel and 1 Kings 1-2*. SJOT. 20/2, 2006.
- Barr, J.: History and Ideology in the Old Testament. Oxford University Press, New York 2000.
- Bedford, P. R.: *Diaspora;Homeland Relations in Ezra-Nehemiah.* Vetus Testamentum. 52/2, 2002.
- Bicking, B.: *Inscribed Seals as Evidence for Biblical Israel? Jeremiah 40: 7-41: 15 par example. In:* Can a History of Israel be written?. Ed. L. L. Grabbe. JSOTSup. 245, Sheffield 1997.
- Blenkinsopp, J.: *Footnotes to the Rescript of Artaxerxes.* In: The Historian and the Bible. Ed. P. R. Davies & D. V. Edelman. T & T Clark, New York 2010.
- Blenkinsopp, J.: *The Bible, Archaeology and Politics; or The Empty Land Revisited.* JSOT. 27/2, 2002.
- Brueggmann, W.: Theology of the Old Testament. Fortress Press. Minneapolis 1997.
- Carroll, R. P.: *Madonna of Silences: Clio and the Bible. In:* Can a History of Israel be written?. Ed. L. L. Grabbe. JSOTSup. 245, Sheffield Academic Press. Sheffield 1997.
- Cline, E. H.: Biblical Archaeology, A Very Short Introduction. Oxford

University Press, Oxford 2009.

- Collins, J. J.: *The Politics of Biblical Interpretation*. In: Biblical and Near Eastern Essays. Ed. C. McCarthy & J. F. Healey. JSOTSup. 375. T & T Clark, London 2004.

- Davies, P. R.: *Exile? What Exile? Whose Exile?*. In: Leading Captivity Captive. Ed. L. L. Grabbe: Sheffield Academic Press, Sheffield 1998.

- Davies, P. R.: In search of Ancient Israel. JSOTSup 148, 2nd ed. Sheffield 1995.

- Davies, P. R.: *Method and Madness: Some Remarks on Doing History with the Bible*. JBL. Vol. 114, No. 4, 1995.

- Davies, P. R.: *The Society of Biblical Israel*. In: Second Temple Studies, 2. Temple Community in the Persian Period. Ed. T. C. Eskenazi & K. H. Richards. JSOTSup. 175. Sheffield Academic Press. Sheffield 1994.

- Davies, T. W.: Shifting Sands, the Rise and Fall of Biblical Archaeology. Oxford University Press, New York 2004.

- De Hulster, I.: *Figurines from Persian Period Jerusalem*. ZAW. 124/1, 2012.

- Dever, W. G.: Did God Have a Wife? Archaeology and Folk Religion in Ancient Israel. W. B. Eerdmans publishing, Michigan 2005.

- Dever, W. G.: *Histories and Nonhistories of Ancient Israel*. BASOR. No. 316. 1999.

- Douglas, M.: *Responding to Ezra; the Priests and the Foreign Wives*. Biblical Interpretation 10/1, 2002.

- Finley, M. I: Ancient History; Evidence and Models. New York, Viking 1986.

- Frei, P.: Persain Imperial Authorization; A Summary. In: Persia and Torah, the Theory of Imperial Authorization of the Pentateuch. Ed. J. W. Watts, SBL Symposium Series 17, Atlanta 2001.

- Garbini, G.: *Hebrew Literature in the Persian Period*. In: Second Temple Studies 2. Temple Community in the Persian Period. Ed. T. C. Eskenazi & K. H. Richards. JSOTSup. 175. Sheffield Academic Press. Sheffield 1994.

- Garbini, G.: Myth and History in the Bible. JSOTSup. 362. Sheffield Academic Press. Sheffield 2003.

- Gesenius, W.: A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament. Oxford: the Clarendon Press, 1929.

- Grabbe, L. L.: A History of the Jews and Judaism in the Second Temple Period, Vol. 1. T & T Clark, New York 2004.

- Grabbe, L. L.: An Introduction to Second Temple Judaism. T & T Clark, New York 2010.

- Grabbe, L. L.: Ancient Israel, What Do We Know and How Do We Know It?. T & T Clark, New York 2007.

- Grabbe, L. L.: *Are Historians of Ancient Palestine Fellow Creatures or Different Animals?. In:* Can a History of Israel be written?. Ed. L. L. Grabbe. JSOTSup. 245, Sheffield Academic Press. Sheffield 1997.

- Grabbe, L. L.: Ezra - Nehemiah. Routledge, New York 1998.

- Grabbe, L. L.: *Hat die Bibel doch recht? A Review of T.L. Thompson's The Bible in History.* SJOT. 14/1, 2000.

- Henige, D.: *In Good Company; Problematic Sources and Biblical Historicity.* JSOT. 30/1, 2005.

- Isbell, C.: *Minimalism; the Debate Continues, Part 2.* Jewish Bible Quarterly. 32/4, 2004.

- Knowles, M. D.: *Pilgrimage to Jerusalem in the Persian Period.* In: Approaching Yehud, New Approaches to the Study of the Persian Period. Ed. J. L. Berquist. Society of Biblical Literature. Atlanta 2007.

- Kofoed, J. B.: *The Role of faith in Historical Research; A Rejoinder.* SJOT. 21/2, 2007.

- Kuhrt, A.: The Persian Empire, A Corpus of Sources from the Achaemenid Period. Vol. 1, Routledge, New York 2007.

- Laughlin, J. C. H.: Archaeology and the Bible. Routledge, London 2000.

- Lemche, P. N.: *Ideology and the History of Ancient Israel.* SJOT. 14/2, 2000.

- Littman, R. J.: *Athens, Persia and the Book of Ezra.* Transactions of the American Philological Association. Vol. 125, 1995.

- Manser, M. H.: Critical Companion to the bible. Facts on File Pub. New York. 2009.

- Marcus, D.: *Ezra.* In: Encyclopaedia Judaica. Vol. 2, 2nd ed. Keter Pub. New York 2007.

- Mayes, A. D. H.: *Historiography in the Old Testament.* In: The Biblical World, Vol. 1. Ed. J. Barton. Routledge, New York 2002.

- Moore, C. A.: *Esther, Book of,* in: The Anchor Bible Dictionary. Ed. D. N. Freedman, Doubleday New York 1992.

- Murray. O. & Stern, M.: *Hecataeus of Abdera and Theophrastus on Jews and Egyptians.* The Journal of Egyptian Archaeology. Vol. 59, 1973.

- Oswald, W.: *Foreign Marriages and Citizenship in Persian Period Judah.* Journal of Hebrew Scriptures. 12/6, 2012.

- Pritchard, J. B.: Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old

Testament. 3rd ed. Princeton University Press, New Jersey 1969.
- Rendsburg, G. A.: *Israel Without the Bible.* In: The Hebrew Bible: new insights and scholarship. Ed. F. E. Greenspahn, New York University Press 2008.
- right, G. E.: biblical Archaeology. The Westminster Press, Philadelphia 1960.
- Ro, J. U.: *The Theological Concept of YHWH's Punitive Justice in the Hebrew Bible; Historical Development in the Context of the Judean Community in the Persian Period.* Vetus Testamentum 61/3, 2011.
- Schaper, J.: *The Temple Treasury Committee in the Times of Nehemiah and Ezra.* Vetus Testamentum. 47/2, 1997.
- Silberman, N. A.: Digging for God and Country. New York. Alfred A. Knopf. 1982.
- Smith, E. B.: *Bible, Archaeology, and the Social Sciences.* In: The Hebrew Bible: new insights and scholarship. Ed. F. E. Greenspahn. New York University Press, New York 2008.
- Smith, G. A.: The Historical Geography of the holy Land. 7th ed. Armstrong and son, New York 1901.
- Stern, E.: *The Persian Empire and the Political and Social History of Palestine in the Persian Period.* In: The Cambridge History of Judaism, Vol. 1. Ed. W. D. Davies & L. Finkelstein. Cambridge University Press, New York 1984.
- Thompson, H. O.: *YAHWEH,* in: The Anchor Bible Dictionary. Ed. D. N. Freedman, Doubleday New York 1992.
- Thompson, T. L.: *An Introduction; Can a History of Ancient Jerusalem and Palestine be written?.* In: Jerusalem in Ancient History and Tradition. Ed. T. L. Thompson. JSOTSup. 381. T & T Clark International, London. 2003.
- Thompson, T. L.: *Lester Grabbe and Historiography; An Apologia.* SJOT. 14/1, 2000.
- Thompson, T. L.: *The Role of faith in Historical Research.* SJOT. 19/1, 2005.
- Toorn, K. V.: *Yahweh.* In: Dictionary of Deities and Demons in the Bible. Ed. K. Van Der Toorn, B. Becking & P. W. Der Horst. 2nd ed. Brill, Leiden 1999.
- Williamson, E. G. M.: Ezra and Nehemiah. Sheffield Academic Press, Sheffield 1996.

عروض الكتب

أ. د. محمد عفيفى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة القاهرة

الأعداء على الأبواب: الصراع بين العثمانيين والهابسبورج للسيطرة على أوربا، تأليف أندرو ويتكروفت، ترجمة عزت زيان، مراجعة عاطف معتمد.

صدرت ترجمة هذا الكتاب الهام ضمن أعمال مشروع جامعة القاهرة للترجمة، والذى يقوم بتنفيذه مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة. وخرج الكتاب فى أكثر من أربعمائة صفحة تتضمن متن الكتاب وملحق فى غاية الأهمية لمجموعة من الصور واللوحات الهامة التى تعبر عن طبيعة هذا الصراع العسكرى والثقافى.

وتأتى أهمية الكتاب ليس فقط موضوع الكتاب، ولكن طريقة المعالجة والتناول. إذ يعتبر الكتاب نموذجاً هاما لاتجاه جديد فى الدراسات التاريخية يهتم بدراسة النزاعات العسكرية من خلال منظور "الحرب والسلام" ومدى تأثير ذلك على المجتمع. وأصبح الآن هناك العديد من الدراسات فى هذا الاتجاه وكثير من المتخصصين فى هذا اللون.

ومن أجل تجاوز المدخل التقليدى لدراسة التاريخ الحربى والعبور إلى المدخل الجديد "الحرب والسلام والمجتمع" كان من المهم البحث عن مصادر تاريخية جديدة تساعد المؤرخ على المعالجة الجديدة، من هنا كان الاعتماد على المواد البصرية. لذلك أضاف المؤلف إلى كتابة ملحق الصور واللوحات التى

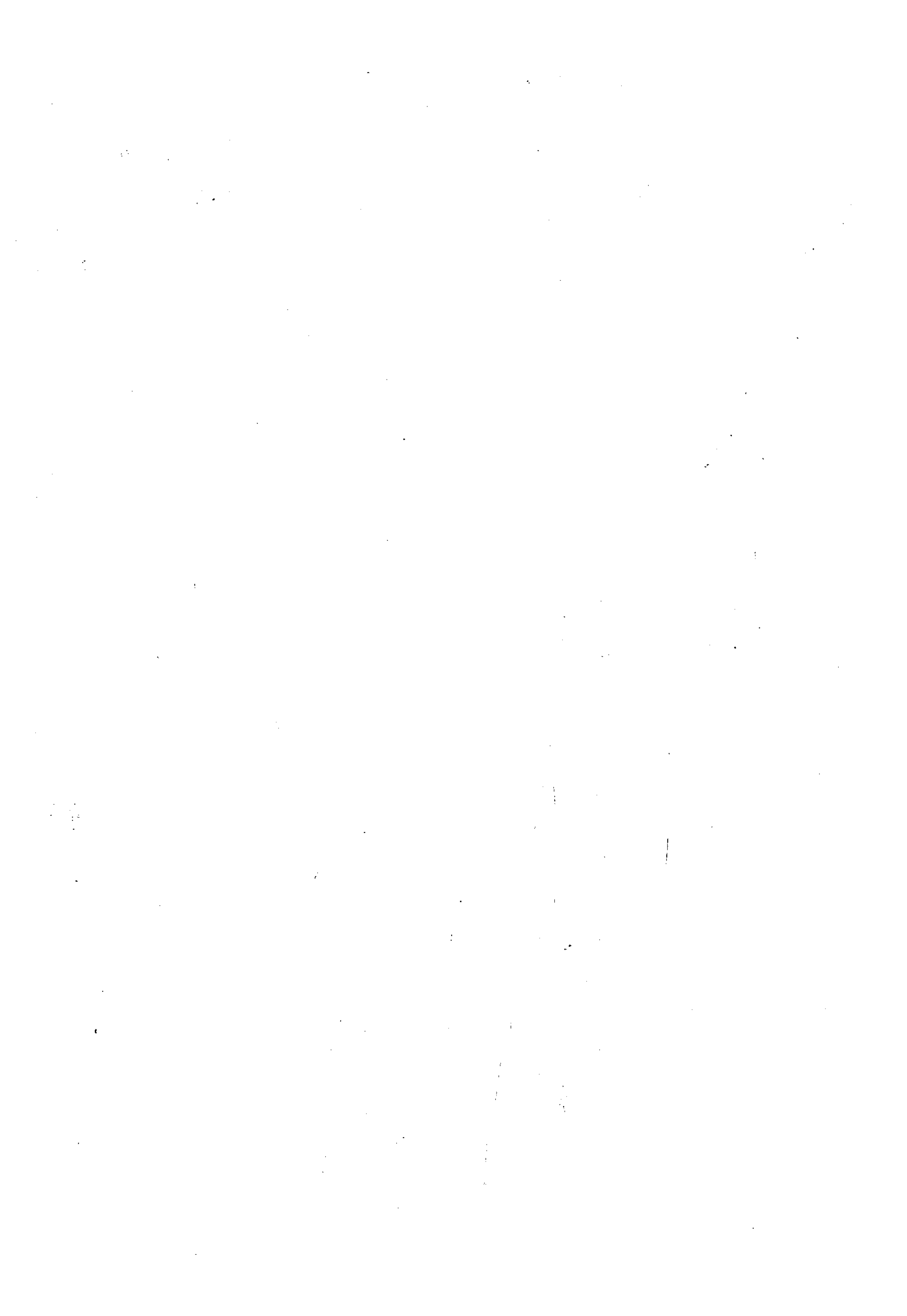
توضح كيف عبر المجتمع عن طبيعة الصراع، سواء فى ميدان المعركة أو حتى فى تصوير متغيرات الحياة اليومية. ويشير المؤلف إلى كيف دفعه التاريخ المصور إلى إنشاء اتحاد للباحثين فى هذا الشأن تحت مسمى "اتحاد بحوث الصور المطبوعة".

المدخل الثانى الذى قدمه مؤلفه فى الدراسة هو مدخل دراسة "التاريخ والتاريخ الأسطورى" أو ما عبر عنه قائلا " التاريخ الموجود بصورة آمنة فى المكتبات والسجلات"

النقطة الثالثة الجديدة والهامة فى الكتاب هو الاهتمام الخاص الذى وجهه المؤلف لدراسة العلاقة بين الماضى والحاضر، واستدعاء الماضى لأغراض سياسية جزئية. حيث أوضح كيف تم استغلال تاريخ الصراع العثمانى النمساوى الآن فى عملية رفض دخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبى. إذ أعلن مسئول سابق فى الاتحاد الأوروبى معلقا على رغبة تركيا فى الدخول إلى الاتحاد الأوروبى قائلا فى هذه الحالة فإن "تحرير فيينا فى ١٦٨٣ سيضيع سدى مما يوضح كيف يمكن تكوين ذكريات زائفة لاستخدامها فأسلحة عملية محفوفة بالمخاطر، ولا يمكن أحد أن يتنبأ كيف سيؤدى توظيف التاريخ إلى نتائج محفوفة بالمخاطر.

هذا كتاب هام ليس فقط من حيث كم المعلومات الواردة فيه، ولكن لطبيعة المداخل الجديدة للدراسة، والتى أضافت طابع الجدية إلى الكتاب وجعلته مختلفا عن العديد من الكتب التقليدية التى صدرت حول نفس الموضوع.

ويبقى الشكر لفريق الترجمة على اختيار هذا الكتاب الهام والجديد، فضلا عن دقة الترجمة وسلاسته، مع صعوبة الموضوع الملئ بالمصطلحات والأسماء التاريخية.







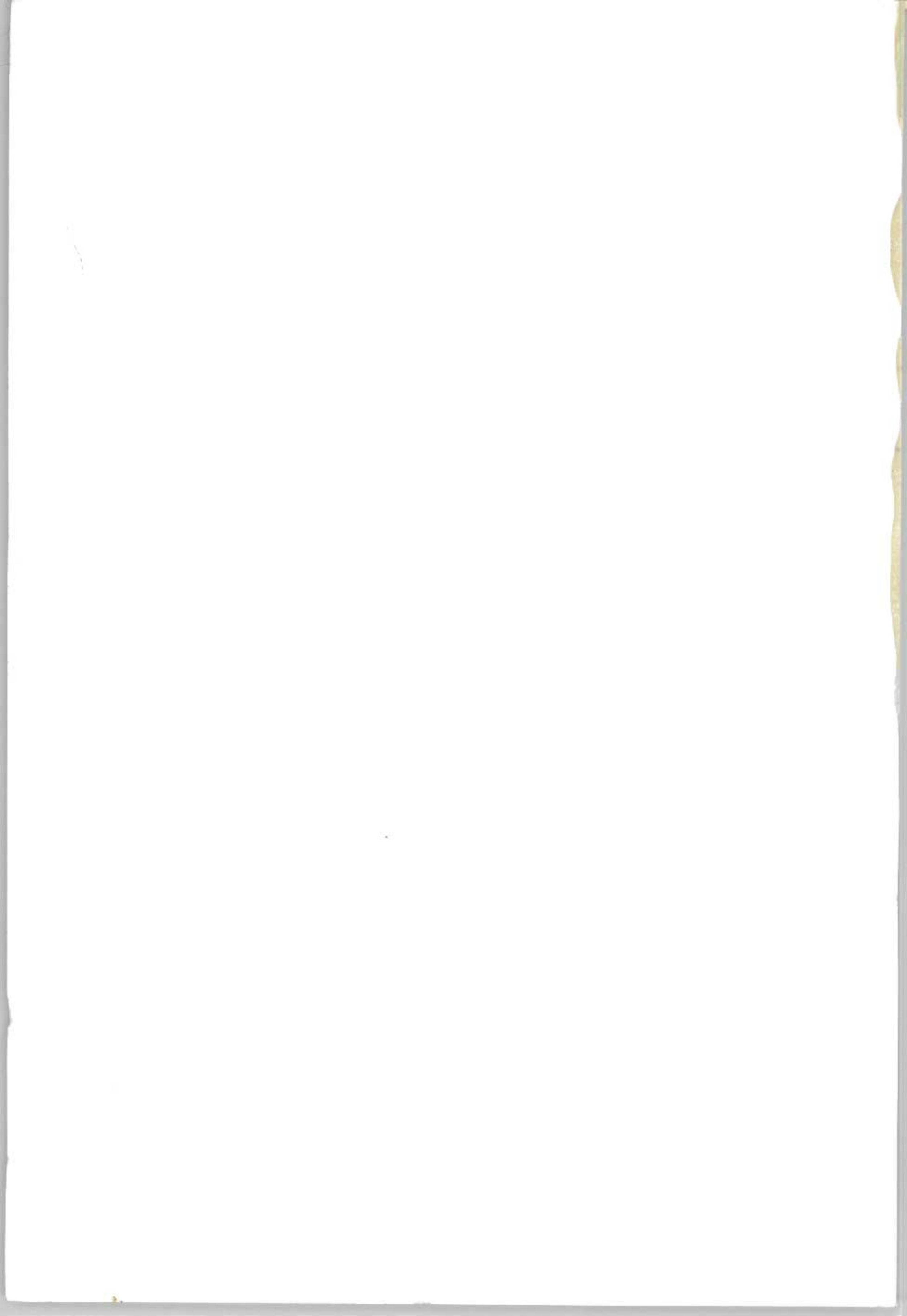
Egyptian Historian

Studies and Research in the History of Civilization (Scientific journal semi-annual)

Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

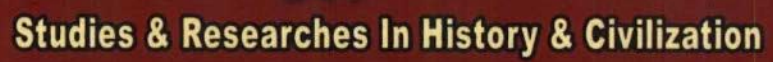
Forty one -number

July 2012





Journal Egyptian Historian





(Scientific journal semi-annual)



Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

Forty One - number July 2012